

ثَلَاثَةٌ وَجُوهٌ لِلشَّوْرَةِ غَيْثَارَا • لوكاش • أوروِيل

♦ ترجمتہ: ماکمل الکئیالی ♦

WWW.LILAS.COM/vb3/



ا.سنکلیر - ج.مخٹہ ایم.و. ویلیامز

صدر في سلسلة أعلام الفكر العالمي

غيفارا : الطبعة السادسة / تأليف اندرو سنكلير

Guevara : By Andrew Sinclair

اورويل : الطبعة الثانية / تأليف ريموند ويليامز

Orewell : By Raymond Williams

لو كاش : الطبعة الثانية / تأليف جورج لختهايم

Lucas : By George Lichtheim

ثلاثة وجوه للثورة

ترجمة : ماهر الكيالي

مراجعة وتدقيق : سعدي يوسف وحيدر المومني

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب

الطبعة الأولى : بيروت ١٩٩٤

الاسكتشات الداخلية مهداة من

الفنان شاكر حسن آل سعيد

إلى الناشر ماهر الكيالي في مطلع العام ١٩٩٤

وهي تحمل العناوين : سمكة العلامات ص ٦

يوم زكريا ص ١٠٢

النخلة وشجرة الطيور والورود ص ١٩٦



المؤسسة العربية لدراسة الثورة العربية
مركز البحوث، ص ١٠١-١٠٢
الدراسات المنشورة، بيروت، ص ٨/١٩٩٠
والناشر مكي، LE/DIRKAY، ١.٣٧
فنان، زهير شايب

ثَلَاثَةٌ وَجُوهٌ لِلشَّوْرَةِ غَيْثَارًا • لوكاش • أوروِيل

♦ تجمّة: مامر الكيالي ♦

أ. سنكلير - ج. بخنهایم - ر. ویلیامز

تصدير :

بقلم الدكتور أسعد رزوق

ولد جورج لوكاش عام ١٨٨٥ في مدينة بودابست، ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٠٩. ثم قام برحلات زار خلالها المانيا وايطاليا. وبعد أن أمضى فترة دراسية طويلة في برلين انتقل من هناك الى هايدلبرغ عام ١٩١٣، حيث تردد على حلقات عالم الاجتماع الالمانى ماكس فيبر وأقام صداقات مع مفكرين من طراز باول ارنست والفيلسوف الماركسي ارنست بلوخ. انضم لوكاش الى الحزب الشيوعي الهنغاري عام ١٩١٨، وشغل منصب مفوض الشعب لشؤون الثقافة في الحكومة الثورية التي يرأسها بيللاً كون عام ١٩١٩. وبعد إطاحة هذه الحكومة هاجر الى مدينة فيينا. فقام من هناك بزيارات غير مشروعة الى هنغاريا، وأسهم بالعمل في معهد ماركس - انجلز - لينين بموسكو، ثم انتقل الى الإقامة في برلين لفترة طويلة. ومن خلال الفترة الممتدة من ١٩٣٣ الى ١٩٤٤ اشتغل لوكاش في أكاديمية العلوم بموسكو. ولدى عودته الى هنغاريا أصبح عضواً في البرلمان وفي المجلس الرئاسي لأكاديمية العلوم المجرية، مثلما انه نال كرسي الاستاذية لعلم الجمال وفلسفة الحضارة في جامعة بودابست.

اشترك في ثورة المجر عام ١٩٥٦ وشغل منصب وزير الثقافة في حكومة ايمري ناجي. واثراً انهيار نظام الحكم الجديد تم ترحيله الى رومانيا، لكنه استطاع بعد زمن قصير العودة الى مسقط رأسه في بودابست، حيث كرّس نفسه منذ ذلك الحين لاعماله العلمية ولقد توفي لوكاش في صيف العام ١٩٧١.

بقي طيلة حياته ماركسياً، رغم محاولاته المتكررة لكسر طوق الارثوذكسية الماركسية التي دافعت عنها موسكو. مثلما انه ظل في كتاباته حول نظرية الأدب ذلك المفكر الذي استلهم ماركس وهيغل.

ومما لا ريب فيه ان حياته وأعماله كانتا على ارتباط وثيق العرى. حتى ان الفترة الممتدة من ١٩٠٢ الى ١٩١٧ كانت مكرسة كلياً للأدب والجماليات، بينما امتد انخراطه في النضال السياسي واهتمامه بالموضوعات السياسية من ١٩١٨ الى ١٩٢٥. واستأثرت النشاطات التنظيمية بوقته كله من ١٩٢٩ الى ١٩٣١. لكنه عاد الى الموضوعات الادبية والجمالية عام ١٩٣١، دون ان يفقد اهتمامه بالسياسة وعلم الاجتماع.

والكتاب الذي بين يدي القارئ العربي يتناول جورج لوكاش من خلال مؤلفاته التي جمعتها احدى دور النشر الالمانية الغربية في اثني عشر مجلداً، على ان المكتبة العربية ما زالت تفتقر الى كتاب يعرف القارئ بأفكار جورج لوكاش ومواقفه الماركسية. هناك ترجمة عربية لكتاب هنري ارفون عن لوكاش (ترجمة د. عادل العوا، دمشق ١٩٧٠) بالاضافة الى ترجمة لكتابين من كتب لوكاش : «ماركسية ام وجودية؟» ترجمة جورج طرابيشي في منشورات دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق) و «دراسات في الواقعية الأوروبية» (ترجمة أمير اسكندر، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٢)، وكذلك فإن المقالات التي اصدرتها دار الطليعة بعنوان «في التنظيم الثوري» تضم مقالة لوكاش التي عنوانها «غالبه الاشتراكي». عسى أن يكون هذا الكتيب عن حياة لوكاش وأعماله فاتحة لدراسة مؤلفات المفكر الماركسي الذي لم يبارحه الامل حتى أواخر أيامه في حدوث «نهضة للماركسية» واهياء للأفكار الني نادى بها صاحب كتاب «التاريخ والوعي الطبقي : دراسات في الجدليات الماركسية» (١٩٢٣).

ولا بدّ من تنبيه القارئ الى تجذّر لوكاش في التقليد الفلسفي الالمانى بنوع خاص وفي التربية الفكرية الالمانية عموماً. وهذا ما يبينه الكثير من كتاباته ومؤلفاته التي يتناولها هذا الكتاب بالشرح والتحليل النقدي.

اما بالنسبة الى جورج اورويل فترجع معرفة القارئ العربي -
والطالب الجامعي بنوع خاص - ببعض آثار موضوع هذه الدراسة
الى ثلاثة عقود تقريباً. فقد صدرت رواية اورويل التي ذاعت شهرتها
في الغرب - وعنوانها «١٩٨٤» - عام ١٩٤٩، بينما توفي مؤلفها في
٢٣ كانون الثاني ١٩٥٠. وراحت اجهزة الدعاية الغربية تسلط
الاضواء على الموضوع الذي تناولته الرواية بكثير من المرارة والحدة
والسخرية اللاذعة، بعد أن كانت رواية «مزرعة الحيوانات» قد سبقت
الى معالجة الموضوع اياه، وصدرت في العام ١٩٤٤ في ذروة الحرب
الباردة - وربما اسهم اورويل من حيث يدري او لا يدري في بلورة
مفهوم هذه الحرب واستخراج مصطلحها. وكانت المعاهد الاجنبية
للتعليم العالي في بلادنا تقوم بتدريس درواية «١٩٨٤» في محاولة
بارعة جداً لتلقين الطلاب بعض الافكار المسبقة والمتحيزة عن المعسكر
الذي اعتبرته بأنه يؤلف الموضوع الرئيسي لكتابات اورويل.

ولا بد لنا في هذه العجالة من التنبيه الى ان جورج اورويل الذي
حارب الى جانب الجمهوريين وقوى التقدم في الحرب الاهلية
الاسبانية، لا يقصد حصر الادانة بالممارسات المنسوبة الى الشيوعية
وحدها - والى الممارسة الستالينية بشكل خاص - بل يضع
الرأسمالية والفاشية والرجعية في مصاف واحد. نعم، لقد اصيب
اورويل اثناء مشاركته في الحرب الاهلية الاسبانية بخيبة امل مريرة
من جراء التصرفات الشيوعية ضد تلك المنظمة التي انخرط في سلك
المليشيا التابعة لها - وهي الحزب العمالي للاتحاد الماركسي
POUM ، لكنه لم يتخل عن اشتراكه وعن يسارته، ولم يتراجع
عن ادانته الشديدة للفاشية والرأسمالية والمواقف الرجعية.

ان جورج اورويل يدين اكاديب المدنية الحديثة وأفات السياسة
والصناعة في العصر الحديث. ويتركز اهتمامه الرئيسي في نهاية
المطاف على العلاقات الانسانية.

ويأبى موقف جورج اورويل احداث اي فصل بين المسؤولية السياسية والاخلاقية من جهة وبين الاستقامة الفكرية من جهة ثانية. وتبقى اهمية اورويل ان اهتمامه الرئيسي لا ينصب على السياسة او على الشخصيات بقدر ما يتركز على اللغة في حد ذاتها. فقد كتب يقول في افضل مؤلفاته التي تعتبر بمثابة محاولة لاعادة المعنى الى الكلمات والبرهان على ان النثر الجيد هو مثل زجاج النافذة في صفائه وشفافيته :

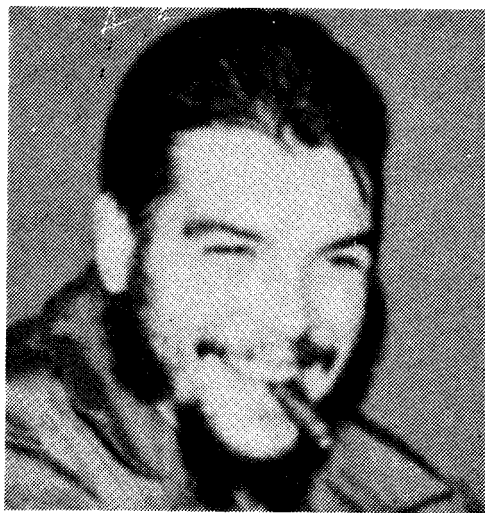
«يجب على المرء ان يدرك بأن الفوضى السياسية الحاضرة تتعلق بفساد اللغة، وانه من المحتمل أن يستطيع المرء احداث بعض التحسينات بواسطة البديء عند طرف الفعل اللغوي».

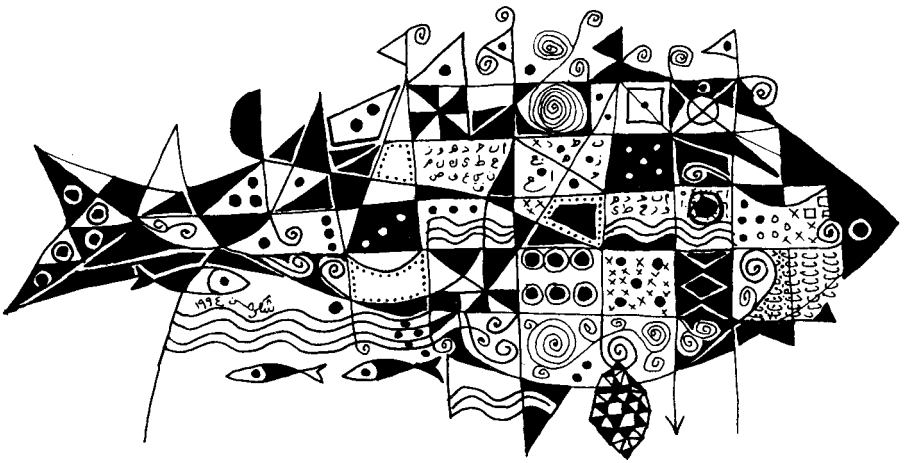
صدر هذا الكتاب عن جورج اورويل في طبعته العربية الاولى في غمرة الاحداث الدامية التي عاشها لبنان. وفي «مزرعة الحيوانات» كانت الوصايا السبع في الجمهورية الحيوانية تبدأ بالقول : «كل من يمشي على رجلين هو عدو» لكي تنص الوصية السابعة على ان «جميع الحيوانات متساوية». لكن الامر انتهى اخيراً الى رفع شعار واحد ينطوي على كثير من العبر ويتضمن المغزى الاهم، تقرأه في الوصية التالية : «كل الحيوانات متساوية، لكن بعض الحيوانات اكثر مساواة من البعض الآخر».

د. اسعد رزوق

خيارا

تأليف : اندرو سنكلير





سمكة العلامات

الفصل الأول

خلفية ثائر

«ولدت في الأرجنتين، وقاتلت في كوبا، وبدأت حياتي ثائراً في غواتيمالا». هكذا أوجز تشي غيفارا سيرة حياته. وهي أيضاً سيرة قارة وقعت في تناقض بين حكومات رجعية وثورات طوباوية. كان غيفارا أول رجل منذ أيام بوليفار(*) يحمل خطة جديدة لتوحيد مجموعة بلدان مقتتلة تدعى أميركا اللاتينية، وقد شهد في حياته من التطورات ما يثبت صحة نظرياته ونقيضها في آن.

قاوم غيفارا المولود عام ١٩٢٨ بشدة، تاريخه الماضي، بوصفه سلباً لعائلة إسبانية إيرلندية كانت لها امتيازاتها ومكانتها. ومع ذلك، فبالرغم مما يبدو على العائلة التي عاشت في المدينة الصغيرة ألتا غراسيا (Alta Gracia) من تمسك ظاهري بالعادات والتقاليد فقد تميزت العائلة في الحقيقة بالتقدمية والنشاط والانفتاح الذهني. لم يثر آرنستو غيفارا الذي تكنى فيما بعد «تشي» على الحرية الفكرية في منزله بل ثار على الاضطهاد الذي تتعرض له قارته. وكما يشهد ريكاردو روخو، وهو صديق للعائلة، فقد كانت ثمة أشياء معينة مسلم بها في أسرة غيفارا - «حب للعدالة، ورفض للفاشية، ولا مبالاة دينية، واهتمام بالأدب وحب للموسيقى وكراهية للمال ووسائل جمعه». لقد أدت هذه الظروف العائلية بصورة طبيعية إلى شعور التمرد مما دفع تشي إلى أن يصبح ثائراً حالماً يستطيع فهم المشكلات الاجتماعية لأمريكا الجنوبية.

تصرف «تشي» كشاب عندما كان طفلاً، وتصرف كرجل عندما أصبح شاباً، ووصفه أحد رفاقه في الدراسة بأنه إنسان «واثق من نفسه إلى حد لا يصدق ومستقل في آرائه استقلالاً تاماً... ممتلئ

(*) القائد الإيطالي الشهير الذي حرّر بلاده.

شديد النشاط لا يعرف الكلال، فضلاً عن تحرره من التقاليد والأعراف». أما بالنسبة لأحد أساتذته فقد كان تشي «في مظهره وتصرفه إنساناً يفوق عمره كثيراً وبدا واضحاً أنه ينمو بشخصية واضحة المعالم ومزاج متقلب، وسلوك غير منضبط، ومع هذا فقد كان تام النضوج». وحين كان في المدرسة الثانوية كان أصدقائه من طلاب الجامعات يعدونه واحداً منهم مساوياً لهم. كانت واقعيته تظني على رغبتهم في الاحتجاج الرهومي. ففي إحدى المناسبات، عندما طلب منه النزول إلى الشارع في تظاهرة احتجاج سياسي، رفض وقال بعبارات رزينة «نخرج إلى الشوارع لنمكن رجال الشرطة من ضربنا بهراواتهم، دون أن نفعل شيئاً. أجل، أظاهر، ولكن عندما تكون في يدي بندقية». مثل هذا التقويم الصعب للوضع وهو لما يزل يافعا يجعل تأكيدات تشي الأخيرة جديرة بالتصديق، وهي أن شاباً في الخامسة عشرة من عمره يعرف سلفاً من أجل ماذا يريد أن يموت وهو لا يخشى أن يهب حياته إذا ما وجد هدفاً يجعل الفداء سهلاً.

كان «تشي» بطبعه ينظر إلى المصاعب على أنها تحديات، وإذن فلا بد من الانتصار على العقبات وتحطيم الحواجز. وطغت على شخصية «تشي» ميزة رافقته طوال حياته في كفاحه المبكر مع داء الربو، فقد أصبح رياضياً بالرغم من نوبات الربو الرهيبة التي كانت تجبره على ترك ملعب كرة القدم كي يتناول الدواء. أصبح جوالاً عنيداً ورحالة لم يتوقف، إلا عندما كان لا يقوى على التنفس، حتى إذا استرد أنفاسه تابع سيره وتجواله. ولقد أنهى دراسة ست سنوات دراسية في الجامعة خلال ٣ سنوات، مجتازاً ١٦ امتحاناً. في ٦ شهور، بالرغم من إصابته بـ ٤٥ نوبة ربو. وصفت عمته هذه الفترة بقولها: «كنا نسمعه يلفظ الكلمات لاهثاً، ويدرس وهو متمدد على الأرض كي يسهل تنفسه دون أن يتذمر أبداً. فقد كان الأمر بالنسبة إليه بمثابة التحدي». غير أن سخرية القدر العظمى حدثت عندما قرر مجلس أطباء الجيش أنه لا يصلح لأي نوع من الخدمة العسكرية وكان ذلك

عندما بلغ من العمر ١٨ سنة . وكان لابد من تأخير تدريبه العسكري فترة من الزمن .

كان لوفاة جدته بمرض السرطان ومكابدة والدته المرض نفسه أثر في توجهه نحو دراسة الطب . فقد أراد أن يحاول إيجاد علاج لهذا المرض ، إذ لم يكن ليقبل بوقوع مأساة حتى في عائلته . لم يقو على رؤية الأُم والموت دون أن يحاول النفاذ إلى جذور المرض كله . وعندما رأى في النهاية أن هذا الأُم والبؤس قابلان للشفاء ، حاول مرة أخرى أن ينفذ إلى الجذور المسببة لهذا كله . لم يكن في نفسه شيء من اليأس أو الاستسلام ، ولذا لم يستطع أن يتخذ موقفاً سلبياً من المعاناة المؤلمة ، فقد كان في طبيعته متحدياً حتى للمستحيل .

في عام ١٩٤٦ انتقلت عائلة غيفارا إلى بيونس إيريس حيث شرع «تشي» في دراسته الطبية . لم يكن طالباً منكباً على الدرس بل كان يفضل بذل جهد مضاعف في اللحظة الأخيرة ، إذ كان يقضي ما تبقى من وقته في السفر . ولاحظ البرتو غرانادوس وهو صديقه ورفيقه في سفره أن «تشي» لم يكن مهتماً بإحراز علامات جيدة وإنما اهتم بدراسة ما يعنيه فقط . وانصب اهتمامه بصورة رئيسية على تحسس مواطن الجمال في المناظر الريفية في أمريكا الجنوبية ، وعلى تحسس مآسي شعوبها . وبعد أن تجول في الأرجنتين على دراجة وقع عقداً للعمل كباحر في رحلة إلى البحر الكاريبي ، وبعدها انطلق «تشي» مع غرانادوس في رحلة يجوب فيها القارة بأكملها . لقد مارس كل منهما أعمالاً مختلفة ، من سائق شاحنة إلى حمال إلى طبيب ومنظف للصحون . وعمل «تشي» في وقت من الأوقات حارساً لشركة تعدين أمريكية في تشيلي . وكان أكثر الأعمال أثراً في نفسيهما عملهما في ملجأ للمصابين بالجذام في سان باولو على الأمازون ، فهناك اكتشف «تشي» أن أعلى أنواع التضامن الإنساني والإخلاص كانت تنمو لدى الرجال المنعزلين اليائسين . وأنهى تشي زيارته لميامي وقد أوشك أن يموت جوعاً ، ولكنه عاد بطريقة ما إلى بيونس إيريس كي يكمل دراسته

وينال شهادته الطبية.

كانت هذه الرحلة الشاملة التي أمضاها، وخبره كفافه، الدليل بل القاعدة التي بنى عليها تشي شعوره بأنه يعرف الأمريكيين ومشكلاتهم، فقد قال فيما بعد انه لم يشعر قط بأنه غريب في أي مكان. «شعرت بأنني غواتيمالي في غواتيمالا، ومكسيكي في المكسيك، وبيروني في بيرو». وفي غضون ذلك بدأ مفعول الرحلة يحوله من طبيب إلى ثوري متطرف. وفي حديث له عام ١٩٦٠ تذكر أوائل هذا التحول فقال: «بسبب الظروف التي أحاطت برحلتني أصبحت على صلة وثيقة بالفقر والجوع والمرض. واكتشفت أنه ليس بوسعي أن أشفي الأطفال المرضى إذا لم تتوافر لدي الوسائل، وشاهدت الانحطاط في سوء التغذية والكبت المستمر. وهكذا ابتدأت أدرك أن هناك شيئاً آخر له من الأهمية ما يوازي أهمية أن يصبح المرء باحثاً شهيراً أو مساهماً في تقديم العلوم الطبية، عنيت به مساعدة هؤلاء الناس».

وكان لظروف السفر القاسية أثر آخر، فقد أثبتت له أنه يستطيع معاناة الشدة والحرمان - وأن العيش على حافة البقاء ضرورة لأي مقاتل في حرب العصابات. وقد لاحظ أصدقاؤه أنه يستطيع العيش في أكثر الأماكن دون أن يفقد روح الدعابة. وكان يتساهل مع صديق السفر إن هو أهمل أمر ملابسه ونقوده، أما بالنسبة لمشي المسافات الطويلة فهذا ما لم يكن يتسامح به. وكان من العزيمة بحيث يستمر في السير مدة ثلاثة أيام دون أن يذوق طعاماً. ثم أن يعيش فقيراً بين الفقراء جعل تشي يحس بنقمتهم على مستقبلهم، وبانتشار روح الأخوة بينهم، فضلاً عن تعلمه الانضباط الذاتي الذي يحتاج إليه كي يصبح قائدهم.

وبعد مضي شهرين من تخرجه طبيباً في عام ١٩٥٣ - وكان موضوع أطروحته حول الحساسيات الجسدية - ألقى «تشي» مهنته جانبا، بالرغم من معارضة أبيه لذلك. وترك الأرجنتين قاصداً بوليفيا التي

كانت شهدت أول حكومة إصلاحية فعالة في تاريخها. فقد قام النظام الجديد بتأميم مناجم القصدير التي ربما كانت أكبر المناجم وأسوأها إدارة في العالم، وكذلك وزع الأراضي البور بين الهنود الذين لم يملكوا حتى حق المطالبة بها منذ الغزو الإسباني في القرن السادس عشر. ولم يكن تشي ماركسياً ولا ثورياً بعد، وبشهادة صديقه روخو كان جل اهتمامه منصباً على الطب وعلم الآثار وليس على علم السياسة. ومع ذلك فإن احتكاكه الأول والمباشر ببرنامج واسع للتغيير الاجتماعي، كان بعد ذلك، صرف «تشي» إلى أفكار تقدمية ثورية. لقد كانت بوليفيا، وهنا تكمن المفارقة، البلد الذي أهتم تشي في مهمته السياسية وهي التي قتله في الوقت نفسه.

كان تشي على علم مسبق بأنه من المحتمل أن يكون قد حكم على الثورة البوليفية التي حدثت عام ١٩٥٣ بالإخفاق الجزئي. وبالاشتراك مع صديقه روخو قابل وزير شؤون الفلاحين، فخاب أملها فيه وحدث فيما بعد أن وقف تشي مرة في الشارع أمام تمثال لبوليفار. وقال: «إن المسألة هي في محاربة الأسباب، وليس في الرضا عن التخلص من الآثار. إن الثورة محكوم عليها بالفشل إذا لم تعمل على كسر الانعزال الروحي للهنود. وإذا لم تنجح في النفاذ إلى أعماقهم، وتزلزل كياناتهم وتتغلغل في عظامهم، وتعيد لهم مكانتهم كبشر، فما الفائدة إذن؟».

وزار الصديقان أيضاً المناجم العظيمة في سيغلو (Siglo) وكذلك في كتافي (Catavi)، وادعى وزير المناجم خوان ليشين أن الثورة متأصلة في بوليفيا أكثر منها في الصين. ولكن «تشي» بقي غير مقتنع. وعندما رفعت الحكومة من أجور عمال المناجم التي أممها تشاءم «تشي» وأصبح سوداوي المزاج، فقد رأى أن احتياجات شعب متأهب للثورة يمكن أن تحرف من خلال إعطاء العمال الرشاوى بتغيير الأيدي المتحكمة في الأعمال، واعتبر ذلك من الأخطاء المميتة. ومما يدعو للأسى أن العمال خفضوا من الاحتياطي المادي والخلقي لثورة كانت

تحتاج إلى كل ذلك حتى النهاية. ولم يستطع أحد من رفاق «تشي» في بوليفيا تغيير تفكيره.

وترك «تشي» وروخو بوليفيا في شاحنة مع نفر من الهنود قاصدين بيرو. وكان وصف روخو لردود فعل الهنود نحوه ونحو «تشي» بمثابة نبوءة لردود الفعل التي ستواجه «تشي» كرجل عصابات في بوليفيا بعد ١٥ عاماً.

«لقد كانت رحلة لا مفر منها للتعرف على أميركا الهنود. دخلنا عالماً معادياً ووقعنا في شرك عدم التمييز بين الحزم وبين أناس هم أشباه حازمين.

وكان الهدوء مخيماً، رجّات ورضّات وهدوء. ووجدنا أنه من المستحيل أن نحاول إظهار تعاطفنا أمام تلك العيون المتحجرة التي تحمق فينا وأمام تلك الشفاه المطبقة الكالحة كالرذيلة والتي ترفض أن تجيب عن أسئلتنا. لم نستطع التفاهم بأية طريقة بشرية مع الهنود، ومع ذلك فإن الحراس على الحدود مع بيرو كانوا على قناعة تامة بأننا شحنا رؤوس أولئك الهنود بأفكار حول الثورة الزراعية».

وسافر «تشي» وروخو مع طلاب أرجنتينيين إلى مدينة غواياكويل (Guayaquil) الاستوائية، وهناك اتخذ «تشي» قراراً لم ينقضه في حياته أبداً. فقد أقسم على الالتحاق بصديقه غرانادوس في ملجأ سان بابلو للمجذومين. ولكنه احتاج إلى قليل من الحث، من التلامذة الأرجنتينيين، كي يواصل السفر معهم إلى غواتيمالا حيث كانت ثورة أخرى في طور التخمر والتي قد تقدم نموذجاً للتغيير في القارة. وكما قال روخو لم يكن تشي ماركسياً بعد، ولم يكن مهتماً أيضاً بالسياسة، ولكن صديقاً آخر لاحظ أن تشي بدأ يشعر بأنه مسؤول عن كل المظالم في العالم. لقد كان يتلمس طريقه نحو جذور كل مسببات البؤس الذي شاهده، والذي شارك فيه الفقراء أحياناً في أمريكا اللاتينية. ولكنه ظلّ جاهلاً بالفلسفة السياسية، فهي شاهد دليل الاستغلال ولكنها ليست طريقة تغيير النظام.

وفي غضون ذلك قام جوان بوش، الذي أصبح فيما بعد رئيساً إصلاحياً للجمهورية لوقت قصير بمقابلة «تشي»، ووجده «منهمكاً بشكل كبير بما شاهد. وبدا كأنه غير راضٍ عن الحلول التي افترضت حتى ذلك الوقت، وعندما كان يواجه بأسئلة محددة كان ينتقد كل الأحزاب، ولكنه لم يحدد موقفه الشخصي أبداً». ومع ذلك فقد كان بوش مقتنعاً من خلال الطريقة التي أجاب بها «تشي» عن الأسئلة بأنه لم يصبح شيوعياً بعد، وكان قلبه يسبق عقله، وكان إحساسه بالحرية لا يزال في صراع مع شعوره من احتمال قيام البيروقراطية بإدارة الدولة الاشتراكية. لقد كان بحاجة إلى رؤية قيام ثورة أخرى ودراسة الفكر الثوري من أجل إيجاد نظام للتغيير.

وكان جاكوب أربنز، الذي قاد الحكومة الثورية الجديدة بدعم من الضباط الشباب والمثقفين، قد أجرى أخطر إصلاح عرفته البلاد. وعندما وصل تشي في عام ١٩٥٣ كان أربنز يعيد توزيع مساحات واسعة من الأراضي على الهنود والفلاحين، وهي الأراضي التي صادرها من شركة الفواكه المتحدة. كان الخطر على الإصلاح يكمن في التحفز لهجوم معاكس تقوم به الشركات التي تمثل مصالح الولايات المتحدة، ذلك أن شركة الفواكه المتحدة كانت معتادة منذ وقت طويل على حكم ما يسمى «بجمهورية الموز» لصالح حملة الأسهم الأمريكيين. لم يكتفِ أربنز بلفت نظر «تشي» للقوة الاقتصادية لأمريكا الشمالية فحسب، بل عرفه أيضاً بخصائص نظامها السياسي عندما قال بعبارات ليست مادية «الرجل ليس معدة فحسب». وأعلن أربنز «في نهاية المطاف، نحن نؤمن بأنه - الإنسان - يتوق للكرامة». وبرز هذا الموقف كشيء أساسي في تفكير تشي فيما بعد، فقد طور تشي المفهوم الاشتراكي نفسه بحيث جعل ضمن محتواه أن الإنسان لم يكن ولن يكون مادياً في تطلعاته، لأن الاشتراكية الحقيقية نقيض للمادية.

وبقي تشي يكن إعجاباً لأربنز وبرنامجه طيلة حياته. علاوة على ذلك، لم يكن إعجاب تشي كافياً، بل رغب في العمل

لخدمة الثورة كطبيب في أدغال بيتن (Peten)، لكن رغبته لم تلق نجاحاً بسبب بعض الاعتبارات البيروقراطية. فقد حدث أن زار وزير الصحة العامة، وبدا له آنذاك وكأنه قد ووفق عليه، إلى أن سئل عن بطاقته. «أية بطاقة؟» سأل غيفارا، فأخبره الوزير بأن عليه أن يكون عضواً في حزب العمل الغواتيمالي، وهو اسم آخر للحزب الشيوعي المحلي. ورد «تشي» بأنه يعتبر نفسه ثورياً وهو لا يعتقد بأن انتسابات من هذا النوع تعني شيئاً على أية حال، إذ إنه لم يكن ليرضى بالالتحاق بالحزب عن طريق الإكراه، بل بشعور من القناعة التامة. وهكذا لم يستطع الحصول على الوظيفة.

كان سقوط نظام حكم أربنز عام ١٩٥٤ بمثابة أول اختبار يواجهه تشي في التكتيكات العملية للثورة والثورة المضادة. وكان الرد الانتقامي لحكومة إيزنهاور على إيقاف مصانع شركة الفواكه المتحدة أن سمحت لوكالة المخابرات المركزية (CIA) بالبدا في تنظيم وتمويل انقلاب عسكري في غواتيمالا. وعملت ثلاثة عوامل في صالح وكالة المخابرات المركزية (CIA) أولها أن ضباط الجيش الغواتيمالي المناصرين لأربنز خاب أملهم بالنظر إلى بطء خطى الثورة التي لم يكن لديها الوقت الكافي آنذاك لنيل الدعم والثقة من جماهير الهنود في غواتيمالا. وكان انقسام النظام نفسه بسبب المطامع الشخصية والخلافات الأيديولوجية عاملاً ثانياً لصالح المخابرات المركزية، أما العامل الثالث فهو ذعر الطبقات الوسطى من تحدي الحكومة العلني للولايات المتحدة.

وفي نهاية يناير عام ١٩٥٤ كان أربنز يتهم إدارة إيزنهاور بتنظيم غزو لغواتيمالا يعده المبعدون. غير أن هذه التهمة لم توحد البلد ليسير ورائه، بل أظهرت الانقسامات داخل حزبه الخاص وأشاعت الرعب بين الغواتيماليين.

وفي الثامن عشر من حزيران تعرضت غواتيمالا لغزو قامت به قوات كاستيلو أرماس المدربة بواسطة وكالة المخابرات المركزية

والمجهزة تجهيزاً جيداً. ورفض الجيش الغواتيمالي تسليح الشعب خوفاً منه.

وحفز هذا الانهيار روح النضال لدى تشي، فالتحق لأول مرة بالمقاومة، وتنقل بين مجموعات صغيرة من الشباب الثوريين، محاولاً أن يوحدهم ويستولي على مدينة غواتيمالا. كان لدى تشي استراتيجية وخطة للدفاع، ولكنه لم يستطع إيجاد مجموعة تتبناها. لقد بذل جهوداً كبيرة في تشجيع الغواتيماليين وحثهم على القتال من أجل ثورتهم حتى أنه نقل السلاح بنفسه من مكان إلى آخر. ولكن لم يكن بوسعهم أن يفعل وحده ما لا ترغب الحكومة في القيام به. وعندما استقال أربنز مبدئياً ضعفاً ذاتياً، وحل أرماس مكانه، اضطر تشي إلى أن يطلب حق اللجوء السياسي من السفارة الأرجنتينية، وذلك خشية المجموعات اليمينية التي كانت تلاحقه مزعومة قتله. وبقي هناك كالسجين مدة عامين تقريباً حُلَّ فيها أسباب فشل الثورة.

وكتب ريجي دوبريه فيما بعد: «الفشل بالنسبة للثوري هو نقطة الانطلاق، وهو مصدر إلهام له أكثر من الانتصار لأنه يجمع بين التجربة والمعرفة». ولربما كانت محاولات «تشي» على أرض المعركة غير مجدية ولكنه حاول أن يفعل شيئاً ما. اعترف «تشي» نفسه بأنه لقي الهزيمة في تلك الفترة، ومع ذلك فقد انصهر في آلامه مع جميع الغواتيماليين، بينما كان يتلمس طريقه لبعث مستقبل تلك المنطقة التي تدمي القلوب. وكذلك فإن السقوط قد قاد «تشي» للنهوض مرة ثانية وبشكل أقوى من السابق، لأن الهزيمة لم تعن له إلا مزيداً من الاستعداد للنصر في المرة التالية. وفوق كل ذلك كانت تعني إيماناً أكبر بتلك الجماهير التي لم يثق بها أربنز إلى حد تسليحها ودمجها في البنيان السياسي للبلد.

ولئن كانت وكالة المخابرات المركزية قد حققت نصراً مؤقتاً للمصالح المالية الأميركية في غواتيمالا، فإنها في الوقت نفسه أوجدت لها عدواً لدوداً. فالهزيمة المنكرة التي لحقت بأحد البلدان الاشتراكية،

والتي دبرها المتآمرون الرأسماليون قد دفعت «تشي» إلى دراسة ماركس ولينين.

ووجد «تشي» أن كل البغض الشخصي الذي كان يكرهه لأعداء أربنر ممن أفسدوا الحكومة والإصلاح الزراعي قد بدا متمثلاً في شروحات تاريخ العالم الماضي والحاضر الموجود في التفسيرات الماركسية لأساليب الامبريالية. فقد تعرض بلد صغير يعاني الاستغلال، تفوده حكومة تحاول تحسين أحوال الناس، إلى هجوم متعمد من قوة رأسمالية غنية تحقق أرباحها عن طريق استغلال هذا البلد الفقير. إن هذا مثال لأسوأ أشكال الامبريالية في التطبيق. وبذلك أصبحت الولايات المتحدة بالنسبة لغيفارا، وغداً يتمثله في تجربته وأيديولوجيته الجديدتين. وكتبت هيلدا جاديا زوجة تشي الأولى تقول: «كانت غواتيمالا البلد الذي دفع تشي للاقتناع نهائياً بضرورة خوض الكفاح المسلح وأخذ زمام المبادرة ضد الامبريالية. وقد كان على يقين من صحة ذلك عندما كان يهم بترك ذلك البلد».

غادر «تشي» غواتيمالا إلى المكسيك لدراسة نظريات الثورة. وفي مدينة المكسيك، حيث عاش عيشة الكفاف، كما يعيش العصفور في الشتاء، أقبل على قراءة الأعمال الكاملة لماركس ولينين ومجموعة أعمال أخرى لعظماء المفكرين الماركسيين. ثم انكبّ على دراسة ما كتب عن الاستراتيجية العسكرية في الحرب الأهلية في إسبانيا. فقد لجأ العديد من اللاجئين الفارين من الحرب إلى مدينة المكسيك التي تستقبل المهزومين في المعارك الأجنبية بالترحيب ولكنها تشح عليهم بالطعام. وتحت وطأة الجوع والدراسة والتجربة، أصبح «تشي» راديكالياً ملتزماً. لم يفاجأ «تشي» بالتقدم البطيء في الإصلاح الاجتماعي الذي كان يجري في المكسيك، لأنه كان إصلاحاً مترهلاً بالرغم من مرور عهود طويلة من الحكم الثوري. وأعلن أن «الثورة المكسيكية ميتة، لقد ماتت منذ زمن طويل وقد غاب عنها إدراك ذلك».

مهدت هذه الراديكالية الجديدة المتطرفة التي اعتنقها «تشي» للقائه

مع فيدل كاسترو في صيف عام ١٩٥٥. كان كاسترو قد سجن ثم نفي من كوبا لتزعمه انقلاباً فاشلاً ضد الدكتاتور فولجنسيو باتيستا (Fulgencio Batista)، وكان كاسترو يبحث عن جماعة من الثوريين المتفرغين كي يقوم بمحاولة أخرى لغزو بلاده والإطاحة بباتيستا. والتحق «تشي» بالحملة الكوبية في أول ليلة التقى فيها فيدل كاسترو. كان «تشي» ثاني رجل يلتحق بالحملة، أما الأول فكان راوول شقيق فيدل. وكتب تشي فيما بعد: «إن اقتناعي بالالتحاق بأي ثورة ضد الطغيان لا يستغرق من الوقت إلا القليل». وكان زواجه الأول ثمن ذلك القرار. وقالت زوجته «لقد ضحيت بزوجي من أجل الثورة الكوبية».

وعندما أُبْنِ كاسترو تشي أشار إلى أول لقاء بينهما، ذلك اللقاء الذي مهد للنتائج النهائية التي حصدها معاً فيما بعد. ذلك أنه في عام ١٩٥٥ كان كلا الرجلين في طور الرومانسية ولم تنضجها الثورة بعد، ولم يكونا من أصحاب السلطة أو الخبرة، ثم كتب فيدل عن «تشي» يقول:

«كان قلبه يغلي بالحقد على الامبريالية والاشمئزاز منها، لا لأن إدراكه السياسي قد تطور إلى حد بعيد فحسب، بل لأنه أتيح له قبل ذلك بوقت قصير أن يشاهد جرائم التدخل الامبريالية في غواتيمالا من خلال المرتزقة الذين أجهضوا الثورة في ذلك البلد. إن رجلاً مثل «تشي» كان في غنى عن براهين مدروسة. كان يكفيه أن يعلم أن هناك رجالاً مصممين على النضال ضد ذلك الواقع وحمل السلاح بأيديهم. كان يكفيه أن يعلم أن أولئك الرجال تلهمهم المثل الوطنية الثورية الأصيلة، وهذا وحده يكفيه».

تلك كانت خلفية رجل ثوري، رجل يتحدر من عائلة كانت تشعر بأنها منقطعة عن باقي العائلات التي تنعم بالامتيازات، لأنها كانت واعية للمظالم الاجتماعية، رجل كان يتحلى بطباع فريدة تميزه بالذكاء والنضج والتمرد والعناد، فراح يجوب القارة التي تعاقب عليها من

الحكومات ما لم يجلب لها سوى الفقر المنتشر بين السكان. وصار ذلك الرجل طبيباً همه مداواة الملايين ممن لم يجدوا الدواء، من أمراض لم تكن سوى أعراض حقيقة ما كانوا يعانون، والسبب الكامن في ذلك كله كان الظلم الاجتماعي. ثم تأتي الخبرة الشخصية المكتسبة من ثلاث ثورات فاشلة - الثورة البوليفية التي قضى عليها الجيش، والثورة الغواتيمالية التي تحطمت أمام التدخل الامبريالي، ثم الثورة المكسيكية التي تعفنت من الداخل. إن هذه الخبرة حولت الطبيب الشاب، الراديكالي بطبعه، إلى ثوري رائع واع. لقد انتقل من الانتقام السلبي إلى المقاومة الإيجابية، ومن الملاحظة إلى التخطيط. وأصبح تعاطفه مع البشرية البائسة استراتيجية لإيجاد علاج لذلك البؤس: كان كل ما يحتاجه «تشي» ليصبح ثورياً كاملاً هو ولادة ثورة أخرى.

الفصل الثاني

الحرب الثورية الكويتية

كانت الحملة التي أعدها كاسترو لإحراق الهزيمة بباتيستا في كوبا على وشك الفشل الأكيد؛ فالرجال الاثنان والثمانون الذين كانوا على ظهر المركب (Gramma) لم يكونوا رجال حرب مدرّبين، وكذلك الأمر بالنسبة لتجهيزهم، الذي كان سيئاً بمقدار ما كانوا بحارة سيئين. لم يستطع واحد منهم أن يسيّر المركب بشكل سليم، كما عانى الجميع من دوّار البحر وتلاطم أمواجه، وما كادت تهبّ عليهم أولى العواصف حتى رموا في البحر كل ما يحملون من غذاء، ثم توجهت الحملة لتنزّل خطأ في مرفأ بليك (Belic) قرب سلسلة جبال سيرا مايسترا في جنوب شرقي كوبا. وكان فقدان الخبرة لدى فيدل و«تشي» وباقي المجموعة خلال الأسابيع الأولى من المغامرة الفدائية بمثابة دليل يرشد إلى ما ينبغي تجنبه، تماماً كما أصبح كتاب «تشي» «حرب العصابات» فيما بعد يخدم كدليل يرشد لما يتوجب عمله. ومع ذلك فإن الأخطاء التي يرتكبها رجال العصابات في بدء عملياتهم، غالباً ما تكون طريقهم للنجاح فيما بعد. وتؤكد جميع الاستراتيجيات التي تناول حرب العصابات، بما فيها استراتيجية «تشي»، خطورة الفترة الأولى؛ إذ يكفي أن تقع بضعة هفوات مصحوبة بشيء من سوء الطالع حتى تمحق المجموعة بأكملها عند البداية.

كان من المحتم أن تتحطم قوة فيدل كاسترو في المعركة الأولى في ألغريا دي بيو (Algeria de Pio) في الخامس من كانون الأول عام ١٩٥٦. فقد قادتهم سلسلة من الأخطاء الفادحة إلى النكبة! ويروي يونيفرسو سانشيز، وهو واحد من قلة نجت، سلسلة أخرى من الحوادث، مثل: كيف تقرحت قدماه بسبب حذائه الجديد وتعرض مكان استراحتهم في ألغريا دي بيو للهجوم، والسماح لدليلهم بأن

يتركهم ويشي بهم لقوات باتيستة القريية . ثم يروي قصة الطائرات العشر التي حلقت فوق رؤوس الثوار، دون أن يفكروا . ويروي بعد ذلك كيف كانوا يفتشون الأرض وأسلحتهم ملقاة هنا وهناك وقد نزعوا أحذيتهم من أرجلهم ، وفيما هم كذلك قامت قوات باتيستة وهي قوات محترفة أين منها أولئك المقاتلون الأغرار، بتطويقهم وإبادتهم حتى لم ينج من المجموعة الأصلية إلا نحو اثني عشر رجلاً .

وفي كتابه «ذكريات عن الحرب الثورية الكوبية» الذي اعتمد في كتابته على ملاحظاته التي دونها أثناء الحملة ، يتحدث «تشي» عن خبراته بقدر كبير من السخرية والتواضع والنقد الذاتي . فقد اكتشف أن أخطاء رجال العصابات الأولى «وخيمة ومؤلمة» . ويذكر كيف جرح نفسه في ألغريا دي بيو ، ويصف رد فعله غير المنسجم والأصول الحربية . كان بحق يظن أنه مات مع أن الجرح لم يكن خطيراً ولم يكن همه النجاة بجلده - كما يمليه الواجب على رجل العصابات - وإنما كان همه أن يموت بشرف :

«بدأت أتساءل في الحال ، ماذا عسى أن تكون أفضل طريقة للموت؟ لكن يبدو أن الجواب حينذاك قد ضاع . ثم تذكرت قصة قديمة لجاك لندن: فبعد أن يعرف البطل أنه محكوم عليه أن يتجمد حتى الموت في أصقاع ألاسكا، ينحني على شجرة، ويقرر أن ينهي حياته بشرف . تلك كانت الصورة الوحيدة التي تذكرتها» .

ويصحو «تشي» من تأملاته تلك على لعنات صديقه جوان ألميدا الذي أجبره على الفرار والنجاة ، إلى أن أسر «تشي» بعد ذلك وهو منحن على شجرة وكان مصاباً بجرح في ساقه ، ولا يقوى على الحركة ، ومع هذا ظل يطلق النار حتى سقطت البندقية من بين يديه . راح تشي ، عندما فر مع أربعة من رفاقه الناجين ، يقارن ويفاضل بين واجبه كطبيب وكثوري . «قد تكون هذه هي المرة الأولى التي يتحتم عليّ فيها الاختيار بين تكريس حياتي للطب وبين واجبي كجندي ثوري . فأمام قدمي صرة مليئة بالأدوية ، وعلبة مليئة

بالرصاص، وكان من الصعب عليّ أن أحملها معاً لثقل وزنها. اخترت علبة الرصاص وأدرت ظهري لصرة الأدوية. هنا تعلم «تشي» درسه الأول كرجل عصابات. فالطلقات النارية بالنسبة لحياة المقاتل أكثر نفعاً حتى من أدوية المعالجة.

بيد أنه ارتكب مزيداً من الأخطاء؛ فقد وجد نفسه مع أربعة من رفاقه الآخرين يشقون طريقهم نحو السيرامايسترا للاجتماع في مكان ما مع من نجوا من رفاق لهم. فقد قاد المجموعة مهتدياً بالنجم القطبي ومعتمداً على ما حفظه من علم الفلك، وبعد مضي عدة شهور اكتشف أنه خلط بين النجم القطبي ونجم آخر، وأن وصولهم إلى المكان الصحيح كان مجرد قضية حظ وحسب. بعد ذلك لم ينس تشي أن يضع بوصلة في حقيبة على ظهره. بعد أن وجد الرجال الخمسة أنفسهم محاطين بدوريات العدو ينهشهم الجوع ويكاد يقتلهم العطش عمدوا إلى طلب مساعدة الفلاحين في السيرامايسترا. ولم تحب آماهم، فقد أقيمت لهم في أحد الأكواخ وليمة ملوكية، وتدفق الجيران من كل صوب يحملون لهم الهدايا ويحيونهم بعبارات التعاطف، وكان هذا الترحيب المبكر بمثابة عون فاتر بالنسبة لتشي في حملته في بوليفيا. فبعد ٨ شهور ونصف من الأعمال الفدائية قدر له أن يكتب عن الفلاحين هناك قائلاً: «لابد من اتباع أسلوب ما لحثهم على الكلام، فهم أشبه ما يكونون بالحيوانات الصغيرة». وبالتأكيد لولا العون الذي قدمه المزارعون الكوبيون للاقى مجموعة «تشي» الصغيرة الفناء والإبادة.

ومع ذلك فإن مسلسل الأخطاء لم يكن قد انتهى بعد، إذ قررت مجموعة «تشي» أن تترك بنادقها الثماني وكل الذخيرة والملابس في كوخ الفلاح الصديق، ومن باب «الحذر» عهدوا بحراستها إلى رفيق لهم مريض، لقد ظنوا أن تخفيهم بلباس أبناء الريف يسهل لهم أكثر معاودة الالتحاق بكاسترو ولكن مضيفهم من دون قصد، أخرهم بشرثرته شأنه شأن الفلاح في حبه للقليل والقال. وهكذا أغار رجال باتيستا على الكوخ، وأسروا الرجل المريض، واستولوا على كل

الأسلحة والمؤونة. وعندما سارت مجموعة «تشي» خلف الفلاحين قاصدة كاسترو راح زعيمهم ينتقدم انتقاداً مرّاً لتصرفاتهم الصيانية الطائشة، فكتب «تشي» في مذكراته:

«منذ ابتداء الحملة حتى هذا اليوم لم تفارق كلماته ذهني: لم تدفعوا ثمناً للخطأ الذي ارتكبتموه، فالثمن الذي يجب أن تدفعوه لترك سلاحكم في مثل هذه الظروف هو حياتكم. فبنادقكم هي أملاككم الوحيد للنجاة إذا ما حدث أن واجهتم الجيش واصطدمتم به، فالتخلي عنها حماقة بل جريمة».

وحدث أن مرض تشي حال دون متابعته السير مع المجموعة فترك أيضاً في رعاية مزارع صديق. ولكن في هذه المرة ترك على مقربة من منزل المزارع وحتى دون أن تعلم زوجة الأخير. لقد أصبح تشي أكثر حذراً.

وبالنسبة للقلعة من الذين نجوا في «الغريا دي بيو» كان البقاء هو كل شيء. ففي الشهر التالي التحق بهم خمسة من المزارعين، وفي بداية عام ١٩٥٧ شنوا هجوماً ناجحاً على ثكنات لابلاتا. لكن معظم سكان الأرياف لم يحركوا ساكناً، وأما الاتصالات مع من كان يظن لديهم الطاقات الثورية في المدن فلم تكن قد تمت بعد، ولكن البداية، في الأقل، قد أنجزت. وكما قال فيدل، إن لديهم الآن ١٢ بندقية ونصراً واحداً بدلاً من سبع بنادق، ومع هذا فإنهم لم يحققوا أي انتصار قط. أما تشي فلم يتوقف عن اعتراف أخطاءه، فقد راح يزهو بارتداء قبعة عريف كان أخذها تذكيراً لأحد الانتصارات. وفي أحد الأيام كادت قبعته تلك أن تكون سبباً في قتله أثناء نوبته في الحراسة، فقد ظنه رفاقه عدواً فأطلقوا النار عليه، ومن حسن حظه أنهم أصابوا قبعته دون رأسه.

خلال الأشهر التالية بدأت نواة رجل العصابات تتأقلم مع الحياة في السيرا مايسترا. وعلى الرغم من قلة الملتحقين هناك واكتشاف جاسوس بينهم فإن السكان المحليين هموم ورعومهم. وكان أصعب

الأشياء، وهذا ما قدر لتشي أن يلمسه فيما بعد، هو الحصول على متطوعين جدد. ففي تلك الفترة كان من الصعب جداً زيادة المجموعة؛ إذ ما كان أحدهم يلتحق بالثوار حتى يترك. كانت ظروف النضال الطبيعية قاسية جداً ولكن هبوط المعنويات كان الأسوأ. وقد قادت هذه التجربة تشي إلى أن يؤكد في كتابه «حرب العصابات» على مدى أهمية تفادي المخاطرة أو فقدان الأرواح في المراحل الأولى للثورة، ذلك لأنها أشياء لا تعوض أبداً.

لقد تعلم رجال العصابات دروساً من الثوار خلال الشهور التي قضوها في السير مايسترا. وكان لانضمام عدد صغير من المزارعين للثورة أهمية حيوية. كان باستطاعتهم دوماً الحصول على الطعام من أصدقائهم الفلاحين فضلاً عن التقاطهم الأخبار أو الإشاعات عن تحركات العدو، وكان بوسعهم أيضاً أن يدرّبوا المتطوعين من أبناء المدن على حياة الريف. لقد كانوا الجواسيس والعملاء لمجموعتهم. وساعدوا في تشكيل شبكة من المؤيدين في المنطقة ممن يستطيعون إحضار مجندين جدد للالتحاق بفرقة رجال العصابات. وكان من توالي نجاح «ذوي اللّحي» والأساطير المحاكة حولهم أن نما عدد الثوار وزاد دعمهم. وشرع كاسترو في تأسيس شبه دولة ثورية في عدد من القرى كان من ضمن مهماتها إرسال التحذير من هجوم مضاد قد يقوم به الجيش.

كان الأساس الذي بني عليه دعم الفلاحين يقوم على الحذر بقدر ما يقوم على المثالية. فذاكرة تشي عن الحرب الكوبية مليئة بصور إعدام المخبرين من الفلاحين الذين وشى بهم فلاحون آخرون. كان الثوار يحمون أصدقاءهم والمحايدون ويعاملونهم بالحسنى، ولكنهم لم يرحموا قط أي شخص من الذين ساعدوا باتيسترا. وكانت مساعدة الحكومة في العديد من المناطق في السير مايسترا في نهاية الأمر أكثر خطورة من مساعدة الثوار، خلاف ما جرى في الحرب اللاحقة في بوليفيا، حيث لاقى تشي الأمرين من فلاحين لم يستطع ضبط

تصرفاتهم أو إسكات ألسنتهم . وخلال الحرب الكوبية كتب تشي عن الفلاحين : «كان التبليغ عنا يسبب لهم عذاباً في ضمائرهم وكان مصدر خطر دائم عليهم نظراً لسرعة اقتصاص العدالة الثورية» .

كان دور الفلاحين في الانتفاضة أساسياً لنجاح مجموعة كاسترو ولفهمها فلسفة الثورة . ووصف تشي تزايد إدراك رجل العصابات لأهمية الفلاحين فقال :

«بتنا نعي أكثر فأكثر ضرورة إحداث تحول في حياة الشعب . وبدأت فكرة الإصلاح الزراعي تنضج . ولم يعد الاتحاد مع الشعب أمراً نظرياً وإنما صار عنصراً أساسياً من عناصر وجودنا . وعندما حدث هذا أو عندما انقلبت الكلمات إلى حقيقة انصهرت مجموعة رجال العصابات والفلاحين في كتلة واحدة دون ان يعرف أحد متى تم ذلك . وهكذا أصبحنا جزءاً من الفلاحين . أما بالنسبة لي فان محاولاتي في معالجة مرضهم في السيرا مااسترا قد حولت شعوري العفوي أو بالأحرى الحماسي الى قوة أكبر قيمة وأعمق جذوراً . ان اولئك المواطنين البؤساء الشرفاء لهم دور كبير في صقل الأيديولوجية الثورية» .

وكان لهذا الاحتكاك بالفلاحين أعمق الأثر في نظرية تشي الشاملة ، ولاحظ تشي ان «هناك تغيراً نوعياً؛ اذ توجد الآن منطقة كاملة يتجنبها العدو خوف ملاقاتنا وان كنا لم نسع الى الاصطدام معه» .

لقد كانت «مرحلة القواعد المتحركة» بالنسبة لرجال العصابات في السيرا مااسترا مرحلة حاسمة ، فاما أن تشق الثورة طريقها نحو النصر، واما أن تواجه الهزيمة فالتصفية . لقد أصبح الناجون القليلون من معركة اليجريا دي بيو مقاتلين أشداء بعد ان كانت كفاءتهم القتالية في البداية لا تذكر . ولم يتوقف تشي مطلقاً عن تحليلاته لأخطائه الشخصية وأخطاء المجموعة ، بالرغم من بعض عجز أصابه خلال مرضه .

وكان معظم نظريته اللاحقة عن حرب العصابات - إقامة نواة

لرجال حرب العصابات، واستمرار الوجود الثوري بأي ثمن في الأيام الأولى، والحفاظ على الروح المعنوية - النتائج المباشرة لهذه الملاحظات. وفوق كل شيء تعلم أن ينظر بعين التقدير الى مساعدة الفلاحين المتطوعين الذين كانوا يزودون رجال العصابات بالمؤن. وبالرغم من أهمية وجود المتطوعين الجدد والأسلحة المرسله من المدن، فإن تشي أخذ يقلل فيما بعد من قيمة مساعدتهم في تطوير قوات رجال العصابات، وذلك لأسباب سياسية.

ويعتبر انتصار الثوار في الأوفيرو، عندما اكتسحوا ثكنات صغيرة في وضح النهار خلال هجوم مباشر، نقطة تحول في الحرب، فقد انسحب جيش باتيستنا بعدها من مراكزه في السيرا مايسترا تاركاً خلفه منطقة واسعة للثوار. ومنذ ذلك الوقت، كما يذكر تشي «يقوم العدو بغازات متقطعة على السيرا مايسترا . لا شك أنه كانت هناك منطقة محررة. والاجراءات الاحترازية لم تعد ضرورية، فكنا نستطيع، الى حد ما، التحدث في الليل والتحرك في ماوينا. كما رحنا نتنقل في قرى جبال السيرا ونوثق علاقاتنا مع السكان». ولكن النجاح قد يخلق من المشكلات بقدر ما يخلق الفشل. فقد بدأت قوة رجال العصابات فترة من النمو المستمر التي ولدت مشكلات جديدة تتعلق بالطعام والمؤن. وبدأ الطور الثاني من حرب العصابات بلجوء الثوار الى مجتمعات شبه دائمة، حيث أقاموا مراكز للخدمات والمؤن، وأصبحوا حكومة «مصغرة». كما أسست الصناعات الصغيرة، ومحطات الراديو والمستشفيات وصدرت مراسيم بسن القوانين وشكلت المحاكم ليأخذ العدل مجراه، وبدأت حملة مركزة من التثقيف، وأصبح الثوار يتعاونون من المزارعين والبقالين في القرى محاصيل ومؤنا معينة. وتبدلت اوضاع قوات الثوار من عدة وجوه الى ما يكاد يشبه أوضاع جيش نظامي يعسكر في أرض صديقة.

ويعود الفضل الأكبر في هذا التنظيم الى تشي. فمهارته في التخطيط التي تكشفت فيما بعد تبدأ من هذه الفترة. فبعد معركة الـ أوفيرو رفع

الى رتبة مييجور أو قائد قطاع (Command) وهي أعلى رتبة في قوات الشوار بوصفه مسؤولاً عن « الصف الثاني » ، وبذلك فإن مركزه من حيث المرتبة يلي مركز كاسترو مباشرة. وبدأت الإذاعات الخاصة لباتايستا تحمل على «تشي» شخصياً كحملتها على كاسترو وشقيقه. وكان انريكو مينيسيس (Enrique Menses)، وهو صحافي امضى شهوراً في السيرمايسترا في كانون الأول عام ١٩٥٨ ، قد شهد لتشي بنجاح خطته في إقامة قاعدة امدادات للشوار. فقد دفعته تجربته التي عاشها في السيرمايسترا للبدء في كتابه « حرب العصابات » بثلاثة منطلقات رئيسية، من بينها أن « المناطق الريفية في البلدان النامية في أمريكا اللاتينية تعتبر أفضل مواقع العصابات، واتخذ الاصلاح الزراعي شعاراً له ». وقد أكد تشي وأتباعه من الثوريين الكوبيين فيما بعد أنهم لم يقرأوا ما كتب الآخرون في هذا الموضوع. كانت خبرة تشي الشخصية المكتسبة أفضل معلم له.

وثمة درس آخر كان أكثر فائدة منه في الأيام المبكرة من الحرب. فقد أصر كاسترو على قواته أن يتصرفوا بانسانية، قدر الإمكان مع جرحى العدو والأسرى المدنيين والفلاحين الذين لم يتعاونوا مع العدو. فكانت النتيجة أن سمعة رجال العصابات الطيبة امتازت عن سمعة رجال باتايستا السلبية، الذين اقترفوا مختلف الأعمال الوحشية. وكانت لذلك فائدة عملية لتشي نفسه الذي عانى من نوبة حادة . وحدث في إحدى المرات ان أبيدت مجموعة كاسترو بأكملها تقريباً بسبب ضعف تشي البدني. وفي النهاية كان لا بد من تركه ليعتني به أحد المزارعين الذين أيدوا رجال العصابات لمعاملتهم الانسانية وعندما حاول تشي الالتحاق بالمجموعة كان مريضاً لدرجة اضطر معها الى استعمال بندقيته كعكازة، واستمر يمشي عشرة أيام لقطع مسافة كان يجتازها في يوم واحد.

كانت الوحشية التي مارسها باتايستا في احباط مؤامرة طلابية في هافانا عوناً أساسياً وجديداً للرجال الثلاثين الذين كانوا يشكلون قوة

رجال العصابات. وبدأت حملة الارهاب التي قام بها الجيش في جبال السيرا مايسترا في زعزعة تعاطف الفلاحين مع كاسترو، ومع ذلك فإن ٥٠ متطوعاً جديداً من أبناء المدن التحقوا برجال العصابات. كان ثلاثون منهم مسلحين. وفي أيار من عام ١٩٥٧ سلمت شحنة أسلحة الى قوات كاسترو تضم رشاشات وبنادق أوتوماتيكية وكاربينات و ٦٠٠٠ طلقة. وكان تشي والشوار المتمرسون منتشين بهذا التعاضم في القوة بالرغم من سوء نوعية المتطوعين الجدد وضعفهم.

«بعد عدة أشهر قضيناها في السيرا أصبحنا متمرسين ورأينا أن القوات الجديدة في جراما (Grama) كانت تفتقر الى النظام والقدرة على التكيف مع النكسات والحياة الجديدة والحزم. . . كان من السهل ملاحظة الفارق الكبير بين المجموعتين. مجموعتنا انضباطية محكمة اعتادت على الحرب وشظف العيش. أما مجموعة القادمين الجدد فما زالت تعاني من وحشة الأيام الأولى : فهم لم يعتادوا تناول وجبة واحدة في اليوم. وإذا لم يعجبهم الطعام الذي كان يوزع عليهم أضربوا عن تناوله. كانت صررهم تحتوي على أشياء لا نفع منها، وإذا حدث ان كانت الصرر ثقيلة بحيث لا يستطيعون حملها، فإنهم كانوا يفضلون التخلص من علبة حليب مكثف على التخلي عن منشفة، وهذا عمل يعتبر جريمة بحق الذات الفدائية. اما نحن فكنا نجمع تلك العلب لنفيد منها فيما بعد .»

مع ذلك أبلى المتطوعون الجدد بلاءً حسناً في معركة أوفيرو التي لعب فيها تشي نفسه دوراً رئيسياً. إن مرحلة « القواعد المتحركة » التي ناقشها تشي في كتابه « حرب العصابات » كادت تختفي؛ فقد أجبرت القوة المتنامية لرجال العصابات جيش باتيستا على إحداث تغيير في موقفه، كما احدثت هي تغييراً في معنويات رجال العصابات أنفسهم. كان التباين بين فيدل كاسترو وتشي واضحاً. كان فيدل الحاكم الطوباوي المفوه الدائم التنقل والتخطيط. وكان تشي منصتاً هادئاً سعى الى اقامة قاعدة للعمل آمنة. كان الانسان العملي الذي

يستطيع تحقيق أحلام فيدل . كان فيدل وتشي يعتمد احدهما على الاخر في العمل ، وكان هناك فعلاً من يضمرون الإخلاص والاعجاب نحو تشي بمقدار ما كانوا يضمرونها لرئيسهم الكوبي .

ومع ذلك فإن هذه الفترة من حياة تشي لم تركز كلياً لعمليات آنية؛ إذ لم يكن تشي منهمكاً في احراز النصر في الحرب وحسب، بل بالقواعد العامة لجميع حروب التحرير، وبالمجتمع الجديد الذي سينشأ في كوبا غداة إحراز النصر. ويروي أحد الرفاق، وهو روفائيل تشاو في شهادته عن تشي في ذلك الوقت: «كان يمكن أن تراه في وقت متأخر جداً من الليل يجلس في خيمته ويدون ملاحظاته، وكان مولعاً بالنقاش أيضاً. وعندما كان الجميع على وشك أن يناموا، كان يتمشى خلال المعسكر باحثاً عن أحد يشعر برغبة في الحديث. وكان يتبادل الرسائل مع راوول كاسترو الذي كان يومها يخالفه الرأي في عديد من المعتقدات الماركسية التي يتمسك بها تشي». واكتشف تشي أن التنامي في وضوح الرؤية رفع من معنوياته ومعنويات جميع رجال العصابات وكان له أثر عليهم. «أيها القادة والمقاتلون، إن الوعي يتنامى. وإن الأفاضل بيننا شعروا بمسئولية الحاجة إلى الإصلاح الزراعي وقلب النظام الاجتماعي الذي بدونه لا يمكن للبلاد أبداً أن تحقق الرخاء».

والحقيقة أن كل صفحة من ذكريات الحرب الثورية الكوبية يمكن للمتأمل فيها أن يرى أثراً من عقل تشي المحلل والمتبصر بالأمور. ومعظم الأفكار التي تضمنتها كتاباته الأيديولوجية فيما بعد كانت في ذلك الحين لا تزال في طور النشوء. وما من شك في أن أفكاره الاستراتيجية قد ولدت خلال النضال في السيرا، وهي تتلخص في حكاية له عن خبرته القتالية. مثال ذلك ما يشرحه عن توقيت الكمين في آل هومبريتو فيقول:

«لقد أظهرت لنا هذه المعركة كم كان سهلاً، ضمن ظروف معينة، مهاجمة الطوابير أثناء مسيرتها، ومرة أخرى تأكدت لنا صحة ذلك التكتيك الذي يقضي بالتسديد دوماً إلى رأس القوات الزاحفة، في

محاولة لقتل أول رجل أو أول مجموعة من الرجال ، وبالتالي إحباط حركة قوات العدو بأكملها. وشيئاً فشيئاً قمنا بتحسين هذا التكتيك ، وفي النهاية بلغنا فيه حداً جعلنا به العدو يحجم عن الدخول إلى السير مايسترا . كما رفض جنوده مرات السير في صفوف الجيش الأمامية» .

ويخبرنا تشي عن تقويم أجراءه في أعقاب إحدى المعارك أظهر مواطن ضعف قاتلة كان سببها الفشل في استغلال عنصر المباغته . ولم يكن تشي يكتفي بشرح المعركة ، بل كان يعمد إلى استخلاص الدروس منها . وفي الحقيقة أصبح كلا العاملين المذكورين أعلاه ، ونعني بهما الكمين والهجوم المفاجيء ، العنصر الأساسي عند العسكري في «حرب العصابات» وفي استراتيجيته الحقيقية في الحملة البوليفية .

أقام فيدل كاسترو صلات وثيقة مع جميع أحزاب المعارضة في كوبا واعداء إياهم بالكثير من أجل حصوله على دعمهم ضد باتيستا . وبنى آمالاً عظيمة على إضراب عام كان قد دعي إليه في المدن في نيسان عام ١٩٥٨ . غير أن فشل ذلك الاضراب قد برهن على أنه كان أكثر من مجرد انتكاسة نظرية . لقد أطاح بمعنويات أعداء باتيستا وقطع خطوط الإمدادات والاتصال بين المدن والسيما مايسترا ، وأدى إلى هجوم شنه جيش باتيستا بهدف إلحاق هزيمة ساحقة بالشوار خلال الصيف . ويمكن القول إن ذلك الفشل قد زرع الشك في نفس تشي من حيث جدوى العمل المدني في دعم حرب العصابات في الحملة الكوبية . لم يكن يؤمن كثيراً بقوة الشوار المدنيين ، الذين كانوا في نظره «ليني العريكة» وغير واقعيين . غير أن «زحفه الطويل» عبر الجزيرة في نهاية حملة كاسترو المظفرة في خريف عام ١٩٥٨ والتي شطرت الجزيرة إلى نصفين ، أكد تحامله على قيمة العمل المدني ، ذلك أن هذا الزحف حرر المدن من الجبال . فقام بقطع المواصلات بين المدن ، وبهذا عزل سانتا كلارا واستولى عليها نهائياً . وكانت تجربته الخاصة تتمثل في إقامة قاعدة ريفية ، ثم التوسع إلى أن تقع القرى في يديه ويعزل المدن حتى تسقط أيضاً . ويرى تشي أن واجب الريف تحرير المدينة ، ولا بد من

غزو المراكز المدنية من الخارج وليس من الداخل . وقد أدت حملة السير والموقف المحافظ للحزب الشيوعي الكوبي إلى معاداة تشي للمبدأ الماركسي - اللينيني بالنسبة للثورة التي يقودها البروليتاريون المدنيون عبر سلسلة من الاضطرابات ومن خلال تدمير آلات المصانع ثم عبر الثورة النهائية . «سوف ينتصر الفلاحون المسلحون على الريف إلى أن تسقط المدن على ركبتيها كما يسقط الموز العفن» . هذه هي التجربة التي قادت تشي فيما بعد إلى العزلة الجغرافية في بوليفيا .

وإذا أردنا التعرف على أخطاء تشي المبكرة والمآت التي نجح فيها كرجل عصابات في السير مايسترا، فذلك يتطلب صرف وقت غير قصير . فالشهور الـ ٢٥ التي قضاها من حياته هناك خلقت منه منظماً ومفكراً وخبيراً تكتيكياً شبيهاً بالبطل ، مع أنه لم يكن سوى مجرد شاب مريض بالربو، خيالي ذي ثقافة مدنية، اعتبر نفسه ثورياً بسبب تجواله بين الفقراء في أمريكا اللاتينية ودراسته ماركس ولينين . لم يكن يختلف بأي شكل من الأشكال عن آلاف التقدميين من أبناء الطبقة الوسطى في المهنة الحرة . ولكن في الوقت الذي تولت فيه حكومة كاسترو الانتقالية السلطة بعد انتزاعها من باتيستا في يناير ١٩٥٩ برهن تشي على أنه مقاتل مغوار، ذو شجاعة وقوة وقدرة عظيمة . لقد غدا من أهم الرجال في كوبا ، ثم سرعان ما أصبح ينظر إليه كشخص من أهم المنظرين للثورة . كانت مهمته أن يؤلف «وبطريقة منتظمة ومتناسكة» أيديولوجية من مجموعة نظريات متناقضة تتوالد في كوبا إثر النصر الذي أحرزه كاسترو .

عملت الثورة الكوبية على صقل تشي سياسياً وأيديولوجياً . وحولته صلته بالشوار إلى «مناد بإصلاح زراعي يقوم على أسس ثورية» . ودفعه الإجماع الوثيق على معارضة طغيان باتيستا في المراحل اللاحقة إلى أن يفكر بمفهوم «حرب الشعب» ، وأكد الدور الذي قامت به الولايات المتحدة في مساعدة ودعم باتيستا خلال معظم أيام الحرب بغضه لـ «امبريالية اليانكي» ! وكان سلوك السياسيين الانتهازيين المعارضين

لباتيستنا، والذين ارتبطوا بكاسترو لمنفعة شخصية فقط، قد أثار
اشمئزاز تشي من الطريقة الديمقراطية التي أبرزت أمثال هؤلاء
المواطنين الجبناء. وفوق ذلك كله فقد اكتسب تشي من الخبرة الحقيقية
في بدء حرب تحرير بمجموعة صغيرة تكبر لتصبح بحجم فرقة في
الجيش، مجموعة من الأفكار المرنة وغير الماركسية عن مجموعات رجال
العصابات بوصفهم «حملة لواء» الثورة. وكان النجاح يتوقف أيضاً،
بنظر تشي، على قيادة الزعيم الموثوقة التي كانت أكثر أهمية من تنظيم
حزب بأكمله بكوادره المجهولة. وكان اكتساب مجموعة الثوار الصغيرة
قواعد شعبية شرطاً للنجاح.

وقد طبق تشي، منطلقاً من خبرته الخاصة في حرب العصابات في
كوبا، مبادئ أساسية تتناول معظم الاستراتيجية العسكرية اللازمة
لقيام ثورة عالمية. وثمة ثلاث أفكار في كتابه «ذكريات عن الحرب
الثورية الكوبية» تتكرر دوماً، وهي تشكل المبادئ الأساسية لتصوره
الشامل في المستقبل.

١- الصراع الفعلي هو أفضل طريق لتعلم القتال وخلق رجل
ثوري. فالنظرية، مهما بلغ شأوها، لا تستطيع أن تصنع مقاتلاً قديراً.
إن خوض التجربة في حرب ثورية هو الذي يصنع رجل العصابات
الحقيقي ويميزه عن الحالم أو المتآمر في الخفاء.

٢- الصراع الحقيقي يصنع المنظر كما يصنع المقاتل أيضاً. فقد
يستطيع الرجل أن يلتحق بمجموعة الثوار وهو جاهل كلياً
بالأيدولوجية، ولكنه لا بد له في النهاية من أن يتعلم شيئاً من
الأيدولوجية. فيجب أن يطور إذن وعيه الاجتماعي كرجل ثوري
جنباً إلى جنب مع مهارته العسكرية، فمهارته العسكرية وحدها لن
تساعده على مواصلة الحرب الفدائية. وهكذا يستخلص أن أفضل
المقاتلين هو المقاتل الذي يتمتع بمعرفة الشؤون السياسية، وهو
مرشح، أكثر من أي شخص آخر، لأن يصبح قائداً بعد تحقيق
النصر، لأنه أكثر واقعية من أي شخص لم يقاتل.

٣- إن لمجموعة رجال العصابات صفات باطنية خاصة. وإن احتكاك تشي بمجموعة من الرجال الأشداء الشجعان والمثاليين في السير ما يسترا علمه مفهوماً بطولياً عن رجل الفداء. فهناك صفحات من كتابه «ذكريات» مليئة بعبارات الشكر والامتنان للرفاق الذين ماتوا في الحرب. وقد ساعد تشي في خلق أسطورة عن رجل العصابات البطل، بالرغم من أن هذا جرى بعكس فكرته عن المساواة. وعندما جاد هو بروحه كان قد حقق أسطوره الخاصة.

الفصل الثالث

نظريات حرب العصابات

قد لا يوافق الخبراء العسكريون أمثال الكابتن ليدل هارت على المقدمات المنطقية السياسية التي حفزت تشي غيفارا، ولكنهم متفقون على أن نظريته عن حرب العصابات هي بمثابة دراسات استراتيجية لامعة. فكتابات تشي حول الموضوع كانت ثورية حقاً، فهي تضع مخططاً توضيحياً عن كيفية انتصار انتفاضة تقوم بها مجموعة رجال ضد قوى الجيوش الحديثة والتكنولوجيا. فوجود حد أدنى من الموارد، وقليل من الدعم الشعبي، والمواصلات المتواضعة، لا تحول دون البدء بانتفاضة يمكنها أن تطيح بجيش نظامي ما دامت تضم إلى صفوفها كل يوم أفواجاً جديدة من المتطوعين. فليس للقنابل الذرية سوى نفع محدود في قمع رجال العصابات في الأدغال، ولا تستطيع الدبابات القيام بمهامها في الغابات والجبال. كان نجاح الثورة الكوبية حافزاً للقيام بثورات عديدة أخرى، لقد كان أثر الثورة الكوبية عالمياً. فمن فيتنام إلى الكونغو ومن شيكاغو إلى البرازيل سيطرت نظريات تشي على المخيلة الشعبية، وقد صعدت وهزمت الجيوش الحديثة المعدة لتحطيم كل شيء إلا هذا النوع من القتال. ونظراً لوجود اختلاف في عوامل سياسية واجتماعية إلى جانب الاستراتيجية العسكرية فقد نجح رجال العصابات في أماكن مثل الجزائر وفيتنام، وفشلوا في الملايو وبيرو وبوليفيا، وتورطوا في قتالهم في غواتيمالا وكولومبيا وفنزويلا والفلبين. ومع ذلك فليس من بين هذه الحروب حرب كان يمكن لها أن تكون مشابهة للأخرى بدون تأثير تشي غيفارا.

يبدأ تشي كتابه «حرب العصابات» الصادر عام ١٩٦٠، بعبارة شهيرة، وهي أن الثورة الكوبية «أثبتت قدرة الشعب على تحرير نفسه من حكومة ظالمة باللجوء إلى حرب العصابات»، ويواصل كلامه

فيقول :

١- القوى الشعبية يمكنها أن تفوز بحرب ضد الجيش .

٢- ليس من الضروري دائماً الانتظار إلى أن تنشأ حالة ثورية ؛ فهذه يمكن خلقها بنواة ثورية .

٣- تعتبر المناطق الريفية في البلدان المتخلفة في الأمريكيتين أفضل ساحات قتال للكفاح المسلح .

هذه المعتقدات سمحت لتشي بأن يخلص إلى استنتاجات معينة تدحض سياسات الأحزاب الشيوعية الرسمية في أمريكا اللاتينية . فإذا كان بمقدور القوى الشعبية أن تحرز نصراً ضد الجيش ، فليس هناك إذن ما يبرر «موقف المتفرج الذي يقفه الثوريون الزائفون» ، الذين يقولون بأنه لا يمكن إلحاق الهزيمة بجيش من خارجه . وإذا كان بالإمكان خلق وضع ثوري فلا حاجة للانتظار إذن حتى تنهياً «كل» الظروف المطلوبة لثورة نظرية ماركسية . وإذا كان في مقدور رجال العصابات أن ينجحوا في الريف ، فلا حاجة للانتظار إلى أن يستولي المدنيون والمجموعات الصناعية على المدن ، وهؤلاء عرضة لهجوم مضاد ناجح يشنه الجيش عليهم .

ومع ذلك فإن تشي لا ينكر أن قوة المجموعة الريفية الصغيرة لا يمكنها أن تعمل إلا ضمن شرط واحد فقط . فإن عليها أن تعمل كطليعة مسلحة للجماهير ، ولذا فهي لا تستغني عن دعم الجماهير . وهذا شرط مطلق . فبالدعم الشعبي لا تكون القوى الفدائية في وضع دون وضع الجيش من حيث العدد ، وإنما تكون دونه في قوة العتاد . ويمكن لمجموعة الثوار أن تحصل على مساعدة الشعب فترة من الزمن بينما لا يحصل الجيش إلا على مساعدة المصالح الخاصة والبيروقراطيين الذين يستغلون البلاد ، وهؤلاء بدورهم يتلقون المساعدة في الغالب من قوة أجنبية . وهكذا إذا ما دعم الشعب أو السكان المحليون القوة الثائرة فلا بد من فوز رجال العصابات .

إذن ، المقاتل في حرب العصابات هو أكثر من رجل عصابات . إنه

مصالح اجتماعي، يرفع السلاح من أجل الشعب، ويقاوم كي يغير الحكومة. ومن أجل أن يكون فعالاً، عليه أن يعرف معرفة تامة منطقة العمليات التي يكون فيها، بحيث يستطيع الانسحاب بسرعة، ويختفي بسهولة. وعليه أن لا يتورط في عمل ما، ما لم يتأكد من النجاح، مستغلاً جميع نقاط الضعف في عدوه، وملتزمًا باستراتيجية «اضرب واهرب». والحرب الفدائية بطبيعتها هي مرحلة مبكرة من الحرب الكلاسيكية، ولا يمكنها، وحدها، أن تريح المعركة. ولكن التدريب هو الذي يطور نواة من الثوار إلى جيش صغير، قادر على خوض معارك نظامية ضد الجيش المتعسف. وكما أن كل فدائي «هو سيد نفسه»، فمن واجبه أن يحمي حياته الخاصة، بنفس الحرص الذي يديه الجنرال في حماية نفسه. هنا يقوم تشي بالتمييز بين الجندي العادي والمقاتل في حرب العصابات. «كل فدائي يجب أن يكون مستعداً للموت، لا دفاعاً عن مبدأ، بل من أجل تحويل ذلك المبدأ إلى حقيقة».

ولما كان هدف الجيش النظامي تدمير كل حرب من حروب العصابات، فإن هدف رجل العصابات اكتشاف استراتيجية الجيش وإحباطها. إن إلحاق الهزيمة بالجيش هو هدف رجل العصابات على المدى الطويل، لأنه حيث يستولي على سلاحه ليحاربه به، ثم يسهل عليه فيما بعد الاستيلاء على ذخيرة لذلك السلاح من الجيش نفسه. ويجب أن تخطط حملة العصابات الشاملة بحيث تنفذ على ثلاث مراحل:

- ١- الصمود والتكيف مع ظروف حياة حرب العصابات.
 - ٢- تشتيت قوة العدو في المناطق التي حددها رجال العصابات مناطق خاصة بهم.
 - ٣- القيام بهجمات على العدو في أرضه، وذلك بتركيز الضربات على مواصلاته وقواعده.
- وكانت أوامر تشي للحملة حازمة. اضرب العدو بثبات. دعه

يشعر بأنه معرض للإهناك والتطويق. علم السكان المحليين أهداف الفرقة الفدائية، بحيث يرون مصالحهم في الانتفاضة. استخدم التخريب كي تنال من معنويات العدو وادفع به إلى الارتباك والعجز بقطع مواصلاته. تجنب الأعمال الإرهابية العديمة النفع. لا تحاول أن تحتفظ بأراض واسعة جداً. جدد مجموعات رجال العصابات بضم عدد كاف من المتطوعين. هذه المجموعات الجديدة سوف تحتفظ بمزيد من الأراضي إلى أن يصبح بالإمكان البدء بمهاجمة العدو على أرضه.

وفي كل الأحوال، لابد أن تتكيف التكتيكات المرحلية مع الظروف العامة، بحيث يتوجب على قوة رجال العصابات أن تستغل كل الأحداث وتحولها لصالحها. الحرب الكلاسيكية يمارسها العدو وحده، أما الثوار فلا يجوز أن يعرف أحد كيف يتحركون أو متى يهجمون، ثم لتكن السرعة شعارهم في جميع الهجمات. إن العناصر التي لا يستغني عنها رجال العصابات أن يكونوا «حازمين» في هجومهم وفي معاملتهم القتلة والمجرمين. لكن عليهم أن يكونوا رحماء بجنود العدو فيحرروا السجناء منهم ويعتنوا بجرحاهم. وعليهم أن يظهروا تعاطفاً كبيراً مع السكان المحليين ويحترموا العادات المحلية، وبهذه الطريقة سوف يثبتون تفوقهم الخلفي على العدو.

ويواصل تشي في كتابه «حرب العصابات» تحليل مختلف استراتيجيات القتال على أراض صالحة لحرب العصابات، ثم على أراض يصعب فيها شن حرب العصابات، ثم في المناطق المدنية. ثم يصف أنواع الأسلحة التي ينبغي استخدامها في كل منطقة، وعدد الرجال المشتركين والإجراءات أو التكتيكات التي تملئها جغرافية كل منطقة. فالأرض التي تسمح بشن حرب العصابات تكون ملائمة لأعمال التخريب وغنم الأسلحة والحصول على المؤونة. أما الأراضي التي يصعب فيها شن حرب العصابات فإنها تتطلب مجموعة لها قدرة كبيرة على التحرك. وأما العمل في المناطق المدنية فلا يكون إلا جزءاً

من استراتيجية شاملة، ويجب أن يوجه كلياً من «خارج» المدن. ويخلص تشي في هذا الفصل من كتابه إلى التأكيد على أولوية الريف كقاعدة لجميع العمليات الفدائية. أما الثورات المدنية فيجب أن لا تبدأ إلا عندما تكون الحرب في المناطق الريفية بحاجة إلى المساندة.

ويطور تشي في الجزء الثاني من كتابه الفكرة الرئيسية عن طبيعة رجل العصابات وعن مجموعة رجال العصابات. فدور رجل العصابات كمصلح زراعي و«ك مقاتل من أجل حرية الشعب» يلقي مزيداً من التحديد والتوضيح؛ إذ يتوجب على كل ثائر أن يتحلى بخلق كريم وأن يتنزه في تصرفاته عن ارتكاب أي خطأ. «عليه أن يكون زاهداً... وأن لا يغفل عن مساعدة المزارع فنياً وخلقياً واقتصادياً وحضارياً». هذا السلوك يمهد لدور الثائر بعد الفوز بالحرب عندما يصبح إصلاح البنيان الاجتماعي مواصلة طبيعية لحرب العصابات نفسها.

وبهذه الطريقة يمهد الثائر لنفسه أن يطبق في المستقبل العدالة والقانون فيعاقب الخونة ويصادر الفائض من الأرض والثروة الحيوانية لإعادة توزيعها على المزارعين المحتاجين، وكذلك مصادرة أملاك أعداء الثورة ومصالحتهم. ويجب عليه أيضاً أن يحاول تأسيس التعاونيات إذا أمكن، وأن يشقف السكان المحليين عقائدياً. فالذي يكون في كثير من الأحيان رجلاً مثقفاً متحدرًا من الطبقة الوسطى سوف يستخدم ثقافته في تنوير المزارعين، الذين سيشرحون له حقيقة أوضاعهم الاجتماعية، تلك الأوضاع التي عرفها الثائر من قبل وعاشها. كما يمكن للمزارعين أيضاً أن يعطوا الثائر درساً عملياً في ما يجب أن يبدأ به من الإصلاحات الملحة.

ويمضي تشي في شرح الصفات الخلقية والبدنية والعقلية التي يجب أن يتحلى بها الثائر: إنها مزيج غريب من الفضائل المجيدة والصفات الحميدة كالبراعة والاحتراس والتفاؤل والتعقل والصلابة. كما يجب على الثائر أن يكون شجاعاً لا يهاب، قوياً لا يتعب، عاقلاً لا تسيطر

عليه العواطف، رحيماً من غير ضعف، شديداً من غير ظلم. ويجب عليه أن يصمد أمام كل حرمان وجوع وعطش ومرض وألم وعذاب. بعد هذه القائمة من الاختبارات يصرح تشي بأن الفدائي كي يتحلى بكل هذا فلا بد له من هدف يغذيه. «هذا الهدف يجب أن يكون بسيطاً وملموساً وليس معقداً ولا خيالياً، بل يجب أن يكون محكماً وواضحاً بحيث يستطيع الرجل أن يضحى من أجله بحياته دون أي تردد». وليس من الضروري أن يكون الهدف شيئاً عظيماً جداً. فهو بالنسبة للمزارع قد يكون امتلاك الأرض، وللعمال أجراً أحسن. ويشير تشي إلى أن الهدف كلما كان أكثر تحديداً كان تصميم الفدائي أقوى وأشد. وينتقل تشي إلى المظاهر العملية لحياة الثائر، معالجاً كل جانب من القضية. ويقلل تحليله من حاجات مجموعة الثوار إلى حد أدنى أساسي - ما عدا ثلاثة أشياء تعتبر زائدة - وهي أساسية بالنسبة لتشي نفسه - التبغ وكتب للقراءة ودفتر ملاحظات لتدوين الأفكار والحوادث. وانسجماً مع طبيعته العملية يشرح تشي أفضل أنواع الحقائق الظاهرية. وتعتبر تجربته الكوبية تجربة حيوية أفاد منها في تحليله لتجهيزات الثائر، كما في وصفه للمراحل الثلاث في رحلة رجال العصابات التي تتحرك من مرحلة القواعد المتحركة إلى مرحلة القواعد شبه المتحركة في التجنيد، ثم إلى مرحلة القواعد الثابتة والهجمات الصدامية في الطور الأخير. وهنا يضيف تشي قليلاً إلى كتاباته السابقة عن الحرب الثورية الكوبية لكي يؤكد ضرورة جعل الأرض الخاصة برجال العصابات دولة صغيرة، وقاعدة للعمليات من أجل هجمات على أرض العدو للاستيلاء على الأسلحة الثقيلة مثل المدفعية والدبابات. ويحلل أيضاً مفهوم العمل المدني ويقسمه إلى قسمين. ففي أراضي الثوار تتعلق المسألة بالحكومة والتثقيف العقائدي. أما في خارج أراضي الثوار فينتجلى العمل المدني بصورة رئيسية في جمع الأموال والقيام بالدعاية وكسب المؤيدين وجمع المعلومات والقيام بالتخريب.

ثم يناقش تشي دور المرأة في حرب العصابات. وهو يشجب في البدء «العقلية الاستعمارية» لأولئك الأمريكيين اللاتينيين الذين يبخسون النساء قدرهن، ويجابههم بالحقيقة التي أثبتت أنه ظهر بين النساء مقاتلات رائعات، وبوسعهن أن يخدمن مجموعة الثوار فيعملن خياطات وطاهيات وممرضات. وفي العمل المدني تبرز أهميتهن كمعلمات، وأهم من ذلك كله استخدامهن جاسوسات ينقلن الرسائل بين الثوار ومناطق الحكومة. ويجب أن لا يكون وجود النساء سبب منافسة جنسية بين الثوار، فعلى المرأة الشائرة أن تحسن التصرف مع جميع الثوار، بالرغم من أن تشي لا يجد سبباً يمنع رجلاً وامرأة ثورين من النوم معاً إذا كانا «عاشقين ولا تربطهما التزامات أخرى».

ويعتبر الطبيب الشائر ذا أهمية خاصة بالنسبة لتشي. وتبرز أهميته الكبرى من الناحية النفسية، وخاصة في الأيام الأولى للمجموعة، عندما يكون وجوده مصدر قوة لعزيمة الجريح والمريض. فالأدوية دون الراحة أهمية. «فبالنسبة لرجل يتألم تكون لحبة الأسبرين أهميتها عندما تمتد بها يد صديق يشعر مع ذلك المريض ويتألم لأله». ثم يواصل تشي فيشرح بأسلوب فني كيف يمكن خلق مستشفيات بدائية، من استعمال الحملات إلى إنجاز العمليات الجراحية في الميدان وغيرها من مستلزمات العلاج في الحرب.

ثم يعالج تشي مسألة الدعاية ويعرفها بأنها التقارير المرسلة، وأن على جرائد الثوار والراديو أن تقول الحقيقة مهما كلف الأمر. فيجب أن يكون هدف دعاية الثوار قول الحقائق عن المعارك وعن القوة المتنامية، لأن دعاية الحكومة لاشك تكذب ما يذيعه الثوار. كذلك فإن برنامج الثوار الاجتماعي لا بد أن يوضح أيضاً. ويعتبر الحصول على المعلومات من العدو أمراً حيويّاً آخر، فغالباً ما يكون المزارعون، عكس النساء، مخبرين سيئين.

ويمضي تشي فيبحث في تدريب المتطوعين وبنية قوة الثوار. يجب أن لا تمنح الترقيات إلا للرجال الذين يستحقونها فقط، والذين يشبتون

جدارتهم من خلال القتال، لا كما هو الأمر في قانون الجيوش النظامية في بلدان أمريكا اللاتينية. فلا يمكن أن يكتب النجاح لقوة الثوار إن لم يكن هناك قائد فذ يمنحها الوقت الكافي للتدريب في حرية تامة. ذلك أن قوة الثوار لم توجد لضرب الجيش النظامي وقلب الحكم فحسب، بل لكي تحمي السلطة بعد الانتصار. ويجب أن يسرح الجيش النظامي ليحل محله جيش الشعب وقوامه فلاحون وعمال وجنود.

ويحلل تشي في آخر فصل من كتابه «حرب العصابات» وضع كوبا الراهن ومستقبلها. وهو يشرح ما فعلته الحكومة الثورية منذ أن تسلمت السلطة، ويظهر كيف أن هذه الأعمال هي النتائج المنطقية للحرب ذاتها. وكان مؤكداً أن تقود هذه الإصلاحات الراديكالية إلى إحداث ثغرة في القوة الامبريالية للولايات المتحدة التي درجت على حكم كوبا، ولكن كوبا لم تعد بحاجة إلى الولايات المتحدة، ولا هي بخائفة منها؛ إذ لا حاجة للبلدان التي تحرر نفسها أن تخشى القوى الاستعمارية التقليدية والقوى الاستعمارية الجديدة التي تستعدها أثناء عمليات التحرير. ويشرح تشي العقوبات الاقتصادية والضغطات التي فرضتها السياسة الأمريكية الشمالية على كوبا، وينبغي أن يكون في مقدور هذه الضغوطات تحطيم الاقتصاد الكوبي. قد تحاصر الولايات المتحدة جيش كوبا وسلاح البحرية والسلاح الجوي وتلحق الأضرار بها. لكن الثورة ستبقى حية لأنها وفت بوعودها للشعب الكوبي الذي سيدافع عن الثورة حتى الموت.

ليس الفصل الأخير خطبة وطنية مجردة، بالرغم من أنه كتبه في الفترة الصعبة قبل حصار خليج الخنازير في نيسان عام ١٩٦١. كان لدى تشي نقطة تشغل باله أكثر من غيرها، وهي: أن الثورة لا تستطيع الصمود أمام الخطر الخارجي والداخلي، إلا إذا سارعت بالوفاء بوعودها للجماهير، بحيث تجعل أهدافهم كلها تطابق أهدافها ويشعرون بأن بقاءهم رهن ببقائها. وعندما تؤدي حرب العصابات الناجحة إلى ثورة فيجب أن يثور الشعب بأكمله بعد أن يكون قد وزع

عليه السلاح ليدافع به عن مكاسبه. فبهذه الطريقة يزول الخطر الخارجي حتى لو كان مصدره قوة كبرى؛ إذ تعتبر الأمة بكاملها جيشاً نائراً ضخماً يدافع عن كل شبر من الأرض بالروح نفسها التي يتمتع بها الثوار الأصليون. وفي عرضه للموضوع يتذكر تشي الإخفاق التام الذي منيت به غواتيمالا، حيث لم يكن الشعب مسلحاً تسليحاً كافياً ليحمي نظام أربنز الثوري.

لا يلقى كتاب «حرب العصابات» اهتماماً من المثقفين الغربيين بالمقارنة مع كتابات تشي عن النظرية الاشتراكية، لأن محتوياته تتنافى وأوضاعهم الخاصة، ولأن فيه بضع أفكار عولجت بروح التحدي. ومع ذلك فللكتاب أهمية أكبر بالنسبة للعالم الثالث تفوق كل كتابات تشي الأخرى باستثناء رسالته إلى مؤتمر القارات الثلاث. عندما يفكر الثوريون في أمريكا الجنوبية وإفريقيا وآسيا في تشي، وعندما يفكر به المناضلون السود في أمريكا الشمالية، فإنها يفكرون به من خلال كتابه هذا. فهو فضلاً عن أنه يعطيهم فكرة عامة كاملة عن حرب العصابات كطريقة، ويقودهم خطوة خطوة في هذا المضمار، فإنه يكرر دوماً أن ما حدث في كوبا يمكن أن يحدث في أي مكان آخر مهما اختلفت المقاييس وبعدت المسافات. على الثوريين أن لا يصغوا للأحزاب الشيوعية التقليدية، ولا للعناصر اليسارية الأخرى ممن يعزفون على وتر الظرف المناسب والوقت المناسب، دون أن يتحركوا عملياً محاولين الاستيلاء على السلطة. ويقول تشي: ضعوا الأحزاب والمذاهب والنظريات جانبا، لأن الثورة لا تحتاج إلا إلى بضعة رجال، وبضع بنادق، وإلا إلى بعض التدريب مصحوباً بروح التصميم على الانتصار. ما فعله بضعة كوبيين يستطيع أن يفعله الجميع، فليس هناك من حاجة ماسة لدعم شعبي أو لمذهب عقائدي. فإذا كانت البلاد فقيرة، فسوف يدعم الشعب الثوار فور بدء عملياتهم، فالقتال في حرب التحرير هو الذي يعلم الثوار النظرية المناسبة لهم. الثورة تغذي ذاتها.

وفي كل مكان ذهب إليه، كان تشي يعترف بأن الثورة الكوبية كانت تمتلك ثلاثة عوامل تعمل لصالحها: قيادة فيدل كاسترو، وعدم استعداد الولايات المتحدة للحرب، والرعي الطبقي للمزارعين الكوبيين الذين عانوا من نظام الزراعة. ومع ذلك فهو يذكر أن الثورة الكوبية ليست حالة فريدة. فهي يمكن أن تتكرر في أي مكان آخر. فالعوامل الأساسية يمكن أن توجد في بلدان أخرى متخلفة وشبه نامية. فإذا غاب أحد العوامل النافعة للثورة فلا بد أن يتولد عامل آخر يساعد الثوار الجدد ويشد أزرهم. فما جرى في كوبا يمكن الاهتداء به وتطبيقه.

اعتبر النقاد كتاب «حرب العصابات» كتاباً مشحوناً بالثقافة وسعة الاطلاع؛ إذ يبدو أنه يعقلن الاستجابات المرتجلة للأوضاع التي تجاوزت قبضة فيدل كاسترو. ولم يرفض تشي أبداً هذا الانتقاد، ذلك لأن التحليل ما هو إلا عقلنة النجاح والفشل الماضيين. إن ما رفضه هو اعتبار التجربة الكوبية تجربة فريدة ومنعزلة. قد تكون الحرب الكوبية أساس كل نظريات تشي تقريباً، ولكنه كان يعتقد أن في وسع كل العالم تقريباً دراسة النظرية الكوبية وتطبيقها.

قال هاربرت ماتيسوس عن كتاب ريجي دوبريه «ثورة في الثورة» إنه صياغة جديدة لكتابات تشي التي هي بدورها مأخوذة من صميم أفكار فيدل كاسترو وتجاربه. وما لا شك فيه أن دوبريه كان أفضل تلامذة تشي، وأن تشي وفيدل اتفقا إلى حد كبير على النقاط الواردة في «حرب العصابات»، الذي يعتبر القاعدة لسياسة فيدل الخارجية في أميركا اللاتينية. ومع ذلك فإن الاستراتيجية العسكرية في الكتاب كانت نتاج الخبرة المشتركة لكلا الرجلين: فقد أمضى تشي الشهور الأخيرة من حياته رئيساً مستقلاً لمجموعة من الفدائيين أنيطت بهم مسؤولية شطر الجزيرة إلى جزأين متخذاً القرارات بنفسه بصورة فعالة. إن الحقيقة المهمة هي أن تشي نسب التجربة الكوبية إلى البيئة العالمية. كان تشي واضح النظريات بعد الحرب فضلاً عن أنه كان

واضع الاستراتيجيات الرئيسي خلال الحرب .

يستحيل على المرء معرفة أيهما كان الزعيم العسكري العظيم، تشي أم فيدل . لقد كانا صنوين متماثلين . «فحرب العصابات» عبارة عن خلاصة لأفكار تشي وأفكار فيدل الأصلية المبنية على نتائج كان يجب أن تبدو بديهية لكل الرجال والنساء، لكل من قاتل في الحرب الكوبية . لقد آمنوا جميعاً بإمكان البدء بشورات والانتصار بها في كل بلد من بلدان أمريكا اللاتينية تقريباً، وإن فيدل كان يخاطبهم جميعاً عندما قال: إن كورديلير ألانديس يجب أن تحول إلى سيرا مايسترا أمريكا الجنوبية . أما تشي فقد أراد أن يبين إمكانية حدوث ذلك من خلال كتيب ، وخوضه المعارك في بوليفيا في وقت لاحق . إن نجاح الكتيب ليس موضع شك أو تساؤل بالنسبة لذوي القبعات الخضراء وآخرين من القوى المضادة للثورة والقوات الخاصة من الأمريكيين الشماليين ، كالكتاب المدرسي بالنسبة للطلاب .

ومع ذلك فإن تشي يبدو لنا في النهاية، على نحو فريد، فيلسوفاً للثورة أكثر منه معلم عمل . وكما قال فيدل في مراثته لتشي في ١٨ أكتوبر عام ١٩٦٧ :

«عندما نذكر تشي لا نذكره بشكل خاص لفضائله العسكرية . لا! فالحرب وسيلة وليست غاية . الحرب وسيلة الثوار . الأمر المهم هو الثورة، القضية الثورية، الأفكار الثورية، الأحداث الثورية، الوجدان الثوري، الفضائل الثورية» .

إن «حرب العصابات» ليس إلا كتيباً ، وهو يعتبر أولاً بمثابة تحدٍ لمنظرين آخرين للثورة، فمفاهيمه الأساسية الثلاثة هي : أن القوات الشعبية تستطيع دحر الجيوش، وأن البؤر الثورية تستطيع الامتداد لتخلق ثورة شاملة، وأن الثورة لا بد أن تنتصر في الريف . هذه المفاهيم تحد صريح لنظريات البلاشفة والأحزاب الشيوعية الأخرى . ولقد اتضح خطورتها على أثر الانشقاق الصيني السوفيتي . فجرت المقارنات المألوفة بين نظريات ماوتسي تونغ ونظريات تشي حول حرب

العصابات. فكان رأي الاثنين متفقاً حول أولوية أساليب حرب العصابات، واعتبار الريف منطقة للعمليات. ومع ذلك فإن تشي والثوريين الكوبيين الآخرين يؤكدون دوماً أنهم ربحوا الحرب ضد باتيستا دون علم بالتجربة الصينية. ويحتمل أن يكون هذا القول صحيحاً، فحتى لو كان الكوبيون مندفعين للتأكيد على طابع ثورتهم الفريد فهناك من التطابق ما بين النضال الكوبي والنضال الصيني ما يكفي للافتراض أن قادتهم توصلوا إلى استنتاجات متشابهة. فكلتا الانتفاضتين بدأت في المدن، حيث فشلت في الحصول على الدعم، وخسرت حين اصطدمت في مواجهة مع الجيش النظامي. وكلتاها صمدت في المناطق الريفية، حيث كسبت الدعم الشعبي وبدأت في إلحاق الهزيمة بالجيش النظامي. وهذا ما دفع الثورتين لأن تجعلاً من الإصلاح الزراعي هدفهما الثوري الرئيسي، وتضعاً للفلاحين في مكانة البروليتاريين المدنيين، كطبقة ثورية جيدة في الصين وكوبا.

كان لحقيقة انتصار الثورة الكوبية بدون دعم الحزب الشيوعي الكوبي، ولكون الكوبيين انتصروا قبل أن يتخذوا هم أنفسهم الشيوعية عقيدة، ما يعلل، بصورة رئيسية، عدم التزم في كتابات تشي في «حرب العصابات». والصينيون لم يجرؤوا مطلقاً على تقديم مثل هذه البدعة. فقد دفعت التجربة الكوبية تشي لأن يبشر باستقلال مجموعة الثوار خارج السيطرة المركزية لوجدانية الأحزاب الشيوعية المتمركزة، على الأغلب، في المدن. فقد جرى تطوير هذه النظرية أكثر من ذلك على يد دوبريه في كتابه «ثورة في الثورة». إنه يذكر بإحدى القضايا التي قادت إلى الانشقاق بين الفوضويين والماركسيين في القرن التاسع عشر. هل يتوجب أن يوجه النضال الثوري من تنظيم مركزي لحزب، أم بواسطة أولئك الذين يخوضون القتال في المكان نفسه؟

إن بدعة الكوبيين هذه قد انبثقت من تعظيم تشي للثائر نفسه. ففي مقال بعنوان «من هو المقاتل الثائر؟» قدم تشي في عام ١٩٥٩ صورة رائعة للبطل المثالي، «مشبهاً إياه بالملك الهادي الذي هبط على المنطقة،

لمساعدة الفقير دون اهتمام يذكر بالغني». لذا فالثائر المقاتل كالشيء القدسي تقريباً، هدية علوية هابطة من السماء، نظير روبن هود، أو المنقذ، هو الفارس الذي يتصرف بنبيل وشهامة حتى مع أعدائه. وإذا أضيفت هذه الرؤى التكتيكية والحضارية والخلقية التي حددها تشي أيضاً كضرورات بالنسبة للثائر، فإن صورة الفدائي تكون قد حلت محل صورة القديس. إن هذا المفهوم المثالي لرجل العصابات بعيد عن مفهوم المجرم المشهور، الذي يتربص في الغابات، لينصب الفخاخ ويعيث في الأرض فساداً شأنه شأن شخص حقير يحمل قضية. والفرق بين هذا وذاك كالفرق بين الفاتحين الإسبان، وصور القديسين المسيحيين المناضلين الذين نصبوهم في الكنائس الكاثوليكية في الأمريكيتين كي يبرروا أعمالهم السالفة.

إن إعطاء الثوار شكلاً مثالياً يحمل معنى سياسياً. فقد ساعد فيدل كاسترو ورفاقه المقربين من ثوار السيرا مايسترا على أن يستولوا على المناصب المهمة في الحكومة الجديدة بعد سقوط باتيستا. كان باستطاعتهم أن يبرروا لأنفسهم إقصاء كل السياسيين والمعتدلين الذين لم يقاتلوا في الجبال. لذا فإن قيام تشي بإسباغ صورة البطل على الثائر، يهدف إلى تبرير استيلاء الثوار الكلي على السلطة في كوبا. وكتب تشي يقول «إن أفضل تدريب يقوم به الجندي في حرب التحرير، هو خوض حياة حرب العصابات نفسها. إن القائد الذي لم يتعلم مهماته الصعبة من خلال ممارسة حمل السلاح ليس بالقائد الأصيل». وقد انتبه ريجي دوبريه إلى هذه النقطة عندما كتب عن الرجال الذين قاتلوا في السيرا مايسترا فقال: «لقد خاطروا بكل شيء من الناحية الاستراتيجية، كي يفوزوا بكل شيء. وفي النهاية استحقوا أن ينالوا كل شيء». إن قادة الحزب الشيوعي في كوبا لم يخاطروا بكل شيء، وكذلك السياسيون المنفيون، ومثلهم الجماعات الديمقراطية التي وقفت ضد باتيستا. إنهم لا يستحقون إلا أن يكونوا في مرتبة أدنى من أولئك الذي حصدوا نتاج نصرهم من خلال القتال.

وقد وصف تشي في مقالته المكتوبة عام ١٩٥٩ النصر المسلح للشعب الكوبي بأنه «معدّل للعقائد القديمة». إن العقائد القديمة كانت لأولئك الذين ادّعوا الثورة، ومع ذلك فقد راحوا يؤجلون بدء القتال إلى اللحظة المناسبة التي لم تجيء قط. لقد تلمسوا النجم الأحمر في نهاية قوس قزح. إن أولئك الثوريين الزائفين هم بصراحة أعضاء الأحزاب الشيوعية التقليدية في أمريكا اللاتينية. لذا فإن تشي بدأ مناظرة ما زالت محتدمة منذ ذلك الحين بين المؤيدين لاتباع أسلوب «السلم» أو أسلوب «العنف» للاستيلاء على السلطة. وإلى حدّ ما قاد مذهب تشي في هجوم حرب العصابات المباشر إلى وضع نهاية للأحزاب الشيوعية التقليدية في أمريكا اللاتينية بصورة أكثر فعالية حتى من الطرق التي اتبعتها الحكومات العسكرية التي اضطهدتهم. وكثيراً ما كان تشي يردد: قد يكون مفعول الفكرة أقوى من مفعول فوج.

وفي أمريكا اللاتينية انفصل أتباع النظريات «الغيفارية» عن الأحزاب الشيوعية التقليدية. فقد كان المثال الكوبي أكثر إثارة للخلاف في الدوائر الراديكالية في أمريكا اللاتينية، بل حتى أقوى من الانشقاق بين روسيا والصين، بالرغم من أن الروس قد عمدوا إلى دعم مؤيدي التغيير «السلمي» للحكومة عن طريق الاضطرابات والتحريض والتسلسل، بينما راح الصينيون يدعمون التغيير «العنيف» عن طريق ثورة حرب العصابات. لقد أحدث الخلاف ضعفاً، وسبب حدوث انشقاق في الصفوف الراديكالية، قد يكون أعاق عقرب ساعة الثورة عدة سنوات. ولاشك في أنه ساهم في هزيمة تشي نفسه في بوليفيا ثم مقتله هناك، ولكنه كان صداماً لا بد منه إكراماً لمستقبل شبه القارة.

من بين المنظرين الثلاثة الرئيسيين لمسألة الهجوم المباشر لحرب العصابات، وهم كاسترو، وغيفارا، ودوبريه، كان تشي يبدو أكثرهم أهمية؛ فهو أول من أبرز المسألة، وأول من خاطر بكل شيء لكي

يثبت صحة القضية، وأول من مات بسبب نظرياته. قد يصمد الشيوعيون التقليديون أمام الهجمات الأيديولوجية التي يتضمنها كتاب «حرب العصابات» وقد يعيشون ليروا بأم أعينهم محاولات أخرى تسير على خطى النموذج الكوري وتلقى هزيمتها على أيدي القوات الحكومية، ولكنهم على الأرجح لن يصمدوا أمام الاتهام الموجه إليهم من خلال المثل الشخصي الذي قدمه تشي نفسه. إن عودة تشي إلى القتال وموته كانا بمثابة الإدانة لهم.

أحدث كتاب «حرب العصابات» من العوامل الانفجارية حال ظهوره أكثر مما أحدثه البيان الشيوعي في حينه. ولقد خاض بعض الرجال والطلاب من الذين اقتدوا بكتابات تشي وبمثله حروبهم الخاصة في التحرير مختارين، أحياناً، المدن والجامعات في البلدان النامية كميادين قتال بدلاً من الجبال والغابات، وإذا قدر لهم أن يربحوا، فإن تشي يكون قد برر لهم حق الاستيلاء على جهاز الحكومة الكامل، وتجاهل تهمة الانتهازية التي توجهها له المؤسسات الديمقراطية والأحزاب السياسية القائمة. كذلك فقد أعطى الثوار مزيداً من التبرير للاستهزاء بإزادة الحزب الشيوعي في بلادهم، ذلك أن من حقهم بل من واجبهم أن يضعوا تنظيمهم الثوري الخاص مكان سلطة قوة الحزب التقليدي الذي مسّه الكبر والضعف. ويرى تشي أن على مجموعة الثوار أن تقاتل وأن تريح وأن تحكم مدعومة من الشعب. أما الحكومات والأحزاب القديمة التي فقدت دعم الشعب فيجب أن تندحر أو تهمل. حرب العصابات تصنع القائد، والثورة تصنع ذاتها.



الفصل الرابع

تطور مسيرة الثورة الكويتية

هيا فيدل كاسترو مهمة الثورين الشباب الذين دخلوا إلى هافانا يوم أن خلع باتيستا في عام ١٩٥٩ وقبل ذلك بخمس سنوات، وعندما أطلق باتيستا سراحه من السجن صرح كاسترو بأن: «حريتنا لن تكون مهرجاناً أو استراحة، وإنما هي نضال وواجب». وكان معظم رفاق فيدل غير مهياين بشكل كاف لخوض الصراع ولمهمة إدارة البلاد، ولكن تشي كان من القلائل الاستثنائيين وحتى لو لم تكن لديه خبرة عملية في الاقتصاد أو الدبلوماسية أو الإدارة أو السياسة. فقد كان رجلاً مثقفاً، وصاحب فلسفة، سبق له أن أظهر مهارات إدارية في السيرامايسترا بعكس الأبطال الشجعان - الأميين تقريباً - أمثال جوان ألميدا وكاميلو سوينفيغوس (Camilo Cienfuegos). ومع ذلك فإن مهمات تشي الحقيقية داخل حكومة كاسترو كانت أقل أهمية من الدروس التي تعلمها من مهماته والتي طبقها فيها. فكما كان منظراً للثورة كان كذلك منظراً للحكومة، وثمة اختلاف في وجهات النظر حول أهمية تشي بالنسبة لنظام حكم فيدل كاسترو. فالبعض يجدون فيه الرجل الوحيد الذي كان بوسعه أن يبني أيديولوجية وبرنامجاً للثورة بطريقة متواصلة ومنظمة. ولقد أكدت جوانا، شقيقة فيدل كاسترو، التي هاجرت من الجزيرة بعد الثورة، وأكد معها آخرون، أن تشي هو الذي حول الشوار تحويلاً حقيقياً. وهناك مؤرخون آخرون لكوبا لم يعطوا تشي إلا دوراً ثانوياً دون أن يكون له أثر جوهري في مسار التجربة الكويتية، واعتبروا معظم نظرياته مجرد

اقتباسات لأفكار وأعمال الشعوب الأخرى . فبالنسبة إليهم كان تشي مترجماً لسيرة الثورة الكويتية .

ويبدو أن الحقيقة تكمن بين الطرفين . فمما لا شك فيه أن تشي شارك في الثورة بنفس القدر الذي شارك فيه فيدل كاسترو، تقريباً . فبدون تحليلات تشي اليقظة وفصاحته الواضحة في أعمال مثل «الإنسان والاشتراكية في كوبا» كانت الثورة الكويتية ستظل تعاني من فقدان التحديد والطوباوية . كان فيدل محامياً وقائداً أسندت إليه مهمات القوانين والبيان وإلقاء خطب الدفاع والهجوم أمام أفراد الشعب باعتبارهم هيئة محلفين . أما تشي فكان طبيباً مهمته التشخيص والمعالجة، فهما بالنسبة له تعنيان الحياة والموت .

ومن خلال مركزيهما في كوبا فرض كل من فيدل وتشي مواقف مختلفة . كان على فيدل أن يبقى على استمرارية الثورة وصيانة اقتصاد الجزيرة من الانهيار . كان عليه أن يجعل من الصفقات السياسية أمراً ضرورياً، وذلك مراعاة لمقتضيات الأمن الداخلي والقروض الخارجية . وكان عليه أن يوازن بين القوى التي يتنازعها أتباعه، وأن لا يغفل تطلعات الشعب الكويتي وشكاواه، ثم كان عليه أن يسعى لكسب الدعم الروسي دون أن يثير الولايات المتحدة إلى درجة التدخل العسكري . لقد استحوذت الأعمال اليومية لتسيير البلاد على أوقات كاسترو واهتماماته .

فبينما كان كاسترو يعالج المشكلات حال ظهورها في السيرا مايسترا ثم في هافانا بعد ذلك، كان مساعده تشي يركز على إيجاد نظرية لما اعتقد أنه يتوجب فعله . إن شهادات المراسلين توضح أن فيدل كاسترو لم يتخيل شكل حكومته في المستقبل عندما كان يقاتل في الجبال . وقد كتب هربرت ماثيوس يقول : «لقد آمن فيدل بسداجة

(وأنا أستعمل هنا كلمته الخاصة التي قالها لي) أن باستطاعة الثوار أن يقوموا بثورة راديكالية اجتماعية بطريقة ديمقراطية، لأن هدفه الأساسي هو الثورة، أما الديمقراطية فكانت، ببساطة، الطريقة التي ظن أن بوسعه اتباعها. فقد غير أسلوبه لا هدفه عندما وقع الصدام! ولمّا كان تشي دوماً الرجل المتطرف على يسار قادة الثوار، فإن اصطدام فيدل بالتقدم نحو الديمقراطية والتضليل المفترض بأهداف الثورة يعود جزئياً إلى نتيجة الأخذ بنصيحة تشي».

في السنوات الأولى من الثورة ساعد فيدل وحركته في إقامة حكومة من المعتدلين والليبراليين تتألف من كهول لهم سمعة طيبة ومن كانوا يعارضون باتيستا. وسرعان ما اصطدمت هذه المجموعة الليبرالية مع القادة الأكثر تطرفاً من الثوار، الذين شعروا بضرورة تنفيذ وعودهم الكثيرة للمزارعين الكوبيين، وأن الإصلاح الراديكالي يتطلب إجراءات صارمة. وبعد وقت قليل استغنى فيدل عن جميع المعتدلين واستعان برفاق له من اليسار مايسترا. وكما يروي سيليا سانشر فقد ظن هؤلاء أن عليهم أن يحكموا من خلال المعتدلين، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أنهم سادة الجزيرة. ويومها تبلورت أفكار تشي بالنسبة لحكومة الثوار وأصبحت لها دلالتها ومفهومها. وإذا كان لا بد من إجراء تغييرات راديكالية، فإن قادة الثوار وحدهم، هم الذين يستطيعون القيام بذلك.

إن تحليل السنوات الست التي قضاها تشي في كوبا بعد عام 1959 هو في الحقيقة تاريخ الثورة الكوبية. وعندما قال جان بول ساترتر، أن تشي «أكثر الرجال كمالاً في عصره» كان يعني بذلك أن تشي عاش كلماته الخاصة، وتكلّم عن أعماله الخاصة، إلى درجة أصبح فيها تاريخه الشخصي ومجتمع الخواص يحدثان عن القصة نفسها. إن التعقيد في

الثورة الكوبية من حيث تفانيها وأصالتها، وتجاربها وسقطاتها، كان بمثابة مرآة سوداء لتشي غيفارا. فبينما كان تشي يساعد في قولبة الثورة كانت الثورة تعمل على قبولته. ولكن بقيت كتابات تشي وأعماله في ستة مجالات أموراً أساسية بالنسبة للتجربة الكوبية : الزراعية، والصناعية، والسياسية النقدية، والحوافز الخلقية، والوعي الثوري، والشؤون الدولية.

كانت كوبا مجتمعاً زراعياً بصورة رئيسية. . . لذلك فقد توجّب على الثورة الكوبية أن تكون ثورة زراعية. لقد أملى كل من اقتصاد الجزيرة وإحساس المقاتلين في السيرا مايسترا السياسة التي تعطي الأولوية للريف. فمبيعات السكر تشكّل وحدها ثلاثة أرباع دخل البلاد من العملات الأجنبية. لقد تحدّد شرط الازدهار الكروي بمحصول السكر، ومع ذلك فقد كان العمال الذين لا يمتلكون الأرض والذين ينتجون السكر، يعاملون دون معاملة الحيوانات، بينما كان العمال المدنيون ينعمون، نسبياً، بالامتيازات. كانت الثورة بحاجة إلى دعم وتأييد الفلاحين، فذكريات حرب الجبال، وتمجيد تشي للفلاحين بوصفهم الطبقة الثورية، هما العاطفة الوحيدة التي تكمن خلف أية ضرورة سياسية. وقد سبق أن بدأ الإصلاح الزراعي في المناطق التي استولى عليها الثوار. وبما أنهم يسيطرون على الجزيرة بكاملها فينبغي أن يشمل الإصلاح الجزيرة بأكملها.

لقد كان تشي واضحاً في وصفه الطريقة التي تتفاعل بها حاجات الثوار والفلاحين وسياساتهم.

«إن الرجال الذين وصلوا إلى هافانا بعد عامين من النضال القاسي في الجبال وفي سهول أورينتته (Oriente)؛ في منخفضات كاموجويه وفي جبال وسهول ومدن لاس فيجاس، لم يكونوا من الناحية

الأيدولوجية من الرجال الذين نزلوا على سواحل لاس كولارادوس، أو الذين شاركوا في المرحلة الأولى من النضال. فقد تحول ارتياهم بالمزارع إلى محبة واحترام لفضائله، وانقلب جهلهم المطبق بالحياة في الريف إلى معرفة بحاجات العمال الذين لا يملكون الأرض. ومع الممارسة ازدادوا معرفة بالإحصائيات وبالجوانب النظرية وجوانب التطبيق. لقد واجه هؤلاء الرجال الامبريالية بشعار الإصلاح الزراعي الذي سيعطي الأرض لجميع المعدمين، بينما سيحرمها على مالكيها الذين استولوا عليها ظلماً. لقد تعلمنا من الفلاحين أنه لا حدود للجهود وللتضحية التي بوسعنا أن نقدمها جميعاً بينما نقاتل من أجل مصير الشعب».

في هذه الفقرة الهامة كان تشي يشير إلى نقاط أساسية ثلاث: الأولى أن الفلاحين هم الذين شكّلوا الثوار، والثانية أن الإصلاح الزراعي قد بدأ خلال الحرب، والثالثة أن مهاجمة الامبريالية كانت النهاية المنطقية للإصلاح الزراعي. كان الإصلاح الزراعي وعداً وفي به الثوار، وضرورة داخلية، وسياسة للخارج.

لذا فإن أهم قانون صدر عن الحكومة الثورية الجديدة كان قانون الإصلاح الزراعي الأول في أيار (مايو) ١٩٥٩. فقد أمت جميع المزارع الكبيرة والممتلكات الأساسية، ووضعت سياسة تؤكد على نقل الاقتصاد من اقتصاد يعتمد على محصول واحد إلى اقتصاد يعتمد على التنوع في الزراعة. كان الهدف هو تحقيق التشغيل الكامل على مدار السنة. وأقيمت المزارع التعاونية ومزارع الدولة كنهاج، وأُعطي صغار المزارعين الذين احتفظوا بأراضيهم قروضاً، وعُلموا الوسائل المحسنة لفلاحة الأرض. وقد شرح تشي أثر أول إصلاح في المجتمع الكوبي قائلاً:

«إن الإصلاح الزراعي الراديكالي، وهو النوع الوحيد الذي يستطيع إعطاء الأرض للمزارع، يصطدم مباشرة مع مصالح الامبريالية وكبار الملاك وأصحاب المواشي والسكر. إن البورجوازي يخشى الاصطدام مع تلك المصالح، بعكس البروليتاري، لذا فإن الثورة توحد العمال والفلاحين. إن العمال يدعمون المطالب التي ترفع في وجه كبار الملاك، والفلاح الفقير الذي أعطي السيطرة على الأرض، يدعم السلطة الثورية بإخلاص ويدافع عنها ضد الامبريالية وضد أعداء الثورة».

أظهرت هذه العبارة التطور في أفكار تشي وفي الثورة الكوبية. لقد خُص تشي إلى أن الطبقتين اللتين قدمتا الدعم للثورة هما طبقة الفلاحين وطبقة العمال المدنيين؛ فالفلاحون ساعدوا بإخلاص شديد في المعارك الأولى، وطبقة العمال المدنيين ساعدت في الدفاع عن الفلاحين في المراحل الأخيرة من الثورة في وجه الأعداء المشتركين: مالكي الأراضي، والمصالح الأجنبية، والبورجوازية، وهي طبقة بدأ الإصلاح الراديكالي في تحويلها ضد الثورة. وقبل هذه المرحلة وصفت الثورة بأنها لا طبقية. لقد لُقّب الفلاحون بـ«الطبقة الطليعية»، ولكن هذا التعريف لم يستثن «البورجوازية الطيبة» التي سبق أن شاركت في الثورة والتي أفرزت معظم قادة الثوار والمؤيدين لهم من المدنيين، ولم يستثن التعريف أيضاً العمال الصناعيين، بالرغم من مشاركتهم الضئيلة في هزيمة باتيستا، ودعمهم الفاتر خلال الحرب.

أما الشيوعيون الكوبيون فقد اضطربوا بالفعل بالنظر إلى الطبيعة اللاتطبقية للثورة الناجحة، وكتب عن ذلك خوان مارتيللو الشيوعي في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٩ يقول: «إن الثورة الظافرة لم تكن من عمل حزب واحد أو طبقة واحدة أو مجموعة واحدة، إنها الشعب

هو الذي حقق الانتصار». ولقد وافق تشي على هذا الرأي، فهو يرى أن الثورة حققت الانتصار «بمساعدة جميع الرجال من جميع الآراء وجميع الديانات والطبقات الاجتماعية». «إنها ملك الجميع» وقامت بتوحيد الشعب على نحو رائع». وكان تشي هو الذي ارتأى التأكيد على دور الفلاحين كطبقة، وها هو الإصلاح الزراعي يعود إلى مفهوم الصراع الطبقي. فقد قسم المجتمع الكوري إلى معسكرين: فهناك أصحاب الأراضي يساندهم قسم كبير من الطبقة الوسطى الذين يخشون بدورهم من مصادرة أملاكهم لاحقاً، وهناك من الناحية الأخرى الفلاحون المدعومون من العمال المدنيين.

لقد حدث ذلك أثناء فترة انعطاف القادة الكوريين نحو الماركسية - اللينينية، وأثناء مرحلة إقامة علاقات ودية مع الحزب الشيوعي الكوري، وإبان تفاقم العلاقة مع الولايات المتحدة بعد تأميم المزارع التي يمتلكها أمريكيون شماليون وتدعيم الصداقة الجديدة مع الاتحاد السوفياتي المغتبط ببسط نفوذه على مقربة من شواطئ فلوريدا. وأكثر من ذلك، فقد بدأ العمال المدنيون يدركون مصلحتهم أيضاً في الثورة الريفية، بينما نفرت الطبقة الوسطى بشكل متزايد من خلاف فيدل مع القادة الديمقراطيين القدامى ومع الولايات المتحدة التي استمرت مدة طويلة صاحبة النفوذ الأساسي على البورجوازية الكوبية.

كان تشي يلعب دور المحرض والمنظر في التحول الذي طرأ على سياسة الحكومة، فقد التقى هذا التحول مع تطور تفكيره الذي بدأ في غواتيمالا ونما في مدينة المكسيك وتكون في السيرا مايسترا. لقد دفعته الحرب الثورية ضد باتيستا وطغيانه إلى أن يركز حقه مدة من الزمن على عدو شخصي وتابعيه. إن للطغيان وجهاً مميزاً، ولكن بعد الانتصار بقليل أدار تشي ظهره لهذه الضغينة، وأصبحت الامبريالية

الخارجية عدواً حقيقياً كما كانت في غواتيمالا، وبدا أن الحل الوحيد الدائم لمشكلات الدول المتخلفة في دفاعها ضد القوة الاقتصادية للامبريالية يكمن في خلق الصناعات أكثر منه في تطوير الزراعة، مهما كان توزيع الأرض عادلاً للفلاح الفقير.

وسرعان ما بدأ التأكيد في خطب تشي يتحول. فقد قلّ الكلام عن الفلاح وكثر عن العمال (الشغيلة)؛ وقلّ عن الإصلاح الزراعي وكثر عن الصناعات الجديدة. وفي تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٩ ترأس تشي الدائرة الصناعية لإعادة التنظيم، ثم بعد أن عمل مديراً للبنك الوطني عين وزيراً للصناعة في شباط (فبراير) عام ١٩٦١. كانت مهمته الأولى الإشراف على تحويل المنتجات الزراعية والفضلات إلى منتجات صناعية، وكانت مهمته الأخيرة أن يوجد ميادين جديدة تجعل كوبا تحقق اكتفاءها الذاتي. لقد أصبح النمو شغله الشاغل.

«من هو المتخلف؟»

المتخلف عبارة عن قزم له رأس ضخّم، وصدر منتفخ، إلى حد يجعل ساقيه الضعيفتين أو ذراعيه القصيرتين لا تتناسقان مع باقي جسمه. . . . إن بلادنا مشوهة بسبب الامبريالية التي قامت بشكل غير عادي بتطوير الموارد الصناعية أو الزراعية الضرورية لتكامل اقتصادها المعقد. يحمل «التخلف» أو النمو المشوه معه تخصصاً خطيراً في المواد الخام محتويّاً على خطر المجاعة لكل الشعب. نحن «المتخلفون» نقع ضمن أولئك الذين يعتمدون محصولاً واحداً وإنتاجاً واحداً وسوق تصريف واحدة. فهناك منتج واحد غير واثق من بيع إنتاجه لأنه يعتمد على سوق واحدة تفرض مجموعة شروط - هذه هي المعادلة الكبرى للتسلط الاقتصادي الامبريالي، المتحدة مع الدولة الرومانية القديمة والمفيدة دوماً: فَرِّقْ واحكَمْ».

كان لحقيقة ارتباط الاقتصاد الكوبي بحصة استيراد السكر التي أقامها الكونغرس في الولايات المتحدة ما يثبت رأي تشي حول الدول المتخلفة.

لم يشعر تشي بأنه كان يبتعد عن الفلاحين في تأكيده الجديد على العمال (الشغيلة) في المدن. كان الفلاحون سيكافأون بإصلاح الأرض، والمكاسب الاجتماعية، والتشغيل الكامل، والتعليم، والمكننة وتنويع المحصول. أما الآن فهناك طبقة واحدة تستطيع تحرير كوبا من تخلفها وهي طبقة الشغيلة المدنيين. فقد جاء دورهم ليكونوا «الطبقة الطليعية» للشورة، فقد حكم على البورجوازية بالإخفاق في عام ١٩٦١. وكان تشي يرى في العطف الذي أبدته الطبقة الوسطى أثناء القتال ضد باتيستا عطفاً محدوداً، وذلك نتيجة للضغوط الامبريالية على مصالح البورجوازية الكوبية.

كان لابد من إعلان حرب جديدة على الطبقة الوسطى. وهنا كشف تشي النقاب عن مدى أهمية مثل «الفاتحين» بالنسبة للشوار الاثني عشر الذين بقوا على قيد الحياة ليغزوا الجزيرة بأكملها، تماماً كما بقي بيزارو حياً مع الرجال الثلاثة عشر في جزيرة جالو قبل غزو البيرو بأكملها. لقد رسم بيزارو خطأً على الرمال سار عليه حفنة من الرجال فقط، بينما تقهقرت باقي القوة تجر ذيل اليأس والإخفاق. ولكن مجموعة بيزارو الصغيرة صمدت لتربح بيرو، تماماً كما صمدت مجموعة فيدل لتفوز بكوبا. والآن استحضر مثل «الفاتحين» العظماء من قبل تشي ليوضح هجومه على أعداء الثورة الجدد. «لقد رسمت كوبا الخط على الرمال مرة أخرى، ونحن نرى مرة أخرى مآزق بيزارو. . . فهناك من جهة المحبون للشعب، وهناك من جهة أخرى الكارهون للشعب. وبين أولئك وهؤلاء، يبرز الخط الذي يقسم القوتين

الاجتماعيتين الكبيرتين، البورجوازية والطبقة العاملة، اللتين تحددان بوضوح متزايد مواقعهما المتتالية أثناء تقدم عملية الثورة الكوبية». وكما هو الأمر دوماً، حدّد تشي تاريخ انشغاله بالصناعات الجديدة منذ تجاربه في السير مايسترا، فلقد قال: «لقد تذكر فيدل كيف أقمنا مرة مصنع أحذية صغيراً، ومنذ ذلك الحين أصبحنا منتجين صناعيين». أصبحت إقامة الصناعات الآن جزءاً من نضال الثوار ومن الصراع الشامل لتحرير العالم الثالث. «كان أثر كوبا العظيم يظهر في قوتها السياسية كتجسيد لجميع الدول المتخلفة التي تناضل من أجل حريتها. لقد قامت علاقة متبادلة بين عنصري الثورة. إن هدف تلك الدول التي تقا تل من أجل حريتها هو أن تنتج الصناعات من أجل نيل تلك الحرية». لذا كان النضال الثوري بالنسبة لبلدان العالم المدخل الوحيد للتقدم الصناعي ضد التسلط الامبريالي الاقتصادي.

ومن الطبيعي أن يتطلّب التقدم الصناعي صفات عديدة يتحلّى بها العامل كذلك الصفات الضرورية التي يتحلّى بها الثائر. فلا بد للعمال المدنيين من أن يتعلموا روح التفاني والإخلاص المشابهة لتلك التي امتلكها المقاتل الريفي. لقد قاتل الفلاحون وربحوا المرحلة الأولى من الثورة، لذا فإنهم كانوا يتلقون مكافأتهم نصيباً من الأرض يستغلونها استغلالاً صحيحاً. والآن على العمال أن يقاتلوا في المرحلة الثانية من الثورة التي تتطلب خلق قاعدة صناعية في الداخل. وبينما يجري تنفيذ ذلك، لابد للعمال من أن يضحوا بالعديد من المكاسب الاقتصادية التي نالوها مقدماً، وبالتحديد الأجور التي رفعت مستوى معيشتهم درجات فوق مستوى معيشة العامل الريفي. يتوجب على العمال الآن أن يضحوا بالمنافع الشخصية إكراماً للثورة، فلا ينظروا إلى الدولة الجديدة على أنها رئيس آخر لكنه بخيل هذه المرة. فعلى العمال عندما

يكون مستواهم المعيشي مقبلاً على الانخفاض أن يثقوا بالمستقبل الزاهر لهم ولأطفالهم مع نجاح الثورة. ومن الأفضل أن يفعلوا ذلك فرحين مستبشرين كي تكون تضحياتهم جديرة بالاعتبار.

لقد رأى نقاد تشي أن تحوله - لا شك - هو تحول كلي، فعندما احتاج إلى دعم الفلاحين دعاهم إلى التضحية الذاتية ودعم الإصلاح الزراعي، وعندما احتاج إلى العمال المدنيين أكثر مما احتاج الفلاحين دعاهم إلى التضحية الذاتية باسم النمو الصناعي. وقد ركز على مهاجمة ملاك الأراضي من الثوار والفلاحين خلال المرحلة الأولى، وخلال المرحلة الثانية هوجمت البورجوازية لاسترضاء الشغيلة. وفي كلتا الحالتين بدا أن النظرية والعقيدة استعملتا لتبرير السياسة الواقعية، مثال ذلك ما جرى من مغازلة الحزب الشيوعي المحلي عندما دعت الحاجة إلى الاستفادة من قوته في النقابات كي يحول بين العمال المدنيين وبين الاضراب. لقد ظهر تشي وكأنه لا يفعل شيئاً أكثر من إضافة بريق من المفاهيم إلى استراتيجية جديرة بأي سياسي.

ومع ذلك فإن التجربة والتحليل التطبيقي والخطة متصلة على نحو لا انفصام له. لقد جرى نجاح تشي السياسي نجاح كوبا السياسي خلال السنوات الأولى للحكومة الثورية، وكان التفاعل بين عقيدة تشي والسياسة العامة بمثابة زواج في الأهداف تقريباً. وهنا يمكن رسم خريطة توضح التغير في آراء تشي الشخصية وفي أهداف الثورة. ولربما أملت الحوادث جزءاً كبيراً من هذا التحول، ولكن عقيدة تشي لعبت دورها. إن نجاح كل ثورة عظيمة، يتطلب ظهور سياسة وعقيدة منسجمتين تمارسان بنجاح.

تطور مسيرة الثورة الكوبية

الوضع فيما بعد	الوضع في المرحلة الأولى	مكان الصراع
كوبا بأكملها مع التركيز على المدن	السييرا مايسترا والمناطق الريفية	القادة
الثوار كأسياء الموقف السياسي	الثوار كقوة عسكرية	الحلفاء
الشيوعيون والعمال المدنيون والفلاحون	الفلاحون والصلحون المدنيون من الطبقة الوسطى	الأعداء
الولايات المتحدة وقوة المنفيين الكوبيين المتنامية	باتيستنا والجيش النظامي؛ المصالح الكوبية والأميركية الضخمة.	الطبقة الطليعية
البروليتاريون المدنيون	الفلاحون	الأولويات
تأميم الصناعة وتطوير التكنولوجيا، والإفادة الكاملة من الموارد	إعادة توزيع الأرض، وتنوع الزراعة	التجارة والدبلوماسية
روسيا السوفياتية، وأوروبا الشرقية	أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة وأوروبا الغربية	العقيدة
«أنا ماركسي لينيني وسأبقى كذلك حتى يوم مماتي». فيدل كاسترو ١٩٦١	الديمقراطية الإنسانية على أساس الحرية مع الخبز للجميع. «فيدل كاسترو» ١٩٥٩	

الفصل الخامس

تشي في البنك المركزي

احتقر تشي المال نظرياً وتطبيقياً. ففي حياته الشخصية كان على الدوام يوبخ الجشعين، وبدا أنه كان يشبع نفسه ويرضيها عندما يستغني عن النقود لا عندما ينفقها كما يحدث لكثير من الناس. وقاده زهده الشخصي إلى الشيوعية البدائية حيث تكون النقود شراً لا بد منه. كان يشمئز من المال كما يشمئز راهب القرون الوسطى من الربا. وكان منذ شبابه يحتقر أولئك الذين ينفقون كل وقتهم في تجميع الثروات. ويذكر ذلك بزهو وافتخار في رسالته الوداعية لفيدل «لم أترك أي ممتلكات مادية لزوجتي وأطفالي، ولست بنادم على ذلك». وقد يبدو هذا الاعتراف مذلاً بنظر معظم الرجال، أما بالنسبة لتشي فقد كان موضع فخر. كم هو عدد السياسيين في أمريكا اللاتينية الذين بوسعهم أن يقولوا الكلام نفسه عند ترك مناصبهم؟ وكم عدد الذين عملوا منهم في الحكومة ويتمتعون بالقدر نفسه من الاستقامة ولا ينتابهم القلق بالنسبة لمستقبل زوجة تركت مع أربعة أطفال صغار دون مال؟

لم يكن تشي يعارض الطمع عند الأفراد فحسب، بل أيضاً عند المؤسسات والأمم. فقد كان يكره مبدأ القروض الأجنبية ويرى أن هذه القروض يجب أن تكون هبات. وهذه المشاعر لم تدفعه إلى أن يكون العدو الذي يكن الاحتقار للرأسمالية والنشاط الحر فحسب، بل جعلته أيضاً يعارض ممارسات عديدة للكثلة السوفياتية، ومنها بالتحديد قروض روسيا بالفائدة لكوبا. ومما كان يثير غضبه أن يرى العمال في معظم المجتمعات يبيعون عملهم ومهارتهم لمن يدفع أكثر. ولم يكن يقبل أبداً أن يكون الطمع هو الذي يحفز البشر والأمم، ولذا فقد عارض الحوافز المادية لزيادة الإنتاج والحلول المؤلمة التي يقدمها العرض والطلب. كان يفكر بسلم الأجر الواحد، حيث يحصل كل

شخص على الأجر حسب حاجته، إلى أن يلغى النقد جملة. إن الطلب العام على مادة معينة أو مهارة معينة يجب أن لا يؤدي إلى أن يدفع لقاءها أكثر مما يدفع لقاء مادة أخرى أقل شعبية ولكن مطلوبة أكثر من الناحية الاجتماعية.

ومن المفارقات العجيبة أن يقع الاختيار على هذا العدو الرئيسي للنقد ليكون مديراً للبنك الوطني لكوبا قبل أن يصبح وزيراً للصناعة. ومع ذلك فهناك منطق عجيب وراء اختيار تشي. فالمصلح الذي يريد أن يضع حداً للدعارة يجب عليه الذهاب إلى الماخور لا الذهاب إلى بيت امرأة فاضلة. وكذلك شأن من أراد محاربة النظام النقدي القديم، فينبغي عليه أن يصبح مديراً للبنك الوطني قبل خوضه المعركة. مع ذلك فهناك صلة تربط بين اهتمام تشي الخاص بالصناعة في كوبا والقرار الذي اتخذته. كان عليه أن يحصل على القروض والاعتمادات والمعونات من أجل تمويل مشاريعه للعمليات والصناعات الجديدة، فكان لزاماً عليه أن يتقنع بقناع الأسهمي الشرير، كي يبقي عجلات الصناعة دائرة. لقد شارك ماكهيث تأمله حين تساءل: وما وجه المقارنة بين نهب مصرف ما وإدارة هذا المصرف؟

وقبل أن يتولى تشي مهامه الجديدة، ألمَّ إمام الرجل الذكي بالاقتصاد، وبهذا تعلم بسرعة نظرية البنوك، وكتب العديد من المقالات حول التمويل، مقتبساً من المصادر الماركسية والهيكلية، كي يدحض الشيوعيين المتزمتين والاقتصاديين الرأسماليين الذين دافعوا عن النظام النقدي العالمي أو عملوا معه. لقد أملت أخلاق تشي بصورة أساسية نظرياته وبقي تعلمه شيئاً مظهرياً. وبالرغم من أنه تعلم أساليب المصارف، فإنه أراد أن يستخدم التمويل سلاحاً لخدمة أيديولوجيته فحسب. وكفي تثبت العقيدة لا بد أن تنجح الأساليب، أما أسباب اختيار وسيلة دون أخرى فلم تكن أسباباً اقتصادية، وإنما خلقية.

إن رؤيته للإنسان الاشتراكي لم تكن تتعارض مع أفكاره عن الثورة

والحرب والاقتصاد. كان يناضل من أجل خلق ذلك الإنسان الجديد والقضاء على استغلال الإنسان للإنسان. كان على كل شيء، بما في ذلك الاقتصاد، أن يشارك في ميلاد تلك المثل، وهنا تكمن أصالة تشي وأثاره.

أمن تشي بأن الحكومة الاشتراكية الثورية ورثت طرق تفكير عديدة وعظيمة، مغايرة لهدف الثورة، ولا بد من إزالة هذه الطرق في الحال، وإلا فإنها ستفسد روح الرفاقية والراديكالية الجديدين. فلم يكن كافياً تحويل النظام القديم إلى دولة يسعد فيها الإنسان وتؤم فيها الصناعات وتوزع الثروة بعدالة أكثر، فالماركسية والتخطيط المركزي هما أكثر من مجرد أساليب لإدارة الدولة بشكل أكثر فعالية وعدالة. فما لم يستطع النظام الجديد تغيير العلاقة بين الناس أنفسهم، وبين المجتمع، فلا تعني تضحيات الثورة ومعاناتها بما في ذلك الموت والتشويه (من القتال) والخسارة. وأكثر من ذلك، فإن ثورة أخرى ستنبش إذا كان هم النظام الجديد تحسين الوسائل القديمة السيئة ليس إلا.

ذلك أنه إذا ما أريد للاشتراكية أن تعني أكثر من رفع مستوى العيش للأغلبية المسحوقة فلا بد من تحسين نوعية الحياة؛ لا بد من تقديم معنى للعيش إلى جانب التقدم المادي، وفوق كل شيء لا بد لهذا المعنى أن ينطبق على عمل الإنسان. فعلى الاشتراكية أن تضمن «مستقبلاً يكون فيه العمل أكبر شرف يتطلع إليه المرء بحيث يصبح واجباً اجتماعياً وسعادة إنسانية حققة وفعلاً مطلقاً للإبداع». فبينما كان جهد الإنسان مجرد سلعة تباع وتشتري، فإنه - الإنسان - لم يكن بوسعها أن ينظر إلى عمله بعين الرضا والافتخار. لقد كان «واجباً كريهاً وشرّاً لا بد منه»، وذلك كان بلاء الرأسمالية الصحيح، فقد حرمت الإنسان فخره بعمله من حيث كان ينبغي أن يكون مصدر رضاه الأكبر. لقد لطخت الرأسمالية شرف العامل عندما حولته من شخص يزهو بعمله إلى شخص يرى ضالته في ما يربحه من مال لقاء

إنتاجه، وحولته إلى جشع يسخر من ذاته، حيث أصبح يعمل من أجل المادة، لا من أجل العمل نفسه. إن تغيير موقع العامل من عمله وبالتالي تجاهه مربحه كفيلاً بأن يحول الاقتصاد والمجتمع والإنسان نحو الاشتراكية الحققة.

شعر تشي بأنه لا بد من أن تعالج هذه المشكلة خلال فترة الحماسة الأولى من المد الثوري. واصطدم هنا بالشيوعيين من أنصار المدرسة القديمة الذين أرادوا إقامة اقتصاد اشتراكي أولاً، حتى إذا ما نجح ظهرت عندئذ عقلية اشتراكية حققة بين الشغيلة. غير أن تشي لم يوافق على هذا الكلام، لأنه بعد خمسين عاماً من الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ما زال العديد من الحوافز الرأسمالية وطرق التفكير باقياً في صفوف العمال والمديرين؛ إذ ينبغي أن يسبق التشقيف العقائدي ما ينتظره العامل من مكافآت لقاء الإنتاج. «نحن نؤكد أن إنهاء الضمير، سيطور الإنتاج في وقت قصير نسبياً، إلى درجة يضعف فيها أثر الحافز المادي». إن إنهاء الضمير كان يعني دفع العمال إلى أن يعملوا بكل طاقتهم غير مدفوعين بجشعهم أو طموحهم أو خوفهم، وإنما بمشاليتهم وإيمانهم بقادتهم وتطلعهم لمستقبل أفضل لأفراد في مجتمعهم ولأنفسهم. فإذا ما رعت الدولة كل مطالبهم كان بوسع العمال أن يعملوا لمصلحة الجميع دون أن يكون المال هدفهم.

وكانت نظرية تشي عن القيمة التي دعمها فيدل الأساس لكل المناظرة الاقتصادية. فالقيمة لا تحدد حسب العرض والطلب، وإنما حسب قيمة المنتج أو الخدمة من الناحية الخلقية والاجتماعية، وليس حسب قيمتها في السوق. لذا كانت قيمة العمل من الناحية الإنسانية أكثر أهمية من قيمته بتعابير الفعالية الاقتصادية. ينبغي على بنك الدولة أن يقرر الميزانية للمشاريع التجارية طبقاً لقيمتها الاجتماعية، لا أن يمنح القروض لاحتكارات الدولة التي يديرها مديرون لا هم لهم سوى الإنتاجية، كما هي الحال في روسيا. لقد فكر تشي بالقيمة بمعناها الخلفي القديم، وليس بتحديداتها الاقتصادية الضيق. فالرجل

الاقتصادي هو المسخ الذي صنعه النظام الرأسمالي، وأما الإنسان فهو الكائن الاجتماعي والسياسي الذي حدده الفلاسفة اليونانيون القدامى. فينبغي على النظام الاقتصادي أن يخدم قيم الإنسان عن طريق خدمة قيم المجتمع الذي ينتمي إليه الإنسان، وعلى هذا فالمال لا يستحق أن يشغل حيزاً في حياة الإنسان.

لقد سيطرت هذه النظرية الطوباوية عن القيمة على قرار تشي كمدير للبنك الوطني. فقد اعتقد أنه ليس من العدل تشجيع المنافسة بين مشروع تجاري للدولة ينتج الجعة «البيرة» وبين آخر ينتج الكتب المدرسية، لمجرد أن بيع الجعة أوسع بكثير من بيع الكتب المدرسية. إن توسيع صناعة الجعة بسبب كثرة ربحها أمر غير مرغوب من الناحية الاجتماعية، إذا كان يعني تخصيص مال أقل لإنتاج الكتب المدرسية. وكان من واجب البنك الوطني أن يقدر القيمة النسبية للمادتين بالنسبة للمجتمع الكوي، وأن يخصص ميزانية لكل من المشروعين محددة بالقيمة الاجتماعية للمادة المنتجة، عوضاً عن الربح الذي تجنيه الدولة الكوية. وكان يجب أن تكون القروض التجارية بلا فائدة، لتفادي أي ضغط يمارس على المشروع، مما يمكن أن يفسد هدفه الاجتماعي في نشدانه للربح. وبنفس الطريقة يجب أن لا يمنح العمال حصة من أرباح المشروع، وإلا فستظهر طبقة عمال من ذوي الامتيازات، وهذه سوف تحصل على دخل يفوق دخل العمال الآخرين الذين أفادوا المجتمع بأكمله بالعمل في مشاريع غير مربحة لهم. إن مكافأة العامل تكون في العمل لصالح الجميع. يجب على البنك الوطني أن يجد من المنافسة والحوافز المفرطة، الأخوين التوأمين للجشع، ويجب أن يعلم قراره القيمة الحقيقية فقط: الرفاقية في خدمة الثورة.

دفعت هذه المعتقدات تشي إلى القيام باختيارات صعبة بشأن مسألة التخطيط المركزي. ومن البدهي أن يكون التخطيط المحلي قد قاد إلى شعور أكبر بالمشاركة، ولكنه قاد أيضاً إلى المنافسة بين المناطق المحلية.

أخذ التخطيط المركزي بعين الاعتبار مصلحة الجزيرة بأكملها، وساعد أيضاً في تقديم تقنية وتصنيع أفضل. ووصف تشي المنافسة الرأسالية في إحدى خطبه التي خصصها للدفاع عن التوجيه المركزي بأنها «صراع بين الحيوانات»، ووصف المنافسة الاشتراكية المحلية التي تهدف إلى تحقيق أقصى الأرباح بأنها «صراع بين حيوانات سجين». كان يسعى إلى إنجاز حاجات الرجال الروحية، أما حاجاتهم الجسدية فقد كانت عرضية. ولقد أراد تشي، حتى في قضية اجتماعية كالعمل الطوعي، أكثر من مجرد العمل نفسه. «إن العمل الطوعي ليس عاملاً لزيادة الإنتاج وحسب، إنه منبع الثقافة الاشتراكية للجماهير».

لذا أراد تشي ومن هم على مذهبه من الاقتصاديين تبني التخطيط المركزي، بحيث تذهب الأرباح للدولة من أجل توزيعها على الاقتصاد وعلى المجتمع بكامله. وينبغي أن تدار الزراعة بالطريقة نفسها التي تدار بها الصناعة، وعلى مزارع الدولة الكبيرة أن تستمر في توظيف جميع العمال ودفع رواتبهم، وأن تكون الأرباح للمنفعة العامة. كما ينبغي أن توجه للصناعة كل العناية بحيث تصبح الهدف الذي من خلاله تتحرر كوبا من السوق العالمية، حيث تبتاع الأقطار المتطورة المواد الخام بأسعار منخفضة، وتبيع البضائع المصنعة بأسعار عالية. وكان التصنيع، أيضاً، الدواء الوحيد لمعالجة تدني مستوى التشغيل الذي ابتليت به جميع الدول المتخلفة. وكذلك فقد كان الإصلاح الزراعي ضرورة أيضاً، كي ينقل البلد المتخلف من الاعتماد على اقتصاد المحصول الواحد إلى الاكتفاء الذاتي، حتى ولو كان ذلك يعني تخفيض المحصول الرئيسي الذي يوفر رأس المال الأجنبي. فالاستقلال الاقتصادي أساس الاستقلال السياسي.

إن الجافز الكامن وراء هذا البرنامج هو الوعي الثوري. «إن بناء الاشتراكية لا يتم بالعمل وحده. إنه العمل والوعي؛ تطوير السلع المادية من خلال صنع الوعي وتطويره». ولكن تطوير الوعي الثوري

ينبغي أن يحظى بأهمية تفوق تطوير الإنتاج. فمثلاً بالرغم من أن المنافسة كانت شيئاً سيئاً عندما شجعت التنافس والفروق المادية سواء في البلدان الرأسمالية أو الاشتراكية، فإنها كانت مفيدة عندما شجعت الرفاق المخلصين على العمل بجهد. وكانت المنافسة سلاحاً ذا حدين. «المنافسة لا يمكن أن تكون مثل لعبة الكرة، حيث يقذف الخاسر الحكم بالبرتقال. فالمنافسة ينبغي أن تكون ودية. لماذا؟ كي يضاعف كل فرد الإنتاج. إنها سلاح لزيادة الإنتاج. وليس هذا فقط، بل إنها أداة لتعميق وعي الجماهير، إنها - المنافسة والوعي - يتم أحدهما الآخر». وما ينطبق على المنافسة ينطبق على العمل الطوعي الذي كان شكلاً من التربية، بحيث لم يعد العمل هاجساً كما هو في العالم الرأسمالي، بل أصبح واجباً اجتماعياً جميلاً. إن صنع الإنسان الجديد كان هدف الأعمال الاجتماعية الأسمى.

إن الحقيقة المذهلة حول كوبا الحديثة هو أن هدف تشي هذا قد وضع موضع التطبيق. ومهما قال أعداء الثورة الكوبية فإن العمل الطوعي لا يزال ينفذ بأصالة من قبل المتطوعين، حتى لو لم تكن أسباب قيامهم بالعمل هي أسباب تشي نفسها. فقد يتطوعون أسوة بغيرهم، أو لأنهم يخشون توبيخ رفاقهم لهم، أو لأنه يوجد عمل بديل في كوبا يقومون به في أوقات فراغهم. ومع ذلك فإن الحماسة والوعي الثوري يفعلان فعلهما، فعندما يغادر المواطنون هافانا طوعاً من أجل قضاء فترة في قطع قصب السكر خلال موسم السكر، ينتابهم شعور بأنهم يؤدون دورهم المتواضع في الثورة. وقد يعملون ببطء ولا يعطي عملهم النتيجة المطلوبة، ولكنهم يعملون لمجتمعهم فيبرهنون على أن تشي كان على حق. وبالإمكان إعطاء أفراد الشعب العادي ما يكفي من الوعي الثوري ليعطيهم بدوره معنى لعملهم. فعندما يعمل العامل و«لا يكتفي بتحصيل معيشته، بل يبني شيئاً يراه ويشعر كأنه ملكه»، فإنه يكون بذلك قد خطا خطوة نحو مثل تشي. مع ذلك، فإن تشي لم يكن نظرياً متزمتاً ولا متصلباً كل التصلب في

تفكيره برغم كل تشديده على التخطيط المركزي. لم يكن يريد بناء دولة قوية، وإنما بناء شعب اشتراكي سعيد. والحق أنه شجب أفكار أولئك المتزمتين الجامدين: «إن مهمة خلق مجتمع اشتراكي في كوبا يجب أن تتم بعيداً عن التفكير الآلي كما يبتعد المرء عن الطاعون، فالتفكير الآلي لا يقود إلا للأساليب المقبولة». أما الماركسية، فقد كانت ديالكتيكية، وهي عملية تغيير. إن الأفكار المتزمتة داخل الماركسية مرض لأنها رفض للتجربة. ويرى تشي أن يبقى الثوري كائناً بشرياً. فلقد كانت عبارة «أن تكون إنساناً» لا تعني لتشي أن تكون ضعيفاً أو تتصرف بشكل دون تصرف باقي البشر. إنها تعني بذل غاية الجهد الأحسن لا بذل الجهد الأقل. وهي تعني فوق كل شيء حث الإنسان على تطوير وعيه بحيث «يتألم لاغتيال أي إنسان في أي بقعة من العالم، ويفرح بزوال عائق آخر من طريق الحرية في أي بقعة من العالم». والواقع أن تشي يرى أن الكلمتين «إنساني» و«ثوري» هما توأمان، وذلك لعمرى تفكير رجل ثوري.

وما من شك في أن تفكير تشي الاقتصادي ضم عنصراً من التناقض، فهو متصل بالفوضوية الطوباوية والشيوعية البدائية بخيط يكمن خلف كل تأكيدات على التوجيه المركزي. ففي أحد الاجتماعات التي ضمت حشوداً من العمال بدأ تشي خطابه بترديد كلام لشاعر كان يندب جهد الناس لأن أحداً لم يستطع «أن يفهم إيقاع الشمس» ولا «أن يحصد سنبله قمح بمحبة وحنان». ثم راح يشرح كيف أن الكوبيين تخطوا هذا الوضع وخلقوا وضعاً جديداً عبر رغبتهم «في الرجوع إلى الطبيعة وتغيير نظام العمل اليومي الممل إلى نشاط هادف». ولو رجع الشاعر إلى كوبا فإنه سيرى «كيف تخلص المرء من جميع مراحل الحرمان الرأسمالي، بعد أن كان يسخر كالحيوان لمصلحة المستغل، وسلك طريق عودته إلى الإنسانية مرة أخرى ليضفي على العمل في كوبا اليوم معنى جديداً بأن يمارسه بسعادة ومحبة». ويؤكد تشي أنه كان هناك «محبة وحنان» في عمل قطع القصب بالذات، وأن

عبودية الإنسان لا تكمن في حاجته للعمل وإنما في حرمانه امتلاك وسائل الإنتاج. فقد استعاد أيضاً حسه القديم بالسعادة في العمل وشعر بأهمية نفسه داخل الآلية الاجتماعية.

«أصبح سعيداً وهو يشعر بأنه مثل تضاريس العجلة الدائرة، لها سماتها ومنافعها الخاصة. إنها تضاريس ضرورية لا غنى عنها في عمليات الإنتاج، لكن الإنسان كائن مفكر له دافع خاص، إنه يحاول بوعي أن يدفع بمشابهة وإحكام إحدى مقدمات بناء الاشتراكية، نعني إيجاد كمية كافية من السلع الاستهلاكية للشعب بأكمله».

ومن المفارقات العجيبة أن يكون تشي قد كشف في حديثه هذا أنه في موضع قريب من الأخلاق البيوريتانية الأصلية، التي كانت المحرك لاقتصاد أميركا الشمالية. لقد أكد البيوريتانيون باستمرار أن العمل واجب اجتماعي وأنه يجب أن يؤدي بمرح.

إن قوانين مجتمع تشي لم تكن قوانين مجتمع القرن السابع عشر، ولكن أساليب إقناع الناس وحثهم على العمل بجد ونجاح في ميادين حقيرة لم تكن مختلفة.

وقد لخص تشي فلسفته الاقتصادية في مقاله الشهير عن «الإنسان والاشتراكية في كوبا» الذي أنكر فيه أن تكون الدولة الكوبية قد جاءت للقضاء على الفرد، وإنما جاءت لخلق فرد جديد بدت ملامحه الظاهرة أثناء أيام القتال البطولية في السيرا مايسترا، وفي الأيام التي ضحى فيها الشعب بأكمله ليخدم الأمة أثناء أزمة الصواريخ، وخلال إعصار فلورا. إن المشكلة كانت في جعل شعور المساعدة، الذي لم يظهر إلى الوجود إلا أيام الأزمة أو الكارثة فقط، شعوراً دائماً. وقد اعتمد ذلك الشعور على التواصل التام بين الشعب وقادته... «تأتي المبادرات بشكل عام من فيدل أو القيادة العليا للثورة، ثم توضح للشعب الذي يمارسها وكأنها من صنعه، وفي بعض الأحيان يتبنى الحزب التجارب المحلية بمشاركة الحكومة ثم يعممها». ولكن هذه الاتصالات لم تكن على مستوى كاف من الإيقان، الأمر الذي يفسر

بعض الفشل في الفهم، ولكنها قابلة للتحسن. لا شك أن ظهور مثل هذا النظام في الحكومة قصد به إخضاع الفرد، ولكن تشي لا يرى في الفردية الغربية أكثر من حكم الرأسمالية. فهذا روكفلر خير مثال على الفردية الغربية، «إنه شعب من الذئب، فذلك الذي يصل إلى مثل قمة هذا النجاح إنما يفعل ذلك على حساب الآخرين». إن الإنسان في ظل الاشتراكية لم يكن مخلوقاً جشعاً، بل مادة غير مكتملة. وعلى المجتمع الاشتراكي أن يستأصل من الفرد العيوب المكتسبة، وعلى الفرد أن يعيد تربية نفسه. يجب أن يسقط من حسابه الفكرتين التوأمين للرأسمالية القائلتين ان الفرد منعزل، وإن العلاقات محكومة بقانون العرض والطلب. هناك العديد من البلدان المتخلفة التي حررت نفسها من قبضة الامبريالية، لكن قدرها بقي رهناً بيد الامبرياليين لأنها فشلت في تحرير نفسها من المنطلقات الرأسمالية. فإذا ما أريد بناء وعي ثوري كان لابد من خلق إنسان جديد يكون حجر الزاوية في بناء الأمة الجديدة.

لذا فالمجتمع الثوري الجديد لابد أن يكون مدرسة ضخمة؛ إذ قد تلجأ الرأسمالية، برغم كل شيء، إلى القوة، هكذا عودت الرأسمالية شعبها وحصلت على ثقته وفق نظامها الخاص. وعلى هذا فإن واجب الحكومة الكوبية تعليم شعبها أفكارها الخاصة وبشكل مكثف حتى لا يقع أفراد الشعب في أخطاء الرأسمالية. عندئذ فقط، يبدأ ظهور إنسان جديد. إن صورته لم تكتمل بعد، ولن تكتمل أبداً لأنه يتقدم بشكل موازٍ لتطور الأشكال الاقتصادية الجديدة. لم يعد يتقدم وحده نحو رغبات شخصية مبهمة، فقد سار مع الجماهير خلف قادة حزبه نحو أهداف المجتمع الجديد. لقد قام بدعم المؤسسات وتقديم التضحيات الثورية، بيد أن ذلك كان مرحلة عابرة نحو العالم الجديد. كان هدف الثورة المطلق إعداد رجال متحررين من عقدة الغربة عن مجتمعهم، التي كانوا يسمونها خطأ نزعة فردية. «فبالرغم من تعبير الإنسان باشتراكيته فإنه يبقى أكثر كمالاً من غيره».

لذا تجاهل تشي تساؤل المتسائلين: «وكيف يستطيع الفرد معارضة مجتمعه»، لأنه لم يعتبر مثل هذا السؤال منطقياً. ويتفق تشي مع أفلاطون في قوله إن قيام أي إنسان بتحقيق ذاته إنما يكون ضمن مجتمعه الشيوعي، لذا فإن صوت كل رجل يجب أن يسمع ضمن الجهاز الاجتماعي (Social apparatus) وليس ضده. كما يجب أن تلغى كل أسباب الخلاف ودوافعه التي قلبت الرفاق إلى متنافسين، يتنافسون في العمل من أجل المال، بينما المفروض أن يكون العمل واجباً اجتماعياً؛ «فالآلة في آخر الأمر هي الخط الأمامي حيث يؤدي الواجب». فإذا ما حرر الإنسان من العمل كي يوفر الطعام والكساء والسكن لعائلته، فبوسعه أن يجد نفسه قد أنجز خدمة للجماعة بأكملها. ويوافق تشي على أن العمل في دولة اشتراكية يجب أن يكون إجبارياً إلى حد ما، ولكن ينبغي أن يكون كما أسماه فيدل «إجباراً خلقياً»، ثم لا يلبث هذا الإكراه أن يصبح طوعياً بعد أن ينمو الضمير الاجتماعي نمواً لائقاً وعماماً. واعتقد تشي أن الفن كشف الفارق بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي. ففي الرأسمالية هاجم الفنان الدولة، فالفراغ والتسلية المبتذلة هما «صامتا أمان للقلق الإنساني». مع ذلك فإن الثورة الحقة تحتوي التجارب الفنية داخل ذاتها. ومن المسلم به أنه لم يوجد «فنانون ذوو سلطة عظيمة ممن كان لديهم إلى جانب ذلك سلطة ثورية عظيمة». بيد أن الثورة كانت لا تزال فنية، والتجربة ستشملهم وتشمل الإنسان الاشتراكي الجديد. ولقد احتقر الواقعية الاجتماعية في القرن التاسع عشر التي احتفظ بها كفن رسمي لروسيا والصين، فقد كانت رجعية، تماماً كما كان الفن الرأسمالي المنهار في القرن العشرين رد فعل في ذاته لتلك الواقعية البائدة. إلا أن التجارب الجريئة والمتواصلة ستجد فناً جديداً يناسب إنسان القرن العشرين الجديد. إن ذلك الإنسان الجديد سوف يجد في قادة الثورة الكوبية، وبالتحديد في تضحياتهم، ما يدفعه ويلهمه. فقد كان هؤلاء موجهين بفعل المشاعر الأصيلة للمحبة. ومع ذلك فقد تخلوا عن

حياتهم العائلية من أجل القضية: «لا حياة خارج الثورة». يجب أن يسير الشعب مثل قاداته نحو الأمية البروليتارية الحققة، وأن تمتلك أفراداه رغبة شديدة في مساعدة رفاقهم المستغلين في جميع أنحاء العالم. ويجب على القادة أن يسيروا بالشعب في اتجاه هذه الغاية.

وأسمى تشي أعظم بياناته بسلسلة من المبادئ الأساسية حث فيها الشعب الكوبي على التمسك بالقضية والإيمان بها.

«نحن الاشتراكيين أكثر حرية، لأننا أكثر تحمقاً ذاتياً، ونحن أكثر تحمقاً ذاتياً لأننا أكثر حرية...»

إن تضحياتنا تضحيات واعية، إنها دفعة من أجل الحرية التي نحن نبنيناها، وسوف نصنع إنسان القرن الحادي والعشرين: نصنعه نحن بأنفسنا».

هذه هي على وجه التقريب آمال تشي ونواياه المبكرة. لقد خابت جميعها تقريباً، وحتى في كوبا لم تكن الأحلام بمتناول اليد. وقد حلل تشي في مقالة له نشرت في أكتوبر عام ١٩٦٧ الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة الكوبية في حقلتي الصناعة والزراعة. وكان حكمه على أخطاء بلاده وعلى أخطائه الشخصية، وهو الخبير في النقد الذاتي، قاسياً وشفافاً بحيث لا يستطيع حتى الأعداء أن يقولوا عنه أكثر مما قاله هو عن نفسه. وفيها هاجم نظام المحصول الواحد بوصفه لعنة تصيب الدولة النامية، وأيد سياسة التنوع في المحصول بالنسبة للزراعة كوسيلة نحو التشغيل الريفي الكامل والكفاية الذاتية القومية. كان رأيه صحيحاً من الوجهة النظرية، أما التطبيق الحقيقي للسياسة فقد كان مآله الفشل. فقد جرت محاولة بالغ فيها في تنوع المحصول حالياً، فنتج عن ذلك انخفاض عام في الإنتاج الزراعي، ولذا كان على كوبا أن تعود إلى دورها الأصيل كمنتجة رئيسية للسكر، الحقيقة الاقتصادية الأساسية لوجودها. وقد اعترف تشي الآن بأن الولع الذي ربط بين السكر واعتماد كوبا على الامبريالية والبؤس في المناطق الريفية، لم يكن سوى ولع ليس إلا. وفي الحقيقة كان على الكوبيين أن

ينتجوا السكر ويحصلوا من ورائه على مال أكثر، فالسكر لم يكن شيطاناً وإنما الميزان التجاري هو الشيطان.

وحدثت أخطاء مماثلة في صناعة كوبا الحالية والمندفعة. واعترف تشي بالفشل في فهم التكنولوجيا الدقيقة والاقتصاد اللازم لإقامة صناعات جديدة. ومرة أخرى دفعت البطالة والرغبة في تحقيق الكفاية الذاتية على المستوى القومي، الكويتيين، لتملك عدد كبير من المصانع بسرعة كبيرة. وكانت النتيجة أن أنتج الكويتيون سلعاً استهلاكية رديئة - لأنها مصنوعة على عجل - بأسعار مرتفعة بالمقارنة مع الأسعار الدولية. وحتى مشكلة الدفع للسلع الاستهلاكية المستوردة لم تساعد كثيراً بسبب ارتفاع استيراد المواد الخام بنفس المعدل تقريباً. كان على الحكومة الكويتية أن تتعلم بعد دفعها الثمن الباهظ - الفارق بين الأيديولوجية والتطبيق. واعترف تشي بأخطائه وبالأسباب الجذرية لهذه الأخطاء. «من الطبيعي أن ترتكب أخطاء مجموعة من الرجال المتبدئين الذين ليست لديهم أية خبرة سابقة، والذين كان عليهم أن يقودوا عملية متسارعة من التنمية في وجه القوى العسكرية والاقتصادية لما يسمى بالعالم الغربي».

إن هاجس الحاجة للتصنيع، والتصميم على تصنيع السلع الاستهلاكية محلياً بدلاً من استيرادها كان من الأخطاء التي يمكن فهم إقدام كوبا على ارتكابها. وبعملية حسابية نفهم أن الولايات المتحدة كانت تبتاع، أيام باتيستا، كل السكر الذي تنتجه كوبا تقريباً، وتزودها بكل السلع الاستهلاكية تقريباً. أما الآن فقد غدت الولايات المتحدة عدوة كوبا، وغيّرت سياستها السابقة بالنسبة لتشي. إن حصار أمريكا الشمالية للاقتصاديين للجزيرة والذي خفض بصورة فعالة انسياب البضائع الغربية إلى ما يشبه حالة التقطير أدى إلى اعتماد كوبا على البضائع والسلع التي تزودها بها الكتلة السوفياتية التي تبعد آلاف الأميال - وهذه حجة لا تكفي للإحجام عن محاولة صنع البضائع محلياً. لقد أجبر منطق المصاعب الماضية والحاضرة كوبا على أن تجرب

الإنتاج المحلي، تماماً كما جريت أيديولوجية الثورة الكوبية نفسها. واعترف تشي أيضاً بالأخطاء النظرية في التخطيط الاقتصادي. وكانت هذه الأخطاء على نوعين متناقضين. فقد حدثت سلسلة من الأخطاء نتيجة لتقليد خطط السنوات الخمس الروسية الضخمة بمراحلها الجامدة في ما يتعلق بالقرارات ونماذج الإنتاج التي يصعب تحقيقها. وانبثقت سلسلة الأخطاء الأخرى من القرارات المفاجئة التي اتخذت ارتجالاً كي تدفع كل شيء إلى الأمام بسرعة تفوق قدرته وطاقته. وتفاقمت هذه الأخطاء بوجود عوامل أخرى:

«كان علينا أن نبقي مصانعنا ومزارعنا ومواصلاتنا عاملة دون اعتمادات، ودون مبيدات للحشرات، ودون مواد خام، ودون قطع غيار، ودون فنيين ودون تنظيم. خلال تلك الفترة عاث المخربون فساداً في أراضينا، بدعم من الولايات المتحدة، وارتكبوا أعمال التخريب والعدوان. وقد أجبرنا التهديد الدائم بالغزو على تعبئة الشعب الكوبي مرتين أو ثلاث مرات في السنة، معرضين بذلك البلد للشلل.

نحن لا ننسب جميع أخطائنا في التخطيط إلى قراراتنا، فنحن مدينون بذلك أيضاً إلى فعل الامبريالية التي فرضت علينا عملية تعجيل أكثر مما يستطيع الحزب فرضه. وبالرغم من أخطائنا فقد سجلنا نجاحات مهمة».

وإذا كانت نظريات تشي مسؤولة إلى حد كبير عما حدث من أخطاء في حقل الاقتصاد الكوبي، فقد كانت أيضاً مسؤولة بنفس القدر عن نجاحه وازدهاره. إن معيار النجاح لا يكمن في النتائج العملية فقط، كما كان تشي يعتقد، فالبرهان الأخير على إنجاز الحكومة يكمن فيما إذا كانت الحكومة تحتفظ بدعم الجماهير أم لا، وهنا تأتي المقارنة. فإن مجتمع ليندون جونسون «العظيم» قد خطط برنامجاً أسوأ من برنامج الثورة الكوبية طوال سنواتها الست الأولى. لكن الشعب الكوبي وقف مع حكومته وبرنامجهما، بينما أدار شعب أميركا الشمالية ظهره للحكومة

وبرنامجها.

لقد كان فيدل كاسترو أعظم منعش للآمال ممن عرفهم العالم، بيد أن تشي زوده بالعديد من الأفكار لإنعاش ذلك الأمل. كان تشي النصير الأعظم للحوافز الخلقية، ولبدأ عدم التضحية بالوعي الثوري من أجل الحوافز المادية أو الكفاية الاقتصادية. فما كان ليوجد في كوبا اليوم عامل مدني يستمر في دعم الحكومة لو لم يتعلم أن يعمل ليبي الاشتراكية، مفضلاً ذلك على مأواه الخاص. فإذا أدى الانخفاض المستمر في مستوى معيشة النصف الأعلى من طبقات المجتمع في كوبا إلى هجرة نحو خمس أفراد هذه الطبقات تقريباً، فلا تزال البقية باقية للتعلم من القواعد الخلقية من أجل الثورة. لقد أثبت مفهوم تشي حول الإنسان وثقته في طبيعة الإنسان، صحة هذا المفهوم في كوبا بشكل عام. إن الإنسان ليس مجرد معدة أو حساب في البنك، والمجتمع ليس معسكراً للمتشردين. إن الثورة الكوبية، بالرغم من أعدائها الخارجيين وعزلها وأخطائها الاقتصادية، لم تواجه الانهيار، وقد كان مكتوباً لها أن تحقق منذ وقت طويل لو لم تنتصر أفكار تشي ومثله العليا على آراء الشيوعيين المتزمتمين والانتهازيين، الذين حاولوا اغتصاب الثورة الكوبية وتطويقها بحزام التجربة السوفياتية المتعبة. وقد يكون تشي وضع الاقتصاد الكوبي على شفا الهاوية، ولكن ليس هناك رجل آخر غيره، عدا فيدل، وضع الشعب الكوبي على حافة المجتمع الجديد في عالم جديد. واليوم يرتل الأطفال في كل قاعة دراسة: «سوف نصبح مثل تشي».



الفصل السادس

بحثاً عن التحرير

إن حياة الشاعر المقاتل تجعل حياة الآخرين غير مرضية. فكما كان نوم في «غاتسبي العظيم The Great Gatsby» ينشد دوماً الفتنة الدرامية للعبة كرة قدم يتعذر استعادتها، كان تشي يجلس خلف مكتبه يبحث دوماً عن أيام في السيرا مايسترا يتعذر استردادها. وجد تشي في الحرب نوع السلام الذي ينشده، وفي تحرير الآخرين تحريراً لنفسه.

عمل تشي من عام ١٩٦٠ فصاعداً سفيراً متجولاً لفيدل كاسترو، وسافر في بعثات هامة لموسكو - غير ناجحة في معظمها - كما سافر لفيتنام الشمالية ولبلدان أخرى شيوعية وغير منحازة. ولكنه عندما غادر كوبا في عام ١٩٦٥ ليصبح مقاتلاً متفرغاً ومتجولاً حول العالم، كان بذلك يترجم عقيدته، وهي أن من واجب الثورة الكوبية مساعدة البلدان الأخرى على القتال ضد الامبريالية. وكانت هناك أسباب أخرى لذهابه. فإن علاقة تشي بفيدل، بالرغم من كونها رفاقية ومجولة بالمحبة، اتسمت بالصعوبة. لقد شغلت الثورة الكوبية فيدل بصورة كلية، بينما بقي تشي منهمكاً بتوسيع دائرة الحرب لتشمل أمريكا اللاتينية، بل العالم أجمع. كان بوسع فيدل أن يكون ثورياً متفرغاً في داخل الثورة الكوبية، أما تشي فلم يكن بوسعه أن يكون ثورياً متفرغاً إلا خارجها. كان فيدل هو القائد في كوبا، بينما أراد تشي أن يكون قائداً في مكان آخر، وربح الأول الثورة الكوبية، وأراد الثاني أن يربح ثورة أخرى. كان فيدل سياسياً موهوباً ولامعاً. وكان تشي بطبيعته مقاتلاً موهوباً ولامعاً. ووجد فيدل متعة شخصية في التخطيط القومي والدبلوماسية وإلقاء الخطب، بينما كان تشي تزعجه المساومات والكلام غير المقرون بالعمل. وأكثر من ذلك، فقد رأى فيدل أن أفكار تشي الاقتصادية لم تؤت أكلها، ولم يرض تشي بشعور

الفشل. وفي خريف عام ١٩٦٤ أخبر تشي فيدل بأنه يريد الذهاب بعيداً لبدء تحرير أميركا اللاتينية من النقطة المركزية في بوليفيا. وحاول فيدل عبثاً صرفه عن قراره، ثم بدأ في مساعدته لتخطيط حرب عصابات جديدة.

لم يكن تشي المقاتل الوحيد بين المقاتلين الذين جاؤوا من السيرا مايسترا وأرادوا أن يقاتلوا ثانية. ويعيد أوتيريا بويتيرز، وهو عضو في مجموعة تشي، إلى الأذهان قوله: «كان بيننا بعض المقاتلين ممن درجوا على القول دوماً حالما أحرزوا النصر على باتيستا: يتحتم علينا أن نذهب ونقاتل في بلدان أخرى». وأكثر من ذلك، فإن فكرة مواصلة القتال ضد الامبريالية كانت هدفاً يتطلع إليه جميع قادة الثوار. وعندما كتب تشي رسالته الوداعية إلى فيدل قال: «هناك أمم أخرى تحتاج إلى جهودي المتواضعة. أنا أستطيع القيام بما لا تستطيع أنت القيام به بسبب مسؤوليتك كقائد كوبي». هذه العبارة أوحى بأن تشي كان يواسي فيدل بسبب أن فيدل لم يستطع أن يفعل ما كان ينبغي عليهما فعله معاً.

ومع ذلك فإن تشي عندما قرر العودة إلى القتال الفعلي كان رجلاً في أواسط عمره، مصاباً بالربو ومترهلاً نسبياً بفعل سنوات قضائها في الإدارة. وباستثناء غاريبالدي وزاباتا، فإن قلة من القادة الثوريين تخلت عن السلطة لتعود إلى القتال ثانية. وهو - شأنه شأن القواد المذكورين - حوّل قدره إلى بطل أسطوري في عصره.

لقد تضمن قراره من الحكمة أكثر مما تضمن من الرومانسية أو السأم. فقد كان له اعتبار هائل، وكان وجوده في الميدان يعادل وجود كتيبة، وكانت حركة الثورة العالمية مشهداً يومياً في كوبا التي كانت تعج بمدارس لتدريب الثوار والمبعدة السياسيين، وبالمؤتمرات التي تعقد للعصيان المسلح. كانت البلاد بأكملها تدور حول ما يشبه رقصة الحرب، برجال يرتدون بزات الثوار، وغدت حالة الحصار تمثل الشعور القومي السائد. كان تشي أهم رجل بين كثرة شعرت بأنها

مكرهة على العودة إلى ساحة الوغى . فشمة بضعة آلاف من الكوبيين لاقوا حتفهم في السنوات الأخيرة أثناء اشتراكهم في ثورات في الخارج . ورافق تشي إلى بوليفيا سبعة عشر كوبياً ، بينهم عدد من المحاربين القدامى من أيام السيرامايسترا ، وكان من بينهم أربعة يتولون أعلى المناصب في الجيش الكوبي «Commandates» وأربعة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، وهي أكثر المراكز مسؤولية في الجزيرة ، وكان هناك اثنان في الأربعين من العمر أحدهما نائب وزير والآخر مدير للمناجم . إن مثال تشي لا يعتبر فريداً بالنسبة لأمة ترسل كبار المسؤولين للقتال في الأدغال . لقد كانت الثورة مخاطرة تستحق التبني من قبل جزيرة صغيرة ، شعرت بعزلتها عن العالم المحيط بها . كانت كوبا بحاجة إلى كوبا أخرى و ثانية و ثالثة بقربها .

وقد كان لدى تشي أيضاً سبب شخصي في الذهاب ، فهو إنسان أرجنتيني . ومهما كانت حجته حين يقول إنه يشعر وكأنه في وطنه أينما كان ، فإن بلاده الأرجنتين كانت لا تزال رأسمالية وتفتقر إلى إصلاحات . وبمباركة تشي غادر زميل أرجنتيني يدعى ماسيتي مع ثلاثة عشر رجلاً - بعضهم من الكوبيين - ليباشروا تحرير الأرجنتين من الأدغال في الشمال . وبعد عشرة شهور من التعثر دون جدوى والاضطراب الذي لا حد له ، لاقت قوة ماسيتي الهلاك والتشتت على يد الجيش الأرجنتيني . وقد هزت الكارثة تشي الذي كان يأمل أن يمهد ماسيتي لقدمه فيما بعد . وشعر تشي بأن عليه أن ينتقم لفشل ماسيتي ، بالرغم من أنه لم يكن مسؤولاً عنه أكثر من مسؤولية فيدل عن فشل تشي الخاص في بوليفيا . إنه لمن المستحيل إعطاء دعم حاسم لقوة من الشوار المعزولين في المراحل الأولى ؛ فالقوة مستقلة تماماً ، وبقاؤها هو من شأنها الخاص .

وكان الوقت قد حان ليغادر تشي كوبا ؛ إذ كان عليه أن يتحمل مسؤولية فشل السياسة الاقتصادية الكوبية المبكرة . ووجد الروس والأوروبيون الشرقيون الذين كانوا يقدمون العون المالي للاقتصاد

الكوبي أن ذلك يسبب نزفاً ثقيلاً لاقتصادياتهم الخاصة، وضغطوا على فيدل كي يضبط الأمور في بلده. وأراد الروس أن يعاود الكوبيون تزويدهم بالسكر مقابل مبادلة البضائع والاستثمارات الروسية، وأن يشجعوا الحوافز المادية في الصناعة. وما كان بوسع تشي أن يقبل مثل هذه السياسات مطلقاً، لذا فقد اختار أن يواصل رحلاته مرة أخرى. وقد ألفت والدة تشي في آخر جواب لها مرسل لابنها ضوءاً ساطعاً على ما كان يضمه تشي في رسالته الأخيرة لها. «إذا كانت كل الطرق في كوبا مسدودة لسبب أو لآخر، فإن في الجزائر السيد بن بلا الذي سيسعده كثيراً أن تذهب فتتنظم اقتصاد بلاده أو تعينه على مهمته بنصائحك. وكذلك شأن نكروما في غانا، وبالطبع ستكون غريباً هناك، ولكن يبدو أن هذا قدرك». فكان على تشي أن يتحرك.

وقد تأزرت الأمور على إرسال تشي للحرب ثانية. وفي تصريح له أخبر جريدة «المجاهد»، لسان حال الحكومة الجزائرية، أن موضوع الثورة في أمريكا اللاتينية يستحوذ على اهتمامه. لم يتحمل تشي، كشخص فعال وصريح، عدم كفاءة وتعقيد البيروقراطية الكوبية مدة أطول. وكتب في عام ١٩٦٤ حول مهمة الحكومة يقول: «بما أنها مهمة، وبما أنها مهمة حكومة، فإنها لا شك ستلاشى ولن تنجز الحكومة شيئاً». كان بالتأكيد يتوق إلى الماضي، إلى الأعمال والنتائج البسيطة التي حققها الثوار في القتال. وكتب في رسالته الوداعية عند مغادرته كوبا ما هو «مزيج من مشاعر الفرح والحزن»، وأشار إلى تحرره من وهم الإدارة في عبارته الغامضة «أخلف ورائي أنقى أحلامي كشخص بان». وكان تشي يشعر كل من حوله بأنه محارب في حرب مقدسة، وكان ذلك هو الحافز الأساسي لذهابه. وكتب في النهاية لفيدل يقول إنه آلى على نفسه أن يحقق «أقدس الواجبات: واجب الكفاح ضد الامبريالية حيثما وجدت»، وهذا ما فعله.

وعندما خطب فيدل ليرثي تشي بعد وفاته قال: «سوف يكون تشي في المستقبل مثلاً ليس له مثيل، لقد تحرر عقله وقلبه من الوطنية

الضيقة والمحابة والتعصب القومي وحب الذات». ومع ذلك، فهذا لم يكن صحيحاً بين (١٩٥٤ - ١٩٦٤) عندما كان تشي الخادم المخلص للدولة الكوبية، حيث كان يعمل سفيراً ويدافع عن السياسة الكوبية حيثما ذهب. وقد سلك تشي بإخلاص الطريق الكوبي في الدبلوماسية الدولية، مروراً بالحرب النفسية مع الولايات المتحدة، إلى تشجيع حركات الثوار في أمريكا اللاتينية، إلى علاقات المحبة مع البلدان الشيوعية. لقد بدا تشي وكأنه صهر نفسه في قومته الكوبية الفخرية.

وبحلول عام ١٩٦٤ استعاد تشي التزامه القديم بالدفاع عن الأمم الفقيرة في العالم. وبدأ يعتقد أن الخلاف الحقيقي لم يكن بين الرأسمالية والشيوعية، وإنما بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة. وكانت خيبة أمله كبيرة في شروط التبادل التي وضعتها روسيا والبلدان الشرقية لمساعدة كوبا وغيرها من دول العالم الثالث المكون من أمم القارات الثلاث: أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وقد وقف في وجه العالم الثالث عالمان، عالم غربي وآخر شرقي، برغم ادعاء أحدهما معاداة الآخر سياسياً. وكلا العالمين مكون من كتل قوية، تضم بلداناً متطورة ذات مستوى معيشي مرتفع. وقد رسم التخلف والجوع حدوداً جغرافية مختلفة عن تلك التي رسمتها الرأسمالية والشيوعية، ووضع الفاصل الجديد الحدود بين المالكين والمعدمين، مصنعي البضائع ومزودي المواد الخام، الشعوب البيضاء والشعوب السوداء، ثم القوى الاستعمارية وممتلكاتها القديمة. لم يفصل الخط بوضوح دولة عن أخرى في كل حالة، وإنما حدد كل رسم للفاصل بوضوح أكثر عالماً ثالثاً مقاماً بعيداً عن كتلة القوى الغربية والشرقية.

سيطر مفهوم تشي عن العالم الثالث على مخيلة الجماهير بصورة كلية. وقاد هذا المفهوم إلى طرق للتفكير، بل حتى إلى تجمعات دبلوماسية. وكان ذلك ما هدف إليه تشي عندما أعلنه في خطاب في مؤتمر التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة في شهر (مارس) آذار ١٩٦٤: يجب أن لا يدب التنافس والتنازع بين الأمم الصغيرة في سبيل الحصول على

القروض من الأمم الغنية، بل عليها أن تتمسك بالتضامن فيما بينها. «إذا كانت مجموعة الدول المتخلفة تتنافس فيما بينها بلا جدوى من أجل فتات مائدة الجبابة، متيحة بذلك الفرصة لشق صفوفها المتفوقة عددياً... فإن العالم سيبقى كما هو».

يجب على الأمم الفقيرة أن تتعلم تجنب مزاحمة بعضها البعض في أسعار تزويد المواد الخام، وأن ترفض الرشاوى للسير إما بركب الكتلة الشرقية أو الكتلة الغربية. كان تشي يعظ على الدوام بفضائل ما يشبه نقابة عمال للبلدان الفقيرة. ففي الاتحاد تكمن القوة والقدرة على المساومة. إن أمة تتصرف تصرف الأجنبي (بالمعنى العمالي للكلمة) هي أمة نذلة. وكان لكلماته وقع خاص لدى أولئك الذين رأوا أنفسهم مثل أشخاص (فرانز فانون) في «معذبو الأرض» من العالم الثالث أكثر من أولئك «المعذبين» الذين وردت أسماؤهم في أغنية «الانترناسيونال»، وهم الشغيلة الفقراء في الأمم الصناعية.

وفي خطابه الذي ألقاه في الجمعية العمومية للأمم المتحدة في (ديسمبر) كانون الأول ١٩٦٤ اتخذ تشي موقفاً أكثر عدائية. فقد لمح إلى أنه بدأ يفقد ثقته بالحلول السلمية بما فيها الموائيق الدولية، والاتفاقات التجارية، والمحادثات، والعون الأجنبي. فهذه لن تحل الصراع بين الفقير والغني. وأعلن «إننا كماركسيين سبق أن أكدنا على أن التعايش السلمي بين الأمم لا يشمل التعايش بين المستغلين والمستغلين، المضطهدين والمضطهدين». كانت هذه العبارة هجوماً صريحاً على المحاولة الروسية الجديدة لتحقيق «تعايش سلمي» مع الولايات المتحدة، بعد أن جعل كينيدي خروتشيف يتنازل عن موقفه ويسحب الصواريخ من كوبا، وكانت أيضاً بمثابة إعلان حرب مفتوحة على الامبريالية.

وفي الخطاب تحدث تشي مطولاً عن الأحداث التي وقعت في كوبا منذ مقتل لومومبا، مظهراً شعوره الخاص بالتعهد الشخصي في تلك المنطقة. «يجب على أحرار العالم أن يهيئوا أنفسهم للانتقام من الجريمة

التي ارتكبت في الكونغو». وأظهر أيضاً تطابق إحساسه مع الشعوب غير البيضاء في العالم، وذلك في شجب أعمال الشعوب البيضاء بالعنف نفسه الذي يبديه القومي الإفريقي.

«لقد أزيلت الغشاوة عن أعيننا وتفتحت أمامنا الآن آفاق جديدة، ونستطيع أن نرى ما كنا عاجزين عن رؤيته بالأمس في ظل ظروف من العبودية الاستعمارية - وهو أن «الحضارة الغربية» تخفي تحت واجهتها البراقة مسرحاً مليئاً بالضباع والذئاب». إن هذا هو الاسم الوحيد الذي ينطبق على أولئك الذين ذهبوا لإنجاز مهماتهم «الإنسانية» في الكونغو. سفاكو دماء غداؤهم الشعوب البائسة! هذا ما تفعله الامبريالية للبشر، وهذا ما يتسم به الامبرياليون «البيض».

إن الغضب الذي تتسم به هذه الفقرة يغير عبارات تشي العادية الموزونة والشهيرة، إنها تكشف لنا عما كان يجول في ذهنه في ذلك الوقت وما عساه أن يفعل في المستقبل. وفي ضوء هذه المشاعر نستطيع أن نفهم السبب الذي جعله يقرر القتال في الكونغو. وكنتيجة للخيبة التي أصابت آمال تشي بصفته مساهماً في بناء كوبا، وإظهاراً لاشمئزازه من المساعدة الأثانية المشروطة التي تمن بها القوة الشيوعية البيضاء على الدول المتخلفة؛ فقد تخلى عن مكانته كإدراي وكديبلوماسي ثوري مضحياً من عمره بسنوات قضائها في هذين الحقلين. لقد أثر أن يعود ثورياً متجولاً، كما كان في شبابه، لا يعرف الكلل، مستعداً لأن يعيش ويتجاوب مرة أخرى مع آلام الفقراء من البشر ويصاحب المعذنين في الأرض أينما وجدوا.

وصاغ تشي فكرته الجديدة بشكل أعنف في مؤتمر التضامن الإفريقي الآسيوي الذي عقد في الجزائر في (فبراير) شباط ١٩٦٥ والذي هاجم فيه السياسة الروسية بصورة مباشرة، فأربك بذلك الحكومة الكوبية وولّد الحنق عند الروس الذين كان يساورهم الشعور بأنهم قدموا الكثير لكوبا بما ينتهي معه المبرر لأن توجه لهم تلك الإهانات. ولكن حتى الروس كان عليهم أن يعلموا أن لا منة في تقديم العون

الأجنبي . وأعلن تشي «أن من واجب البلدان الاشتراكية أن تصفي علاقتها الضمنية مع الأمم المستغلة في الغرب» . وبالنسبة إليه لم يكن هناك من تحديد للاشترابية سوى إزالة استغلال الإنسان . فليس بوسع أي بلد أن يشيد بالاشترابية إذا لم يساعد جميع البلدان على بناء الاشتراكية ومهاجمة الامبريالية .

«ليس هناك من حدود لهذا «الصراع حتى الموت»، ولا نستطيع أن نبقى غير مبالين بما يحدث في أي جزء من العالم . إن انتصار أي بلد ضد الامبريالية هو انتصار لنا، كما أن هزيمة أي بلد هي هزيمة لنا، إن ممارسة الأمية العالمية ليست من واجب البلدان التي تناصل من أجل تحقيق مستقبل أفضل فحسب، بل إنها أيضاً ضرورة حتمية» .

لقد حاول تشي أن يمارس دوماً ما كان ينادي به، وكان انتصاره ومأساته في آن معاً أنه ورط نفسه بزلات من لسانه . كان هذا آخر نداء له للعمل قبل أن يكتنفه الغموض، فقد عاد بالتأكيد إلى كوبا قبل أن يغادرها ثانية للكونغو ليقاتل المرتزقة البيض الذين أثاروا حنقه، وقبل أن يغادر كوبا أرسل رسالة وداعية إلى فيدل يقول فيها إنه سوف يحاول أن يبقى وفياً لمبادئه مهما كانت النتائج النهائية، وإنه كان مندجماً دوماً مع ما حققته الثورة الكوبية عالمياً . وقد اصطحب معه إلى الكونغو عدداً من رفاقه في السير مايسترا، كما واصل بعضهم الآخر الذهاب إلى بوليفيا .

إن الذي حدث مع تشي في الكونغو لا يزال مجهولاً، والأرجح أنه التحق بالفرق المسلحة التي كان يقودها موليلي وسمواليوت في القتال ضد تشومبي . وحاول مع الكوبيين الآخرين أن يدرّبوا الكونغوليين على قتال حرب العصابات، ولكنهم اكتشفوا أن المتطوعين كانوا دون المستوى المطلوب . وبعد تسعة شهور من الإخفاق النسبي قرر تشي ورفاقه الكوبيون مغادرة البلاد . لم يكن بوسعهم تعليم التلامذة الإفريقيين أكثر مما تعلموه من تجربتهم الكوبية . ويفيد أحد التقارير أن ثمة شيئاً آخر أثار اشمئزاز تشي، وهو اكتشافه، إلى جانب وجود

المرتزة البيض، أكلة لحوم بشر وسفاكين. كان تشي هذه المرة الطبيب الذي ثار.

في الوقت الذي كان فيه تشي يتأهب لمغادرة الكونغو كان كوكوبيريديو، وهو مقاتل بوليفي، قد ابتاع مزرعة على نهر ناشواسو (Nanchuas) في جنوب بوليفيا لاستخدامها كقاعدة لثورة تشن على حكومة الجنرال بارنتوس البوليفية. وقد ناقش ماريو مونجه زعيم الحزب الشيوعي البوليفي مع فيدل كاسترو الخطط لجعل هذه المنطقة نواة لثورة تشمل أمريكا اللاتينية بالرغم من كونها منطقة عسكرية منذ ثلاثين سنة خلت. وفي الوقت الذي عاد فيه تشي إلى كوبا سراً في خريف ١٩٦٦، كانت قوة من الشوار تتسلل إلى البلاد وتخزن السلاح والمؤن في سانتا كروز ولاباز. وفي نهاية أكتوبر غادر تشي قاصداً بوليفيا لبدأ حرباً كان يأمل أن تحرر قارته بأسرها من الامبريالية. كان يبغى أن يكون بوليفار الجديد وأن ينجح حتى أكثر من المحرر العظيم. لم يكن يهدف إلى القضاء على سيطرة الامبريالية فحسب، بل إلى توحيد أمريكا اللاتينية في كتلة اشتراكية كذلك.

أرسل تشي، بينما كان لا يزال يستعد لثورته الأخيرة، رسالة إلى كوبا تليت في منظمة تضامن دول القارات الثلاث في هافانا عام ١٩٦٧، شرح فيها عقيدته قبل موته، وأورد خلاصة لفلسفته التي اكتسبها في حياته مقاتلاً من أجل الشعوب الفقيرة على الأرض.

ابتدأ تشي بالتساؤل عما إذا كان ثمة سلام نسبي حقاً في الإحدى والعشرين سنة التي تلت الحرب الأخيرة. فعلى سبيل المثال استمرت الحرب في فيتنام ما يقرب من ثلاثين سنة، بينما قاتل الشعب هناك ثلاث قوى إمبريالية على التوالي - اليابان، ثم فرنسا ثم الولايات المتحدة... وكان الفيتناميون لا يزالون يعانون من القصف وتصعيد الحرب من قبل الأمريكيين الذين كانوا البادئين بالعدوان. ولكن هذا الإثم ينطبق أيضاً على أولئك الذين عندما جاء وقت الحسم ترددوا في

جعل فيتنام جزءاً منيعاً من العالم الاشتراكي، متفادين بالطبع مخاطر «حرب تشمل الكرة الأرضية بأسرها»، وقد استمر تشي - دون أن يذكر بالاسم روسيا والصين - في اتهامه القوتين الشيوعيتين الكبيرتين بالتنازع فيما بينهما وبإحداث الانشقاق في القوى المعادية للامبريالية في العالم. ولقد أسقط الفيتناميون، بفضل بطولتهم فقط، «مجتمع الولايات المتحدة العظيم» في القاذورات وأقنعوا الأمريكيين بأن القتل لم يعد عملاً مفيداً بالنسبة لاحتكاراتهم.

فماذا بوسع بلدان العالم الثالث أن تفعل عندئذ إذا كان شبح حرب ذرية عالمية قد سبب تسوية بين البلدان الشيوعية والرأسمالية المتقدمة، وسمح بإبادة الشعب الفيتنامي؟ كان جواب تشي أنه ينبغي تجاهل هذا الشبح. «بما أن الامبريالية تبتز البشرية بتهديدها بالحرب، فإن رد الفعل الحكيم هو أن نخاف الحرب». يجب على بلدان أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا أن يحرروا أنفسهم مهما كانت التضحيات؛ فقد تأخرت الثورة في آسيا وإفريقيا، أما في أمريكا اللاتينية فقد بدأت منذ وقت من بؤر مجموعات الثوار العاملة في غواتيمالا، وكولومبيا، وفنزويلا، وبيرو وبوليفيا. فإذا قدر لهذه البؤر أن تصبح ميادين قتال حقيقية، فسوف تجرد الولايات المتحدة الأمريكية نفسها مجبرة على التدخل بالأسلحة الحديثة والتورط بجيوشها النظامية. كان هذا هو الطريق لمساعدة النضال الفيتنامي ولقهر الولايات المتحدة.

«إنه طريق فيتنام، إنه الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الشعب، إنه الطريق الذي سنسلكه نحن في أمريكا اللاتينية. سوف يكون للثورة الكوبية اليوم مهمة خلق فيتنام ثانية أو ثالثة في العالم».

وبما أن الامبريالية نظام عالمي، فلا يمكن إلحاق الهزيمة بها إلا في مواجهة شاملة، أي في هجوم على مستوى الكرة الأرضية يستهدف

القوة الرأسمالية الأساسية. لقد برهنت فيتنام أن القوات المسلحة التابعة للولايات المتحدة كانت معرضة للهجوم والسقوط على أرض الشوار الذين يقاتلون من أجل بلادهم. إن أيديولوجية قوية تستطيع أن تهزم أكثر أنواع التكنولوجيا تقدماً. كانت الروح المعنوية نقطة الضعف عند الأمريكيين الشماليين، وهم، لولا ذلك، لكانوا مقاتلين أشداء. سوف تشن عليهم المعارك دامية عنيفة. كما ينبغي تجنب التضحيات التي لا تعود بالفائدة، وبالقتال وحده يمكن إلحاق الهزيمة بالامبريالية الاقتصادية للولايات المتحدة.

«هذه المعارك يجب أن لا تكون مجرد قتال شوارع تستخدم فيها الحجارة مقابل القنابل المسيلة للدموع، أو مجرد إضرابات عامة هادئة، ولا أن تكون معارك شعب غاضب يحطم في يومين أو ثلاثة أيام المشانق القمعية للقلة الحاكمة، بل يجب أن يكون النضال طويلاً وقاسياً، وأن تمتد جبهته إلى ملاجئ الشوار في المدن، ومنازل المقاتلين... في مناطق السكان الريفية التي تعرضت للذبح، وإلى القرى والمدن التي دمرتها قنابل العدو.

إنهم يدفعوننا نحو الصراع، ولا مناص من قبول التحدي. فيجب أن نتجهز له وأن نصمم على الانتصار فيه».

كانت بدايات الصراع تشير إلى أنها ستكون قاسية، ولكن الطريق الوحيدة لمساعدة فيتنام كانت في شن حرب شاملة على الأمريكيين الشماليين. فيجب أن لا يشعر اليانكي بالأمان في مقره أو في السينما أو في البلدة. يجب أن يسيطر عليه الشعور بأنه حيوان يائس. وعندما تزداد تصرفاته الحيوانية تقترب ساعة سقوطه المريع. فمن واجب الجميع إذن أن يقاتلوا معاً في أهمية بروليتارية حقة. إن الموت في ظل علم فيتنام أو فنزويلا أو غينيا أو بوليفيا ستكون له نفس الروعة

والجاذبية لدى الأمريكي والآسيوي والإفريقي وحتى للأوروبي. وإن كل رجل يقاتل ويموت من أجل تحرير بلاد الآخرين إنما يقوم في الوقت نفسه بتحرير بلده. لقد ولى زمن التباعد بين مجموعات بلدان العالم الثالث، وعلى جميع البلدان أن تتحد لمقاتلة العدو الامبريالي المشترك، الولايات المتحدة، التي بدأت بالتفسخ داخلياً في حرب طبقية وعنصرية.

«حيثما يمكن أن يفاجئنا الموت فأهلاً به، بعد أن تكون صرختنا القتالية قد وصلت الأذان الصاغية، وبعد أن تكون يد أخرى قد امتدت لتحمل بعدنا سلاحنا، وبعد أن يكون رجال آخرون يرافقون مواكب حضارات الشهداء بزخات مزغردة من الرشاشات مصحوبة بصرخات القتال الجديدة وأهازيج النصر».

بهذه الروح ذهب تشي إلى بوليفيا ليقاتل فيها، وفيها يموت.

الفصل السابع

الموت والأسطورة

تعتبر يوميات غيفارا الكوبية أكثر كتاباته الطافحة بالشعور الإنساني والذكريات المفيدة. فهذه المذكرات دونها يوماً على مدى شهور طويلة أثناء كفاح كان البقاء فيه يلوح متعذراً في الأدغال والجبال والعزلة أمام عدو شرس ومدرب، وفيها تظهر روح الإصرار على الصمود. إنها تكشف النقاب عن نفسية تشي الأعزل الذي لم يكن مهياً للحرب والقتال. لكن عهد الخطابة والتفلسف والنقاش قد ولى، ولم يبق أمام الرجل العظيم إلا السهر على دفع رجاله للقتال أثناء تقدمه هو نحو موته. وتمتلىء يومياته، كتحفة روبنسن كروزو الرائعة، بصور عن وسائل النجاة التي اتبعوها والأسلحة التي استعملوها والأطعمة التي أكلوها والمسافات التي قطعوها، والمؤن التي حملوها. أما الشدة والصبر والشجاعة وروح الرفقة التي مارسوها وعاشوها فتلوح بين الأسطر دونها حاجة إلى ذكرها.

«لم يعبر النهر سوانا نحن من المفرزة الوسطى بمساعدة روبيو والدكتور. كنا نريد أن نصل إلى مصب نهر ناشواسو (Nanchuasú) ولكن ثلاثة منا كانوا يجهلون السباحة، عدا أحمالنا الثقيلة. وجرفنا التيار نحو كيلو متر دون أن يكون بمقدورنا استخدام الطوق كما كنا نعتمز، وبقي ١١ رجلاً على تلك الحال عند الضفة بانتظار اليوم التالي حين يقطع الدكتور وروبيو النهر مرة أخرى. واصطدنا أربعة طيور لغذائنا لم يكن طعمها كريهاً إلى الحد الذي كنا نظن. كان كل شيء منقوعاً في الماء بالإضافة إلى استمرار رطوبة الجو الشديدة، وكانت معنويات الرجال متدهورة، كما انتفخت قدما ميجويل وتورمت أرجل بعض الآخرين. وكان الارتفاع ٥٨٠ متراً».

هذا ما كان يحدث في يوم عادي من أيام الثوار (وقع عليه الاختيار

عشوائياً) ما عدا الموت المفاجيء أو الوقوع في كمين الذي لم يكن في الحسبان. أما تدوين المشاعر في المذكرات فنادر بحيث لا تذكر إلا مقرونة بالانتصار على أفواج العدو التي تحاصر الثوار الثلاثين. وعندما استشهد توما وبقية الرفاق من أيام السير مايسترا كان تشي يدون الخسائر بإيجاز يثير الشعور إلى حد لا يطاق:

«لقد خسرت بفقدان توما رفيقاً لازمني طوال السنوات الماضية. كان مخلصاً حتى الرمق الأخير، كانت خسارتي في توما كما لو أنني خسرت لي ولداً. عندما سقط طلب منهم أن يعطوني ساعته التي سألها طوال أيام الحرب. ألقينا الجثة على ظهر دابة وصرنا بها طويلاً كي نواربها التراب بعيداً عن ذلك المكان».

إن المأساة البطولية تتطلب إحساساً بالفقد المحتوم، وفي كل مكان من «اليوميات الكوبية» نرى الموت ينسل من هنا وهناك. لم يذهب تشي ليقاتل في بوليفيا، ليردى قتيلاً، ولكنه كان يعلم أن النزاعات هي التي تحول دون بقاءه حياً. وقد علمته بداية الحملة الكوبية أن المجموعة بكاملها قد تكون عرضة للإبادة في المراحل الأولى، كما حدث مسبقاً في ألغيريا دي بيو. وإذن فلا بد أن يخالف المجموعة الحظ فضلاً عن المهارة كي تبقى حية. وقد انتهت حظ تشي في بوليفيا.

يسهل على المرء أن يتعلم الحكمة بعد حادثة مقتل تشي وفشل العصيان البوليفي المسلح مبدئياً. فثمة عوامل عديدة تجعل النجاح في بوليفيا كما في كوبا أمراً بعيد المنال. أولاً، كان قادة الثوار من بلدان مختلفة في أمريكا اللاتينية، بينما سلكت الثورة في أمريكا اللاتينية على الدوام خطأً وطنياً قوياً، فحدث احتكاك داخل مجموعة الثوار نفسها بين الرفاق الكوبيين والبوليفيين، في حين ارتاب الهنود البوليفيون بالكوبيين؛ إذ لم يعتبروهم غرباء فحسب، بل أيضاً رجالاً من البيض الكاذبين. ثانياً، سبق لبوليفيا أن قامت بإصلاح زراعي إبان نظام حكمها اليساري السابق. وقد يكون الهنود البوليفيون فقراء إلى حد الشقاء، وها هم لأول مرة منذ ٣٠٠ عام يمتلكون أرضهم الجرداء، فكان فدان في اليد خير من أي حلم على

الشجرة. وكان فشل تشي الكلي في تجنيد فلاح واحد يساند الثوار خلال الأحد عشر شهراً من التهيئة والقتال هو السبب الرئيسي في انهزامه. وسبق لتشي أن قال في كتابه «حرب العصابات» إن السبب الرئيسي للنجاح في كوبا هو مساعدة الفلاحين في السير مايسترا: «أن تجرب هذا النوع من الحروب دون تأييد السكان هو المدخل إلى كارثة حتمية».

وثمة عناصر أخرى حكمت على الثوار بالإخفاق. فكان عزل الثوار عن السكان هو الطامة الكبرى؛ إذ سرعان ما عُرر بالمؤيدين من الطبقة الوسطى في المدن الكبيرة ومن الثوار الخونة المتمردين. وكذلك أخفقت الانتفاضات المماثلة في البيرو وبلدان أخرى من أميركا اللاتينية بسبب انعدام الصبر والمواصلات. لم يقو تشي على أن يكون فظاً عنيفاً فيعدم الذين يظن أنهم كانوا خائنين من الثوار وغير الثوار، مما أدى أولاً إلى سقوط قاعدته في أيدي العدو وفقدان أدوية الربو التي لا غنى له عنها والمؤن والأوراق، ثم ثانياً إلى شق قوته الخاصة الصغيرة إلى قسمين أبدا بعد مطاردة كل منهما على حدة. وبدأ يظهر على تشي مع توالي ضعف جسمه شيء من الوهن ونقص في إمكانياته القيادية ودوافعه العدوانية. وفي إحدى المرات، بلغ به الاضطراب حداً دفعه إلى طعن فرس. أما بطولته فقد تجلت في استمرار نضاليته بالرغم من شعوره بحتمية انهياره وانهايار مجموعته. لقد صمم على مواصلة القتال ما دام باستطاعته الصمود.

ساعدت العوامل السياسية في داخل بوليفيا على هزيمة تشي. يضاف إلى ذلك أن الجنرال بارينتوس كان بوليفياً بالرغم من أنه كان بوسع تشي أن يتهمه، بحق، بقبول السلاح والخبراء من الولايات المتحدة. كذلك كان بوسع بارينتوس أن يتهم الثوار، بعدل، بأنهم مفودون ومدعومون من الشيوعيين الكوبيين. وقد سبق لفيدل كاسترو أن رفض اصطحاب عدد كبير من غير الكوبيين خوفاً من أن ينظر إلى ثورته على أنها غزو أجنبي، غير أن تشي كان دون ذلك

حكمة ووعياً. وقد تجلّى فشله الأكبر في فقدانه المرونة السياسية. كان عليه أن يتوصل إلى تفاهم مع رجل واحد: ماري مونجه، لينهي عزلته، ويخلص مجموعته من الموت اختناقاً على أيدي قوى جبارة. كان مونجه هذا زعيم الحزب الشيوعي البوليفي. كان على تشي أن يحصل على مساعدته في إثارة الشغب في المناجم وفي لاباز. لقد كان فيدل داهية حقاً عندما أعطى الضمانات للسياسيين المدنيين كي يحصل على تأييدهم، وقد شجب تشي نكوث فيدل بوعوده فقال:

«لم نكن راضين بهذه التسوية، ولكنها كانت ضرورية، وكانت تقدمية في ذلك الحين. لم يكن من الممكن أن تستمر قائمة بعد أن أصبحت عائقاً في وجه التطور الثوري. ولكن كان لدينا الاستعداد لتقبلها».

ولكن تشي رفض العمل على التوصل إلى تسوية مع مونجه. فعندما طلب مونجه ترؤس الحزب الشيوعي البوليفي للثورة ثمناً لدعمه، أعلن تشي أنه لا بد له أن يكون هو الرئيس. كان تشي يرى أن الرئيس هو الذي يمارس القتال وهو منعزل في الغابات والجبال، كما يجب أن يكون هذا الرئيس هو الزعيم العقائدي أيضاً. كان ذلك ينسجم مع العقيدة الكوبية في أنه ينبغي على قادة الثوار أن يقودوا الثورة. وعلى أية حال فقد نكث مونجه بوعوده لفيدل بالنسبة لدعم الحزب الشيوعي البوليفي لكوبا في جميع الأحوال. كان تشي قائد الميدان وكان عليه أن يقود حسب نظريته الخاصة، كان يفضل الموت على أن يتنكر لذاته.

ومع ذلك فبالرغم من وجود هذه المصاعب والأخطاء فقد كان بوسع الثورة البوليفية أن تطيح بحكومة بارينتوس وهي لا تزال تواصل القتال. إن النظرية الأصلية للثورة الكوبية التي تقول إن الثورة تصنع ذاتها، وإن الظروف لن تصبح مكتملة إلى حد يبدأ فيه الرجال العاقلون ثورتهم، تلقت تأكيداً ثانياً قوياً. فبعد الهجوم الرائع للثوار على سومايباتا في (يوليو) تموز ١٩٦٧ الذي أسفر عن استيلاء عدد

قليل من الثوار على البلدة وحاميتها العسكرية، اهتزت حكومة بارينتوس ولاحتتها سخرية الشعب. وحملت أسطورة الثوار الذين يقودهم تشي إلى إغلاق حدود البيرو والأرجنتين وإعلان التعبئة في جيشها. كانت بوليفيا في طريقها لأن تصبح نواة لثورة تشمل القارة وذلك، بالتحديد، بعد تعرض الانتفاضة العفوية التي وقعت في المناجم البوليفية في (يونيو) حزيران ١٩٦٧ إلى القمع الوحشي على يد الجيش. ولو كان تشي أكثر عدوانية وعنفاً في تلك اللحظة، فهاجم برجاله الواحد والعشرين حقول الزيت والمواصلات السائبة في بوليفيا، جلبت أسطورة الثوار الذين لا يقهرون متطوعين جدداً، ولربما سببت أيضاً سقوط بارينتوس الذي كان يترصد به أعداؤه الفرص مفيدتين من النقمة الشعبية. ولكن تشي تلكاً كثيراً، وبدأت استراتيجية الجيش البوليفي في التحسن نوعياً، وبدأت حفنة الثوار خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من حملته، في حالة هروب وخسارة مستمرة.

ولم تكن حتى كارثة يورو رافين، حيث جرح تشي وأسر وشتت مجموعته، بأسوأ من كارثة اليفريادي بيو. لقد نجا عشرة رجال من الكارثة، وبالرغم من ذلك تمكن الجيش البوليفي فيما بعد من الإمساك بخمسة منهم، وقد وصل ثلاثة كوبيين من بين الآخرين سالمين. وعاد أينتي بيريدو، وهو قائد ثوار بوليفي، إلى بوليفيا ليواصل نضاله الذي لا يزال دائراً. وأرسل أينتي بيريدو في عام ١٩٦٨ برسالة موجهة من بوليفيا جاء فيها:

«لم تمت حرب الثوار في بوليفيا! بل لقد ابتدأت الآن. كان موت صديقنا الذي لا يعوض ورفيقنا الميجور آرستو تشي غيفارا وغيره من الثوار ضربة قاسية لنا. . . ولكن هذه الأحداث المؤلمة أبعد من أن نخيفنا بل إنها ستزيد من وعينا الثوري.

إن هدفنا الوحيد والنهائي هو تحرير أميركا اللاتينية التي هي أكبر من قارة، إنها بالأحرى وطننا الممزق مؤقتاً إلى عشرين جمهورية.

نحن مقتنعون بأن حلم بوليفار وتشي - توحيد أمريكا اللاتينية سياسياً وجغرافياً - سوف يتحقق من خلال الكفاح المسلح، وهو الأسلوب الوحيد المشرف المنزه المجيد الذي لا نعيد عنه، والذي سيعرك الشعب ويحفزه».

إن الاهتمام الذي أبداه الجيش البوليفي في تدبير اغتيال تشي الجريح، وإحراق جثته، وذر رماده، أظهر الرعب الذي ألقته في روع الحكومات العسكرية في أمريكا اللاتينية أسطورة تشي وحلمه في توحيد القارة من خلال الصراع المسلح. كانوا يعلمون أن قضيته لن تموت بموت جسده، كان بوسعهم أن يحرقوا جثته ويحولوها إلى رماد، ولكنهم لا يستطيعون حرق مثله وتحويلها كذلك إلى رماد. لقد رفض بومبو حارس تشي الذي فر من بوليفيا عائداً إلى كوبا، أن يعترف بفشل المحاولة البوليفية. «لم نفشل، لقد خسرننا معركة» وواصل حديثه قائلاً: «إن مجموعة الثوار، مثل سائر الرجال، يصعب الدفاع عنها عند مولدها، إنها تكون طفلاً. ولكن لو قدر لوليدنا أن ينجو لنا وتطور، ولكن فشلنا الوحيد في بوليفيا أنهم اكتشفونا في وقت مبكر جداً، وعلينا أن نقاتل». إن هدف الثورة المسلحة التي تشمل القارة، والتي تنطلق من نواة قرب مركز القارة لم يمت بين أتباع تشي، لقد تأجل تحقيقه إلى أن تحين الانتفاضة القادمة.

لقد كان تأثير تشي في موته أكثر منه في حياته. حقاً لا يروي الموتى حكايات ولكن يصنعون أسطورة. لم يكن تشي واحداً من أعظم أبطال عصره فحسب، بل كان أكثرهم ذكاء وأصالة وتقشفاً وراдикаلية وإنسانية وبهاء. لقد أثار آلاف الاضطرابات وأهمل مئات الثورات، وترك للماركسيين قديساً كرس حياته وموته لأفقر الرجال دون أن يطلب العون من الله. إن قاعات الطلاب في جميع أنحاء العالم تزيناها عبارة «تشي حي». وكان استشهاده إلهاماً للشباب. وقد يكون تشي مات من أجل الفقير، لكنه مات من أجل المستقبل أيضاً.

لقد صادف بعد موت تشي مباشرة أن اشتعلت حركة الحرس

الأحمر في الصين الماوية . وفي عام ١٩٦٨ ثار العديد من طلاب العالم مختارين تشي رمزاً خاصاً والحرس الأحمر مثلاً عاماً. وكانت أحداث عام ١٩٦٨ مشابهة بشكل غريب لأحداث عام ١٨٤٨ عندما اجتاحت موجة من الانتفاضات معظم مدن أوروبا الرأسمالية، وانتهت بانتصار القوى الحاكمة أصلاً. إن الفارق الرئيسي بين ثورات الطلاب في عام ١٩٦٨، وثورات الطبقة الوسطى في عام ١٨٤٨، يكمن في الحافز الجديد. فالقاسم المشترك بين تشي والحرس الأحمر الصيني كان مفهومهما للثورة وأنه لا بد لها من أن تنطلق من الأرياف لتطهير المدن من الفساد.

إن طلاب الطبقة الوسطى الذين قاتلوا في شوارع باريس خلال ثورة مايو، أو في شيكاغو خلال المؤتمر الديمقراطي، أو في برلين أو لندن أو بيونس أيرس أو طوكيو أو مكسيكو سيتي أو في عشرين بلداً آخر في السنة التي تلت موت تشي، جاؤوا من بيئات مدنية أو شبه مدنية. لم يكن الطلاب يطلبون معرفة فكر تشي وماو، ومع ذلك ذكرهم ماو بذلك عندما أعاد ٢٠ مليوناً من الحرس الأحمر للعمل في الريف. كما أخبرت صحيفة (The New China Daily) والذي أحد الشباب الصينيين بأن «أعظم حب يمكن لأحد أن يمنحه لأبنائه وبناته هو أن يشجعهم على الذهاب إلى الصفوف الأولى في الإنتاج وأن يكيّفوا أنفسهم في الريف من خلال إعادة تثقيف أنفسهم على يد الفلاحين الفقراء».

لقد انتصرت حكومات العالم في عام ١٩٦٨، فقمعت كل انتفاضات الثوار تقريباً في أمريكا اللاتينية، وقضت سلطة الكبار على احتجاج الشباب في البلدان الشيوعية والرأسمالية وفي البلدان النامية والمتخلفة. واتخذت إجراءات قاسية بحق الطلاب في كينيا وتشيكوسلوفاكيا والمكسيك وفرنسا والصين والولايات المتحدة. لقد كانت ردة فعل شاملة ضد ثورة شاملة أهمها موت تشي. وكما فشل بوليفار مرات قبل نجاحه في أمريكا اللاتينية، وكما فشل تشي نفسه

ثلاث مرات في جواتيبالا والكونغو وبوليفيا قبل نجاحه مرة في كوبا، كذلك فإن فشل ثورات عام ١٩٦٨ لا يعني نهاية الثورات.

إن الإعجاب بثشي إلى حد بلغ منزلة العبادة يعود لأسباب شخصية وثقافية معاً. فقد تحدر تشي نفسه من أصل بورجوازي، أبيض، غني، متعلم، له جذور مدنية، شأنه في ذلك شأن العديد من قادة الطلاب الثوريين المعاصرين، أبناء الطبقة الوسطى، ممن خاب أملهم بالأحزاب الشيوعية التقليدية وبنقابات العمال وبقدرتها على قيادة أي نوع من الثورات مهما كان. إن هؤلاء المتطرفين الجدد ينسجمون مع تشي ومثله، فالذي فعله وحاول أن يفعله يجعل من المستحيل أمراً ممكناً. لم يكن تشي وليد حاجة تاريخية، وإنما كان ثورياً اختار أن يكون كذلك، ولذا فإنه يمد بالأمل أولئك الناس أمثال ريجي دوبريه الذين يرغبون في العمل من أجل الفقير والضائع في العالم دون أن يكونوا قد ولدوا زنجياً أو مضطهدين أو محرومين من الامتيازات. لم يكن تشي صنيع نشأته بل كان صنيع ذاته.

وبالرغم من أن الثوري يظل بطل عصرنا، إلا أنه ليس بين الأبطال الثوريين من سيخلف تشي في مكانته. إن تنامي الإعجاب به بعد موته كان النتيجة المنطقية لنهاية حياته، تلك الحياة التي اكتشفها الأسرار والألغاز والكفاح والصراع. إن الجبن الذي اتصف به اغتيال تشي قد خلده وأضفى عليه هالة من القدسية والبطولة تبهر الأنظار. لقد اختار تشي أن يغادر كوبا ويستشهد في سبيل مبدئه وعقيدته مما رفعه فوق أي من فيدل كاسترو وهو تشي منه وماوتسي تونغ وجعله رمزاً للثورة مع أن مواهبه كقائد قد تكون أقل من مواهبهم. ولو بقي تشي في كوبا أو لو أنه مات مصادفة كما حدث مع كاميلو سينفيجوس لما كان الطلاب ليرفعوا صورته في جميع أنحاء العالم، وما كان ليضرب به المثل في كل مكان، وما كانت مؤلفاته لتنتشر وتقرأ في جميع الأقطار. إن التقدميين من معارضي العنف الذين لا يتعدى إعجابهم بثشي حدوداً معينة والذين يخالفونه في بعض أساليبه سيضمون أصواتهم إلى

أصوات جميع الماركسيين الذين يقدرّون تشي ويقدسونه ويرددون مع فيدل كاسترو قوله: «إذا كانت لدينا رغبة في أن نتساءل عما نريد أن يكون عليه المستقبل، فالجواب: ليكونوا مثل تشي وكفى».

إن عبادة الأشخاص أياً كانوا لا تخلو من عنصري النفاق والبله. وبين عبادة تشي وعبادة المسيح عنصر مشترك. لقد قاتل تشي من أجل الفقير واختار أن يضحي بشبابه ليشعرنا دون ضوضاء أنه مات من «أجلنا» ومن أجل الإنسانية جمعاء. لا شك أن تشي قتل العديد من الرجال، وكره أعداءه، ولا شك أن معتقداته نابعة من مذاهب سياسية يشتمز لها الكثيرون وأنه استخدم وسائل تخلو من الإنسانية في بعض الأحيان، وأنه كان رجلاً يعيش في الغابة عيشة الحيوان، برغم هذا كله فقد سما فوق كل هذه النواقص حتى غدا أكبر من الكائن البشري واقترب بصورته من صورة المسيح المنقذ. وعندما تراجع أعماله وفيها ما يدينه يبقى الاعتقاد بأن تشي عمل ما عمل مدفوعاً بحبه للإنسانية وبما هو نافع للبشرية. إن المثل التي عبر عنها في كتاباته بأكملها وأحاسيسه وموته، تجاوزت العقيدة والأيدولوجية. إن صورة جثمانه معلقة الآن، كما تعلق الأيقونة، في البيوت الريفية من أمريكا اللاتينية الكاثوليكية.

كان سارتر محقاً عندما قال عن تشي إنه «أكثر الرجال كمالاً في عصره». كانت فيه صفة «الانبعاث»؛ فقد أنجز في تسعة وثلاثين عاماً أكثر مما أنجزته مجموعة من الرجال طوال حياتهم، حتى يخيل للمرء بأن له من الأرواح ما يزيد على أرواح عدد من الققط مجتمعة. وحاول أن يكون محترفاً في كل شيء فعله، كطبيب وككاتب يوميات، كمنظر سياسي وعسكري، كمقاتل في حرب العصابات، كاقصادي، كرجل تكتيك، كمصرفي، كمخطط ورجل دعاية، كمنفذ لجميع ما

أوكل إليه من أعمال، حتى ليصعب القول إنه كان يعاني من تناقضات أو نزاعات داخلية. كان ثابتاً إلى حد الإدهاش في كل ما قاله وفكر به وعمله لأن الإداري المحترف الذي درس اقتصاد أمريكا اللاتينية وطوره لا يختلف عن البطل الشائر في بوليفيا الذي قرر أن القتال هو الطريق الوحيد لحل مشكلات القارة الاجتماعية والاقتصادية. الفرق بين تشي وغيره من الرجال، هو أن تشي لم يسمح لغيره بتطبيق أفكاره بل راح هو يمارسها بنفسه ويطبقتها.

لم تكن هناك ازدواجية بين أعمال تشي وأقواله. لقد مارس تشي ما نادى به لا كما يفعل غيره من المفكرين الذين يقولون ما لا يفعلون. إن رجل الفعل يدون تجاربه ويحللها كي يخلص بالنتائج العملية والخلقية منها، أما الشخص الحالم فإنه يطبق مهاراته في محاولة لجعل أحلامه شيئاً مجسداً. كان تشي يؤيد الحكم المطلق، وأراد أن يصل بكل شيء إلى نهايته العادلة، وكان ضبطه للأمور مثيراً إلى درجة تبدو معها وكأنها أنجزت من غير جهد. كما لم يعرف النفاق إلى نفسه سبيلاً. وعندما قال إن عمل المرء من أجل أصدقائه متعة لا تضاهيها متعة، كان ذلك صحيحاً بالنسبة إليه. ومن مقولاته أن الثوري الحق هو الذي يحارب ويموت في ظل علم أمة لم تولد بعد، وهو ما فعله تشي نفسه دون التباهي بشجاعته وإقدامه، بل فعل ذلك مبتهجاً كما لو أنه ينجز أمراً طبيعياً عادياً. لقد قال: ليس هناك إنسان مهما علا شأنه إلا ويمكن الاستغناء عنه، وهذا ما شعر بأنه ينطبق عليه، أكثر من أي إنسان آخر. ولذا عرض نفسه للخطر، ومات رجلاً كاملاً مكتملاً.

قد يذكر التاريخ غيفارا على أنه غارibaldi زمانه وأكثر الثوريين إثارة للمحبة والإعجاب في عصره. أما أفكاره فقد لا تكون ذات أثر

في الاشتراكية وحرب العصابات إلى حين، بيد أن أثرها، لا سيما في أميركا اللاتينية، يجب أن يستمر طويلاً، ذلك لأنه لم يأت رجل مثله منذ أيام بوليفار يحمل مثلاً عظيمة في الوحدة لهذه القارة المجزأة واليائسة. لاشك أن الأجيال الطالعة ستلاقي أبطالاً جدداً، ولكن لن يكون بينهم من هو في مثل تأثيره وإلهامه، وها هي آثار أفكاره ونتائج أعماله بدأت تظهر بعد موته في التحولات والتغيرات الاجتماعية من حولنا. عندما ينظر الجنرال في بلدة «فيفا سباتا» إلى جثة قائد الثوار المشوهة يقول: «يستطيع الميت في بعض الأحيان أن يكون عدواً مخيفاً». إن تشي الميت عدو مخيف للأمم الغنية على الأرض، وللحكومات الفاسدة التي تحكم العديد من الأمم الفقيرة، وإنه لعدو رائع كبير.

مؤلفات غيفارا :

1 - Guerilla Warfare (1961)

الحرب الثورية

1 - Guerilla Warfare : a method (1966)

طريقة الحرب الثورية

دراسات عن غيفارا :

1 - Debray, Regis, Che's Guerrilla war (1966)

2 - James Daniel, Che Guevera (1969) .

3 - Resnick, Marvin, The Black Beret, : The Life and Meaning of Che Guevera (1970)

4 - Sauvage, Leo, Che Guevara, The Failure of a Revolutionary (1974).

جورج اورویل

تألیف : ریموند ویلیامز





یوم زکریا

الفصل الاول

من بلير الى اورويل

ولد آرثر اريك بلير عام ١٩٠٣ في موتيهاري من أعمال الهند الواقعة تحت الاحتلال البريطاني، وهو الطفل الثاني لوالديه ريتشارد والمسلي بلير وايدا مابل ليمزين. وكان والده البالغ من العمر ٤٦ عاماً حينذاك يعمل وكيلا في دائرة مكافحة الافيون التابعة لسلك الخدمة المدنية في حكومة الهند. اما جده لاييه فقد خدم في الجيش الهندي ثم اصبح فيها بعد قسيساً انجليكانيا، وعملت جدته لأمه بتجارة خشب الساج «التيك»، ومن ثم اصبحت من القائمين بزرع الارز. وعندما بلغ اريك بلير سن الرابعة عادت العائلة لانجلترا واقامت في هينلي بالرغم من بقاء والده في الهند حيث عمل الى ان تقاعد عام ١٩١٢. وكتب اريك، فيما بعد، يقول انه بالكاد رأى والده قبل بلوغه الثامنة من عمره. وفي العام ١٩٠٨ كانت والدته التي تصغر زوجها بثمانية عشر عاماً حاملاً بولدها الثالث، وكانت الاسرة تتألف حينذاك من ابنتين وابن تفصل بين اعمار الواحد منهم والآخر فترة ٥ سنوات.

وارسل اريك بلير، عندما بلغ الثامنة، الى مدرسة اعدادية خاصة في ساسكس، وسكن هناك، فيما عدا ايام العطل، الى ان بلغ ثلاثة عشر عاماً، وعندئذ ذهب في منحة الى مدرستين ثانويتين من المدارس الخاصة، هما مدرسة ويلنغتون (لفصل دراسي واحد) وايتون (لمدة اربع سنوات ونصف السنة)، واقام هناك ايضا في المدرسة خلال ايام العطل. وعندما غادر ايتون انتقلت العائلة من اكسفورد شاير الى سافولك، فالتحق اريك بلير بسلك البوليس الملكي الهندي وتلقى تدريبيه في بورما، حيث خدم مدة ٥ سنوات الى ان اتخذ عام ١٩٢٧

قراراً بعدم العودة، بينما كان يقضي اجازته في وطنه. واصبحت استقالته من البوليس الملكي سارية المفعول في اول يوم من ايام العام ١٩٢٨.

كانت حياة بلير بكل تفاصيلها المرئية وحتى بلوغه سن الرابعة والعشرين بمثابة اعداد (تدريب) للدخول في عضوية الطبقة المتوسطة التي تتولى الشؤون الادارية في بريطانيا الامبراطورية (الامبريالية). وكانت عائلته تعيش في الهند وبورما وتعمل في الجيش والادارة وفي التجارة. وكان اول عمل يقوم به كشخص بالغ ان انخرط مباشرة ضمن هذا النمط. أضف الى ذلك أنه ترعرع وكبر وهو يتميز بخاصية فقدانه للحياة العائلية الطبيعية في بلده انجلترا التي كانت بصورة اساسية مركزاً له وموتلاً لمدارس الطبقات الحاكمة. وعندما تحطم هذا النمط عام ١٩٢٧ وجد نفسه في وطنه حيث قضى ثلثي عمره يعمل ضمن مؤسسات على الدوام، او فيما ندر، ضمن اوضاع عائلية تفرض مجموعة معينة من العلاقات الاجتماعية، وكانت السيطرة السياسية والثقافية للرجال الذين يتمتعون بخلفية مشابهة وتاريخ مشابه، متميزة في النصف الاول من القرن العشرين في بريطانيا، لدرجة ان نشأة بلير غالباً ما وصفت بأنها سوية وقوية. وبأي منظور آخر، بما في ذلك منظور معظم الناس في بريطانيا، فقد كانت حياته غريبة لا بل مغايرة في نواح هامة. وهذا الامر ينبغي تذكيره والتأكيد عليه عندما نقوم بتفحص السنوات التسع القادمة من حياته. فقد كانت نتيجة تلك الامور صنع مجموعة جديدة من العلاقات الاجتماعية- وبمعنى هام- خلق هوية اجتماعية جديدة. هذا هو التطور الحاسم الذي مر به بلير منتقلاً إلى اورويل.

ان اسباب الانفصام الاول هي دون شك معقدة، ولكن ثمة عاملين جليين، إذ إنه خلال فترة المراهقة كان واضحاً انه اراد ان يصبح كاتباً، فقد كان الالتحاق بالبوليس الملكي في هذا الصدد وغيره مهنة غير ملائمة على حد قوله. ولكن ثمة دليلاً جيداً ايضاً (بالرغم

من كون هذا الدليل جاء في فترة متأخرة جداً، عندما أصبح تفكيره صافياً)، بأنه أصبح يتفهم ويرفض الامبريالية التي كان يعمل في خدمتها.

كتب يقول في نهاية تغييره ان الامبريالية شيء شرير وانه كلما اسرع في الاستقالة من عمله كان ذلك افضل . مع ذلك فان تجاوبه وهو يعمل في خدمتها كان اشد تعقيداً . فقد علق، كما رأى فيما بعد، بين مطرقة كره الامبراطورية التي كان يخدمها وبين سندان الغضب الشديد على مواطنيه الذين عارضوها والذين جعلوا وظيفته المباشرة صعبة . فهو يقول انه من الناحية النظرية كان يقف كلياً مع البورميين وضد مضطهديهم (بكسر الهاء) البريطانيين، اما من الناحية العملية فقد كان، في الوقت نفسه، معارضاً للعمل القذر الذي تقوم به الامبريالية ومتورطاً في ذلك العمل .

ويمكن ملاحظة بعض اجزاء هذه الاستجابة المعقدة تسري باستمرار في بقية حياته . الا انه من الاهمية بمكان ايضاً ذكر علاقته المتقلقة والغامضة بانجلترا عندما وقع الانفصام، ذلك المجتمع الذي يعرفه وينتمي اليه . ومع ذلك، وباستثناء بعض الحالات المجردة، لا يعرفه بتاتا . لذلك كان بإمكانه ان يستعفي من خدمة البوليس الامبريالي ويقيم في بريطانيا ضمن شبكة العلاقات الطبقية نفسها، ولو انه كان يقاوم الامبريالية الصريحة فحسب لكان هذا النهج سوياً . بيد ان مشكلة العلاقة داخل انجلترا كانت اكثر خطورة . ان ما قام به بلير فعلاً في الشهور الستة الاولى بعد تسريحه هو القيام بما كان يحسبه حملة استكشافية الى الحي الشرقي (ايست اند) من لندن لكي يتعرف على الفقراء الانجليز، وقد اتخذ من غرفة في حي «نوتنغ هيل» قاعدة له . ثم استأجر غرفة، في ربيع العام ١٩٢٨ في حي عمالي في باريس . لقد اقامت خالته نيللي ليموزين المحببة الى قلبه في الشارع نفسه في «نوتنغ هيل» وكانت تقيم في باريس خلال الثمانية عشر شهراً التي قضاها هناك . اما رحلته الاستكشافية الى حي «ايست اند» الشرقي فكانت

من النوع الذي قام بتكراره مرارا فيما بعد، رحلة لاكتشاف الناس الانجليز العاديين، ولكن اذا ما نظرنا الى العامين ونصف العام الأولى لحياته الجديدة ككل، فمن المعقول ان نرى أن دافعه الرئيسي هو في توطيد نفسه ككاتب، لهذا الغرض فان اختيار باريس ليس صفة مميزة لذلك الوقت. وكتب يقول بعد عشرة اعوام ان باريس كانت في نهاية العشرينات مجتاحة من قبل اسراب من الفنانين، والكتاب، والتلامذة وهواة الفن والمشاهدين المتفرجين على المناظر والمشاهد والفساقين والبطالين البسيطين كما لم يشهد العالم ذلك من قبل... وفي بعض احياء المدينة كان عدد ما يسمى بالفنانين يفوق فعلا عدد السكان العاملين. ثم هبط الركود بعد ذلك مثل عصر جليدي اخر فاخفى ذلك الجمهور الحاشد من الفنانين الكوزموبوليتانيين (مجموعة المقالات والرسائل، ج ١، ص ٩٩٣). وينبغي علينا ان نلاحظ احدى عاداته، وهي صفة ملازمة لعدة مراحل من تجربته، وهي انه كان يكتب بمثل هذه الالفاظ الراشحة بالازدراء والتحقير عن شيء كان هو نفسه يؤلف جزءاً منه، فخلال اقامته في باريس كتب روايتين ونشرهما، لم يعثر عليهما، ونشر بعض المقالات بالانجليزية والفرنسية. اصيب بمرض «ذات الرئة» (النزلة الصدرية) وعمل عشرة اسابيع في غسل الصحون وحمالاً في المطبخ ثم عاد الى انجلترا في نهاية العام ١٩٢٩.

اما الستتان ونصف السنة اللاحقة فقد خصصها لكي يوطد نفسه ككاتب انطلاقاً من قاعدة مختلفة. لقد استخدم منزل والديه في سافولك للكتابة واكتسب مالا من كتابة المقالات بين الحين والحين ومن التعليم. وقد أتم كتابة عدة نماذج مما عرف فيما بعد بكتابه الاول المسمى «التسكع في باريس ولندن» «Down and out in Paris and London»: «انني افضل ان أكون غاسلاً للصحون عن حالة التسكع» (مجموعة المقالات والرسائل، ج ١، ص ١٠٧). كان الكتاب سجلاً لخبراته، ولكن «اذا كان من شأن تأثيره ان يأتي على وتيرة واحدة بالنسبة للجميع فاني افضل ان انشره تحت اسم مستعار». وبها

انه كان يكسب معيشته كمدرس عندما كان الكتاب قيد الطبع فان هذا الجانب من تفضيله يصبح مستساغاً، بيد ان مسألة الاسم والمسألة الاعمق من الهوية، سبق لهما ان ظهرتا من قبل، وفي ذلك الحين كان لا يزال يتابع ما كان يعتقد أنه جولات في انجلترا: يعيش مع المشردين والذين يركبون وسائل النقل مجاناً وفي مناطق عمالية. وفي معرض مناقشته لكتاب «التسكع في باريس ولندن» كتب عام ١٩٣٢ الى وكيله الادبي يقول: «بالنسبة للاسم المستعار كنت استعمله دوما اثناء تسكعي وهلم جرا، وهو ب.س. بورتين ولكن اذا كنت لا تعتقد بان هذا يبدو محتملاً فماذا بشأن

كينيث مايلز؟

جورج اورويل؟

هـ. لويس اولويز؟

في الواقع انني افضل اورويل (مجموعة المقالات، ج ١، ص ١٠٦) والاورويل هو نهر في سافولك، يقع الى الجنوب من منزل ابويه. نشر هذا الكتاب الاول من تأليف اورويل عام ١٩٣٢، وخلال السنوات الثلاث التي تلت انتهى من توطيد نفسه ككاتب. كان يكسب الاموال عن طريق التعليم والعمل في مكتبه ومن مراجعة الكتب، وابتداءً يقيم فترات اطول خارج منزل والديه. واعقب كتابه «التسكع في باريس ولندن» صدور رواية «ايام بورما» Burmese days التي نشرت اولاً في الولايات المتحدة عوضاً عن انجلترا لتخوف ناشرها من ان يلحق بمؤلفه (اورويل) الاذى في بورما. وتلا ذلك روايتان، الاولى ابنة رجل الدين Clergyman daughter ونشرت عام ١٩٣٥ والثانية Keep the Aspidistra Flying (دع الدريقة مرفرفة) ونشرت عام ١٩٣٦. وانتقل في ربيع العام ١٩٣٦ الى مخزن قروي في ولنغتون من مقاطعة هرتفورد شاير، وبعد ذلك بشهرين تزوج من ايلين اوشوغنسي وهي ابنة احد جبابة الضرائب تخرجت من القسم الانجليزي من جامعة اكسفورد (١٩٢٧) وعملت

معلمة وصحفية ثم حصلت على شهادة عليا من قسم علم النفس في جامعة لندن (١٩٣٤). كان اسمها اريك وايلين بليز، بيد أن هوية جورج اورويل المتميزة قد اصبحت الآن عقب سنوات المحن والتحول متوطدة بوضوح تام. قامت شهرة اورويل حتى ذلك الحين، ككاتب وكصحفي، اساسا على وصفه للفقر والكآبة. لقد اكتسب من خلال رحلاته ومن ثم من تقاريره المقنعة هوية معينة، برغم محدوديتها، في المجال الادبي، فقام اولاً بقطع علاقاته الاجتماعية التقليدية، ومن ثم تخلى عنها عبر فترات غير منتظمة ولكن عن وعي وبشكل متكرر. والذي جاء به الى حضارة تتميز بالوعي الطبقي في وقت كان يسوده الفقر والكساد، كانت تقارير من عالم بدا بعيداً في التجربة مثل بعد بورما، وكان كتابه التالي يتناول هذه الهوية بالضبط؛ اذ كلفه نادي الكتاب اليساري ان يقوم باستقصاء عن حياة الفقراء والعاطلين عن العمل.

ولكن العام ١٩٣٦، عندما اوكلت اليه هذه المهمة، كان عام الازمات والتغير في مجال مختلف تماماً. وبينما اطالت المهمة الموكلة اليه من استمرارية هويته السابقة ككاتب كان اسلوبه في تأدية هذه المهمة من خلال كتابه «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» *The Road to Wigan Pier* علامةً للدخول في مشروع جديد، ككاتب سياسي، وقد استمر ذلك بقية حياته. وللوهلة الاولى، يبدو الجزء الاول من الكتاب وكأنه ذلك النوع من الكتابة التقريرية الذي كلف به والذي بمقدوره ان يجيئه فعلا، اما الجزء الثاني فهو عبارة عن مقال حول الطبقة الاشتراكية، ويعتبر فعلا اول تصريح حول موقف اورويل السياسي. بعد ان يكرر معارضته للامبريالية والنظام الطبقي، فانه يضيف الآن التزاماً بالتعريفات الاشتراكية لكل من الحرية والمساواة ويهاجم في الوقت نفسه معظم الحركات الاشتراكية المنظمة ولا سيما مختلف انواع الاشتراكيين الانجليز من أبناء الطبقة الوسطى. وقام خلال شهري فبراير ومارس / شباط وآذار برحلة الى لانكشير

ويوركشير، قبل ان يستقر في ولنغتون حيث كان يفتح متجره بعد الظهر. وعقد قرانه في شهر حزيران، وقام خلال الصيف والخريف بتأليف كتابه، بيد ان الحرب الاهلية اندلعت في اسبانيا في شهر تموز، وفي نهاية الخريف كان اورويل يتأهب للسفر الى اسبانيا لجمع المواد لمقالاته وربما للمشاركة في القتال. وبعد وصوله الى برشلونة بقليل التحق بميليشيا «البوم» «الحزب العمالي للاتحاد الماركسي» Partido Obrero de Unification Marxista واشترك في القتال معهم في يناير/ كانون الثاني ١٩٣٧، ثم انتقل الى فرقة حزب العمال البريطاني المستقل التي كانت تعمل بالتعاون مع ميليشيا Poum واصبح عريفاً ثم ملازماً اول. واصيب بجراح في منتصف شهر ايار، وكان قد حاول في شهر نيسان ان يلتحق باللواء العالمي في مدريد ولكنه تورط في الصراع القائم بين السلطات الجمهورية والمنظمة المذكورة، وتورط مرة اخرى عندما اعلن أن المنظمة غير شرعية. فغادر اسبانيا الى فرنسا في شهر حزيران.

ادت تجربته هذه في الحرب وفي السياسات الثورية الى تصليب موقفه في نواح عديدة. لم تجعل منه هذه التجربة معادياً للشيوعية، لكنه رفض الشيوعية على الطراز السوفياتي كالتزام ممكن قبل سنوات عديدة. ومع ذلك فقد حاول الالتحاق باللواء الدولي خلال ازمة اسبانيا، وكانت تجربته المباشرة للتنافس القائم بين منظمة Poum والشيوعيين هي التي زادت بشكل رئيسي من حدة معاداته للشيوعية ودفعته الى موقف ايجابي. واصبح في الوقت نفسه، خلال العامين او الثلاثة اعوام التي تلت، اشتراكياً ثورياً، وقد نشر بينما هو في جبهة القتال، كتابه «الطريق الى ويغان باير» في شهر اذار، وهو الكتاب الذي ضمنه هجومه على المواقع الاشتراكية البريطانية التقليدية بما فيها ما كان يعرفه بانه الماركسية. وفور عودته من اسبانيا بدأ في كتابة «وفاء لكتالونيا» Homage to Catalonia والذي تم فيه انفصاله عن اليسار التقليدي. نشر هذا الكتاب في شهر نيسان ١٩٣٨، وفي شهر

حزيران التحق اورويل بحزب العمال المستقل وبقي فيه حتى الشهور الاولى من الحرب. لقد اراد الذهاب الى الهند من اجل كتابة مؤلف جديد ولكنه اصيب بمرض السل في نهاية خريف العام ١٩٣٨ وبقي في المصححة حتى اواخر الصيف، وبعد ذلك وعلى اثر القرض الذي منحه له مايرز مؤلف «القريب والبعيد» The Near and The Far ذهب لقضاء فصل الشتاء في المغرب وعاد الى انجلترا في ربيع العام ١٩٣٩.

وخلال فصل الشتاء الذي قضاه في المغرب كتب روايته الرابعة Coming up for Air (الارتفاع بحثا عن الهواء).

وبعد عودته الى انجلترا كتب بعضا من اوسع مقالاته شهرة، وهي مقالات عن ديكينز، وعن المجلات الاسبوعية للصبيان، ومع بداية نشوب الحرب كتب «في جوف الحوت».

واثناء مقامه في المغرب كان يكتب الرسائل التي يرسم فيها الخطوط العريضة لامكانية قيام يسار سري مناهض للحرب باعتباره البديل الاوحد للاندفاع البطيء نحو الفاشية في بريطانيا. بيد أنه عندما ابتدأت الحرب اصبح يؤمن بأنه «اما ونحن نخوض غمار هذه الحرب الدموية فينبغي علينا الفوز بها، وانني ارغب في تقديم يد العون» (مجموعة المقالات والرسائل، ج ١، ص ٤١٠). بيد أنه لم يسمح له بالانخراط في الجندية لكونه غير ملائم جسديا، واصبح في حاجة الى المال مرة اخرى. وعندما تدنت الفرص للعمل في الصحافة قفل عائداً الى لندن في ايار ١٩٤٠، وفي خريف ذلك العام الف كتابه «الاسد ووحيد القرن» The Lion and the Unicorn، وهو مقالة تحمل عنواناً فرعياً «الاشتراكية والعبقرية الانجليزية»، وابتدأ يكتب منذ مطلع عام ١٩٤١ زاوية «رسائل لندنية» للمجلة الامريكية بارتيزان

ريفيو American Partisan Review، ثم التحق في شهر آب بهيئة الاذاعة البريطانية كمنتج للبرامج في القسم الهندي التابع للاذاعة الشرقية حيث بقي يعمل حتى اواخر العام ١٩٤٣، وخدم فترة في الحرس الوطني كمراقب للحرائق.

كان العام ١٩٤٣ نقطة تحول بالنسبة له من عدة وجوه. ففي اذار توفيت والدة اورويل، وكان لا بد من ان يترك الحرس الوطني لانه كان مريضاً، وترك هيئة الاذاعة البريطانية ليصبح محرراً للشؤون الادبية في مجلة «تريبون» Tribune، التي كان يديرها انورين بيفان وقام بمراجعة العديد من الكتب بشكل منتظم. بيد ان الحادثة الحاسمة هي انه ابتداء عند اواخر ذلك العام في كتابة روايته «مزرعة الحيوانات» Animal Farm، واصبحت الرواية جاهزة في شهر شباط/ فبراير ١٩٤٤. بيد أنها رفضت من قبل عدة ناشرين لاسباب سياسية. ولم تظهر الرواية في النهاية الا مع حلول شهر آب/ اغسطس ١٩٤٥ عندما وضعت الحرب اوزارها.

وعند اقتراب الحرب من النهاية في اوروبا، سافر اورويل الى فرنسا ثم الى المانيا والنمسا وعمل مراسلاً، وتبنى هو وزوجته ابنا لهما في العام ١٩٤٤، بيد ان زوجته فارقت الحياة في شهر آذار من العام ١٩٤٥ تحسنت عملية اجريت لها، فاحتفظ هو بالطفل.



جورج اورویل

الفصل الثاني

انجلترا... أية إنجلترا؟

«انجلترا، انجلترا التي تخصني». هكذا كتب لورانس، وكتب اورويل «انجلترا، انجلترا التي تخصك».

كتب اورويل مقالتين طويلتين عن إنجلترا: الأولى هي «الاسد ووحيد القرن» عام ١٩٤٠، والثانية «الشعب الانجليزي»، عام ١٩٤٤. وهو يقدم في بداية كل منهما وجهة نظر الشخص الذي يعود الى إنجلترا. «عندما تقفل عائداً الى إنجلترا من اية دولة اجنبية، يتملكك على الفور احساس بانك في جو مختلف (مجموعة المقالات والرسائل، ج ١، ص ٥٧). انه لجدير بالمرء ان يجرب لفترة قصيرة ان يضع نفسه في موضع المراقب الاجنبي، الجديد على إنجلترا، ولكنه غير متعصب لرأيه وقادر بحكم عمله على الاتصال مع الناس العاديين المفيدون والبسطاء» (مجموعة المقالات والرسائل، ج ٣، ص ١).

قد يبدو أن هذا الامر لا يعدو كونه وسيلة ادبية، فمعظم كتابات اورويل عن إنجلترا دقيقة وتفصيلية، وتشديده على الفضائل الانجليزية متواصل الى الحد الذي يبدو عنده النظر اليه الآن بمثابة الانجليزي النموذجي الاصلي ومن اكثر الكتاب الانجليز تميزاً في الصفات الاخلاقية الانجليزية. بيد أنه من الضروري تذكر التاريخ الحقيقي، وهو كيفية انبعث اورويل من بلير. ان العديد من الحالات التي يصور فيها إنجلترا جاءت متأثرة ومحددة احياناً بتاريخه الشخصي؛ فقد ولد وتعلم وحظي باول وظيفة له ضمن علاقاته مع الطبقة الحاكمة التي كانت احياناً، متعمدة، منفضمة عن إنجلترا العادية، فرفض شبكة العلاقات هذه وانطلق معتمداً على ذاته لكي يكتشف

البلد لنفسه . كذلك فان العديد من النواحي التي تقوم فيها الحياة الانجليزية جاءت متأثرة ومحددة بمثل هذا النوع من الرحلات . ان تعلقه البارز بما رأى انه يمثل انجلترا البسيطة ليس نابعا من فعل عضويته بقدر ما هو نابغ من فعل الانتماء الواعي .

سوف نرى كيف أحدث ذلك تأثيراً على مخيلته وقيمه العميقة . بيد اننا بحاجة لان نلقي نظرة أولاً على انجلترا التي كان يتفاعل معها بهذه الطريقة الخاصة . ثمة ميزة واحدة خاصة تتعلق بإضاهيه : الا وهي انه جاء ينظر الى انجلترا ضمن معرفة بامبراطوريتها فجاءت وجهة نظره عن هذا المجتمع الجزيري ثاقبة في نواح عديدة .

كتب اورويل عام ١٩٣٩ مقالة بعنوان «دون عد العبيد» Not Counting Niggers تدور حول خطة من أجل الاتحاد الفيدرالي الذي كان شبيها من الناحية الجغرافية (وكذلك من الناحية السياسية) بما نعرفه اليوم بحلف شمال الاطلسي NATO والسوق المشتركة . ان ما تجاهلته الخطة ، عن طريق السهو الملائم ، هو وجود مجموعات سكانية مستعمرة ضخمة تسيطر عليها هذه الكتلة . «انا ننسى على الدوام أن الاكثرية الساحقة للبروليتاريا البريطانية لا تعيش في بريطانيا وانما في آسيا وافريقيا . . . هذا هو النظام الذي نعيش فيه جميعا (مجموعة الاعمال والرسائل ، ج ١ ، ص ٣٩٧) . وكتب في مكان اخر يقول «التحقت بالبوليس الهندي لمدة ٥ سنوات ، وعند انتهاء تلك الفترة كنت اكره الامبريالية التي خدمتها بمرارة ربما لا استطيع توضيحها» . ففي اجواء الحرية التي تنعم بها انجلترا تبدو مثل هذه الامور غير مفهومة . «لكي تكره الامبريالية لا بد وان تكون جزءاً منها» .

ان عيون الشخص المراقب ، الذي يعود الى انجلترا ، هي عيون ملأى بهذه الخبرة عن الامبريالية . بيد انه لا يحضر الى انجلترا بالطريقة نفسها التي يأتي بها طالب هندي او افريقي عند مجيئه الى بلد اجنبي تعرف اليه عن طريق المطالعة . فهو تعلم هنا وعاشت عائلته هنا ،

وهو يدرك البنى الداخلية للمجتمع الانجليزي، ولكن من موقع طبقي رفضه من الناحية النظرية ليس الا. وكتب يقول انه عندما كان في المدرسة لم تكن لديه «اية فكرة عن كون الطبقة العاملة من بني البشر... فقد كنت اتعذب لآلامهم... بيد انني كنت اكرههم واحتقرهم عندما اكون على مقربة منهم... فبالنسبة لامثالي ممن تشربوا البرجوازية بشكل يبعث على الاشمئزاز كان «عامّة الناس» يبدو لنا متوحشين ومنفرين».

ان هذا الموقع الخاص جداً، وهو نوع من الرؤية المزدوجة الواعية، يعتبر مركزياً بالنسبة لاورويل. فقد جرى تجاهل هذه الناحية مراراً وتكراراً من اولئك الناس الذين قرأوه في تقاريره (او مراسلاته الصحفية) الاخيرة، وبصفة خاصة من جانب اولئك الذين شاركوه نوع طفولته وثقافته، بيد أنهم لم يَمروا بطور اشمئزازه المباشر واللاحق من الامبريالية. ومن المستحيل ان تقنع معظم الناس ممن حصلوا على نوع التعليم المنفصل الذي حصل عليه اورويل بأنهم في معظم النواحي الرئيسية، غير انجليز. بالطبع فان تعريف «انجلترا» بأساطيرها وأيديولوجيتها بقي في ايدي هؤلاء بالذات لمدة تزيد عن القرن. فهذه هي الطبقة التي تقوم بمعظم الكتابة والتي تدير ليس مؤسساتها الخاصة فحسب، بل معظم المؤسسات الاخرى، وهي التي بسبب سفراتها في الخارج اصبحت معروفة لمعظم الناس في العالم بأنها ممثلة «الانجليز». ويمكن القول بأمانة واطمئنان ان نظرة العالم الى انجلترا اصبحت قائمة على طباع هذه الاقلية الضئيلة واخلاقها.

مع ذلك لا تخلو صفوف هذه الاقلية من خلافاتها الداخلية الخاصة، ومن الضروري وصفها بأنها طبقة حاكمة، لا بل انها كانت الطبقة الحاكمة للامبراطورية في ذلك الحين.

بيد ان السيطرة الكلية كانت من نصيب فئة قليلة من هذه الطبقة ممن امتلكوا القدرة على العيش من ريع ممتلكاتهم واستثماراتهم او الانتقال مباشرة الى المؤسسات المركزية في العاصمة الأم. فالسواد

الاعظم من تلك الطبقة كان يقوم بوظائف اشد صعوبة واكثر تواضعاً. وثقافتهم كانت قائمة في جوهرها على كونهم بمثابة خدم لنظام يتمون اليه بوصفهم موظفين فحسب. وهؤلاء هم الناس الذين اقحموا انفسهم في النظام فواجهوا حقائقه بصورة مباشرة. اما اريك بليز فقد أبصر النور في كنف ما أسماه لاحقاً بهذا المعنى تماماً «الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة العليا». فهو ينتمي نظرياً للطبقة الحاكمة ويشارك في صنع اساطيرها وايدولوجيتها الملحة عن «انجلترا». اما من الناحية العملية فقد كان هو وامثاله على الطرف الخارجي للنظام في نواح عديدة. ولانهم ما امتلكوا ارضاً او ملكية كبيرة، فقد اعتمدوا على معاشاتهم المهنية التي كانت تعتمد بدورها على قبول التعريفات التي اوجدها النظام ككل عن «المهنة» و«الخدمة». وغالباً ما يحدث في مجموعة كهذه نوع من المغالاة في التكيف مع الاساطير ذاتها التي تعرض تحديد عضويتهم في الطبقة ككل. وقد يدفع الخوف من الانسلاخ عن الطبقة التي يشكلون فعلاً طرفها الاسفل الى بروز تعريفات حول «انجلترا» التي يتمسكون بها أكثر جموداً وصخباً من التعريفات التي توجد لدى مركز الوسط المطمئن والمرتاح. والمرة الاولى التي ظهر فيها اسم اريك بليز مطبوعاً وله احدى عشرة سنة من العمر حينذاك، كانت يوم نشر قصيدة مميزة يقول فيها:

«استفيقوا! يا شبان انجلترا».

انه صبي يقلد وطنياً بالاياء، ويتلبس دوراً. واذا ما نظرنا الى هذا الامر من الخارج، على غرار ما نفعله الآن، فان هذا الوضع يولد نوعاً معيناً من التوتر الذي ينتاب ذلك الرجل الذي يكون مسيطراً وخاضعاً للسيطرة في الوقت ذاته. ويمكن ان يغلف هذا التوتر بنوع من القسوة اليبائية التي يمكنها ان تقوم بمقام الشخصية كلها، او تؤدي الى أزمة، كما هو الحال مع بليز: تلك الأزمة التي حولته الى اورويل، بعد ذلك تصبح الرؤية المزدوجة والمتجذرة في الاوضاع المتأنية لكل من المسيطر والمسيطر عليه، قوية

ومشوشة في آن واحد.

عندما دخل اورويل انجلترا من جديد- ان جاز القول- كان دافعه الاولي سلبياً؛ اذ تمثل في رفضه للنظام والايديولوجيا اللذين ثقف وتربى عليهما وخدم في ظلهما. ولكن بسبب طبيعة النظام لم تكن ثمة «انجلترا» اخرى لكي يستطيع ان يلجأ اليها فوراً.

كان بوسعه فقط ان يتخلى عن انجلترا تلك ويقوم برحلات استكشافية لانجلترا اخرى. وعندما قام في نهاية رحلته بتلخيص ذلك كله، جاء كلامه متأثراً بطبيعة رفضه وبالقدر نفسه الذي تأثر فيه بطبيعة انتسابه الواعي واللاحق.

«شعرت بأنه ينبغي علي ان افر، ليس من الامبريالية فحسب، بل وحتى من كل شكل من اشكال سيطرة الانسان على الانسان. كنت اريد ان احجب نفسي، واذهب رأساً لأكون بين صفوف المضطهدين (بفتح الهاء)، ان اكون واحداً منهم، وأقف الى جانبهم ضد طغاتهم... وبهذه الطريقة توجهت افكاري نحو الطبقة العاملة الانجليزية. كانت المرة الاولي التي كنت فيها مدركاً فعلاً وجود الطبقة العاملة، وكان هذا الادراك ناجماً فقط من كونها قدمت تناظراً وظيفياً. كان ابناء هذه الطبقة هم الضحايا الرمزيون للظلم، يلعبون في انجلترا الدور نفسه الذي لعبه البورميون في بورما (الطريق الى رصيف ميناء ويغان، ١٤٩-١٥٠).

في هذا الكلام، بكل وضوح، وهو كلام يوصف بصراحة اورويل المعهودة، يكون الاقتراب من جماعة جديدة والانتساب اليها بمثابة وظيفة لخبرة الشخص الاجتماعية الاولية والمكونة.

انجلترا، أية انجلترا؟ في كتابه «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» لا يزال حس الرحلة نشطاً لديه: يصف اورويل هنا «الامتين» مكتشفاً كيف يعيش (في عبارة من عبارات الطبقة الوسطى) «النصف الاخر». فهو رؤوف وساخط في آن، منجذب ومنفر، انه يصف بلداً تشكل الطبقة العاملة فيه ثلثي عدد السكان في وقت من الكساد والبطالة

المنتشرة على نطاق واسع .

ان كل حججه الفاعلة هي عن التباينات الصارخة وهي تباينات لا تحتمل . و «انجلترا» مثل اية فكرة بسيطة، قد تحطمت بفعل هذه التباينات، والصورة الوحيدة لطفولته قد حلت مكانها الخصوصيات والتنوعات والتفاوتات والمنجم والمعمل وحي الفقراء ودار البلدية (دار المجلس البلدي)، وموقع البيوت المتنقلة وكومة النفايات وفيلا العصر التيودوري . هذه انجلترا متسمة بالنشاط، وهي انجلترا التي يمكن التحرك عبرها .

اما انجلترا التي صورها في مقالاته المتأخرة التي كتبت خلال الحرب، فهي مختلفة، وهي ليست بالضرورة اكثر صدقاً او زيفاً، بيد انها تعتبر مرة اخرى فريدة في بعض النواحي الهامة . «من الناحية الاقتصادية تنقسم انجلترا الى أمتين» ان لم يكن الى ثلاث او اربع أمم . بيد ان الاكثرية العظمى من الناس يشعرون في الوقت ذاته بأنهم يشكلون أمة واحدة وهم مدركون انهم يشبهون بعضهم البعض اكثر مما يشبهون الاجانب (مجموعة المقالات والرسائل، ج ٢، ص ٦٤). وربما كان ذلك الامر غير مثير جدا للدهشة . ومن المفترض انه قد يصدق على اية بلاد تعرف الاستيطان المستقر منذ زمن طويل .

لكن شيئاً آخر يجري قوله في هذه الملاحظة غير الاستثنائية ومن خلاها:

«انجلترا هي البلد الاكثر خضوعاً للاستحواذ الطبقي تحت الشمس . انها بلاد الامتيازات، يحكمها الى حد كبير العجائز والسخفاء، لكن في اية حسابات تجري بشأنها ينبغي للمرء ان يأخذ في الحسبان وحدتها العاطفية، والنزعة لدى جميع سكانها تقريباً لكي يشعروا بالطريقة نفسها وللعمل سوية في لحظات الازمة العصبية» (مجموعة المقالات والرسائل، ج ٢، ص ٦٧).

ان الجملة الاخيرة من هذه الفقرة، التي كتبت عام ١٩٤٠ في فترة

من الوحدة القومية الاستثنائية تحت وطأة التهديد بالغزو، هي بصورة اشد جلاءً، مقبولة اكثر من الوصف السابق عن « الوحدة العاطفية» الذي ينطوي على ادعاء اكبر بكثير. ان عبارة «انجلترا هي . . . ولكن . . .» هي النمط المتكرر في هذه الحجة التي تبلغ ذروة معينة حيث تقترب «الى اقرب ما يستطيعه المرء . . . في وصف انجلترا بعبارة واحدة».

«اسرة يتسلم فيها الاعضاء الطالحون زمام السيطرة».

والآن فان اورويل ليس اول من يقول شيئاً من هذا القبيل ولا اخر من يقوله. وتقع اهمية جملته في الموقع الذي تحتله من سلم تطوره. فليس هناك كثير من الاحساس بالعائلة او بالوحدة العاطفية في انجلترا الكئيبة والمتألمة التي يصورها اورويل في روايته «الطريق الى رصيف ميناء ويغان». ويتم التشديد هناك على الحقائق والنتائج العائدة لمجتمع طبقي. واعتقد بأن ما يحدث هو أن اورويل يتحرك من خلال مرحلتين من مراحل الاستجابة الى «انجلترا»: فأسطورة صباه- الناس الاخضاء، و «العائلة»- تتبعها الملاحظات عن عودته . انه مشهد من التناقضات المريرة والكئيبة. ولكنه لا يلبث ان يخلق في مرحلة ثالثة اسطورة جديدة بقيت فعالة حتى فترة حديثة العهد تماما.

ففي اصفائه حقائق التفاوت الاقتصادي والاجتماعي على الصورة الاصلية لتعديلها، يخلق اورويل الحس بانجلترا المألوفة واللائقة بشكل اساسي، وهي «انجلترا حقيقية»، «وحيوان ابدي يمتد الى المستقبل وفي الماضي»، حيث يتسنى لنا على سبيل العرض تقريبا، او على الأقل بمثابة تعبير مهجور بدهيا، ان نرى أن «الاعضاء الطالحين» من الأسرة هم في موقع السيطرة.

يرجع الفضل في التأثير الكبير الذي مارسه اورويل منذ اربعينات هذا القرن الى هذه الصورة القوية بقدر رجوعه الى أي انجاز منفرد آخر. وما كان لهذه الصورة ان تكون قوية الى هذا الحد لولا انها احتوت بعض الحقيقة. هناك ما يبرر تشديد اورويل على عمق

الحريات المدنية في بريطانيا وعلى المشاعر الداعمة لها في العالم كما كان يعرفه وكما نستمر نحن في معرفته . مثلما ان تشديده الاضافي على العذوبة والاعتدال في كثير من الحياة الانجليزية العادية وعلى كون هذه الصفات بمثابة انجازات ايجابية في عالم يسوده القتل والغضب هو تشديد معقول ايضاً . وثمة ضروب معينة من العفوية والصدقة والتساهل في كثير من الحياة اليومية الانجليزية تؤيد تشديده على «الحشمة» كفضيلة، بيد أنه من الممكن ان نعرف كل هذه الأشياء ونعترف بها، ومع ذلك ان نسلك في التحليل مسلماً يقودنا الى أي من الاتجاهين .

ان اورويل هو اقرب ما يكون الى ما اعتقده بأنه الحقيقة عندما وصف هذه الميزات بأنها جزء من حضارة شعبية اصيلة «ينبغي لها ان تحيا الى حد ما، ضد النظام القائم» (مجموعة المقالات والرسائل، ج ٢، ص ٥٩)، وكذلك عندما يتحدث عن «شبكة خفية من التسويات» او عن تكييفات تتم من خلالها المحافظة على فضائل وانجازات معينة جنباً الى جنب مع بعض المظالم البينة والمتطرفة . ولكن حين نبدأ بالتعريف على هذا النحو نجد أننا نخوض في علاقات شديدة التعقيد ضمن بنية اجتماعية معقدة جداً . ان اورويل يدرك التعقيد ويشدد عليه، لكنه لا يقوم بتطوير اي نوع من التفكير الذي يمكنه اسناد تحليل نقدي للبنيات والمضي فيه . ويجري خلق الحس بوجود مناخ او جو على نحو بارز جدير بان يذكر . بيد أن البنية الاجتماعية لا تشكل مناخاً . وليس كافياً ابدأ القول إن فضائل معينة توجد «جنباً الى جنب» مع مظالم معينة، وكأنها حقائق متباينة عن العالم الطبيعي (وهو العالم الذي يستمد منه اورويل عموماً الكثير من صورته الاجتماعية) . هذه الحقائق تكون في مجتمع ما بمثابة علاقات من النوع النشط والتاريخي والمتطور . وهذا النوع من الواقع هو الذي تطمس معالمه صورة اورويل عن انجلترا . وهذا واقعه الناجم عن طريقته، ولكن كما يحدث غالباً فان الطريقة تعتمد في النهاية على

وجهة نظر. ان طريقة اورويل في وصف اخطاء هذه «الاسرة» التي يسيطر على مقاليدها افرادها الطالحون كانت ايضاً ذات تأثير كبير. وعلى سبيل المثال يوصف النظام الطبقي، رئيسياً، بعبارات الفروقات في اللهجة والملابس والاذواق والتأثير والطعام. ولقد اصبح هذا الامر اعتيادياً. ففي «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» نجد أن الطبقة الوسطى الآخذة في الانهيار بعد ان تلاحظ تطابق مصالحها مع مصالح الطبقة العاملة المستقلة، ليس لديها «من شيء تخسره سوى قيودها». ونجد، بالمقابل، في عالم «الاسد ووحيد القرن» الاكثر اعتدالا ان العمال المزدهرين اخذون في التحول بشكل مرئي الى طبقة وسطى اكثر. بهذا الاسلوب في التفكير اعد اورويل المعتقدات السياسية الارثوذكسية لدى جيل من الناس. لانه من الصحيح طبعاً، أنه اذا كانت الطبقة لا تعني سوى هذه الفروقات في السلوك الاجتماعي الخاص، وهي فروقات لا تعدو كونها غالباً مجرد فروقات تافهة، فان اللاتبقية هي حتمية في ظل ظروف من الازدهار النامي ومن الاتساع في التعليم والمواصلات. والفارق بين ذلك وبين التباهي العلني القديم والمبتذل بالتمايز الطبقي هو شيء من شأن كل انسان عاقل ان يرحب به. ومع أن إبقاء تعريف الطبقة مقتصرأ على هذه الميزات التي سوف يزيلها في اية حال كل مجتمع صناعي مزدهر، والحفاظ على مجموعة اخرى من الحقائق التي تكون الطبقة فيها علاقة اقتصادية قوية ومستمرة- كما هي الحال بين اصحاب العقارات ورؤوس الاموال وبين الذين لا يملكون سوى قوة العمل، فما هو الشيء الذي يضع الافراد الطالحين في مركز السيطرة ازاء لهجاتهم وملابسهم وطريقة اكلهم وتأثيرهم لمنازلم؟ ومن الغرابة بمكان ابداء هذه النقطة لان اورويل كان يعتبر تشديده على الحقيقة المقررة بالنسبة للنقود حاداً جداً، حتى انه وصل في بعض الاحيان (في الثلاثينات) الى التطرف في التشديد.

لكن توجد نقود في الجيب، والمزيد من النقود في مزيد من الجيوب

سوف يعني بالضبط تلك اللابطبيقية التي يشير اليها. غير أن هناك ايضا تلك النقود المختلفة تماما، وهي رأس المال الذي يعني ملكية وخلق وسائل الحياة الاجتماعية نفسها. وهنا يغدو اي سؤال حول السيطرة، بشكل حتمي سؤالا عن هذه الملكية التي يمكنها حقا البقاء دون تبديل او تغيير بأية صورة اساسية خلال فترة تكون قد تمت فيها ازالة العلاقات المرئية الدالة على وجود الطبقة- وهي بمثابة فكة النقود الصغيرة لدى النظام- لانه لا توجد علاقة تحقق حدوث ذلك عقب مضي ثلاثين عاما على ما كتبه اورويل، او في الاقل قد جرى تعديلها وتخفيف حدتها وتطويرها.

ان اوضح علاقة على الضعف الكامن في وصف اورويل- وكذلك، بالمناسبة، على جاذبية هذا الوصف- تمكن ملاحظته من خلال مناقشته لما لا يزال يطلق عليه تسمية الطبقة الحاكمة. هنا نجد ان مواقفه الاولى معقدة للاسباب التي ناقشناها من قبل. فهو يرى ان جماعته الخاصة، عائلات الخدمة، جرى الخط من شأنها واهميتها ويعتقد اورويل ان نشاطاتهم وقدراتهم على المبادرة قد تدنت منذ ان بلغت الامبراطورية ذروتها العليا في السنوات التي سبقت ولادته بالضبط.

وفي الوقت نفسه اصبح جزء من الطبقة ذاتها ليس فقط مصابا بالاحباط والخيبة بل ساخطاً ايضاً، وهذا هو وصفه المنتظم لمثقفي الطبقة الوسطى الانجليزية، لا سيما المثقفين اليساريين منهم:

«انهم سطحيون وسلبيون، فقدوا الصلة بوطنهم ويقفون ضد بلادهم» ولكنه يرى هؤلاء المثقفين كمرافقين: كاتباع في اسرة الطبقة الحاكمة، اما الآن فهم اما خدامها او «خرفانها السود». ان النواة الصلبة للطبقة الحاكمة لا تزال قائمة، وان اكثر ما يلفت النظر بشأنها على حد قوله هو غباؤها. وبعبارة العائلة التي هي انجلترا، يتألف هؤلاء المثقفون من الاعمام غير المسؤولين والعمات طريجات الفراش، فالصورة، كما يصادف الامر، لا تترك مكاناً للاب.

انها «ارستقراطية يتم تعزيزها باستمرار من بين صفوف محدثي
النعمة... لقد جلسوا هناك، في نقطة المركز من امبراطورية واسعة
وشبكة مالية تغطي العالم بجنون الفوائد والارباح، وينفقونها. على
ماذا؟» ليس على امور نافعة أو مجدية بالتأكيد. «نصف مليون شخص
فقط، من الناس الساكنين في البيوت في الأرياف... هم الذين
استفادوا بالتأكيد من النظام القوائم» (مجموعة المقالات والرسائل،
ج ٢، ص ٦٩-٧٠). هذا الكلام صحيح الى حد كاف ولكن الامر
اللافت للنظر هو أنه كان ينظر اليه بوصفه «انحلال طبقة حاكمة»
وكان هذه العصابة من الارستقراطيين المعززين من صفوف محدثي
النعمة قد سبق لها أن امتلكت أية أهداف اجتماعية مختلفة او أكثر قابلية
للتبرير. إن الاختبار الحقيقي الوحيد «لقدرتهم» سوف يكون بالتأكيد
مقدرتهم على الاستمرار في فرض انفسهم.

انه لمن الأسهل ان تحتقر الطبقة الحاكمة على ان تضر الكراهية لها
وتحطمها. عمات اورويل واعمامه الهنزيون هم عبارة عن صورة
راديكالية متكررة الحدوث، بيد أن النظر الى الطبقة الحاكمة الفعلية
على هذا النحو هو في النهاية كناية عن انغماس ذاتي ويعتمد عاطفياً على
صورة الطبقة المتوسطة بالذات في ابرازها ملامح هي صورة مرسومة
لانجلترا كعائلة. ومرة اخرى جرى تعديل الاسطورة الساذجة بواسطة
بعض نتائجها غير المعترف بها، بشكل اكثر مدعاة للقبول. ان عبارة
«توقفت منذ زمن طويل عن ان تكون قابلة للتبرير» تفترض مسبقاً
تبرير وجود الحل، وذلك حين لم تكن الارستقراطية تتلعثم ويظهر
عليها الغباء، بل كانت قادرة وجريئة وقاسية. انه وهم راديكالي
وبلاغة راديكالية، وقد عمد هذا الامر دوماً الى اضعاف اليسار
البريطاني باستمرار.

كان اورويل اقرب الى حقائق المجتمع الذي كان يعاينه، واقرب الى
الاستجابة الضرورية له عندما كتب بغضب كان يحتفظ به عادة

لاعدائه في الجانب اليساري مهاجماً «وجوه المصرفيين التي تشبه مصائد
الفئران والضحكات النحاسية التي يقهقه بها في سوق الاسهم»
، هؤلاء من الذين هب ضدهم كل النقد الاجتماعي .
تكمّن الصعوبة بالتأكيد، في الصورة الاصلية لعائلة ما . كره
اورويل ما شاهده من نتائج النظام الرأسمالي، بيد انه عجز ابدأ عن
رؤيته، بشكل كامل، كنظام اقتصادي وسياسي . ان قوته العظيمة في
تشخيص مظالم معينة لم يدعمها اي فهم كان لتلك القوى العامة
والفاعلة فيها بالذات .

لقد اراد ان يكشف بعمق واصالة عن «انجلترا الحقيقية» وان يقلب
الحرب الى «حرب ثورية» بحيث تلحق الهزيمة بالفاشية وتقضي نهائياً
على الرأسمالية في آن . «مراقب أجنبي، جديد على انجلترا» . بالطبع لم
يكن أورويل مثل هذا المراقب ابدأ . بيد أنه رجع من الخارج وهو يكن
حقدأ حقيقياً ومستمراً للامبريالية ورأى بأب عينيه ماذا هيأت له ثقافته
وتجربته : «عائلة يتحكم بمصيرها الافراد غير المناسبين» . والواقع انه
كان بحاجة الى هذه العائلة . فقد حرم منها ولحقت به المهانة على
يدها . اما الآن فقد تصرف بدافع المهانة، محاولاً التحدث الى الاعضاء
الآخرين في الاسرة وحشدتهم سوية، وحملهم على تسلّم زمام
السيطرة .

ان الشيء الذي كان في وسعه ان يخبرهم عنه كان بشكل فعال تلك
الامبريالية التي تجاهلها، والبيوت القذرة التي اهملها . ولكن مثلما
هو من الامور المقيدة ان يتم النظر الى نظام رأسمالي دون امتداده
الامبريالي، كذلك هو الامر تماما بالنسبة للنظر الى الرأسمالية من خلال
الامبريالية فقط ومن خلال طبقتها الحاكمة المنظورة .

ان جزءاً من انجلترا التي اكتشفها اورويل كان يشكل مجتمعاً
حقيقياً يعيش في ظل هذا النظام ومن ضمنه، وقد حافظت قيم معينة
على استمرار الفعالية . بيد ان الامر الذي لا ينفصم عن ذلك هو
انجلترا المختلفة التي أوجدها هذا النظام عبر تحاملاته وتسوياته

وتكيفاته وأوهامه . فالاستجابة للمجتمع من شأنها ان تعني التمييز بين جزء وآخر والدخول في نزاع لا بد من أن يصل الى كل مجال من مجالات الحياة . بيد ان انتهاج مثل هذا الاسلوب مع عائلة ما ، مع «انجلترا» ، هو امر لا يجوز التفكير فيه ، فهو ينطوي على خيانة وخسة . لقد خسر العائلة واعتزازها العريق ، إنه يحاول الانضمام الى عائلة لكي يشارك في مستقبل لائق . العواطف شريفة يمكن تفهمها بيد انها عواطف معينة- عواطف النفي عن بلد ضائع وعن طبقة ضائعة . وهذه المشاعر بسيطة جدا ومهدئة جدا وعذبة جدا إذا ما نظر اليها من مكان حدوث انجلترا ، التي تمتد نحو الماضي والى المستقبل بتفاعلاتها الاكثر مباشرة وتعقيداً .

ذلك ان عبارة «انجلترا ، انجلترا التي تحصني» هي توكيدية ، واعلان للاستقلال ومدعاة للتحدي ، وبالمقابل ، فان «انجلترا ، انجلترا التي تحصك» هي صيغة ، وقصة وحلم وعندما تتحطم تحت وطأة الضغط فانها سوف تتحول الى كابوس .

دائماً، مثلاً، وحتى في أواخر حياته إلى إجراء التمييز، عن قصد، بين كتابة النثر وكتابة الشعر. ويظهر هذا التمييز لدى انعام النظر فيه، بأنه تمييز بين الكتابة من أجل تأثير المضمون، والكتابة من أجل تأثير الكلمات. ويفترض أن الحالة الأولى هي السائدة في النثر، بالرغم من أن ذلك لا يشمل كل أشكال النثر.

بيد أن هذا التمييز نفسه هو نتاج نظرية مجزأة في الجماليات (علم الجمال)؛ فاللغة، على نحو مميز، يجري اعتبارها بمثابة عامل من عوامل التجربة (الخبرة) بدلاً من كونها مصدراً للخبرة. وبكلمات أخرى فإن المضمون يعتبر سابقاً على اللغة، ومن ثم يستطيع الكاتب أن يختار بين الإفصاح عن المضمون بصورة مباشرة أو التعامل مع الكلمات ككلمات في حد ذاتها. وحتى لو كان هذا الأمر من باب التشديد فحسب بدلاً من كونه تمييزاً صارماً، فإنه يبقى مضللاً أعمق التضليل، ذلك أن العلاقة بين التجربة والتعبير بالنسبة للمؤلف الفرد وبالنسبة للغة والأشكال التي يشارك فيها مجتمعة هي العنصر الحاسم فعلاً على الدوام.

بقي أورويل يعود إلى هذه المشكلة كلما حاول أن يواجه تطوره الشخصي وأن يفهمه، ففي مقالته «لماذا اكتب؟» عام ١٩٤٦ وصف أولى مراحل تطوره المبكر من مرحلة إعجابه بنفسه كبطل، إلى ما يطلق عليه «بمجرد وصف أكثر فأكثر لما كنت أقوم به وللأشياء التي رأيتها». إن لفظة «بمجرد» هنا تنطوي على مغزى. ذلك لأنها تتكرر في ما يعتبره بمثابة المرحلة التالية من مراحل تطوره في سن المراهقة عندما اكتشف فجأة «الفرحة بمجرد ومجرد كلمات». هذه الطريقة في النظر إلى المشكلة الأدبية بقيت ذات أهمية، ليس في تطوره فحسب، بل كشكل مميز للضرورة الاجتماعية الكامنة في عصره.

إن الأمر البالغ الدلالة هو الرغبة في تبرير نفسه ككاتب؛ وهذه المشكلة في التبرير وفي الجدلية هي التي جعلتها النكتة المتذكرة حيوية. فبعد كل حساب، كان يجيأ في وقت وضمن طبقة حيث كانت ممارسة

الكتابة كلها تنطوي على اشكالية. فاذا ما تركنا جانباً «الكتابة من اجل التسلية» (اي انتاج سلعة مكتوبة يقوم الآخرون باستهلاكها واسباغ القيمة عليها في حالة سرورهم بها) فان المواقف من الكتابة تصلبت حتى انها اصبحت مستقطبة. وفي اوساط الطبقة الوسطى المنكبة على صيغتها هي للنواحي العملية، جرى اعتبار الكتابة بمثابة نشاط ثانوي وغير عملي. وكبديل عنه هناك «القيام بعمل حقيق». هنا طبعا، وعلى نحو مميز، جرى السماح بتأمين طريق للهرب عند تلك النقطة حيث كان النشاط غير العملي يسفر عن نتائج عملية: وهي اكتساب المال. بكلام آخر، فالمؤلف الناجح (وهو شخص يختلف تماما عن «الكاتب» البسيط) كان حيثئذ منتجاً يحظى بالاعجاب وينال المكافأة مثل اي شخص آخر.

بيد ان الصعوبة لم تقتصر على صعوبة المراحل فحسب- اي الانتقال من كونه كاتباً الى كونه مؤلفاً ناجحاً. كانت هناك ايضا الحقيقة القائلة ان الكاتب تبعاً لهذا الاسقاط، لم يكن يمتلك اهدافاً مستقلة خلال هذه التغيرات، اي ان تعريفه الانجاز من شأنه ان يتكون منذ البداية بواسطة مقياس خارجي غريب. وفي الوقت نفسه فان قلة متنامية من الطبقة الاجتماعية نفسها قامت بتجريد مضاد في الظاهر، لكنه وثيق الصلة، كرد فعل على هذا الامر. واذا كان الاختبار التقليدي الوحيد للانجاز هو الاعتراف والنجاح الاجتماعي، فبالامكان معارضة هذا بواسطة النفي البسيط. و «الكاتب»، الكاتب الحقيقي، لم تكن له اهداف تجارية ولكنه ايضاً لا يمتلك في جذوره وظيفة اجتماعية. وهكذا، فإنه بلا مضمون اجتماعي. لقد «كتب» فحسب ولكنه بالتالي يعيش كشخصية معروفة ومحدودة ذاتياً، «خارج» المجتمع: انه الفنان بمعنى غير تقليدي.

ان هذا التطور والاستقطاب يشكل تاريخاً اجتماعياً حقيقياً. انه مرحلة هامة من حياة البرجوازية وفكرها في القرن التاسع عشر، وقد وصلت الى ذروتها الاولى في الثمانينات والتسعينات من القرن التاسع

عشر في معظم انحاء اوروبا وبقيت مستمرة النشاط بالرغم من قساوتها واحياناً تقليديتها في العشرينات من هذا القرن. لقد كانت لها تأثيرات عديدة، على صعيد النظرية والممارسة العملية. وهي تقبع عند جذور التمييز التقليدي بين المضمون والشكل بمعناه الفعال والحديث. ان اسئلة اورويل النظرية لم تندفع الى مسافة كافية لان تصبح نظرية اصيلة، ويمكن اعتبارها ايضاً بمثابة ردود فعل عملية لازمة الفورية بالنسبة لما كان يزعم القيام به. ثمة اسباب عديدة وراء رفضه الواعي للحياة التقليدية لدى طبقته: محاولة في التماهي الاجتماعي مع ضحاياها، وبحث عن هوية تتجاوز اشكالها المقررة، ورفض لما فهمته بانه النجاح. ولكن يوجد ايضاً في البداية على الاقل، رد فعل اكثر بساطة، يتمثل في دور من الادوار البديلة والمعدّة.

لذا ارتأى القول انه بهذا المعنى، يذهب الى باريس لكي يكون كاتباً: اي لكي يعيش «خارج» المجتمع «ويكتب». وعندما يستعيد تلك الفترة في مقالة «في جوف الحوت» فهو يكرر تذكره للنكتة في مجلة Punch ويتذكر الفنانين والكتاب، والتلاميذ وهواة الفنون، والسائحين، والغواة، والمتسكعين البسطاء، ويصف ايديولوجيتها: «في الاوساط المثقفة» امتدت نزعة الفن للفن، عملياً، الى عبادة اللامعنى، وكان من المفترض ان يتألف الادب من مجرد التلاعب بالكلمات فحسب (مجموعة المقالات والرسائل، ج ١، ص ٥٠٨). ربما كانت هناك مبالغة في التعبير عن هذه النقطة. انها تعميم متأخر، بيد انها طريقة شيققة في النظر الى شكل الازمة الادبية والاجتماعية التي تطور من خلالها.

يمكننا ان نرى الآن ان خيار اورويل ككاتب سار في الاتجاه الاخر بعيداً عن ذلك التشديد في العشرينات. ويمكن القول انه اختار المضمون قبل الشكل، والتجربة قبل الكلمات، وانه اصبح ذلك المؤلف الواعي اجتماعياً في الثلاثينات بدلا من الكاتب الجمالي للعشرينات. وبالتأكيد الى حد كبير، هكذا رأى مسألة الخيار بنفسه.

ولكن على الدرجة نفسها من الاهمية فان رؤيته الخيار على هذا النحو جعلته يندم عليه احياناً. ففي مقاله «لماذا اكتب؟» ذكر مثلاً ان المؤلف يمتلك اربعة دوافع: الانانية المطلقة، والحماسة الجمالية، والدافع التاريخي، والغرض السياسي. وهذه الدوافع تتناقض فيما بينها احياناً وتفاوتت من حيث نسبتها ودرجتها لدى جميع الكتاب ولدى اي كاتب وفقاً للمرحلة التي يمر بها. كما قال في عصر مختلف إن الدوافع الثلاثة الاولى، بالنسبة له، كانت ستفوق الدافع الرابع ثقلاً. «كما كان من شأنه ان يكتب كتباً منمقة او مجرد كتب وصفية». لكن «الذي حدث هو انني اجبرت على أن أصبح مؤلفاً للكراريس» (مجموعة المقالات والرسائل ج ١، ص ٢). والطريف في الموضوع هو كلمة «اجبرت». انه يملك فكرة واضحة عن نفسه وعمما سيكون عليه في زمن مختلف. كان بوسعه حينذاك ان يرى كتابته الفعلية بمثابة تناقض مع طبيعته في بعض النواحي: لو اعتبرت طبيعتك الحالة التي تكون قد بلغتها عندما تصبح يافعاً للمرة الاولى... (مجموعة المقالات والرسائل، ج ١، ص ٢).

وهذه ليست «طبيعة» فرضية في زمن مختلف تماماً. انها «طبيعة» ذات اطار مرجعي في فترة زمنية معينة، ترجع الى حين بلوغه سن الرشد، في العشرينات.

ان الذي حدث انذاك اذا ما سلمنا بهذه الرواية، هو غزو فعلي لذاته الطبيعية وكتابته الطبيعية من قبل واقع اجتماعي وسياسي حتمي. ورؤيته للامر كشيء حتمي هي بالطبع ذات اهمية. كيف يمكن للانسان، والكاتب، ان يقف جانباً عندما تحدث أشياء كهذه؟ بيد ان شكل هذا الاعتراف يبقى مثيراً للاهتمام، لأنه يفترض موقفاً يكون بوسع الكاتب فيه الاختيار بين أن يكون منفتحاً على واقع اجتماعي وسياسي وألا يكون: «وتكمن مرارة الثلاثينات في أنه لم يكن بوسع اي انسان شريف ان يختار أن لا يكون منفتحاً».

غير ان هذا الأمر مجرد تكرار بصيغة معينة لنظرتة الاصلية الى

العالم، وأنا اقول انها فكرة متواصلة. فالرجال لهم طبائعهم، وهي ليست طبائع فطرية بل ذواتهم البالغة والمتكونة- التي يغزوها واقع اجتماعي وسياسي. وتتحول ملاحظة اورويل المحدودة في الظاهر حول الكتابة، عندما نتأملها، الى ملاحظة عامة جدا حول الأفراد والمجتمعات. فالعلاقة بين « المثابة » والواقع هي شكل من أشكال العلاقة بين الناس وتاريخهم.

ربما كان من شأن اريك بليز حقا ان يصبح انسانا اخر: ليس اورويل وانما «س» (س= كمية مجهولة) من الناس. فاختيار اورويل- ليس الاسم وانما العمل الفعلي- جرى من خلال تاريخ شخصي ضاغط وعام جدا. لقد تطور ككاتب خلال سنوات ازمة الركود الاقتصادي والفاشية.

كان في كل لحظة خلال تلك الأعوام يعرض نفسه لهذه الحقائق بأشكالها المباشرة الى اقصى الحدود. فأصبح عاطلا عن العمل ومعدما، ويعود ذلك جزئياً الى الصعوبات الباكرا التي اكتتفت كونه كاتباً، ولكنه يمثل ايضاً وعن قصد طريقة لقطع صلته بمركز اجتماعي قائم وغير مقبول. لقد ذهب الى اسبانيا لمحاربة الفاشية، في البدء على نحو جزئي كطريق لان يصبح كاتباً، ومن ثم، لكي يضع حياته، متعمداً، في مواجهة قوة اجتماعية شريرة ومدمرة. ان شجاعته ومثابرته في هذه المواجهة المتكررة مع أصعب حقائق عصره تعتبر لافتة للنظر باي مقياس كان. ومع ذلك تبقى هناك مشكلة مستعصية من خلال هذه المواجهة: إنها مشكلة الذات الاخرى، والكاتب الاخر الذي كان يتمنى ان يكون اياه ولا يزال.

كانت قوة الرغبة تمثل المشكلة بكاملها، فالعديد من الناس والعديد من الكتاب جرى «غزوهم»- فقد اقحموا بتاريخ لم يقوموا باختياره وبقي خارجياً بالنسبة اليهم، الى جانب كونه مزعجاً وباعثاً على الاضطراب. هذه الحالة بالطبع لا تنطبق على اورويل. فالغزو يجري السعي وراءه بنشاط، بل إن الدعوة توجه اليه حقا. مع ذلك تكمن

خلفه، طيلة الوقت - خلف هذا «المضمون» الحتمي - صورة اخرى
وكلمات اخرى، وطريقة اخرى في « ان يكون كاتباً» .

لقد عمم اورويل هذه المشكلة في النهاية من خلال المقالة المتأخرة
عن « الكتاب والتنين الهائل» . (فهو يقول):

«ان غزو الادب من السياسة كان لا بد من حدوثه. كان يجب ان
يحدث حتى ولو لم تنشأ ابدأ المشكلة الخاصة للتوتاليتارية، لاننا افرزنا
نوعاً من الندم لم يكن موجوداً لدى اجدادنا، الا وهو الوعي بالظلم
والبؤس الهائل الذي يسود العالم، وشعور بالاثم من أنه ينبغي للمرء
ان يقوم بعمل ما للمساعدة، مما يجعل اتخاذ موقف جمالي خالص من
الحياة امراً مستحيلًا. ليس بوسع احد الآن ان يكرس نفسه للادب
كلياً مثل جويس او هنري جيمس» (مجموعة المقالات والرسائل،
ج ٤، ص ٤٠٨ - ٤٠٩).

ان هذه الرواية للغزو تنطوي على مغزى. فالتوتاليتارية او
الكليانية، أو التدخل النشط والفعل في شؤون الكتاب، مشكلة
خاصة ولكن يكمن تحتها شيء اكثر عمومية وهو الضمير الاجتماعي.
هل يعتبر هذا غزواً؟ يصف اورويل عادة مشاعره الخاصة بدقة متناهية
الى درجة يصبح معها التحليل السطحي غير ضروري اطلاقاً: يبدو
أنه يقول بوضوح جدا ما يعنيه.

ولكن نجده هنا يقول إن «الضمير الاجتماعي» للكاتب، المنسلخ
حتى الآن، اصبح بالضرورة متورطاً، الامر الذي يعتبر غزواً للادب.
ويبقى تعريفه للادب، متعذر البلوغ الآن، وهو مرتبط «بموقف جمالي
بحث من الحياة»، ولا يخدم مثاله عن جويس في توضيح الصورة.

فقد كتب جويس كما فعل هو عبر الفقر والمنفى. وأكمل روايته
«صحوة فينيجان» عام ١٩٣٩. هذا التأكيد سواء كان صواباً أم خطأ
كان متوافراً تاريخياً، لكن المثال عن هنري جيمس شديد الاجراء لانه
يرجع بنا الى فترة اصبحت فيها هذه الطريقة في طرح المشكلة، وليس
المشكلة نفسها، طبيعية.

ان قراءة ما رواه اورويل على عجل قد لا تتيح للمرء ابدا ان يتذكر الروائيين الانجليز من ديكنز واليزابيث جاسكل الى جورج اليوت وهاردي: اولئك الذين كانوا معاصرين «لاجدادنا» وكانوا واعين حقا «للظلم الفادح والبؤس في العالم» والذين كتبوا ادبا، باشكال شتى، من خلال هذه التجربة بالذات. ليس ثمة شيء جديد بالنسبة للوعي الاجتماعي لدى الكتاب، ولقد كان هذا الوعي واسع الانتشار ومتنامياً في القرن التاسع عشر لا سيما بين الروائيين. ولكن جرت عند اواخر القرن، وفي انجلترا بالنسبة لهنري جيمس، محاولات على نطاق واسع لاقامة تضاد (تعارض) بين ما هو «اجتماعي» وما هو «جمالي».

ولم يكن النظر الى التجربة الاجتماعية كمضمون وللابد كشكل فحسب، بل ايضاً، وعلى نحو أشد خطورة، كان النظر الى التجربة الاجتماعية مجرداً وكشيء عام فقط، فأسفرت النتيجة عن أن تعريف المضمون الادبي اصبح ضيقاً ومقصوراً على التشديد على «العلاقات الشخصية» المجردة. وهذا، بالمناسبة، قليل الصلة بعمل جيمس الفعلي، حيث كان التركيز على التجربة الاجتماعية والشخصية، بالرغم من ان ذلك جرى بالتأكيد في عالم محدود، على اساس انها متفاعلتان وحياتياً متكاملتان. بيد أن جيمس في تشديده على «معالجة» المادة وتطبيق «الاسلوب» على «المادة» انما قام بنشر وعي مفهوم للاسلوب الفني الى نقطة اصبح عندها التشديد الجمالي المجرد كلياً يبدو امراً معقولاً. ان الخصام الهام بين جيمس وويلز- بين فن معظم خالص سلبي في جوهره وبين انواع جديدة من الكتابة الاسقاط والكتابة الملتزمة والهادفة في جوهرها- حدث هذا في وقت كانت فيه مسألة تطور الرواية في القرن العشرين تعتبر موضوع الساعة. كان هناك وعي أعمق للتعقيدات النفسية في الوقت ذاته من وجود وعي أعمق للتعقيدات الاجتماعية. والقاسم المشترك كان حساً بالازمة، لكن سبلاً بديلة لوصفها كانت قيد العمل والممارسة تؤدي كل واحدة منها بأسلوبها الخاص الى تحولات جذرية في الشكل الادبي، ومع ذلك فهي

تقوم بالجذب في اتجاهات مضادة تماما.

ان هناك مشكلة حقيقية واسباسية في علم الجمال حيث القرارات التي تتخذ بشأن الشكل غير منفصلة عن القرارات المتعلقة بالتجربة. بيد أن هذه القضية المركزية التي ما زالت دون حل جرى تغليفها بنوع من أسر المصطلحات، بحيث ارتبط «الجمالي» وحتى «الادب» بقرار واحد فقط من القرارات الممكنة. اما القرارات الاخرى الممكنة الفعلية فقد وصفت خارجياً بانها «مضادة للجمالية» او انها «سوسولوجية» (عائدة لعلم الاجتماع). ومع انتقال هذه الحجة الخطيرة الى أيدي الطفيليين، نشأ وضع اصبح معه بوسع انسان من طراز اورويل ان يتحدث عن موقف جمالي من الحياة لا يأخذ بالحسبان بدهاة الضمير الاجتماعي او حتى الوعي الاجتماعي. كان الموقف الجمالي ذو الشأن هو الموقف من الفن، طبعاً من مشكلاته الجوهرية والجدية والمتغيرة. ان «الموقف الجمالي من الحياة» كان عبارة عن وعي مستبدل يتعلق بأحد القرارات الفنية العديدة والممكنة، والاهم من ذلك هو أنه متعلق بصيغة المجتمع: هذا الوعي ليس فينا، وانما هو وعي اجتماعي متنكر بحيث يمكن فيه التغاضي عن الارتباطات والتورطات الحقيقية مع الآخرين بشكل معقول ومن ثم يجري، ابرامها بالفعل: وهو تعريف للوضع «أن تكون كاتباً» استثنى التجربة الاجتماعية والاهتمام الاجتماعي.

قام اورويل بمحاولات شاقة جادة لرفض تفكير الطبقة الاجتماعية التي تلقى تربيته فيها، ونجح في محاولات عديدة ولكنه دفع ثمناً باهظاً لذلك، لكن السخرية ان يستمر الرجل الذي قام عملياً بحل بعض هذه المشكلات الادبية بطريقة فعالة ومؤثرة في اغلب الاحيان، في الاعتقاد ليس فقط بأنه لم يكن يحلها (وهو شعور طبيعي جداً بالنسبة لاي كاتب مستمر) وانما كان، بطريقة ما، يتهرب من الادب او يتخلى عنه: «إنه نوع من كتابة الكرايس» كما قال بالسخرية التي تعلمها.

احتاجت قراراته لان تكون متكاملة. ذلك انها في الجوهر كانت

قراراً واحداً. «الموقف الجمالي من الحياة» لم يكن مجرد طريقة لكتابة روايات من نوع معين. بل كان أيضاً في الواقع، معادلة أو حتى معاهدة من نوع ما برزت في تلك اللحظة التي شهدنا فيها الاختزال البرجوازي للفن، يعتبر حاسماً جداً بالنسبة لتجربة القرن العشرين، وبإمكاننا ان نرى، اذا ما تطلعنا إلى الوراء، كم كان ملائماً (وكم هو لا يزال ملائماً في غالب الاحيان) ان يوضع الادب في مقصورة بحيث ينبغي له، اذا اراد ان يكون صادقاً مع نفسه، ألا يمتلك اهتماماً مباشراً بالواقع الاجتماعي، وهذا مناسب للناس الذين احتقروا الادب لكونه غير عملي والذين ارادوا في مطلق الاحوال ان لا يجري اي نوع من التفحص المستقل للمجتمع، من أي نوع كان، هذا المجتمع الذي كانوا يقومون على توجيهه وابداعه بنشاط.

وخلف الكلمات البسيطة للانسان غير المبالي بالثقافة غالباً ما تقبع الكلمات الاكثر قساوة للشخص القابض على زمام السيطرة او الرقيب. ولكن عندئذ تكون المعارضة الظاهرة- اولئك الذين قالوا انهم يقدرون الادب- قد وضعت المسألة عملياً في ساحة امانة. وعلاوة على ذلك فانها كانت- المعارضة- تعلم او تبشر بمواقف من شأنها ان تحد من استخداماتها فتقصرها على اللمس والذوق. ولا يمكن لاي فن حقيق مهما كان نوعه ان يختصر بهذه الطريقة، بيد ان الأمر الهام في الوعي العام ليس الاعمال وانما المواقف، وهي مجموعة من التأكيدات والاغفالات، والتشجيعات والتثبيطات والتحذيرات، ويمكننا ان نرى مدى تأثير هذه المجموعة من خلال اورويل؛ اذ ندم على التطور الذي كان في الواقع انجازه واصبح يكن كرهاً للادب التقليدي مع انه ما زال يحمل تعليماته في عقله ليضايق طاقته الخلاقة ويضعفها.

ثمة مشكلة اخرى هي استجابات اورويل المعقدة للادب الحديث الذي كان يقدره، واستخداماته لبعض طرائق هذا الادب في عمله الخاص. سوف ننظر الى هذا بشيء من التفصيل في الفصل القادم عندما نتتبع تطوره الادبي، بيد انه لا بد من قول شيء ما حول «الغزو» الذي قام به الواقع السياسي والاجتماعي، وللتعريف الذي تبذل بالقوة عن «أن يكون المرء كاتباً». لقد ذكرت أن قراراته احتاجت لان تكون متكاملة، وأن قراراته الاجتماعية والسياسية- رفضه لان يعيش امبريالي او ما يعادل ذلك رتبة في بلده كضابط - كانت مرتبطة على نحو عميق بقراراته حول الكتابة. كان هناك الفشل الذي اشرت اليه سابقاً، وهو التخلص من تلك الافتراضات حول الادب التي كان يناقضها في الممارسة العملية.

ولكن هناك ايضاً شيئاً آخر يكمن في الاعماق السحيقة من عمله، وربما كان هذا الشيء بمثابة السبب الاساسي لما كان يمكن أن يكون مجرد فشل سطحي.

سوف يكون من السهل القول ان جميع أعمال اورويل المهمة تقريباً تدور حول شخص يفر من حالة سوية (ظالمة). فابتداء من الشخصيات المحورية في روايات «ابنة رجل الدين» و «دع الدريقة مرفرفة» وحتى «الارتفاع بحثاً عن الهواء» فان هذه التجربة للوعي والرفض والهروب تحدث بصورة متكررة. مع ذلك فان من الاصدق القول إن معظم كتابات اورويل المهمة تدور حول شخص يحاول الفرار ولكنه يفشل. هذا الفشل، والانهاك مجدداً، يحدث في النهاية في جميع الروايات المذكورة بالرغم من أن تجربة الوعي والرفض والهروب بالطبع قد تركت اثرها الهام.

لذا فان المفارقة لدى اورويل يمكن رؤيتها بوضوح اكثر. ومن

المحتمل انه لولا فعل الوعي والرفض لم يكن ليتسنى له أن يكون كاتباً على الاطلاق، لذلك فان معظم تشديده ينصب على هذه النقطة بالذات، وهذا امر يمكن تفهمه. ولكن ماذا لو أنه شعر كل الوقت بأنه كان مقدرأ له ان يفشل في هذه الحركة بالذات؟ وماذا لو شعر في آن واحد بأن الهروب كان ضرورياً انها عديم الفائدة؟

ان هذا من شأنه ايضاح الكثير، لان اورويل ليس مجرد ذلك الرجل والكاتب الذي يسير في درب جديدة. ولكن او ليس بالامكان ان يكون ايضاً الرجل والكاتب الذي غزا «طبيعته» واقع غير مرحب به فكان عليه ان يحيا ويكتب بهذه الأساليب؟؟؟

الفصل الرابع

الملاحظة والخيال

يمكن تصنيف كتابة اورويل في الثلاثينات تقليدياً، الى الاعمال «الوثائقية» و «الوقائعية» من جهة، والاعمال «القصصية» والخيالية من جهة اخرى. فالاختلاف السطحي واضح بشكل كاف: نجد من جهة، «التسكع في باريس ولندن» و«الطريق الى رصيف ميناء ويغان»، و «وفاء لكاتالونيا» وبعض الاستكشافات مثل «المسار الشائك» و «عملية شنق» و «اصطياد فيل»، ومن الجهة الاخرى لدينا «دع الدريقة مرفرفة» و«الارتفاع بحثاً عن الهواء». مع ذلك ايضا لا شيء اوضح - لدى تفحصنا العمل ككل - من أن هذا التقسيم التقليدي هو تقسيم ثانوي. فالمشكلة الرئيسية في هذا العمل كله هي العلاقة بين «الحقيقة» و «الخيال»، وهي علاقة غير أكيدة وتشكل جزءاً من كامل الازمة المتعلقة بكون الانسان كاتباً.

لم يسبق ان صنف الادب بهذه الطرق الخارجية.

فالتمييز الصارم بين الكتابة الوثائقية والكتابة الخيالية هو من نتاج القرن التاسع عشر، وقد انتشر بشكل واسع في ايامنا. ويكمن اساسه في التعريف البسيط «للعالم الحقيقي»، ثم في الفصل البسيط بين هذا العالم وبين ملاحظة الإنسان وخياله. فلو كانت هناك حياة حقيقية مع سجلها من جهة، وعالم خيالي منفصل من جهة اخرى، لامكن التمييز بين نوعين من الادب على نحو موثوق، وهذا اكثر بكثير من تأثير شكلي. ان هذه الثنائية الفعالة بين «العالم» و «العقل» هي في النظريات الطبيعية والاجبائية على الاقل قابلة للملاحظة بوضوح. ولما جرت ملاحظة الثنائية التقليدية في معظم النظرية الادبية التقليدية، ناهيك عن تحديها. وتستمر عبارات مثل «الخيال» و «اللاخيال»، «العمل

الوثائقي» و «العمل الخيالي» في طمس معالم الكثير من المشكلات الحقيقية للكتابة.

ان وحدة أعمال اورويل «الوثائقية» و «الخيالية» هي أول شيء يمكن ملاحظته. كانت هناك عدة مشكلات تتعلق بالمنهج، لكن اورويل، في الاقل، اجتاز التصنيف التقليدي ولو أن ذلك جرى على صعيد الممارسة العملية فقط. وقد رأى ان التقسيم كما قدم نفسه له فعليا هو أكثر من مشكلة صورية. لقد رآها بشكل صحيح، كمشكلة للعلاقات الاجتماعية.

يكتب الادب الخيالي الانكليزي في الجزء الاكبر منه على مستوياته العليا بواسطة رجال ادباء عن رجال ادباء من اجل رجال ادباء، وعلى مستوياته المنخفضة فانه عموماً أكثر هروبية على صعيد الفساد: فهو يتناول تخيلات العوانس عن الذكور او رؤى الرجال المكتنزين الصغار عن انفسهم بوصفهم من زعماء العصابات في شيكاغو. اما الكتب عن الناس العاديين الذين يتصرفون بشكل عادي، فهي نادرة جداً، لانها كتب لا يكتبها سوى شخص قادر على الوقوف في كلتا الجبهتين الداخلية والخارجية للانسان العادي، كما يقف جويس داخل «بلوم» Bloom وخارجها، مثلاً. لكن هذا ينطوي على الاقرار بانك أنت نفسك شخص عادي لتسعة أعشار الوقت، وهذا ما لا يريد أي عاقل ان يفعله تماماً (مجموعة المقالات والرسائل، ج ٢، ص ٢٣٠).

هناك شيء من الشعور الطبقي المتستر في هذا القول، ويبقى اورويل ينظر من الخارج على مسافة ذات بعد كاف للافتراض بان هناك اناساً- طبقة من الناس- «عاديين» دائماً وابدأ. ان بلوغه هذا الحد يسترعي الانتباه.

انا أعتقد ان الاهتمام الذي يثيره فينا ببلوم Bloom هو انه رجل عادي غير مثقف، يوصف من الداخل بواسطة شخص يستطيع أيضاً ان يقف خارجه ويراه من زاوية اخرى، وليس لكون ببلوم رجلاً نموذجاً خالصاً في الشارع.

يوصف رجل الشارع عادة في القصص الخيالية اما بواسطة كتاب هم انفسهم على الصعيد الفكري من رجال الشارع، بالرغم من أنهم قد يمتلكون مواهب عظيمة كروائيين (ترولوب مثلاً) او بواسطة رجال مثقفين يصفونه من الخارج (صموئيل بتلر، الدوس هكسلي مثلاً) (مجموعة المقالات الصحفية والرسائل، ج ١، ص ٢٢٨).

«الرجال المثقفون الذين يصفون رجل الشارع من الخارج». يستطيع اورويل في هذا العيب الاجتماعي ومن خلاله، وهو عيب ابتلته به طبقتة وتربيته، ان يصل الى فكرة الانسانية الموسعة او حتى الى فكرة الانسانية المشتركة. وتتجه كتابته في الثلاثينات نحو اكتشاف مثل هذه الانسانية، بالخبرة وعن طريق الكتب.

ان مشكلة العلاقة الاجتماعية هي، اذن، مشكلة صورة. ان كتاب «التسكع في لندن وباريس» هو بالفعل يوميات. والثيء المرصود في هذه اليوميات هو التجربة عن كون المرء بدون مال في مدينة حديثة: تجربة غاسلي الصحون المتسكعين، والغرف القذرة، والبيوت ذات أسرة النوم المؤقتة للفقراء، والاجنحة الطارئة في المستشفيات. الكاتب حاضر، لكن حضوره مشروط فقط بحدوث هذه الاشياء له وللآخرين. ان شخصيته وحوافزه مرسومة او مخططة باختصار مثل شخصية وحوافز اي شخص آخر نقابله في المطبخ او في الطريق؛ فهو ليس في «الداخل» ولا في «الخارج». ببساطة، إنه ينجرف مع الآخرين - قريبا منهم بشكل استثنائي، لكن ذلك يتم في اطار الحقيقة بأنهم ينجرفون، باجسادهم وعقولهم.

لكن بعدئذ قارن «ابنة رجل الدين». إنها رواية عن فتاة مكبوتة، تصاب بانهيار وتشرذم، ثم ترجع نهائياً عن طريق التعليم الى المكان الذي بدأت منه. ان اي شخص يقرأ كتابات اورويل الاخرى العائدة لذلك الوقت، سوف يجد معظم تجارب الرواية في مكان اخر بأشكال اخرى. ان «أوقات الكنيسة» والدرج المسرحي المصنوع من الغراء والورق البني وحتى الشمطاء المشرفة على الموت والتي يجب ان تنقل

كربيات العث وشراب «الجن» والتي يجب ان تحمل تقريباً من المذبح واليه كلها موجودة في الفصل الاول من الرواية وفي رسائل اورويل التي يتحدث فيها عن نفسه (مجموعة المقالات الصحفية والرسائل، ج ١، ص ١٠١-١٠٢، ١٠٣، ١٠٥).

كذلك فان صورة الفتاة التي تتشرد، وركوب السيارات بالمجان، والزنجبيل، والنوم بخشونة في ساحة الطرف الاغر: كل هذه الاشياء موجودة في الفصل الثاني وفي بداية الفصل الثالث، وفي مفكرة اورويل ايضا، (ركوب السيارات بالمجان) (مجموعة المقالات والرسائل، ج ١، ص ٥٢-٧١). المسألة المقصودة هي العلاقة الخارجية بين «مادة» الكاتب و «عملية خلقه». فالاهتمام منصب تقريبا كلياً على طريقة معالجة حضور المؤلف بالذات: الشخصية الوسيطة للفتاة «في الداخل» عندما تقع في روتين الكنيسة والتعليم «من الخارج»، حتى «وهي فاقدة الذاكرة، وعندما تسير على الطريق على غير هدى». ان محاولة تصوير الفتاة وكأن حضورها أكثر من مجرد اناة تجميء احياناً جدية ومفصلة ومجرد وظيفية في بعض الاحيان. لكن الهوية الذاتية العالية لا يمكن تحقيقها من خلال تنوع التجربة وتفككها. ومن الطريف ان يقوم اورويل في مرحلة من المراحل- مشهد الليل في ميدان الطرف الاغر، في القسم الاول من الفصل الثالث- باجراء تجربة ادبية واعية من نوع مختلف وغير شخصي. ومن الواضح جداً انها تجربة مستقاة من الفصل الذي يدور حول مدينة الليل في رواية «يوليسيس»، وهي الرواية التي كانت تدور في خلده كثيراً كمثال يحتذى. لقد بقي مسروراً بهذه التجربة، بالرغم من انه توصل الى رفض الكتاب ككل. ان تقارب اورويل من جويس- او محاولة التقرب منه- أمر لا يلمس في قراءتنا العادية. فمن الكتاب الحديثين الذين يكرر اورويل ذكرهم، في عصره الاول، ويلز وبينيه وكونراد وهاردي وكيبلينج. وفي سنة ١٩٤٠ نجد لديه قائمة مختلفة- جويس واليوت ولورانس. هذا الاختلاف بالتشديد طوال الثلاثينات هو طبيعي ونموذجي تماماً،

ومن بين الكتاب الاوائل على قائمة سنة ١٩٤٠ يرد اسم شكسبير وسويفت وفيلدينغ وديكنز وريد وبطلر وزولا وفلوبير. إن اهتمامه النقدي بشكسبير وسويفت وديكنز يمكن رؤيته من خلال مقالاته. لكن ثمة تشيدين مختلفين في تطور كتابته الخاصة: الاول الاهتمام التفصيلي بـ «يوليسيس» (خصوصا في رسالته الى برندا سالكلد، الاعمال والرسائل، ج١، ص١٢٥-١٢٩) وفي الوقت ذاته في «ابنة رجل الدين»، وايضا عندما قال في سنة ١٩٤٠: «انني اؤمن بأن الكاتب المعاصر الذي كان له تأثير كبير لدي هو سومرست موم، الذي اعجب به بشكل كبير بسبب قدرته على رواية قصة بشكل مستقيم وبدون تصنع» (الاعمال والرسائل، ج١، ص٢٤).

اسماء كهذه لا تم كثيرا. فالتأثير الادبي هو عمل ثانوي. الشيء المهم هو مشكلة الموقف الذي هو بمثابة المفتاح بالنسبة لاي حكم انتقادي حينما يتعلق الامر باورويل. ومن السهولة بمكان ان نقول ان «التسكع في باريس ولندن» هي افضل من «ابنة رجل الدين»، لكن يجب الا نخضع هذا الى تعميم كأن نقول إنه «مراقب» اكثر من كونه روائيا. تكمن المشكلة الحقيقية في العمق، في التصورات المتوافرة عن «الرواية».

«رواية القصة بشكل مباشر وبدون تصنع». ان «القصة»، بعد كل حساب، هي المسألة برمتها. ان موم هو «راوي القصة» ذات المميزات الادوارية: أي إنه جامع وموزع للحوادث الانسانية. كانت متوافرة لدى اورويل مادة هذه الامور (وقد جمعت في الغالب عن بعد، وفي بلاد اخرى) بيد أن أول رواية له، «أيام بورما»، هي من هذا النوع. وحتى هناك، عندما تكون المؤامرة متعلقة بمكيدة شخصية بين جماعة اوروية منعزلة على محطة شرقية، نجد أن التشديد يقع على النتائج الاجتماعية المعقدة للامبريالية، ومن خلال هذا يبرز ما نستطيع ملاحظته الآن، الا وهو نموذج اورويل العميق: الرجل الذي يحاول ان يهرب من قواعد جماعته لكنه يرتد اليها، وفي هذه الحالة، محطما.

الشيء الفريد في عمل اورويل الروائي هو أنه يخلق محيطاً اجتماعياً ومادياً كاملاً يحدد من خلاله النقد الاجتماعي والانفصام الشخصي. وتشكل البنية الأساسية في جميع رواياته الأخيرة، بواسطة العناصر التي أصبحت متفرقة: الانفصام الشخصي، والنقد الاجتماعي الذي يوجه من خلالها، كما في روايات الثلاثينات، والنقد الاجتماعي ويكمن في داخله الانفصام الشخصي كما في روايته «١٩٨٤».

يبدو ذلك تطوراً واضحاً، لكن ما يحذفه هو مادة «الملاحظة». بعد ان وجد اورويل شكلاً واحداً لهذا في «التسكع في باريس ولندن»، فقد أراد بوضوح ان يضمه في رواية. هذه هي الأهمية التطورية في «ابنة رجل الدين»، حيث تقترب الملاحظة المباشرة من التخيل بشكل متكرر. لكن منذ ذلك الوقت يظهر أنه رضي بالفصل بين العمل الوثائقي والعمل القصصي. لقد تجنب إعادة صياغة الرواية أو ثبت له أنه شيء صعب جداً: وأنا أقول ليس لأنه لم يكن روائياً بالفعل لكن لأن مشكلة الوعي التي شارك فيها مع آخرين في عصره برزت كمشكلة شكل.

كانت أهمية جويس بالنسبة لاورويل هي في ادراكه المباشر للتجربة لـ «داخل» و«خارج» الانسان العادي. لكن هذا الوصف يخفي مشكلة علاقة الروائي مع شخصيته التي هي دائماً صيغة علاقة الكاتب مع عالمه. والعلاقة التي هي بيت القصيد يمكن ان توصف: «كقبول» أو «استسلام»، فالنتيجة المنطقية لتشديد جويس على «تناول» الفنان «للمادة» تبدو كأنها قطعة مجردة. انه الفنان الذي تشذب من الوجود والملاحظة والتدوين: انه من المستحيل ان تلاحظ اي شيء دون أي تدخل في علاقة ما معه، ما عدا ذلك الذي يحدث في الممارسة. فالعلاقة الظاهرة، تلك المنتشرة والمحبذة، هي العلاقة «الجمالية» و«تناول المادة» و«الإنهالك بالكلمات»، ذلك هو تطور جويس الحقيقي. لكن «المادة» يمكن ان يجري تناولها فقط بهذه الطريقة - من الممكن ان يجري تجريدها وتبقى مع ذلك مكتوبة - اذا افترضنا وجود علاقة

معينة: «القبول» او «الاستسلام». ان الاختلاف بين الاوصاف الايجابية والسلبية هو اقل اهمية من حقيقة العلاقة نفسها- الاحجام عن التدخل، او اكثر، النظر الى أنه لا حاجة للتوسط، بما أن وفرة «المادة» هي اهتمام الفنان الرئيسي والوحيد.

نجم فشل اورويل الفني، في رواياته في الثلاثينات، وبشيء من المفارقة، عن انجازه على الصعيد الاجتماعي. وهو على الاقل عرف الاستسلام، عن قرب، كما يصف في «التسكع في باريس ولندن». بيد ان معرفته به جاءت ليس بوصفه كاتباً عنه، وإنما صحبته، وبالمقدار الذي كان فيه «المادة» فقد كان مادة من نوع تتعلق به شخصياً اكثر من كونه كاتباً. ان ما رأيناه يصفه «غزوا» هو نمو ذلك الوعي الاجتماعي الذي اقتضى تدخله، والذي جعل اما القبول او الاستسلام مستحيلاً بالرغم من أنه رجع الى فكرة القبول او الاستسلام في «في جوف الحوت».

قام فيما بعد عن طريق صياغة شكل ادبي، بخلق صورة الوسيط «ممتص صدمات البرجوازيين كما اشار مرة عن الاشخاص الذين من شاكلته». و عوضاً عن أن يقوم مباشرة بتفهم الاشياء التي لاحظها نراه يقدم صورة الوسيط الذي يدور ويذهب الى الاشخاص ممن حصلت معهم بعض الاحداث. وهو لا يعكس هذا الشكل، في الروايات نفسها، وهذا شيء مهم جداً. الشكل له تجاربه، في «ابنة رجل الدين» وبعد ذلك بطريقة مختلفة في «دع الدريقة مرفرفة». ان الشخصية سلبية، كالأشياء التي تحدث في دوروثي Dorothy او كومستوك Comstok، وهذا النموذج يطلق عنصراً واحداً من تجربة اورويل- الاشياء التي «حدثت» معه- لكن ليس جزئياً او جزئياً فقط بسبب حدوث هذه الاشياء، وليس بسبب التوسط او «غزوا» الوعي. دوروثي، بالتأكيد، هي الصورة الاكثر سلبية. لقد اعطى كومستوك في «دع الدريقة مرفرفة»، بعضاً من وعي اورويل الكامل: ليس فقط في المحاولة للعيش بدون نقود، ولكن لاعلانه الحرب على النقود وعلى

نظامها . كومستوك هو صورة فعالة وانتقادية في جميع الكشف الاولي، لكن ثمة تناقضا يبرز ضمن الملاحظة بشكل متزايد. ان اصرار اورويل الفعال والقوي، والبقاء المؤثر واعادة تكوين النفس النشيطة، كلها من الامور التي يجري صدها باستمرار بينما تستمر عملية ملاحظة القبول. ان ما يبدأ على شكل احتجاج يصبح عويلا، وتتم اعادة استيعاب كومستوك مرة ثانية في عالم ذي اغراض غير قويمة بنوع من الانتصار المنحرف: إن «شخصية» الوسيط (مثل «شخصية» فلوري او «شخصية» دوروثي) هي «تبرير» للادعان وللمهزيمة النهائية.

هذا هو التحول الغريب في «القبول» او «السلبية». ولا يكون هنا في داخل اورويل، بسبب التباساته، نظاماً فنياً ولا نظرة مقبولة الى العالم. ان محاولته الاخيرة في محاكاة صورة بلوم بشخصية بولينغ «الارتفاع من اجل الهواء» كتبت من مسافة بعيدة ومتذكرة وربما كانت من اجل ذلك السبب اكثر تماسكاً في بنيتها الداخلية. يتعد بولينغ عن الروتين الاورثوذوكسي كالاخرين، بالرغم من انه لا يظهر ذلك، عندما تحدث له الاشياء، لكن يعود الى الماضي، الى انكلترا القديمة وطفولته، وبعد ذلك تكون التجربة: تجربة الضياع، وزوال الاوهام، وفتح البصيرة. ظهرت «الارتفاع من اجل الهواء» بعد تجربة اورويل السياسية الحاسمة في اسبانيا بنتائجها التي يترتب علينا أن نعالجها بالتفصيل. لكن تبقى عناصر القرار الادبي مستمرة: الملاحظة من خلال وسيط محدود، مع الحد الذي هو اساس لنموذج اعمق: اثبات للذات بالحاجة وعدم امكانية التوقف المستمر، لكي يتضاءل التوسط الفعال الى احتجاج مؤقت او الى تأكيد ذاتي. ان اهمية هذا النموذج في عالم «١٩٨٤» المتغير تحتاج الى تحليل اكثر، عندما نأخذ التغييرات الاخرى بعين الاعتبار.

ادى فشل اورويل في حل مشكلته الصعبة العميقة بالنسبة للرواية، الى توجهه نحو اشكال اخرى متوافرة عمليا أكثر. لقد كانت كتابته الاجتماعية والسياسية بمثابة اعتناق وجداني مباشر، وهي النتيجة

العملية للتوسط . وعلى سبيل المثال فان «صيد فيل» تعتبر اكثر نجاحاً من اي شيء في «ايام بورما» ، ليس لانها «وثائقية» اكثر منها «تصورية»- التصور مثلما رأيناه، كان معتمداً بالمثل على الاشياء التي حدثت له- لكن بسبب وجود اورويل بدلا من فوري: شخصية مبدعة بنجاح بكل معنى الكلمة. فبدلا من تخفيف ادراكه من خلال وسيط، كما يقتضي اسلوب التصور، فانه يكتب الآن بقوة وبشكل مباشر عن تجربته الكاملة، ويصبح الشر قويا بالحال.

ان «صيد فيل» ليست وثيقة، بل هي عمل ادبي، فالتمييز ما بين العمل الخيالي او التصوري والعمل الوثائقي ليس مسألة ما اذا كانت التجربة قد حدثت للكاتب ام لا، بل هو تمييز بين ما هو «حقيقي» وما هو «تصوري»؛ اذ ان التمييز الذي له اعتباره يتعلق دائماً بالافق والوعي. وينبغي ان نعترف دوماً بالتجربة الانسانية المكتوبة بصورة اولية وغير متخصصة، كأدب؛ اذ ان الاشكال الخاصة واصول المادة هي مسائل ثانوية. فقد بدأ اورويل يكتب ادباً، بالمعنى الكامل، عندما وجد هذا الشكل «غير التصوري». اي، عندما وجد شكلاً قادراً على استيعاب تجربته مباشرة.

لقد استوعب تجربته- ليس فقط ما قد حدث له وما قد لاحظ - لكن شعوره وتفكيره نحو ذلك، والتعريف الذاتي «لاورويل» الرجل داخل التجربة وخارجها. ولربما يكون افضل مثل على ذلك هو «الطريق الى رصيف ميناء ويغان»، واتفق ان تكون ملاحظات مذكرات يومية اورويل قد نشرت (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ١٧٠-٢١٧). إن المقارنة بين اليومية والكتاب ممتعة لعدة اسباب؛ اذ إنه لمن السهل ان تجرد في الملاحظات مصادر اكثرية الاوصاف: نزل بروكر، مثلاً، في الفصل الختامي، وما هو واضح ايضاً، ان مقارنة الاثنين، هي العملية الادبية. ثمة تطور ضروري ومتوقع، في مشهد ما من الرواية المنشورة: وصف كامل واكثر سلاسة وتفصيلات يستعاد تذكرها. لكن هناك ايضاً اشباعاً للمنظر بالمشاعر. ان اورويل

موجود ومستجيب، وهو بالتأكيد يوجه الاستجابة بطريقة ما موجودة فقط باتجاه النهاية في الملاحظات اليومية. ويظهر ايضا انه ينتقل بالمستأجرين في نزل بروكر، وهو نزل ليس مذكوراً في الكتاب. لهذا السبب لم يجر التشديد على نزل بروكر، في الكتاب، بالدرجة الاولى فحسب، لكنه يعامل كنموذج لتجربة اولية.

«لقد ادهشني ان هذا المكان لا بد وان يكون عادياً جداً مثلما النزل في المناطق الصناعية»، بينما نجد في اليومية تجربة تسبق ذلك وبالاخرى مختلفة.

هذا مثل واحد صغير فقط لتوضيح نقطة التجربة «الوثائقية». فالكاتب هو الذي يقوم بتكوين وتنظيم ما يحدث ليحدث بدوره تأثيراً خاصاً، مرتكزاً على التجربة ولكن مبتدعاً منها. فالتنظيم الكلي في «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» هو مثال رئيسي عن ذلك، ففي المقام الاول تعتبر، «الملاحظة» حول الشمال الصناعي، واحدة من النقاط الرئيسية. وبعبارة ادبية، فان اورويل هو الملاحظ المنعزل الذي يتجول ويرى الاشياء بنفسه. وتستخدم هذه الشخصية المبتدعة لدرجة مهمة في القسم الثاني، الذي يدور حول مناقشة الاشتراكية، حيث تجري مقارنة الانسان الذي ذهب ورأى أن عينه مع الاشتراكيين البرجوازيين ذوي الالفاظ الطنانة: ان أول شيء ينبغي ان يذهل اي ملاحظ خارجي هو أن الاشتراكية في شكلها المتطور هي نظرية مقتصرة كلياً على الطبقة الوسطى.

ان النقطة الخارجية السياسية ليست هي الاكثر اهمية هنا: ان عبارة «في شكلها المتطور» جنبته إشكالاً كبيراً، وتبقى النقطة الرئيسية هي شخص «الملاحظ الخارجي»- اي، اورويل. والصلة الاساسية بين الجزأين بالتأكيد هي هذه الشخصية: «داخل» وبعده «خارج»

التجربة .

اننا نعلم من الملاحظات اليومية انه بعد عدة ايام من التجوال داخل اراضي «مدلند» اجرى اورويل بعض الاتصالات السياسية في لانكشاير وانه قابل اشتراكيين من طبقة العمال واعضاء «حركة العمال العاطلين عن العمل». واتيح له في احد هذه الاتصالات ان يزور احد المناجم وان يحصل على معلومات عن حالة السكن من بعض المحصلين في «حركة العمال». ومن الاهمية بمكان ان اورويل يحذف اكثرية هذه التجربة- شبكة من الاتصالات الاجتماعية والسياسية الحقيقية- في «الطريق الى رصيف ميناء ويغان». تظهر بعض الصعوبات جلية حتى في يومياته . نجد أن موظفا في احدى النقابات وزوجته، «وكلاهما من الطبقة العاملة»، يعيشان (في منزل ذي اجرة تتراوح بين اثني عشر واربعة عشر شلنا) في بيئة تسودها الطبقة الوسطى كليا (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ١٧٣).

لاورويل تعريفه الخاص عن الطبقة العاملة . ولهذا، اغلب الظن، استطاع ان يقول، بعد مقابله لاولئك الناس (الذين اخرجوه عندما دعوه «رفيقا») ولكهربائي يشارك بقسط بارز في الحركة الاشتراكية «إن الاشتراكية هي من شأن الطبقة الوسطى». فاذا كان الرجل العامل اشتراكيا، اذا فهو في اغلب الظن، من الطبقة المتوسطة، لان شخصية رجل الطبقة العاملة معروفة سلفا.

بيد ان النقطة السياسية هنا هي نفسها النقطة الادبية . الشيء الذي ابتدعه الكتاب هو ملاحظ مستقل منعزل مع مواد ملاحظته . فالشخصيات والتجارب المتداخلة التي لا تشكل جزءاً من هذا العالم- بنية الشعور هذه- قد حذفت ببساطة . ما تبقى كلام «وثائقي» بدرجة كافية، لكن طريقة الاختيار والتنظيم هي عمل ادبي: فشخصية

الملاحظ هي حقيقية وايضا مبتدعة بنفس الدرجة التي يصف فيها العالم الحقيقي، ومع ذلك المبتدع بقوة كبيرة. من هنا تعتبر كتابات اورويل باكملها حتى سنة ١٩٣٧ سلسلة من الأعمال والتجارب حول مشكلة عادية. وينبغي علينا بدلا من ان نقسمها الى «تخييلات» و «وثائقيات» ان ننظر اليها كمسودات باتجاه ابتداع الشخصية الاكثر نجاحا «اورويل». ولربما سوف تكون ناجحة كثيراً لو أنها لم تحيَ بشكل عنيف ومؤلم جدا.

الفصل الخامس

السياسة

كان الغرض الاساسي من وراء ذهاب اورويل الى اسبانيا «جمع معلومات للمقالات الصحافية وما شابه ذلك» (مجموعة المقالات والرسائل، ج ١، ص ٣١٦). بيد انه اخبر بانه يتوجب عليه لكي يدخل الى اسبانيا ان يحصل على اوراق تصاريح من احدى المنظمات اليسارية. وكان الناشر فيكتور غولانز قد اسس نادي «الكتاب اليساري» في ايار/ مايو ١٩٣٤. وتألقت لجنة الاعضاء للنادي من غولانز، وهارولد لاسكي، وجون ستراتشي. وقد وافق نادي الكتاب اليساري على نشر كتاب «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» في شهر اذار/ مارس عام ١٩٣٧ بشرط اضافة ملاحظة تحذيرية. وتمكن اورويل عبر ستراتشي من القيام بأول محاولة للحصول على معاملات السفر الى اسبانيا، بيد أن بوليت الشيوعي اشترط على اورويل الانضمام الى «الفرقة الدولية». وقابل اورويل الامر بالرفض بسبب عدم اطلاعه على مجريات الامور في اسبانيا. وبعد ذلك بدأ اتصالاته بحزب العمال المستقل الذي سبق له ان «اقام اتصالات بسيطة معه»، فاعطي رسالة توصية ليسلمها الى جون مكثير في برشلونة. وكانت هذه الرسالة السبب الرئيسي في انضمامه الى ميليشيا منظمة «البوم» التي كان لحزب العمال المستقل بعض الاتصالات بها. وبانضمامه الى الميليشيا اصبح مدفوعا الى حلبة الصراع السياسي المعقد والمرير بين الجماعات الاشتراكية. ولكن بعد معرفتنا بما حدث، وخاصة باتصاله الاول ببوليت عن طريق ستراتشي، يمكننا أن نقول إن اورويل لم يسع الى كل هذا. لقد عرف عن اورويل انه كان يتخذ موقفا نقديا من النظرية الماركسية ومن الفاظها الطنانة وتنظيماتها المنقسمة. كما انه قد قال

قبل مغادرته انجلترا في كتابه «الطريق الى رصيف ميناء ويغان» ان السوابب الاول للاشراكيين- كي يدفعوا فريقا من الناس للتصرف كاشراكيين- قد تعطل بسبب الاسلوب والمحيط المنفرين . وكان يعتقد ان الاشتراكية تعني معاداة الامبريالية والفاشية والايان بالمساواة . ولم يكن انضمامه الى الميليشيا «البوم» انضماما بالمعنى السياسي للكلمة ؛ فلقد كانت انتقاداته لها وللحزب الشيوعي الاسباني هي نفس الانتقادات التي كان يوجهها للاشراكيين الماركسيين في انه لم يكن شديد الاهتمام بالفروقات المذهبية في بادئ الامر . لكنه بعد مضي بضعة شهور وبعدها ازدادت معرفته بهم اتخذ الموقف نفسه عند ذهابه للقتال في مدريد ، وطلب الحصول على توصية من صديق في الحزب الشيوعي . وبقي يعتقد ، كما قال ، أن اهتمامه الاول انصب على المشاركة في القتال حيثما كان يجدي ذلك . اما ظلال المذهب السياسي فكانت ثانوية في احسن الأحوال . «بالنسبة لرغباتي الشخصية المحضه كنت ارغب في الالتحاق بصفوف الفوضويين ، بيد ان الخدمة على اكثر الجبهات حسما تأتي قبل كل شيء» .

ان اهمية هذه التفاصيل تعود لسببين : احدهما انها تكون سجلاً (وقد اصبح مشوشا جداً) ، والثاني أنها تعطي انطباعا صافيا حول اشتراكية اورويل غير العقائدية . وهنا يمكن القول ان الاشتراكية هذه تصبح ثانوية من وجهة نظر اورويل ، اذا ما قورنت بالصراع ضد الامبريالية والفاشية وعدم المساواة . وكانت الاشتراكية فكرة عامة واسما عاما ضد جميع تلك المفاسد ، وكانت في مضمونها اكثر ايجابية بقليل قبل ان يرحل عن بريطانيا . وزادت تجربة برشلونة الثورية من تصميمه على القتال ، اكثر من اي تعاطف ايجابي اظهره في بريطانيا . وكانت المرة الاولى التي يجد نفسه في «بلد تتولى فيه الطبقة العاملة مقاليد الحكم» (وفاء لكاتالونيا ، ص ٨) .

لقد تحولت «فكرته المشوهة عن القتال فيما لو كان ذا اهمية» بفعل هذه التجربة الجديدة . واصبح الانضمام الى الميليشيا يبدو له الشيء

الوحيد الواقعي الذي يمكن القيام به، فبالالتحاق بالمليشيا تزول العديد من البواعث الطبيعية في الحياة الحديثة: الكبرياء والسعي وراء المال والرغبة من السلطة... الخ... حتى ان التقسيم العادي لطبقات المجتمع اختفى لدرجة اصبح معها من غير المعقول ان يجري شيء من هذا في انجلترا ومحيطها المعني بتحصيل الاموال. كانت تلك التجربة بالفعل انجازا سياسيا ضخماً: «كان المرء يعيش بين جماعة يسودها الامل وبعيدة عن اللامبالاة والسخرية، حيث كانت كلمة «رفيق» تحمل كل معاني الرفاقية، وعلى النقيض من معناها الواسع الانتشار كما هي في جميع الاماكن الاخرى... لم يكن احد مرغماً على العمل، وكنا نعاني من نقص في كل شيء، بيد انه لم يكن ثمة امتيازات او وساطات كان يمكن للمرء في مناخ كهذا ان يتنبأ بما ستكون عليه بداية الاشتراكية. «لقد كان تأثير هذا الوضع علي قويا بحيث انني اصبحت اكثر الحاحا في رؤية بناء الاشتراكية أكثر من اي وقت مضى» (وفاء لكتالونيا ص ١٠٢-١٠٣).

او كما عبر عن ذلك باسلوب اشد تأثيرا في رسالة له في حزيران ١٩٣٥ عندما كان يستعد للرحيل من اسبانيا. «لقد شاهدت اشياء رائعة، واخيراً أصبحت اؤمن بالاشتراكية، وهو ما لم افعله مطلقاً في السابق» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٢٦٩). هذا التأكيد امر في غاية الاهمية؛ فخلال تلك الشهور التي قضاها اورويل في اسبانيا، اصبح ثورياً اشتراكياً، ويمكن لمن يتتبع تطوره السياسي ان يرسم خطأ واضحاً لتجربته في سنوات الفقر والتهتك ومنعه من الامتيازات- سنوات الترحال- وبين تجربته في خوض الصعاب المشتركة في برشلونة. ولكن يوجد ايضاً التخلي عن الانانية الشخصية واختيار المصلحة العامة. وقد تحولت تجاربه مع اشد انواع المصاعب قسوة الى انهماك نشيط في النضال لوضع حد لها. لذا، ومن مفارقات الامور في اللحظة التي اصبح فيها اورويل ثائراً اشتراكياً، حدث ان تورط في صراع طويل وشديد لدرجة يصعب معها تتبع تجربته

وتطورها بشكل واضح - واستمع اورويل خلال اقامته في الجبهة في الاشهر الاولى لعام ١٩٣٧ لمجادلات لا نهاية لها تتعلق بمستقبل الحرب والثورة. وقد كان الوضع معقداً لدرجة انه لم يكن ثمة حدود للجدل. فثمة رأي كان يدعو الى تسخير كل شيء للقتال ضد الفاشيين، بينما كانت وجهة النظر الثانية تقول ان الحاق الهزيمة بالفاشية لا يتم الا بقيام ثورة اجتماعية في الوقت نفسه. وكانت كلتا وجهتي النظر قد اختبرت مرارا في السابق بتفصيل ومرارة كبيرتين. وكان التحرك في تلك المنطقة اشبه بالسير في حقل الغام. وقد التزم معظم المؤرخين بوجهة النظر القائلة ان الثورة التي قام بها النفايون الفوضويون بصورة رئيسية الى جانب مشاركة «البوم» كانت عبارة عن إلهاء لا طائل منه لحرب يائسة. وذهب بعضهم في ذلك الوقت، وبعده، الى ما هو ابعد من ذلك في وصف الثورة على انها هدم متعمد للجهود المبذولة في دعم الحرب. وايد نفر قليل وجهة النظر القائلة ان قمع الثورة بواسطة المجموعة الرئيسية لقوى الجمهوريين ما هو الا عمل ناجم عن سياسة استخدام مراكز القوى المرتبطة بالسياسة السوفياتية التي ادت بدورها الى خيانة للقضية التي يقاتل من اجلها الشعب الاسباني.

وكما رأينا فان تجربة برشلونة الثورية دفعت اورويل ليصبح اشتراكياً، ولكن تأييده للخط الشيوعي في أغلب الاحيان كان بسبب حالة الفوضى والخمبول في الاشهر الاولى على الجبهة. لقد بدا له بالسليقة والفطرة السليمة ان ما كانوا بحاجة اليه في تلك الفترة هو الوحدة والفعالية. والواقع أن اصدقاء تدريبه الشخصي كضابط في كلية الشرطة الملكية اصبحت تسمع مراراً ومرات عندما كان يتكلم عن انعدام التنظيم في صفوف الميليشيا الثورية، ولكن في الوقت نفسه فان تجربته لروحها الثورية والرفاقية العملية كانت فوق كل اعتبار، وهي كانت قبل كل شيء السبب في انخراطه في القتال. ومن الصعب الاجابة على التساؤل: كيف يمكن حل ذلك التناقض في الدوافع

العالقة في ذهنه والتي كانت تضغط عليه، ومن ذلك ايمانه من خلال ما درسه وما تدرب عليه بان الفعالية قيمة معزولة، ومن ذلك التناقض ايضا ايمانه الناجم عن تطوره الاجتماعي خلال تجواله في بريطانيا بالقضية المشتركة للمضطهدين. وكان صدره يضيق بالانقسامات السياسية التي اعاقت او منعت شرح قضية المضطهدين. وفي كلتا الحالتين كان اورويل ذلك الرجل الذي ينتمي بصورة طبيعية للجبهة الشعبية. وكان معجبا بقناعة الجمهوريين الرسمية. ولكن ايمانه السلبي السابق بالقضية العامة اصبح اكثر وضوحاً من خلال تجربته الثورية التي اطلقتته من أسرته واصبح يشعر بأنه يعيش في عالم انساني جديد. وعند عودته الى برشلونة بعد مضي ثلاثة اشهر ونصف وجدها مدينة مختلفة تماماً، بعد ان كانت في كانون الاول من عام ١٩٣٦ مدينة تكاد تخلو من الفروقات الطبقية وتوزيع الثروة.

اما الآن فلقد عادت الامور الى سيرتها الاولى؛ فالاغنياء يملأون المطاعم والفنادق ويلتهمون الوجبات الفاخرة، بينما ارتفعت اسعار المواد الغذائية بالنسبة للطبقة العاملة بدون ان يكون هناك ارتفاع مماثل في المدخول (وفاء لكاتالونيا، ص ١١٠). لقد اخذ المناخ الثوري في الاضمحلال، ولم ينجم ذلك عن التغيرات السياسية فحسب التي ادت الى انتهاء وجود الميليشيا الشعبية واعادة تنظيم الجيش والادارة المركزيين، ولكن ايضا عندما انفجر الصراع على السلطة الذي كان متضمناً في تلك التغيرات في مدينة تبدو الآن طبيعية، فان عواطف اورويل لم تكن موضع شك، ناهيك عن أن خدمته في ميليشيا منظمة «البوم» جعلته يصبح جزءاً من حركة معلنة غير شرعية وكانت موضع ملاحظة. ان تحليله للصراع يكشف التعقيدات الكبيرة التي كان ينطوي عليها، وهنا يسرع للقول ان بوسعه ان يروي بنفسه فقط ما يشاهده وان تحليله مثل اي تحليل اخر، عرضة للتحيز او الخطأ. بيد أن ما حدث له ولرفاقه على الجبهة كان عشوائياً ووحشياً لدرجة ان اختياريهم للقتال كان امراً حتمياً. ولقد اعطيت تحليلات مختلفة عن

بداية قتال الشوارع وعن دوافعه السياسية وما يزال يقدم المزيد منها. كان ما عرفه اورويل او تسنت له معرفته هو أنه جرى تطوير الرجال المرهقين العائدين من الجبهة الى هذه المدينة المقسمة طبقياً، من الحرس والشرطة، بحجة النضال ضد الفاشية. وحسب معظم الادعاءات باسم قضية الاشتراكية الحقبة وباسم الشعب، احدثت تلك التجربة جرحاً بالغاً لم تندمل اثاره ابداً، ومن المؤكد ان المرء سيبيء الظن به فيما لو التأم الجرح فيما بعد.

ان كتاب (وفاء لكتالونيا) هو، الى حد ما، من اهم كتب اورويل واكثرها حيوية، فهو بمثابة رواية شخصية تنبض بالحياة عن الثورة والحرب الاهلية. ولكن هذا الكتاب لم يحظ بتقييم رفيع وذلك لاسباب سياسية متنوعة، فقد كانت تحليلاته عن الصراعات المحلية مثيرة للجدل بالضرورة وادت الى مقاطعة الكتاب من العديد من اليساريين، كما قاطعه نوع آخر من القراء أكثر عدداً بسبب التزام اورويل النابض بالاشتراكية الثورية، وهؤلاء كونوا عن اورويل من خلال عمله اللاحق فكرة ثابتة قوامها انه صوت الضياع السياسي والفشل الحتمي للثورة والاشتراكية. وثمة ما يؤكد هذه النظرة في كتابه (وفاء لكتالونيا) في الحديث عن الضياع وعن قمع الروح الثورية. «انها ببساطة مرحلة مؤقتة وذات نطاق محلي جرت في اطار لعبة كبيرة على مستوى العالم كله» (وفاء لكتالونيا، ص ١٠٢). ومع ذلك فاننا لا نجد في اي من كتابات اورويل عن اسبانيا ما يؤكد أنه خلص الى نتيجة يمكن رؤيتها فيما بعد على انها يمينية. فبالرغم من قمع الحركة الثورية التي كان ينتمي اليها فلقد عاد اورويل الى اسبانيا ثورياً اشتراكياً، وكتب يقول «عندما ارى احد العمال يتخاصم مع عدوه الطبيعي (رجال البوليس) فاني لست بحاجة لان اتساءل مع اي جانب اقف» (وفاء لكتالونيا، ص ١١٩). كانت تراوده الشكوك بالتأكيد كما حدث معه قبيل ذهابه حول ما سماه «الشيوعية البرجوازية» وبنظرته المثالية للعامل. بيد أنه عندما وقع الصراع

الحقيقي قام بحسم موقفه، وكان شديد الامتعاض من السياسة الشيوعية في اسبانيا ومن تقارير الاجانب حول الصراع الاسباني. وبقي كرهه لما اطلق عليه «الستالينية» ملازماً له باستمرار. ولكن اصبح بعد خوضه للتجربة الاسبانية في موقع الاشتراكي الثوري وهو ما يسمى الآن، اذا ما نظر اليه من الخارج، الموقف المتطرف. ان تحليله للصراع في اسبانيا مشابه جداً لتحليلاته السابقة للصراع في بودابست وفي باريس، وهذه التحليلات التي كانت قد كتبت من منطلق ثوري اشتراكي شديدة المعادة للنظام الرأسمالي وللشيوعية الارثوذكسية. وهذه المرحلة من تطور اورويل اليساري تحتاج الى تأكيد شبه استثنائي. ولربما كان من الامور التي تثير الاهتمام بشكل اكثر ان نعرف كيف ومتى تبدل موقف اورويل عن موقفه خلال السنوات الاخيرة. فعلى سبيل المثال كان اورويل يعتقد عندما كتب مقالة «التفاته نحو الحرب الاسبانية» في عام ١٩٤٢، وبعد انقضاء مدة طويلة على خلافاته مع ما سماه الكذب الرسمي للصحافة الشيوعية، أن الفاشية هي الخطر الدكتاتوري الوحيد. ودفعته الدعاية الفاشية والدعاية المؤيدة لفرانكو على صفحات «الديلي ميل» و «كاثوليك هيرالد» الى القول «ان جوهر مفهوم الحقيقة الموضوعية اخذ في التلاشي في العالم» (مجموعة المقالات والرسائل، ص ٢٥٨-٢٩٠).

واوحت اليه النظرية النازية بمفهوم العالم الكابوس الذي يسيطر فيه الزعيم او زمرة حاكمة لا على المستقبل فحسب بل وعلى الماضي ايضاً. فاذا قال القائد إن حادثة ما لم تقع ابداً- حسناً فهي لم تقع؛ واذا قال إن حاصل جمع اثنين مع اثنين خمسة فمعنى ذلك ان مجموعها خمسة (مجموعة المقالات والرسائل، ج ٢، ص ٢٥٦). لقد جاءت هذه التوقعات المباشرة في رواية «١٩٨٤» اساساً كاستجابات لظهور الفاشية ولاعادة تثبيت نظام العبودية اللذين شاهدهما يحدثان واللذين وجدا اساساً لهما في معسكرات العمل النازية. ليس ثمة ما هو اكثر زيفاً من القول إن اورويل عاد من اسبانيا اشتراكياً واهماً وانه بعد ذلك كرس

جهده محذراً من مستقبل اشتراكي ديكتاتوري .

ومع ذلك فان تتبع تطوره الحقيقي امر صعب بلا شك ؛ ففي عام ١٩٣٨ انضم اورويل الى حزب العمال المستقل ، ووضح «ان على المرء ان يكون اشتراكياً بالفعل ، وليس متعاطفاً مع الاشتراكية فقط ، والا فسوف نسقط فريسة في ايدي اعدائنا النشيطين (مجموعة المقالات والرسائل ، ص ٣٣٧) . ووضح انه خلال عشرة اعوام خلت استطاع ان يفهم الطبيعة الحقيقية للمجتمع الرأسمالي . ومع انه كان يأمل بفوز حزب العمال المستقل في الانتخابات القادمة الا انه كان غير واهم باشتراكية الحزب ، ولم تكن لديه نية «لأن ينقاد الى طريق مفروشة بالازهار باسم الديمقراطية الرأسمالية» .

وفي عام ١٩٣٨ دافع اورويل مرة اخرى عن الحركة المعادية للحرب وفي وجه الذين غمزوا بان اللاعنف بديل سهل للمثقفين .
«الواقع ان اي تقدم ملموس ، ناهيك عن اي تغيير ثوري اصيل ، يمكن أن يبدأ فقط عندما ترفض الجماهير بحزم الحرب الرأسمالية - الامبريالية . . . وما لم تظهر الجماهير ارادتها «للدفاع عن الديمقراطية» او «ضد الفاشية» او اية شعارات براقة اخرى ، فان نفس الخدعة سوف تنطلي عليهم مرات ومرات» (مجموعة الاعمال والرسائل ، ج ١ ، ص ٣٣١) .

وعندما قام بمراجعة مقالة بركينو التي نشرت في مجلة «الأممية الشيوعية» كتب يقول : «اذا كان لا بد من حل مشكلات الرأسمالية الغربية فلا بد ان يكون ذلك من خلال بديل ثالث ، اي من خلال حركة ثورية اصيلة ترغب في اجراء تغيير شامل وفي استعمال العنف ، اذا لزم الامر ، ولكن لا تفقد صلتها بالقيم الاساسية للديمقراطية الامر الذي حدث مع الشيوعية والفاشية . ان هذا الشيء ليس ضرباً من الوهم ؛ فبذور هذه الحركة موجودة في العديد من الاقطار وهي قادة على النمو (مجموعة الاعمال والرسائل ، ج ١ ، ص ٣٥٠) .

وكتب في كانون الثاني ١٩٣٩ الى هربرت ريد : «اعتقد أنّ من

الضروري جدا لمن يعتزم منا معارضة الحرب القادمة ان يبدأ في تنظيم نشاطات غير شرعية معادية للحرب. انني اوافق تماماً ان الناس، وخاصة البارزين منهم، بإمكانهم الحصول على افضل النتائج اذا ما قاتلوا علنا، ولكن قد يكون امراً عظيماً الفائدة بالنسبة لنا وجود تنظيم سري ايضاً (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٣٧٧-٣٧٨).

يقترح اورويل في هذه الرسالة وفي رسالة اخرى ارسلت الى ريد لاحقاً اقتراحات عملية للقيام بنشاطات سرية ضمن وضع سياسي سيضطر فيه معظم اليسار للمقاومة ولا يبقى بديلاً معارضاً للفاشية سوى «المنشقين اليساريين من امثالنا». وتساءل في شهر تموز/ يوليو ١٩٣٩ وفي معرض كتابته عن الامبريالية البريطانية «ما معنى الاطاحة بنظام هتلر اذا كان البديل له اقرار نظام اشمل منه بكثير ولكن يوازيه سوءاً؟» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٣٩٧). ومن الجدير بالذكر ان يضاف الى ذلك انه خلال هذه الفترة التي سادت فيها الاشتراكية الثورية المعادية للحرب لم يكن اورويل «تروتسكياً» باللغة التي طالما انتقدتها نفسه. وكثيراً ما كان يجادل بأن هذا الوصف كان ببساطة سباباً فالتا، مع أنه هو نفسه سبق له ان استخدم كلمة «ستاليني». ولكنه اوضح خلال تلك الفترة أنه يؤمن بان اخطاء الاتحاد السوفياتي «تعزى الى اهداف وطبيعة الحزب البلشفي»، فكتب يقول: «كان تروتسكي في منفاه يشجب الدكتاتورية الروسية. بيد أنه لربما كان مسؤولاً عنها بنفس القدر كأبي انسان حي الان» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٣٨٣).

لم يجد اورويل اثناء محاولته تعريف الاشتراكية الثورية، موطناً تنظيمياً فعالاً لها مع انه بقي يؤمن به ويخطط له. وبعد ذلك حدث التغيير بشكل مفاجيء تقريباً. على ان هذا التغيير لم يكن مجرد ردة فعل لبدء الحرب او حتى لاتفاقية ستالين-هتلر. وفي الواقع:

«في الليلة التي سبقت اعلان التحالف الروسي الالماني حلمت بان الحرب قد وقعت، وكان هذا الحلم - وبغض النظر عن التفسيرات

الفرويدية الباطنية التي يمكن ان يحتويها- احد الاحلام التي تكشف لك احيانا عن حقيقة مشاعرك الداخلية. لقد علمني هذا الحلم شيئين، أولاً: علي ان ارتاح عند بداية الحرب المزعجة. ثانياً: انني وطني في الصميم ولن اهرب او اقوم بعمل ضد من اقف معهم، وسأدعم الحرب وسأقاتل اذا وجدت لذلك سبيلا (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٥٣٩).

كانت عودته الى انجلترا قد تمت منذ اذار المنصرم، وتوفي والده في حزيران. وفي المقال السابق الذي يرد فيه الحلم وعنوانه «انها بلادي يمينية كانت او يسارية» تحدث عن صباه عندما وقعت الحرب في الأعوام ١٩١٤-١٩١٨ «لقد شعرت بنفسك بانك لم تبلغ سن الرشد بعد، لان الحرب فانتك». سبق له ان تدرب على حمل السلاح منذ طفولته، كما تدرب في فيلق طلبة الكلية العسكرية، وتلقى بعض التدريب خلال «الحرب الاهلية الاسبانية العظمى». وكتب في مراجعة لمقالة هاري مجريدج «الثلاثينات» في الربيع التالي يقول:

«في الاوقات العصيبة يكتشف الفرد الذي ينتمي الى الطبقة الوسطى انه انسان وطني، ويعود ذلك لنشأته وفقاً للتقاليد العسكرية. لا بأس ان تكون «متقدما او متتورا» وتسخر من الكولونيل بليمب وتدعي انك بريء من كل الولاءات التقليدية، ولكن سيحين الوقت الذي تصبح فيه رمال الصحراء مخطلة قانية، وعندها تسأل نفسك: ماذا فعلت من اجلك يا انجلترا؟ انجلترا التي تخصني. انني نشأت على هذه التقاليد، لذلك اجد نفسي قادراً على كشفها من الاقنعة التي تزيّفها، كما انني اجد نفسي متعاطفاً معها، فهي حتى في اشد حالاتها غباوة ووجدانية تبقى اكثر رحابة من اعتداد المثقفين اليساريين (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٥٣٥).

يظهر لنا من التوضيح السابق ان تغير اورويل المفاجيء ما هو الا عودة الى التقاليد. وبمعنى ما فان هذا صحيح، ولكنه في ظل ظروف التكيف الجديدة والتي كانت متاحة تقليديا، حدث له انتكاسة قوية.

وهذا ما اوضحه مباشرة في كتاب «في جوف الحوت» الذي تلا «الارتفاع من اجل الهواء» الذي انجزه خلال صيف ١٩٣٩ . وعندما كتب يتعاطف مع النزعة السلبية بالنسبة لهنري ميلر وصفها انها من وجهة نظر رجل يؤمن بان حركة العالم خارج ارادته، وهو لا يرغب، على اي حال، بالسيطرة عليها، ذلك ان التقدمية والرجعية كليهما سلعة مغشوشة بمنظاره، ويبدو انه لم يبق سوى النزوع الى السكوت- اي سلب الواقع من معانيه المفزعة عن طريق الاستسلام له. «ادخل في جوف الحوت- او بالاحرى اعترف بانك في جوفه (لانك في داخله فعلا)، استسلم لحركة العالم، وكف عن القتال ضده، او الادعاء بانك تسيطر على هذه الحركة، تقبله، وتحمله، وسجله» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٥١٩-٥٢٦).

هذه هي وصفته لكاتب في ظل المخاطر القائمة حينذاك، ولكنها تشير بشكل عام الى وهن اصاب عزمته. لقد عرض نفسه لمصاعب جمة ومن ثم خاض كفاحاً شاقاً، واصيب برصاصة في فمه وهو في اسبانيا، وانتابه الاعياء الشديد نتيجة لاصابته بداء السل، وبذل الكثير من جهده لما كان يبدو تخوفاً من الوهم السياسي والاكاذيب والخيانة. وكان يترتب عليه ان يقوم بتسويات عديدة للتوفيق بين اسطورة انجلترا وذلك الوهم الاوروبي العميق.

اظن ان هذه الطريقة في العرض هي افضل اسلوب لمعرفة تطور اورويل السياسي. وتنطوي معظم كتاباته الصحافية خلال الحرب على طلاوة ولكنها وليست افضل ما كتبه، وثمة في انتقاده للاشخاص الذين اتخذوا او ما زالوا يتخذون مواقف مماثلة بين عامي ١٩٣٧-١٩٣٩، شيء من المناقشة الجدلية الحية وقدر كبير من الحقد او السباب احياناً.

كان يفترض فيه، في تلك الظروف الضاغطة التي تبعث على اليأس، ان يعرف، «أنه في ذلك شأن شأن الجميع، من الصعوبة أن يعثر على اي موقف ثابت ونظيف. وكان يدرك احياناً من خلال

الصراعات الطائفية، واطلاق التسميات والالقاب على الجماعات «الانتهزامية»، مدى صغر هذه الامور وحقاتها. وكتب ملاحظة في يومياته في ٢٧ ابريل / نيسان عام ١٩٤٢ يقول فيها «اننا جميعا نغرق في القذارة . وعندما نتحدث او اقرأ لشخص اخر من الذين يريدون ان يدلوا بدلهم، فاني اشعر بان الامانة الفكرية، والاحكام المتزنة، قد اختفت ببساطة من على وجه الكون. ان افكار الجميع مطبوعة بالطابع الجدلي» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٢٣-٢٤).

يبدو ان ذلك ينطبق على مقالاته خلال الحرب وعلى مقالات الذين كان ينتقدهم، مع بعض التحفظ، فقد اتسمت مقالاته بمبالغات هستيرية في كل اوجه المبالغة والهستيريا المنتشرة. وقام اورويل ولفترة من الزمن، وبشكل علني، بالتوفيق بين دعمه للحرب ودعوته لبرنامج، لتحويلها الى حرب ثورية، من اجل الحاق الهزيمة بهتلر وبالنظام الطبقي الانجليزي معا، بالاضافة الى مهاجمته المتخاذلين وعمله في هيئة الاذاعة البريطانية BBC بي.بي.سي.

لقد حاول ان يبقي الدعاية الموجهة للهند نظيفة، كان ذلك املا كباقي الآمال التي كانت تراوده. ولكن ملاحظة اورويل المميزة تعاود الظهور عندما قام في عام ١٩٤٤ بمراجعة جميع اخطاء التحليل التي ارتكبها خلال تلك السنوات بشكل علني فخلص الى القول «سواء قمنا «بمساندة» الحرب او «بمعارضتها» فان اول ما يجب ان نقوم به هو الاعتراف بأننا جميعا مخطئون» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٢٩٤).

ان هذا يشكل على احد المستويات اعترافا معقولا، وهذا من مزايا اورويل المعروف بنزاهته وصراحته الشديدين. ولكن على مستوى اخر فانه يدفع بعنصر يلتحم بخيبة الامل الباطنية، الا وهو القول إن التفكير السياسي، معظمه او كله تقريبا، هو عبارة عن نمط من التكيف مع نزوات المرء واهوائه. كما كتب يقول عام ١٩٤٦:

«ليس من السهل الايمان ببقاء المدينة... انني اعتقد أن على المرء

مواصلة الصراع السياسي، تماماً كالطبيب الذي يحاول ان يسعف مريضاً من المحتمل وفاته... لكننا... لن نصل الى نتيجة ابدا ما لم ندرك ان السلوك السياسي هو في معظمه غير عقلاي وأن العالم يعاني نوعاً من الاحتلال العقلي الذي ينبغي تشخيصه قبل إيجاد الحل له (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ١، ص ٢٤٨-٢٤٩).

يعتبر هذا الاستنتاج ذا اهمية كبرى في فهم عمله الاخير. وبالتأكيد فانه اعطى بنية فوقية سياسية عليا، العنصر الاساسي في فهمها انها استبدلت الفاشية بالشيوعية كخطر توتاليتاري.

ونظراً لخبرة اورويل وتطوره السياسي فقد كان الامر حاسماً، ووجد في القنبلة النووية نقطة تحول كبيرة: «اما ان نشجبها او انها سوف تبيدنا» (تشرين الثاني ١٩٤٥، مجموعة الاعمال والرسائل، ج ٤، ص ١٩). بيد ان الاشكال السياسية اخذت تتغير، فكتب في عام ١٩٤٢ يقول:

«اخذ العالم الكئيب، الذي يحاول الامريكيون من اصحاب الملايين واتباعهم من البريطانيين ان يفرضوه علينا، في التشكل. ان الشعب البريطاني بجماهيره يرفض عالماً كهذا... وعاطفياً تفضل الاغلبية في هذا البلد ان ترتبط بروسيا على ان ترتبط بامريكا» (مجموعة الاعمال والرسائل، ج ٢، ص ٢٨٢).

وفي نهاية ١٩٤٧ انعكس الامر وكتب يقول: «اذا ما خيرتم بين امريكا وروسيا فعلى من منهما سوف يقع خياركم؟... لم يعد بمقدورنا ان نقف وحدنا، واذا ما فشلنا في ايجاد اتحاد اوروبي غربي فاننا سوف نكون مرغمين، في المدى البعيد، على ان نخضع سياستنا لرغبات احدى الدول الكبرى، وبالرغم من كل الثرثرة التي تثار في هذه اللحظات فان كل فرد منا يشعر بداخله بان علينا ان نختار امريكا (مجموعة الاعمال والرسائل، الجزء الرابع، ص ٣٩٨).

يكمن تحت هذه التكييفات السياسية خوف عميق من ان العالم سوف ينقسم الى دولتين متفوقتين او ثلاث، تملك كل منها القنبلة

الذرية وفي داخل كل دولة يسود نوع من السلطوية او ما أسماه هو نقلا عن بوركينو «الجماعة الاوليغاركية اي حكم القلة Collective Oligarchy». طبعاً هذا هو عالم رواية ١٩٨٤ ، ولكن من المهم ان نوضح ان اورويل بنى تصوره للمستقبل، في تلك السنوات الحرجة، وفي ضوء السياسات التي تركز الى القوة، واستمرار الاقتصاد الحربي والنزعة السلطوية- وهي تيارات منتشرة في كل مكان وخلف كل واجهة سياسية تقريباً- من ثم قام بمطابقة ذلك مباشرة بالنظام السوفياتي. لقد ظل اورويل اشتراكياً ديمقراطياً بذل معظم جهده السياسي في سبيل الدفاع عن الحرية المدنية على امتداد جبهة عريضة، بيد أنه في رؤياه العميقة للمستقبل حقق الكابوس ذا الطبيعة العامة، ومن ثم تحت تأثير التيارات السياسية لعصره قام بتضييق ابعاد هذا الكابوس بحيث اصبح هو نفسه احد العناصر المكونة لهذه الرؤية.

الفصل السادس

اسقاطات

ابتدأ اورويل يكتب «مزرعة الحيوان» في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢، وانتهى من كتابتها بعد ذلك بثلاثة أشهر. ولقد رفضها العديد من الناشرين لأسباب سياسية، ومن المفارقة أن يتأخر ظهور هذه الرواية مدة سنة ونصف السنة، فقد كتبت ضد مزاج الرأي العام السائد حينذاك لتظهر في وقت تغير فيه الوضع السياسي وأصبح من الممكن استخدامها في الحرب الباردة.

بقي الكتاب لفترة طويلة من الزمن ملازماً هذا المضمون السياسي الذي ينطوي على المفارقة. ووصف اليساريون اورويل بأنه جرى «يزعق بين أيدي الناشرين الرأسماليين» (المجلة الفصلية الماركسية كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦). وبالتأكيد لم يكن هذا حقيقة ما جرى لاورويل في تلك الفترة (إنني أواجه صعوبة كبيرة في إيجاد ناشر لهذا الكتاب، مع أنني لا أجد صعوبة عادة في نشر المواد التي اكتبها). ولا شك أن الكتاب قد استغله أناس لا يتعاطف معهم اورويل، وعندما أتبعه برواية ١٩٨٤ استغلت بدرجة كبيرة، حيث جرى تصوير اورويل بصورة اعتبرها هو مضللة، في الاقل. وبقيت القصة الكاملة لرفض روايته «مزرعة الحيوان» وترويجها تزخر بمفارقات من النوع الذي يهتم به اورويل مباشرة بما فيها الحادثة المتعلقة بالطبعة الخاصة باللاجئين الاوكرانيين، والتي صودر نصفها تقريبا بواسطة السلطات الأمريكية في المانيا وجرى تسليمها للموظفين السوفيات (مجموعة الاعمال والرسائل ج ٤ ص ٣٧٩).

تعتبر «مزرعة الحيوان» عملاً فريداً من أعمال اورويل في ظل غياب شخصيته. ومن هنا تظهر أهمية هذه الرواية التي احتوت على اسقاط

مستقبلي لرؤيته للعامل اكثر من أي عمل آخر كتبه . مع ذلك فإن شروط هذا الاسقاط كانت تحد من وعي الشخصية التي ابتدعها اورويل من أجل التعامل معه . فهو عمل تبسيطي بالمعنى الجيد، والرديء ايضاً، للكلمة .

ووصف اورويل ذات مرة (الرواية) بأنها سخرية لاذعة (مجموعة الاعمال والرسائل ج ٣ ، ص ٩٥) . ولكنها كانت دوما اكثر خطورة من ذلك ، ففي مقدمة الطبعة الاوكرانية نقراً:

ما من شيء ساهم في افساد المعنى الأصلي لمذهب الاشتراكية أكثر من الاعتقاد بأن روسيا بلد اشتراكي ، وان كل فعل يصدر عن القادة السوفيات ينبغي تبريره بل محاكاته . لهذا السبب اصبحت مقتنعا في السنوات العشر الماضية بتدمير الاسطورة السوفياتية من خلال كتابة قصة يسهل على الجميع فهمها ، كما تسهل ترجمتها الى لغات عديدة (مجموعة الأعمال والرسائل ج ٣ ، ص ٤٠٥) .

ان الدقة في تحديد هدفه السياسي والمضي في البحث عن البساطة والشمول يحمل في طياته بعض التناقضات الحتمية . ولربما كان الأهم من ذلك تشديد اورويل على تحطيم اسطورة المجتمع السوفياتي والتي كانت حسب اعتقاده شائعة بين اوساط اليسار في الغرب . ولربما كان هذا التوجه في مرحلة ما ، يفوق شيئاً آخر ، اذ انه يواصل في نفس المقدمة قوله :

«حتى لو امتلكت القوة فإنني لست راغباً بالتدخل في الشؤون الداخلية للسوفيات . ولن أقوم بإدانة ستالين وصحبه لمجرد أنهم استخدموا اساليب بربرية وغير ديمقراطية ، فلربما كانوا غير قادرين مهما كانت نواياهم حسنة وضمن الظروف القائمة حينذاك على التصرف على نحو اخر (مجموعة الاعمال والرسائل ج ٣ ، ص ٤) .

لا يوجد في الرواية ذاتها شيء من هذا القبيل ، لا بل إنه لم يكن بوسعها ان تظهر على هذا النحو ، لا سيما اذا اعتبرنا انها تشدد على اوضاع حقيقية وظروف تاريخية معينة في رواية نظر اليها وكتبت على

أساس أنها خرافة عامة، أصبح من الممكن دوماً، إن لم يكن مرجحاً، ليس تحطيم الاسطورة الاشتراكية السوفياتية فحسب، بل اسطورة الثورة أيضاً. وبالتأكيد جري تفسير مزرعة الحيوان على هذا النحو، واعتبر اورويل «دليلاً» ضد الجيل الثوري الجديد. إن احياء الحركة الاشتراكية، وهو ما أعرب عن رغبته بحدوثه، يقابله الشبح الحزين الاخير. ربما كان هذا أمراً حتمياً نظراً للاستغلال الذي تعرض له الأدب من قبل سياسة الحرب الباردة. ولكن ثمة شيئاً أعمق لا بد من مواجهته: الوعي الحقيقي في الخرافة ذاتها. فاذا ما تغاضينا عن الاستغلال الرخيص وما يقابله من رفض مماثل، فإن الخرافة في «مزرعة الحيوان» تقدم دلائل ايجابية وسلبية ذات طابع مشرق ومستمر.

استوحى اورويل بذور الخرافة من رؤية «صبي صغير في العاشرة من عمره، يقود عربة كبيرة تجرها أحصنة في ممر ضيق، وكان الصبي يوسع الأحصنة ضرباً بالسوط كلما حاولت أن تحيد. . . ووردت في ذهني خاطرة: لو أن هذه الحيوانات اصبحت تعي قوتها لما استطعنا السيطرة عليها. وبنفس الطريقة التي يستغل الانسان الحيوان يقوم الأغنياء باستغلال البروليتاريا» (مجموعة الاعمال والرسائل ج ٣ ص ٤٠٦).

هذه الرؤية بالطبع هي من نوع آخر يختلف عن الاسقاط النهائي، فالسرعة التي ينتقل بها في عقد مقارنته بين الحيوانات والبروليتاريا هي من الأمور المثيرة- فهي تعكس ترسبات في تفكيره باعتبار الفقراء كالحيوانات: قوية ولكنها غبية، وبالطبع ينظر الى الرجال، هنا وفي الرواية كمستغلين (بكر العين). أما البلاشفة الخنازير، في القصة، فاسوأ ما فيهم أنه يصعب تمييزهم عن السكرارى والجشعين وقساة القلوب، وأنبال الحيوانات هو بوكسر حصان الشغل.

وفي هذا المجال، يجدر بنا أن نتأمل في ملاحظات اورويل حول «حيوانات» جواناتان سويغت الشبيهة بالانسان Houyhnhnms and

Yahoos يجيء تحليله سريعاً في اظهار قرف سويفت من بني الانسان وتفضيله للحيوان ولكنه يتابع قائلاً: بأن الحيوان المسمى Houyhnhnms ، والذي لا يجده جذاباً، هو اقرب في مظهره للرجال من الـ Yahoo (*) المنحطة قصداً. وهنا مشاعر غاية في التعقيد. إن الأحصنة القوية، المعروفة بغباوتها، «في مزرعة الحيوان» ينظر اليها بأحترام وشفقة بالغين، أما الرجال الخنازير فهم اذكاء، حذرون، جشعون وقساءة القلوب، إن هذا بالتأكيد اكثر من مجرد مقارنة عملياتية، إنها استجابة جوهرية، بل حتى طبيعية.

العنصر الثاني في المقارنة هو الاستغلال. إذا اصبحوا «هم» يعون قوتهم، فلن نقوى «نحن» عليهم. إن اورويل يفكر هنا بشيء يتجاوز حادثة سياسية ما، بمجموعة من العلاقات تتعلق باستخدام الانسان للحيوان للطبيعة. والنقطة التي يتطرق اليها تعتبر مدهشة بأي مقياس.

«انتقلت الى تحليل نظرية ماركس من وجهة نظر الحيوانات، كان من الواضح انهم ينظرون الى مفهوم الصراع الطبقي في المجتمع الانساني بأنه وهم، والسبب في ذلك هو أنه كلما اتفق على ضرورة استغلال الحيوانات يقف جميع البشر متحدين ضدهم: فالصراع الحقيقي هو بين الحيوانات والبشر. عند الاختلاف الذي تحدته هذه النقطة يصعب الاسهاب في القصة.

ان الصراع الحقيقي هو بين الحيوانات والبشر: هل يعتبر هذا الموضوع الحقيقي لكتاب «مزرعة الحيوان»؟ تصعب الاجابة بالايجاب دون أن تنهاوى معظم الأشياء التي تطفو على سطح القصة.

الذي يحدث حقيقة، في اعتقادي، هو أنه لم يتم الاحتفاظ بالتطابق العميق جدا بين الحيوانات العاملة والمستغلة (بفتح العين) والفقراء العاملين والمستغلين أيضاً، وهذا يحدث دون ان يلاحظه أحد تقريبا، كأساس للكشف عن ذلك «الوهم الخالص... عن الصراع الطبقي بين البشر». والآن فان البشر سواء كانوا رأسماليين أم ثوريين، الطبقة

(*) Yahoo واحد من جنس البهائم له شكل الإنسان وجميع رذائله (في كتاب رحلات جليفر لمؤلفه جونتانان سويفت).

الحاكمة القديمة أم الجديدة، وكائنًا ما تكون خلافاتهم وصراعاتهم، فانه يمكن الاعتماد عليهم في المضي في استغلال المخلوقات التي يعيشون من وراء ظهرها وحتى الاتحاد ضدها، كما هو في نهاية القصة. إن اورويل هنا يتجاوز في معارضته التجربة السوفياتية والستالينية وهنا يجري انكار وعي العمال وامكانية حدوث ثورة حقيقية بطريقة عميقة.

إنني أعتبر هذا النكران لا انسانيًا، ولكن جزءاً من مفارقة اورويل انه استطاع أن يبعث من هذا الاساس اليأس انسانية مباشرة وعملية تمثلت في رفاقية المعاناة، التي يشعر بها بعمق، وأيضاً، وبدرجة أنشط، ضرب من الشكوكية النقدية تجاه المستغلين (بفتح الغين) ونوع غير متوقع من الوعي الذي يحكي القصة. سبق وأن قلت إن «مزرعة الحيوان» تعتبر عملاً فريداً من بين كتب اورويل بسبب أنها لا تحتوي على شخصية اورويل، ذلك الرجل المنعزل الذي يتعد عن قواعد المجتمع، ولكنه بعد ذلك يلقي الهزيمة ويتم امتصاصه من جديد. وبالاحرى فإنه يجري اسقاط الشخصية بعمل جماعي: وهذا ما يحدث للحيوانات التي تحرر نفسها ومن ثم يعاد استعبادها من خلال استعمال العنف والحيلة معها.

ان للاسقاط الجماعي نتيجة أبعد، فالذي يحدث هو تجربة عامة، بكل مراراتها، وليس تجربة منعزلة. إن أنين الاعصاب المهترئة، وخيبة المسار الوحيد، يستبدلان باتصال نشيط هو اسلوب السرد النقدي. إن الثقة التي تنطوي على المفارقة، والذكاء الواثق، النشاط والمرح، يظهران بالفعل من خلال النفاذ الى تجربة الهزيمة وكشفها. استطاع اورويل من خلال هذا الاسلوب بالذات أن يفصح عن نثر غاية في الجزالة والصفاء. وليس بالأمر الغريب أن تتحول جملة «جميع الحيوانات متساوية، ولكن بعضها متساو اكثر من البعض الآخر» الى لغة عادية تحمل معنى أقوى بكثير من المقطوعة الهجائية البسيطة عن الخيانة الثورية. إنها إحدى العبارات الدائمة حول الفجوة بين الادعاء

والحقيقة، المجاهرة والممارسة، على نطاق واسع جداً.

إن هذا الذكاء الوقاد والمحزر يقوم في مواقع كثيرة من «مزرعة الحيوان» بتحويل الرؤية الأليمة الى نقد عملي وحافز، ويقوم هذا الوعي النابض بالتوصيل والاختبار من وراء تفاصيل المقارنة الموضوعية، وبصورة تبعث على المفارقة ومن وراء اليأس الاساسي. وحتى في آخر مشهد حزين عندما تجول الحيوانات المستثناة بأنظارها بين الرجال والخنازير فلا تستطيع التمييز بينهما ثمة شعور يتجاوز الوهم أو اليأس، فهم يكتشفون بأنهم يشبهون بعضهم البعض لانهم يتصرفون بصورة مماثلة، بغض النظر عن الأسماء والرسميات، وهذه اللحظة من لحظات اكتساب الوعي، لحجمها الصغير وبعباراتها المحدودة تفجر طاقة راديكالية تتجاوز المناسبة التي كتبت فيها وتكتسب نوعاً خاصاً من الديمومة.

إن رواية ١٩٨٤ هي بالبديهة من نوع مختلف جداً، فمنحنى الشاعر المنعزلة، والكشف الممزق والمنهوك، قد عاد بصورة حاسمة. مع ذلك فما تزال هناك عناصر عديدة من الرواية تنتمي الى وعي أكثر تحمراً. إن الملحق Appendix Newspeak «قواعد الكلام الجديدة»، لم يدخل بأكمله في العالم الخيالي، بيد أن استيعابه الأساسي كعلاقة بين الاشكال اللغوية والاجتماعية قوي جداً: إن الوظائف الخاصة لبعض كلمات هذه القواعد، ومن ضمنها «التفكير القديم»، Oldthink لم يقصد منها التعبير عن معنى بالقدر الذي قصد منها تحطيم ذلك المعنى (١٩٨٤، ص ٣١١)، وبعض كلمات اللغة الجديدة - prolefeed speed wise sexcrime غذاء البروليتاريا، على طريقة السرعة، جريمة جنسية - أصبحت بعد مرور عقد، ذات وقع مألوف ومشؤم. كذلك بالنسبة لاسماء الدوائر الحكومية الأخرى في Newspeak مثل وزارة الحقيقة Minitrue، وزارة السلام، Minipax ووزارة الحب Miniluv، ووزارة الوفرة Miniplenty.

إنني أتوقع أن يعجب اصحاب حقوق كتاب Minittech

باورويل، بيد أنهم لو قرأوه فإنهم لن يفهموه بالتأكيد. إن معظم رطانة التحديث - Modernization - ذلك البديل غير الطبيعي للديمقراطية الاجتماعية التي تبنتها حكومات العمال البريطانية وقامت بنشرها في الستينات، تندرج تحت اللغة الجديدة. كذلك فإن بعض الأساليب المستخدمة في إدارة الأخبار لها وقع مماثل ومألوف. ان دائرة القصص الخيالية، كمؤسسة، بالكاد تكون موجودة الآن. وعندما يقوم وينستون سميث بوصف لأحد افلام المهرجانات النموذجية- القت الطوافة بقنبلة تزن ٢٠ كلغم فظهر ضوء رهيب، وتحطم القارب بحجم ثقب الكبريت، ثم تلا ذلك لقطة رائعة لذراع «طفل تعلق الى فوق في الهواء»، ولا بد أن طوافة تحمل كاميرا في مقدمتها هي التي التقطت الصورة ١٩٨٤ ص ١٢- يبدو سميث وكأنه قد شاهد افلاما عن فيتنام: ووحده وزن القنبلة جرى سوء تقديره بطريقة عبثية.

كذلك فقد شق فيلم «الأخ الأكبر يراقبك» وبشكل مختلف طريقه نحو اللغة العادية، واصبح شعاراً للمقاومة المشككة. لقد نجح اورويل بهذه الطرق البسيطة والقوية في توضيح عناصر معينة بارزة في الأزمة الاجتماعية الطويلة التي نعاني منها. وهو يبقى، بعداوتة الصلبة لكل انواع جرائم الفكر thoughtcrime وازدواجية التفكير Dou-blethink حميها وحيويا.

ان نظرتة للسياسات المرتبطة بالقوة تعتبر نظرة محكمة ومقنعة. وحصل تبادل المواقع بين «الحلفاء» و «الاعداء» الرسميين بصورة علنية تقريبا، ابان الفترة التي مارس فيها الكتابة. وكانت فكرته عن العالم المنقسم الى كتل ثلاث المحيطات، اوراسيا، وشقي آسيا حيث تكون كتلتان في حرب دائمة مع الكتلة الثالثة- فكرة سديدة. وثمة اوقات يعتقد فيها المرء «أن ما كان يسمى بانجلترا أو بريطانيا» اصبح ببساطة المهبط رقم ١.

وهنا يصبح من الضروري أن نسأل لماذا تحدث أشياء أخرى في اسقاطه بصورة خاطئة بعد أن أصبحت هذه العناصر مفهومة،

بخطواتها العامة على الأقل. إن نموذج اورويل المقتبس عن المجتمع الشيوعي السوفيياتي المنضبط والعسكري هو أمر ذو دلالة، وهو يتضمن عناصر تفصيلية تتعلق بماضي المجتمع والصراع بين ستالين وتروتسكي (الأخ الأكبر وغولد ستالين). إن ايديولوجية المهبط رقم ١ هي الديمقراطية الانكليزية English Socialism او IngsoC .

وعندما راج الكتاب في الولايات المتحدة اضطر لأن ينشر كلاما ينكر فيه ذلك وينسبه لحكومة العمال التي تولت الحكم بعد الحرب . ان روايتي الأخيرة لا تهدف الى مهاجمة الاشتراكية أو حزب العمال البريطاني (الذي ادعاه) بقدر ما تهدف إلى إظهار الانحرافات التي يمكن أن يتعرض لها الاقتصاد الممركز والتي ظهرت جزئياً في الشيوعية والفاشية (مجموعة الاعمال والرسائل ج ٤، ص ٥٠٢).

اذن يمكن القول ان الاشتراكية الانجليزية عند اورويل لا تمثل الاشتراكية الانجليزية الحقيقية . مثلما ان Minitrue لا تمثل وزارة الحق، بيد أن التطابق حصل فعلاً وكانت آثاره شديدة الضرر، ليس بما تقوله حول المجتمع السوفيياتي- فموقف اورويل واضح وثابت في هذا الصدد- وانما بما لمح عنه بشكل عام حول الاشتراكية والاقتصاد الممركز . وهذا يتصل باكثر الاخطاء وضوحاً في اسقاط اورويل، وهو أن اقتصاد الحرب الدائم والمضبوط بال ولا يسد الحاجة . ان العلاقات البنوية التي يمكننا أن نراها الآن، بين الاقتصاد الحربي وبين تحقيق الوفرة الاستهلاكية، تتجاوز التطور التاريخي الذي عجز اورويل عن التنبؤ به .

انها تشير لبعض الحقائق الاجتماعية التي اصبحت هاجساً بالايديولوجية، والتي لم يضعها نصب عينيه .

ثمة أسباب وجيهة تبرر السبب في عدم تنبؤ اورويل برأسالية عسكرية تنعم بالوفرة، أو بعالم مكون من شركات دولية تعمل بالداخل والخارج، تماماً كالحزب الذي توقع قيامه . ولكن كانت لديه اوجه الاسباب- من خلال تجربته المؤثرة- لمعرفة أن البوليس

السياسي، مثلاً، لم يكن بدعة اشتراكية او شيوعية، كذلك الأمر بالنسبة للدعاية او الرقابة او العملاء المحرضين. إن الصاقه جميع الاشكال الحديثة للقمع والرقابة التسلطية بنزعة سياسية بمفردها لم تجعله يسيء تقديمها فحسب، إنما قطع الطريق أمام تحليل كان بوسعه أن يكشف هذه القوى اللانسانية والمدمرة ايضاً ظهرت، كائنة ما تكون اسماؤها وايدولوجيتها التي تتقنع بها. بالتأكيد فانه من قبيل ازدواجية الفكر الآن ان نظن ان المصدر الوحيد لهذه العناصر هو شكل من الاشتراكية مثلها انها جريمة فكرية تستطيع ان تمنعنا من رؤية عبارة دعاوية مثل «العالم الحر» كمثل واضح جدا للغة الجديدة. إن عملية الاسقاط الاورويلية عن عالم مميز وواضح قد سببت لنا الارتباك في معرفة بنياته، وايدولوجياته وامكانية مقاومته.

وتكتسب النقطة المتعلقة بالمقاومة اهمية ابعد عند تذكرنا لعمل اورويل المبكر، ولا شك انه ثبت زيف اسقاطه، حتى على اكثر المستويات عمومية، وبقي العديد من النساء والرجال يحتفظون بشجاعتهم بالرغم من القيود القاسية والظروف الشاذة وهبوا في محاولة لتحطيم النظام أو تغييره.

وبامكاننا ان نسجل تجارب برلين، بودابست، الجزائر، عدن، وواتزفيل Wattsville في هوامش سلبيات اورويل. وكان بوسعه شخصياً أن يكتب عن سانت بطرسبرغ، كرونستادت، برشلونة، ووارسو. ومن الصحيح ان نعترف بأن معظم الانتفاضات منيت بالهزيمة بيد ان اورويل يذهب الى ابعد من ذلك ليقطع الامل. انه يصور الشعور باللامبالاة عند جميع المضطهدين (بفتح الهاء) وهو شعور مختلف ان كان ثمة شعور اصلاً. ان ٨٥٪ من السكان هم من الجماهير اللامبالية، وان اطلاق كلمة (بروليتاريا) عليهم يتجاوز الكلمات الحزبية الطنانة. . . ان الحزب ينظر اليهم بانهم «وضيعون بالطبيعة. . . مثل الحيوانات» ولكن كيف ينظر اليهم اورويل؟ كحشد صاخب وغبي يطوف بالشوارع، يحتسون الخمره ويقامرون وهم مثل

«النملة التي بمقدورها ان ترى الاشياء الصغيرة لا الاشياء الكبيرة» و
«أناس لم يتعلموا التفكير مطلقا». ان عالم الشغيلة ، قبل ١٩١٤ ، كما
كان ينظر اليه تلميذ في المدرسة الاعدادية: «بالنسبة لي في صباي ،
وبالنسبة لمعظم الاطفال الذين هم من عائلات مشابهة لعائلتي فان
الناس العاميين ، كانوا يبدوون لنا دون البشر تقريبا» (الطريق الى
رصيف ميناء ويغان ١٢٧) . ولكن في تجربة اخرى فان عالم هؤلاء
«دون البشر تقريبا» كان ينظر اليهم ، في لحظات ارتداده عن طبقته ،
كأمل المستقبل ، ومخلصين ينظر اليهم «بتبجيل صوفي» و «أناس لم
يتعلموا التفكير مطلقا ولكنهم كانوا ينجنون في قلوبهم وبطونهم
وعضلاتهم القوة التي ستقلب العالم يوما» ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٦ . «في
يوم ما سيخرج من بين هذه الاسود الجبارة جنس من المخلوقات
الواعية» ١٩٨٤ ، ص ٢٢٧ .

ان هذه الرومانسية الثورية الساكنة مهينة كالملاحظة الأصلية . انها
انتفاضة الحيوانات ، كما ورد في الخرافة . «وهي تبدو معقولة لدى
كتابتها ، اما عندما نظرت الى المارة على الرصيف فانها اصبحت فعل
ايمان». ومهما كانت المرارة ينبغي القول ان طغيان ١٩٨٤ اذا ما ظهر
يوما ، فان احد العناصر الرئيسية المكونة لولادته الايديولوجية سوف
تكون هذه الطريقة في النظر الى «الجمهير» و «البشرالذين يتجاوزونك
على الارصفة» و الى حثالة القوم الذين يشكلون ٨٥٪ من الجمهور.
ولن يأبه احد ممن ينتمي الى تلك الأغلبية أو ينظر اليها كبشر فيما لو
ان الشخص الآخر ينظر اليها كحيوانات ينبغي اخضاعها او
كمخلوقات عديمة التفكير سيخرج من صفورها اسود جبارة ، في
المستقبل ، ان الانسانية الناقصة ستبدو واضحة جدا بالنسبة للملاحظ
المؤمن نفسه .

هذه هي الطريقة التي تسير فيها الأمور سياسيا . لقد رأى اورويل
بوضوح عالم القوى السياسية ، اما «مئات الملايين من الحمالين
المبخوسى الاجر الذين يعملون بكد» ويسكنون «في منطقة مربعة بين

طنجة، وبرازافيل، وداروين وهونغ كونغ» فهم ايضا يتسمون بالسلبية (١٩٨٤ ص ١٩٢) «ولولا انهم لم يكونوا موجودين، فان بنية المجتمع العالمي، وطريقة محافظتها على ذاتها، لن تكون مختلفة بالضرورة» (١٩٨٤/ص ١٩٣). انها سوء تقديم مروع ليس بحق اولئك الناس فحسب، وانما لبنيات الاستغلال التي يحافظ من خلالها على الدول الحاضرة Metropolitan States وقد أدى النظر الى الصراع وكأنه يجري بين فئة قليلة لقيادة الجماهير، غير المكترثة، الى جعل اورويل يخلق ظروف الهزيمة والحياة.

يمضي اورويل في استخفافه بالأمر، فقد شاهد اناسا يعودون الى اسبانيا تحت ظروف التهديد بالاعتقال بسبب ولاءاتهم الخاصة والعامية، وشاهد مئات من حالات الاعتراف القسري. لقد بقيت زوجته في برشلونة، وكانت ترقد في فراشها بينما كان البوليس يقوم بتفتيش حجرتها، وذلك كي تبقى بقربه ولمساعدته، ولكن مع ذلك يكتب اورويل:

«تحت ظلال شجرة الكستناء الوارفة

تخلت عنك وتخلت عني».

إن بوسعه ان يصف ذلك بدقة على انه «ملاحظة غريبة، مدوية، منكرة، وساخرة... ملاحظة حقيرة» (١٩٨٤/ص ٨١) لكنها تبقى مع ذلك من صنعه. ان الجلجلة الساخرة المنبعثة عن سباق الفئران، والتي سمعنا مثلها في مكاتب وحفلات الوكالات تقود رأساً الى كابوس الفأر في غرفة ١٠١، وبالطبع فإن الناس ينهارون امام التعذيب ولكن ليس جميعهم، وفي ظل عالم قذر وظالم ثمة اشكال اعمق للمقاومة الشخصية كما اتسع لاورويل الاسباب لان يعرف ذلك- من خلال العلاقة المؤقتة بين وينستون وجوليا.

وتعتبر حملة الحزب ضد الجنس من أغرب العناصر المكونة لاسقاطاته (اما كونها تبدو وكأنها اخذت من مسرحية زامباتين «نحن» فهي مسألة واردة ولكنها ثانوية). ان هدف الحملة هو منع الولاءات

غير المكبوحه واكثر من ذلك «ازالة اللذة بأكملها من الفعل الجنسي». ومثل هذه الحملات كان موجوداً من قبل، مع أنه في بعض النظم المستغلة (بكسر الغين) كان يمكن تحقيق الغرض الاول عن طريق نوع من التجربة العكسية للغرض الثاني: فالحصول على اللذة بدون الولاء من الاشياء المرغوبة والتي لها وجود قائم. ومن الغرابة ان اورويل استطاع معارضة القيود والتحفظات عن طريق الاكتفاء بالعلاقة الغرضية بين ونستون وجوليا فحسب، وهذا يبدأ كرحلة الجماع في رواية «دع الدريقة مرفرفة»، ولكنها بعد ذلك تتعد في الحال عن أي تجربة شخصية متبادلة الإحساس.

خفق قلبه، لقد فعل ذلك عدة مرات وكان يتمنى لو كانت مئات المرات- بل آلافها. وكانت اية ايماءة بالفساد تملأ نفسه دوماً بالآمال العريضة (١٩٨٤/ص١٢٩).

لم يجر تقديم الحب العادي والمستمر بين الرجال والنساء، في الصداقة والزواج، كشيء معاكس، على الرغم من كونه جزءاً من ذلك العالم غير المرح وانما الذي قدم الفساد واللامبالاة المقصودة- مجرد الرغبة غير المميزة، كان زواج ونستون بمثابة روتين بارد وبائس، فقط بشيء من الفساد يمكن للذة أن تحصل.

ولربما تكون هذه من اعمق الاخفاقات في رواية «١٩٨٤» فجميع المنابع العادية للحياة جرى استبعادها واهمالها كالبروليتاريا، اذ يتحد الوهم الوحيد حول «الاسود الجبارة» في المستقبل مع التخبط الوحيد للمراهق الذي يشغل عليه الشعور بالذنب بسبب ممارسة الجنس لدرجة يصبح فيها ارتكاب الفساد ضروريا للحصول على اللذة. إن شخصية وينستون سميث ليست شخصية الرجل على الاطلاق- سواء في وعيها، في علاقاتها، في قدرتها على الحب والحماية والجلد والاخلاص. إنه يقع في اسفل السلم- الأقل خبرة وذكاء واخلصا وشجاعة من صانعه- الذي يتم من خلاله.

ان مسألة الرؤية المستقبلية في رواية «١٩٨٤» ليست مسألة مجردة

تتعلق بالتحول من تفاعلية ميرسير او ويلز الى تشاؤمية هكسلي او اورويل. ان التفاعل او التشاؤم المجرد هما بعيدان بالدرجة نفسها عن النقطة المقصودة، وثمة قاعدة منطقية للنظر الى المستقبل بشكل تعميمي يكون اما مظلماً وإما مشرقاً. إن ما هو اكثر اهمية من المزاج العام المفروض هو مقدار التجربة التي تستقي منها الاحكام. اما الوعود والمحاذير التي تحد من التجربة فهي ذات اهمية محدودة. وهكذا فان السؤال حول «١٩٨٤» كما هو بالنسبة لروايات اورويل السابقة، هو لماذا قام اورويل بخلق حالات واشخاص هي بالمقارنة مع ملاحظاته الخاصة المكتوبة تبدو احادية الجانب وتصميمية. وهذه اساساً مسألة سياسية وانما مسألة تجربة اكثر امتداداً بالنسبة لذات المجتمع.

ولقد تحركت تلك المشاعر الأضعف والأقل وعياً تحت قوة وشعور شخصيته الناجحة الوحيدة «اورويل»، ذلك الرجل الحي جسمانياً وعقلياً الواعي والقاسي والمثابر- في ارض حاملة لا تميز بها. ان الهمية المركزية لا تكمن في التناقضات الشخصية وانما في البنيات الاعمق للمجتمع وأدابه. وعندما قام اورويل بصنع اسقاطاته فقد عبر عن أشياء تتجاوز ذاته.

الفصل السابع

خطوات مستمرة

اصبح اورويل بعد وفاته بقليل شخصية رمزية بالفعل، فقد كان من اولئك الرجال الذين تطابقت حياتهم وكتاباتهم عبر الممارسة وقدموا نموذجاً يحتذيه الآخرون في اسلوب حياتهم وفي كتاباتهم. ومن السهل ان يقال إن ذلك يرجع لكونه انساناً واهماً، نظيفاً، بسيطاً، ومعادياً للشيوعية. وبالطبع فان ترويج هذه الصورة قد حصل. بيد ان معظم الناس الذين قرأوه لم يلتفتوا الى ذلك، وانه لامر ذو دلالة ان لا يقتصر عدد الذين كانوا يحترمون له الاحترام على الناس الملتزمين بالتغيير الجذري الاجتماعي والذين كانوا يستخدمون اوهام اورويل كغطاء لهم. فقد كان بوسع العديد من هؤلاء، وآخرين غيرهم ممن لم يطلب منهم حتى معايشة هذه العملية، ان يأخذوا اوهام اورويل صافية، بيد أنه يوجد عدد مماثل تماماً ممن شرعوا بالتزامهم السياسي معه على آرائه حول الستالينية والامبريالية والمؤسسة الانكليزية، والذين صنعوا سياسات اشتراكية جديدة انطلاقاً من شعوره بالفشل.

ثمة خط واضح، بالتأكيد، برز من خلال رواية «في جوف الحوت» ورواية «١٩٨٤»، يسود فيه مزاج شمال اطلسي وتتجسد فيه جميع المعتقدات الانسانية والبناءة، وخاصة الايمان بالتغيير الجذري الذي يمكن ادراكه سلفاً اما كاسقاط لنوع من عدم التكيف الشخصي، واما كمثالية عديمة التجربة مراهقة وساذجة، والتي بالرغم من ارادة ورؤية اصحابها فانها تعود عملياً الى دكتاتورية يحضر لها دوماً عناصر اكثر فساداً من خلف واجهة تبدو بريئة ظاهرياً. ولا تزال هذه الشروحات والتحذيرات تقدم بصورة واثقة للحركات

الطلابية في السنوات الاخيرة، مقرونة باسم اورويل احياناً. مرة اخرى ثمة خط واضح له علاقة معينة بذلك بالتأكيد، يفصل بين تفكير اورويل الاجتماعي في «الاسد ووحيد القرن» ومقالات مشابهة للتحريفيين في صفوف حزب العمال البريطاني في مرحلة الخمسينات والستينات. ان تعريفهم للاشتراكية على انها السعي نحو تحقيق المساواة له وقع تقليدي، وانما ذو دلالة اكثر ايجازا ومعاصرة، فما كان يفهم على انه اقتصاد اشتراكي جرى «كما يجادلون» ابطاله عن طريق نمو مجتمع صناعي وافر.

وبرزت لا طبقية جديدة من بين صفوفه سوف يتم تثبيتها من خلال خطوات الاصلاح العملية الاجتماعية. وحسب تعبير اورويل فان «الافراد غير المناسبين في الاسرة» والعناصر «الاقطاعية» او «الارستقراطية» سوف تستبدل برجال جدد و «بريطانيا الجديدة» وعندئذ تصبح الامة اكثر مدنية واكثر انسانية واكثر ازدهارا بشكل عام وعادل تماما كما كان ينادي اورويل منذ ان كتب «الطريق الى رصيف ميناء ويغان». وهذا يرتبط بالمشاعر التي يكنها الراديكاليون الذين لم يكونوا متورطين مباشرة بالنقاشات السياسية التي كانت تدور حول اعتبار اورويل، على عكس الكتاب الاشتراكيين الاخرين، قد فهم الحياة الانكليزية: وتيرتها وتساعجها ومقتها للتجريدات ولأبي نظرية تدعو للتطرف. انها نوع من الحياة معقول ومتواضع وشريف، واي تغيير متسرع او كبير يسبب لها الاهتزاز او يعرضها للخطر، ولكنها لا تزال اساس الاشتداد المتواصل للعيش الانساني والمسؤول.

بوسعنا ان نسمي تلك الآراء والاطوار ميراث اورويل، ولكن عندئذ تبرز الاهمية لنظرة الاجيال نحوه والتي كان ملؤها الاحترام، وهي الاجيال التي اعتبرت السويس والمجر والقنبلة الذرية مؤشرات لتجديد العمل السياسي، وهو جيل لم يؤمن بالحركة الاشتراكية الجديدة فحسب، وانما بحركة تقوم على الاضطراب - اي على التظاهرات والعمل المباشر وعلى سياسة الشارع والمحليات. وقد

احترم هذا اليسار الجديد اورويل بصورة مباشرة لا سيما في السنوات المبكرة. وكان احتلال السويس تجربة واضحة على وجود الامبريالية البريطانية التي طالما هاجمها باستمرار.

وجاءت الثورة المجرية بمثابة انتفاضة شعبية اشتراكية ضد نوع من الشيوعية البيروقراطية والمتوسطة، لتثبت قوله السابق حول الستالينية وهي تشكل في الوقت نفسه تظاهرة للحركة الاصلية التي دفع عربون وفاتها في كاتالونيا. كان الخطر من القنبلة «التي إما ان نشجبها او انها تقوم بتدميرنا» لا يقتصر في نظره على كونها السلاح الذي سيدمر المدنية، وانما لانها تكون الظل الذي ينمو ويمتد من خلاله نوع جديد من اقتصاد الحرب التسلطي. ومن ثم يرتبط بتلك المواقع السياسية بشكل وثيق اورويل الذي كتب عن العمل والفقر والثقافة الشعبية واورويل الذي حاول ان يجيأ ويشعر مثل اغلبية الشعب الانجليزي، فكان مراسلا متفهماً ويكن الاحترام متجاوزاً بذلك حدود حضارة «المؤسسة»، وهذه العناصر البارزة في اليسار البريطاني الجديد هي ايضا ميزات اورويل الفعال.

ما نوع تلك الظاهرة اذن التي يظهر فيها الشخص نفسه والكاتب نفسه مثل تلك الميول المختلفة وتنشده وتحترمه جماعات متعادية؟ ومن السهل ان يبدأ خصام حول ميراث اورويل، بيد ان ذلك لن يكون مفيداً، فيكون بمثابة تمزيق للجسد او للمظهر الخارجي لشخص او لاسلوب يهدف الى تبجيل خلفائه المحسوبين، ولا يمكن اجراء اي تحليل مفيد في هذا الصدد، وقد حدث الكثير منه في كل شيء ابتداء بالحكايات وانتهاء بتقمص الشخصيات. ان عبارة «الاب عرف جورج اورويل» هي موال قديم وكاذب.

كذلك لن يجدي نفعا اجراء تحليل مختزل، وسوف يكون من السهل القول ان تلك الميول المختلفة يمكن تفسيرها باتباع التسلسل الزمني: ففي الثلاثينات اورويل الاشتراكي، وفي الاربعينات اورويل الرجعي، وبين الفترتين اورويل الراديكالي. بيد انني تفحصت كتاباته بدقة،

اخذا في الاعتبار هذا التفسير، وانني على يقين بانه لن ينفع. ان
الدليل على كل موقف من هذه المواقف يمكن استنتاجه من كل فترة
من تلك الفترات، وبالطبع بالرغم من وجود اختلافات في الاهمية.
هناك المعادي للامبريالية في بداية الثلاثينات، والثوري الاشتراكي في
نهاية الثلاثينات، وكاتب المقالات الراديكالية في نهاية الثلاثينات وفي
الاربعينات.

مع ذلك فاننا نجد خلال تلك الفترات نفسها انماطاً للهزيمة،
وشخصية الرجل الشريف المنعزل الذي تجاوز في رؤيته الكلام
الاشتراكي وتكاثر الاساطير حول انجلترا. او اننا نجد النبي المضلل
المتالم في الاربعينات الذي رأى في النجاح خدعة وفي الثورة هزيمة
للنفس، بيد ان هذا الرجل نفسه كاتب المقالات الراديكالي في مجلة
تريبيون Tribune الذي ينشط لا في الدفاع عن ضحايا الستالينية
فحسب، وانما ايضاً في الدفاع عن «الحركات المدنية للمواطنين ايا كانوا
في الامبراطورية البريطانية». وهو الى جانب ذلك، ناهيك عن شكوكه
وتحفظاته، رجل متهم بافشاء اسرار ذرية للاتحاد السوفياتي (مجموعة
الاعمال والرسائل، ج ٤، ص ١٩٧-٣٧٧). ان مرور اورويل بمراحل
متطورة هو امر واضح جداً، بيد انه عرف التناقضات نفسها في كل
فترة.

ان القيام بتحليل مختزل من خلال دراسة الكتابة قد يبدو من
جديد امراً معقولاً، ولكنه لن يجدي حقيقتاً. انني لاحظت ان معظم
الراديكاليين يفضلون مقالاته وكان مقالات «فن دونالد ماكجيل» او
«ديكنز» او «كيف يموت الفقير» او «رافلز والانسة بلانديش» هي
بطريقة ما اهم أعماله. انني معجب بهذه المقالات وبالعديد منها، بيد
انني لا اؤمن ان بالامكان عزلها عن عمله الآخر، وان تقييد اورويل
بتلك الاعمال يجعله يبدو اصغر بكثير مما هو في الحقيقة، ولناخذ
الروايات، ومنها «الارتفاع من اجل الهواء». لقد كان لهذه الروايات
اثر أكبر بكثير مما جرت ملاحظته بشكل عام، والواقع انه يمكن للمرء

ان يقول إنها خلقت اسلوب الرواية الانجليزية المنساق ضد البطل الذي ساد في الخمسينات، بالرغم من ان تلك الروايات كانت تقوم على مصادر متباعدة مثل ويلز وجويس وجينغ وسومرست موم، بيد أن النقطة هي ان جميع الميول المتناقضة موجودة في الروايات: الاسلوب العامي وتلمس الحياة العادية ولكن الى جانب ذلك ايضاً انماط الهزيمة، وكره النفس، وذلك السباب العام الذي يغطي الانهياك. اما في المجلات والتقارير فغالباً ما يوجد موقف اقوى واكثر ثباتاً، بيد أن بعض الالتباسات السياسية تظهر في كل شيء تقريباً باستثناء رواية «وفاء لكاتالونيا». ان عملية خلق اورويل - الملاحظ النزيه - هي اكثر نجاحاً من خلق الشخصيات الخيالية، بيد أنه يبقى علينا ان نفسر التناقضات في الوعي المركزي.

وبالتأكيد، فان التناقضات، وتعتبر من مفارقات اورويل، ينبغي ان ينظر اليها على اساس انها فوق كل اعتبار. فعوضاً عن تسطیح التناقضات عن طريق اختيار هذا الاتجاه او ذلك على انه «اورويل» الحقيقي او تفتيتها عن طريق فصل هذه الفترة او ذلك المذهب، ينبغي علينا القول ان المفارقات هي الشيء المهم في النهاية. ولن يكون اي تفسير مبسط لها منصفاً لرجل يمثل ذلك التعقيد (انه اكثر تعقيداً لانه يبدو على السطح بسيطاً جداً). اما بعض المفاهيم التي نحن بحاجة لها لاجراء اي تفسير كامل فقد لا تكون بمتناولنا بسبب الاشياء التي تجمع بيننا وبين اورويل وتشكل نوعاً معيناً من الضغط التاريخي، وتركيباً معيناً من الاستجابات، والاختفاقات على الاستجابة، بيد أنه يمكن اقتراح نقطتين.

الاولى: هي ان المدخل لاورويل كفرد هو مشكلة هويته. ان ثقافته واكتسابه لوعي من نوع معين جعلت المفتاح لتطوره الكلي هو انه تحلى عن هويته او حاول التخلي عنها وانه قام بسلسلة كاملة من المحاولات لاجتياز هوية اجتماعية جديدة. وبسبب هذه العملية نجد ان لدينا كاتباً استطاع بنجاح ان يكون عدة اشياء قد لا تكون في مسار طبيعي: فهو

ضابط بوليس امبريالي، وهو ثوري من رجال الميليشيا، مشقف منسلخ عن طبقته وكاتب انجليزي من الطبقة الوسطى. تكمن قوة اعماله في قدرته على نكران الذات وفي انه كان منفتحاً بشكل نادر على كل نوع جديد من التجارب عندما كانت تحصل. لقد سرت فيه انواع مختلفة من الحياة تمر بقدر قليل من الرقابة في هويته القائمة، ويظهر الاسلوب الذي طوره- بساطة مدروسة (مع جعل المعني يختار الكلمة). انه كان يرحل دوماً بجدية، ولكن بخفة ايضاً. ان هذه الصفة يمكن ربطها برغبته في التخلي عن مواقفه وتجاربه المبكرة وبالكتابة عنها- او حول اخرين هم الان فيها، بازدياد او غضب وكأنهم كانوا شيئاً اخر منفصلاً تماماً. مع ذلك ففي فترة تتميز بالحركة بشكل استثنائي كان لذلك آثار ايجابية وعناصر سلبية ايضاً. كان بوسع اورويل ان يتصل عن قرب وبانواع مختلفة من الناس تماماً بسبب تحركه الدائم وتظاهره بادوار بشكل متلاحق وجدي. وعندما يكون في وضع ما يكون منهمكاً فيه لدرجة يبدو معها مقنعاً بشكل غير عادي، ويسهل نوع كتابته للقارئ أن الامر يحدث له شخصياً. ان غياب الجذور يعني ايضاً غياب العوائق.

يمكننا القول إن تلك هي «القدرة السلبية» للكاتب التي كتب عنها كيتس، بيد انه لا توجد حالة سيكولوجية دائمة تسيطر على «الكاتب». فتلك سيكولوجية اجتماعية لكاتب معين في عهد معين. حتى انها في زمن اورويل، تعتبر سيكولوجية طبقية. فالدوس هكسلي، واودن وغراهام جرين وكريستوفر ايسرهود يشاركون اورويل في عناصر هامة في هذا الصدد مثل الكتابة عن رحلاتهم، وهو ما يشكل تاريخهم الاجتماعي العلني: فهم يقومون بملاحظة الاخرين- في حياتهم، ولكن خصوصاً في معتقداتهم ومواقفهم وامزجتهم- من خلال نقائضهم المتغيرة. ليست بنية الشعور هذه ما عناه كيتس بعبارة «القدرة السلبية»، فهي اكثر جرحاً واصغر في الوقت نفسه، فوضوح وبروز الملاحظات المتلاحقة هي انجاز لا يشك

فيه، بيد انه يوجد ايضا برود مميز يتمثل في عدم القدرة على ادراك الحياة الكاملة لشخص اخر، ورؤيته من خلال حياة شخصية غير نابضة.

وبالنسبة لاورويل يتمثل هذا البرود في رواياته، حيث يكون حضور الشخص الاخر الذي يفوق حضور شخص غريب جرت مشاهدته او مقابلته في رحلة، امرا متوقعا، ولكنه لا يحدث. وتبدو العلاقات، وبصورة مميزة هزيلة، سريعة الزوال، مترددة، مضللة وحتى خائنة، وهذا امر ملفت للنظر الى حد كبير في اعمال رجل بمثل هذا العطاء. بيد أنه يجري تذكير المرء بوضوح بالغ بأن اورويل في هذا المقام انما كان يكتب حسب المزاج السائد في عصره. ان العلاقات في رواياته هي علاقات تتميز بها القصص الخيالية التي سادت في فترة ما- فترة تميزت بالتحتمية وحتى بالجمود العقائدي، في اعتبار العلاقات تتخذ الان ذلك الشكل - وهذا ما عينته عندما قلت ان تفسير المفارقة التي ينطوي عليها اورويل تتطلب منا مفاهيم تتجاوز الوعي والبنيات الاجتماعية التي سادت خلال الفترة التي عاش فيها، وكل ما يمكن ان نقترحه الان هو الخبرة بان هناك علاقات اخرى اكمل واكثر ديمومة وان هناك منافذ تكمن حتى خلف هذا الاغتراب.

مع ذلك، فقد حاول اورويل مرارا التأكيد على جعل نفسه مكشوفاً تماماً. وهذا ما يجعل منه شخصية تتجاوز السلبية في ذلك البنیان المسيطر على الشعور. لقد شارك فيها ولكنه حاول تجاوزها، وشعر بوضوح، كأني فرد في جيله، ان تلك الازمة كانت تاريخية، وليست حالة انسانية او حقيقة ميتافيزيقية غيبية. من هنا فان تحركه كان يحمل قصدا اجتماعيا واضحا.

لقد كان يكتب عن رحلاته، بيد ان الغريزة، وليس الحظ، هي التي جعلته يذهب الى جميع المناطق ويخوض التجارب الحساسة في عهده، فلم يكن مجرد زائر وانما كان رجلا يريد ويأمل في المشاركة، لقد خاض في حياته تجارب مباشرة عن الامبريالية والثورة والفقير. ولم

يكن صاحب نظرية ليفسرها ولا معتقدات بناءة متجدرة تتجاوز دوره الشخصي. ولكنه ذهب بعناد وثبات وشجاعة فائقة الى مراكز التاريخ التي تقرر مصيره للحصول على تجربتها وتقرير مصيرها بصورة مختلفة. كان هذا فوق كل شيء، ويمثل انجازه كفرد. فقد كان كاتباً يرمي الى كشف الحقائق فكان يذهب ويشارك بنفسه، وقد تعلم ان الكتابة اداة لهذا الكشف بالذات.

لكن بسبب ذلك فان هذا التاريخ يصبح اكثر من كونه تاريخاً فردياً. ومهما حسنت النوايا، فليس بوسع احد ممن عاصره ان يحصر ازمته بتطوره الذاتي. لقد كان ثمة عوامل شخصية مهمة في نجاحه واخفاقه، بيد أن بعض أعمق تناقضاته هي جزء من تاريخ عام، وليس بوسعنا ان نضع انفسنا فوقها وكأنها مشكلة مجردة دقيقة.

فالمفتاح الثاني للفهم يكمن في فهم طبيعة الديمقراطية الرأسمالية في فترة شهدت ثورات اشتراكية وبزوغ الامبريالية والفاشية ووقوع الحرب. ان رؤية الديمقراطية الرأسمالية في الثلاثينات في اطار الامبريالية السياسية والكساد الاقتصادي لم يكن امراً صعباً. ان اشتراكها في الجريمة مع الفاشية، او رغبتها في احسن الاحوال في التعاون مع الفاشية في جهد مشترك ضد الاشتراكية تمكن ملاحظتها لا من خلال معاملتها مع الاتحاد السوفياتي فحسب، وانما في اسبانيا. فمن الممكن ان تسجل تحفظات حول طبيعة الشيوعية السوفياتية، او السياسات الداخلية للجمهورية الاسبانية. ومع ذلك فهناك مجموعة من الاحتمالات القائمة، او التي بدت لسنوات عديدة انها صحيحة. فالديمقراطية الرأسمالية لن تحارب الفاشية ولن تحرر الشعوب المستعمرة وتقضي على الفقر الذي شوها حتى في مجتمعاتها بالذات. وتعاني الاشتراكية من خلافات داخلية تخصها ومن تساويات بحقها بقيت في كل مكان الاسم الذي تنضوي تحت لوائه معارضة هذا التحالف الخطير والمستغل.

ولقد جرى تعديل هذه النظرة للعالم بصورة عميقة تحت وطأة

ضغوط تاريخية هائلة في عملية بالغة التعقيد تتعلق بالسبب والمسبب، وتأثرت الثورات الروسية والاسبانية نفسها، بعمق ومرارة في تطورها، بنوع التحالف المضاد وبحاجتها الماسة للنجاة. وخلال سنوات معدودة فان ما كان يبدو امراً مستحيلاً اصبح تاريخياً لا مفر منه، وتمثل ذلك لا في الانحلال المتزايد للشيوعية السوفياتية من خلال محاكمات ستالين وخيانة اسبانيا، وهما أمران ميران بما فيه الكفاية، ولكن بسبب الاحداث التي غيرت العالم عام ١٩٣٩: التحالف بين ستالين وهتلر وبداية الحرب بين الفاشية والديمقراطيات الرأسمالية. ولربما كان أيسر علينا الان ان نحيط بابعاد هذه العملية فنرى ظلال المستحيل في بداية التاريخ الطويل للخيانة والاهمال، فبرز التناقضات الدفينة الى العلن في النهاية.

بيد ان الصدمة التي احدثتها تلك السنوات لم تكن ذات اهمية، فقد كانت اكثر النتائج حسماً لاي شخص يكون في موقع اورويل، هي الاستجابة التي تلت للديمقراطية الرأسمالية. كانت التناقضات والاهام الجديدة تبرز من خلف التناقضات والاهام القديمة دون ان تجري ملاحظتها. وبالنسبة لاورويل فان الحتمية المادية للحرب ضد الفاشية امتزجت، كما رأينا، بارتباط تقليدي مع الوطن. ففي تلك الفترات بالذات دونت اسطورة اورويل الناضجة حول بلده. بيد أن موضع التساؤل لم يكن حول انجلترا وحدها وانما حول طبيعة الديمقراطية الرأسمالية. وكانت سهولة التكيف مع انجلترا والحرب ضد الفاشية تدفعان الى الافراط في التكيف.

والواقع انه يمكن حذف كلمة «الرأسمالية» كصفة «للمدقراطية» او الاستخفاف بحقيقتها، كالوهم بانه يمكن تحويل الحرب ضد المانيا الى حرب ثورية، او الوهم الاعمق والمستمر بان انجلترا الحقيقية- انجلترا الديمقراطية- يمكن ان تظهر من خلال النفاذ داخل القشرة الرقيقة للنظام المنهوك والبالى.

وبالقدر الذي يمكن فيه عزل «الديمقراطية» كما كان التحالف ضد

الفاشية يبدو مقبولاً، فبالإمكان جعل ذلك الأساس لتوجيه نقد
مفحم للنظام الاشتراكي، الذي أصبح بفعل الضغوط التاريخية
الطويلة، نظاماً سلطوياً.

ولو لم تكن تجربة الديمقراطية حقيقية لاصبح هذا الكلام بدون
معنى، وتمثلت حقيقتها في ميراثها للرأسمالية الليبرالية وفي النضال
المزير من اجل الحريات، الامر الذي يعتبر بمثابة تثقيف شعبي مضاد
للرأسمالية. ومن الناحية المادية كانت عناصرها الراديكالية المشتتة
موجودة ولا يمكن اقتلاعها. ولكن اذا وضعنا التشابه بين الانظمة
الديمقراطية والسلطوية جانبا، وقمنا بتجريدها من انظمتها الاجتماعية
النامية والمتناقضة، فإننا نكون قد اعددنا مجموعة جديدة من الالهام،
ونظرة تاريخية جديدة هشة للعالم، وهذا بالتأكيد مشابه في بنيته واثره
للعزل والتجريد السابقين «للاشتركية».

وفي الدول الاوروبية الغربية الاخرى، حيث تضافرت عناصر
النظام القديم مع الفاشية لاجراء تحالف ضروري من اجل المقاومة،
فإن التظاهر بأن الخيارات الاخرى كانت ديمقراطية اجتماعية او انها في
طريقها لان تكون ذلك، استمر مدة اطول من قناعة الجميع.

وبقي هذا التظاهر او الامل قائماً حتى ما بعد سنوات ١٩٤٥ -
١٩٥١ وسنوات ١٩٦٤-١٩٧٠ وما حملته من اوهام عميقة، مع ذلك
فان هذا الوهم لا يتسم بالجمود. ولو كان التشابه الاجتماعي الفعال
الوحيد هو بين «الديمقراطية» و «الشيوعية» فان بعض التكيف مع
الرأسمالية- الرأسمالية التي كانت على وشك ان تصبح ديمقراطية-
كان يبدو في البداية، ومن ثم بحكم العادة، معقولاً. وبعد أن تحقق
هذا التكيف مع الرأسمالية، وما يليه من اعتبار الشيوعية الخطر
الوحيد، يصبح من الصعب رؤية واقرار ما يمكن ان تفعله الامبريالية
الرأسمالية، وما فعلته في السنوات التي اعقبت وفاة اورويل، في
اوقات الكساد وفي اوقات الحرب.

هذه هي العقدة التي عقدت في اواسط الاربعينات من هذا القرن،

وقد ساعد اورويل، بالتأكيد، في عقدها. ثم قام في اخر عمل روائي له بالتخلي عن العنصر الايجابي، ظاهرياً- وهم الايمان بقرب تحقيق الديمقراطية الاجتماعية- وبقيت له النواحي السلبية فقط. واقتصر تصويره المستقبلي على الشيوعية السلطوية، دون قوى اجتماعية بديلة او موازنة. وكان اول عنوان مقترح لرواية «١٩٨٤» هو «الرجل الاخير في اوروبا»، وهذا بالطبع هو جوهرها؛ اذ انها تنطوي على نوع من النزاهة المكشوفة، بيد أنها تكشف عن التناقضات السياسية وما تتضمن من عزلة وتجريد، وعن عدم وجود اية هوية اجتماعية، فتحدث بذلك رعباً اصيلاً.

ولو لم تكن التناقضات عامة الى حد كبير، لما كان بإمكان ذلك الامر ان يصل الى عدد كبير من الناس. ولكن الرمية اليائسة الاخيرة بالنسبة لاورويل اصبحت نمطاً يحتذى في حياة الآخرين. واندجت النزعة التشاؤمية لديه بوهم حدوث الديمقراطية الاجتماعية. والشيء الذي تفكك داخل اورويل بفعل الرعب تحول الى نظرة مشجعة وملحة للعالم استمرت (لدى الجيل الاكبر حتى ما بعد فيتنام). ان الشيء الوحيد المفيد الان هو ان نفهم كيف حدث ذلك؛ اذ ان فقدانه للهوية هو من النوع الذي يكرر في ظل تاريخ مضطرب ومتحرك.

ان الصلة التي حاول صنعها، والتي كان مستعداً لبذل حياته من اجلها، وقفت في وجهها التناقضات السياسية خلال تلك الفترة وضاعت في النهاية في الوهم والرعب. واضطر الكاتب لان ينشق عن المناضل السياسي. ان فكرة الايمان بالشعب تأجلت الى مرحلة تطورية، ولو ان فكرته التطبيقية الاصيلية عن الناس «دون البشر» و «عديمي التفكير» لم تتحول بسهولة كبيرة الى نظرة واهمة للجماهير الرثة والمتسامحة لكانت هذه المرحلة قريبة. وبقيت القوى الجماهيرية الحقيقية تستمر في التحرك، معه وبدونه، ومن خلال التناقضات التي عاشها، وكذلك تجدد القتال الذي انضم اليه ومن ثم يش منه، وامتد

واكتسب ارضية جديدة هامة .

اننا على الاغلب ، لن نصل الى وقت نستطيع فيه ان نستغني عن صرامته وطاقته ورغبته في المشاركة . وينبغي أن نكن لهذه الخصال الاحترام مهما تكن النتائج التي يمكن ان نتوصل اليها . ولكن هذه الخصال تكون حقيقية فقط طالما انها مستقلة ونشيطة .

ان أعمال الرجل وتاريخه هما للقراءة وليس للمحاكاة . انه خالد ، وبامكانك ان تتلمسه ، بندبة حنجرته ، بوجهه الحزين الصلب ، وبكلماته البسيطة التي كتبت خلال المحن والاطار والمواجهات ، غير اننا حين نحاول ان نجسه فاننا لا بد مرتطمون بالضرورة بشيء من صلابته . اننا نسلم بحضوره ، وبمسافة تفصلنا عنه ، باسماء اخرى ، بسنوات اخرى ، وبماض يدفعنا لتذكره ويفرض علينا احترامه والانطلاق منه صوب المستقبل .

ر - - - روييل :

- 1 - Down and out in Paris and London ; London, 1933
«التسكع في باريس ولندن»، لندن ١٩٣٣
- 2 - Burmese Days; New York, 1934
«أيام بورما» نيويورك ١٩٣٤
- 3 - A Clergyman's Daughter; London, 1935
«ابنة رجل دين»، لندن ١٩٣٥
- 4 - Keep the Aspidistra Flying; London, 1936
«دع الدريقة مرفرفة»، لندن ١٩٣٦
- 5 - The Road to Wigan Pier; London, 1937
«الطريق الى رصيف ميناء ويغان»، لندن ١٩٣٧
- 6 - Homage to Catalonia; London, 1938
«وفاء لكاتالونيا» لندن ١٩٣٨
- 7 - Coming up for Air; London, 1939
«الارتفاع بحثاً عن الهواء»، لندن ١٩٣٩
- 8 - Inside the Whale; London, 1940
«في جوف الحوت»، لندن ١٩٤٠
- 9 - The Lion and the Unicorn; 1914
«الاسد ووحيد القرن»، ١٩٤١
- 10 - Animal Farm; London, 1945
«مزرعة الحيوان»، لندن ١٩٤٥
- 11 - Nineteen Eighty Four; London, 1949
«١٩٨٤»، لندن ١٩٤٩

12 - Shooting an Elephant; 1950

«صيد فيل»، ١٩٥٠

13 - Politics and the English Language; 1950

«السياسة واللغة الانكليزية»، ١٩٥٠

14 - Such were the Joys 1953

«هكذا كانت الافراح»، ١٩٥٣

15 - Collected Essays, Journalism and Letters of
George Orwell; 4 Volumes, London, 1968

«مجموعة الاعمال والرسائل في اربع مجلدات»، لندن ١٩٦٨ .

بعض الكتب والمؤلفات بالانكليزية عن اورويل :

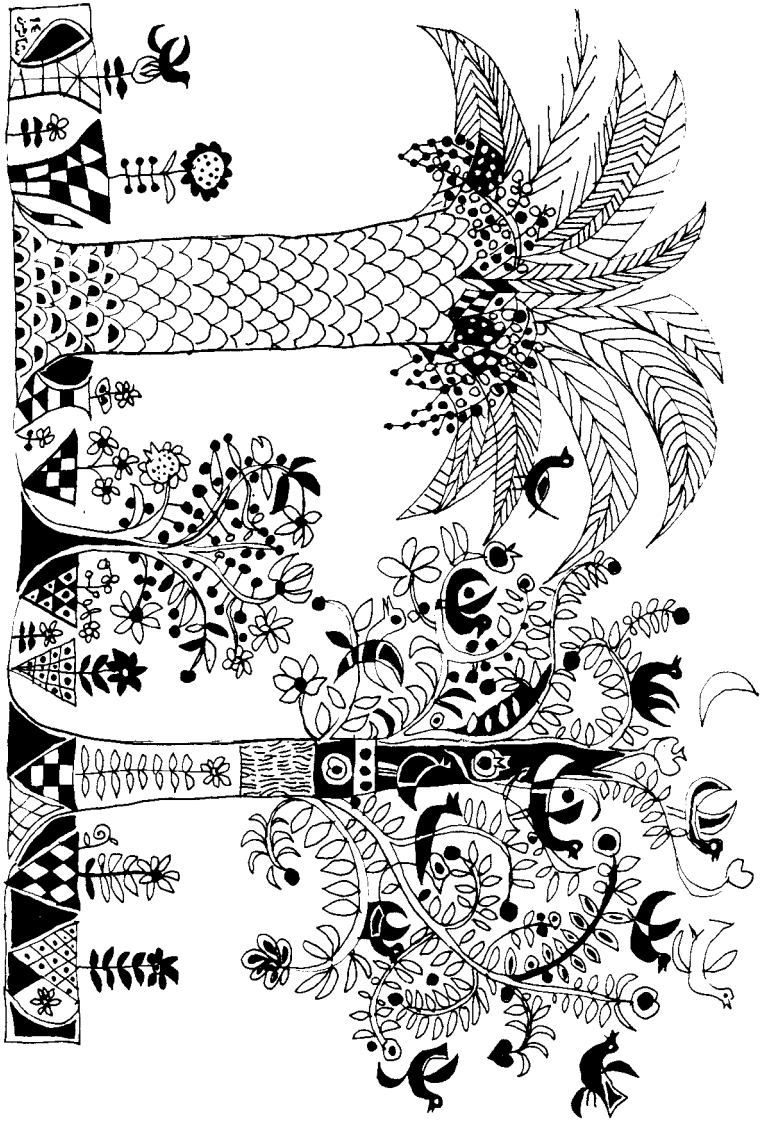
- Atkins, John, George Orwell, London, Calder, 1954.
- Brander, Laurence, George Orwell, London, Longman, 1945.
- Hollis, Chirstopher, A study of George Orwell, London, Hollis & Cater, 1958.
- Hopkinson, Tom, George Orwell, London, Longman, 1953.
- Oxley, B. T., George Orwell, 1969.
- Rees, Richard, George Orwell - Fugitive from the camp of victory, London, Secker & Warbur, 1961.
- Steinhoff, William, George Orwell and the Origins of 1984, 1975.
- Thomas, Edward M. , Orwell, Edinburgh, Oliver & Boy, 1953.
- Vorhees , Ricahrd J. , The Paradox of George Orwell, Lafayette, Indiana, Purdué University, 1961.
- Woodlock, George, The Crystal Spirit, London, Cape, 1967.
- Zwerdling, Alex, Orwell and the Left, 1974.

جورج لوکاش

تالیف : جورج لختھایم



الغزالة و شجرة الطيور و الورود



مقدمة

تقضي الضرورة بان تكون هذه الدراسة التي تتناول حياة جورج لوكاش وأعماله دراسة قصيرة وانتقائية. فالغاية منها تسهيل فهم كاتب ذي شأن نشرت معظم أعماله باللغة الهنغارية او الالمانية. لذلك فهي اساسا مقالة في التأويل او التفسير Interpretation تبغي افادة الطلاب من ذوي الثقافة الامريكية او البريطانية. ان هذه المهمة ستكون صعبة، حتى ولو كان لوكاش أقل خصومة ككاتب، فهناك العديد من المشكلات التي لا بد من مواجهتها بصراحة، ومنذ البداية. ينتمي لوكاش بقوة للتقليد الاوروي المركزي في فكره، والمعروف ان الافتراضات التي يقوم عليها هذا التقليد، لا يوجد لها في الغالب مقابل دقيق عند الناطقين بالانجليزية. أضف الى ذلك تمسك لوكاش بالطريقة الهيغلية في التحليل، بالرغم من التزامه بالماركسية مدة نصف قرن، وهي طريقة غير مقبولة، بصورة عامة، من اللينينيين، ناهيك عن الماركسيين الغربيين على اختلاف ميولهم السياسية.

وقد ادت انهاكات لوكاش الشخصية، بعد عام ١٩١٧، في بلده هنغاريا الآن وضمن الفلك الاوسع للحركة الشيوعية الى بروز تكتلات ومناظرات جبهوية انطوت بالنسبة الى لوكاش على اهمية بالغة، ويستدل على ذلك من خلال ملاحظاته في السيرة الذاتية ومقدماته التي كتبها في السنوات الأخيرة للطبعات الغربية من اعماله. وفي بعض الحالات انتهز الفرصة للتراجع او لمراجعة أحكام سابقة، بيد أنه استغل في حالات اخرى التغييرات في المناخ السياسي لينكر نزعاته التوفيقية مع الارثوذكسية السائدة في شرق أوروبا في الثلاثينات والاربعينات، ليصفها بأنها كانت محض تكتيكية. وثمة تسجيل لهذه المناورات المتأرجحة في مقدمة الجزء الثاني من كتاباته التي ظهرت عام ١٩٦٧، كجزء من أعماله الكاملة التي يقوم ناشر الماني غربي بنشرها.

وهذا الجزء بالذات يحتوي على الدراسة التي تحمل عنوان «التاريخ والوعي الطبقي» **History and Class Consciousness** والتي ادى ظهورها عام ١٩٢٣ الى حدوث الخصام الذي نشر عام ١٩٦٧ لمواقفه الفلسفية التي سبقت ظهور اللينينية ، ونجده ايضا يجيى خلافاً تنظيمية مختلفة خلال الفترة نفسها ويحاول ان يبرز، ولو بشكل متأخر ، آراء سياسية معينة نادى بها حوالي عام ١٩٢٨ . ثم يصف بوضوح نقده الذاتي الوحيد الذي كان قد نشره بعد ذلك بوقت قصير، عندما واجه خطر طرده من الحزب الشيوعي ، بأنه تكتيكي وغير مجيد (وجدير بالذكر انه واجه المصير نفسه اثر مشاركته القصيرة عام ١٩٥٦ في المحاولة المشؤومة من أجل إضفاء الصفة الديمقراطية على النظام المجري).

وفي غضون عام ١٩٣٠-١٩٣١ عمل لوكاش في معهد ماركس-انجلز في موسكو، ولعب دورا بارزا في الحياة الأدبية للحزب الشيوعي الالماني في برلين في الفترة ١٩٣١-١٩٣٣ ، ثم التحق عام ١٩٣٣ بمعهد الفلسفة التابع لأكاديمية موسكو للعلوم، وبقي هناك حتى العام ١٩٤٤ حيث ساعد في تحرير المنشورات الأدبية، الى أن عاد الى المجر اثر دخول الجيش الروسي.

تعرض لوكاش، ابان الفترة التي كان يشغل فيها منصب استاذ علم الجمال والفلسفة الحضارية، في عهد ماتياس راكوسي **Rakosi** في بودابست، للهجوم من العناصر الستالينية المتطرفة، فبدأ بالانسحاب تدريجياً من حياة الحزب النشطة. الا أنه عاد وبرز مرة اخرى بعد الانفراج الذي اعقب خروج ستالين عام ١٩٥٣ وخلال انتفاضة اكتوبر - نوفمبر/ تشرين الاول والثاني القصيرة عام ١٩٥٦ ، واصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب، ووزيراً للتعليم في حكومة ايمري ناجي **Nagy**. وقد سلم من الموت بالرغم من سقوط الأخير واعدامه. ثم عاد الى بودابست بعد ان نفي فترة وجيزة الى رومانيا وسمح له بالاقامة ابان حكم جانوس كادار **Kadar** ، بيد ان كتاباته

تعرضت للخطر الرسمي فاضطر الى نشرها في الغرب. وبعد السماح له بدخول الحزب الشيوعي ثانية عام ١٩٦٧، عرف عنه انه كان يحتج في مجالسه الخاصة على غزو تشيكوسلوفاكيا واحتلالها. وفي آذار عام ١٩٦٩، وبمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الجمهورية السوفياتية الهنغارية القصيرة العمر، قلد رسمياً وسام «الراية الحمراء»، وسمح له، مرة اخرى، ان يعبر عن آرائه بصورة علنية في مقابلات مع المراسلين من الشرق والغرب.

ان محاولة القيام بدراسة شاملة لاعمال لوكاش منذ مطلع القرن، تظهر الاهمية المصرية للحرب العالمية الاولى وللثورة الروسية عام ١٩١٧؛ فلقد اصبح حقيقة بديهية ان كلا الحدثين، قضى على نمط معين من العيش وعلى ميزان القوى السياسي القائم حينذاك. وما هو بحاجة الى التأكيد مجددا هو الوضع الحاسم لمانيا وهنغاريا- النمسا. فبينما نجد ان الشيوعية انبثقت من اشتعال الثورة الروسية، وان رواد الفاشية ظهوروا في فرنسا وإيطاليا قبل عام ١٩١٤ فان الاسهام الفكري الحاسم كان على يد منظرين اقاموا في المانيا وفي المملكة الثنائية هنغاريا - النمسا، بالاضافة الى عدة دول خلفتها بعد عام ١٩١٨. لذلك يمكن القول، وفقا لهذا المنظور، ان لوكاش من اجل الشيوعية يماثل ما قدمه معاصره اوزوالد شبنغلر Spengler لمنافستها الفاشية. ومنذ وفاة لينين عام ١٩٢٤ لم تنجب روسيا سوى قلة من المفكرين الاصليين لم يكن بينهم واحد ذو اهمية عالمية. من هنا اكتسبت هرطقات لوكاش الفكرية تدريجياً اهمية لم تتمتع بها من قبل. ونتيجة لان اوروبا الوسطى كانت في العشرينات والثلاثينات ساحة للمعارك الايديولوجية والسياسية، فلقد انتشرت المشاعر التي حركتها هذه المناقشات بحيث اصبحت دوائر اوسع. وابقى كارل كورش Korsch، الذي انفصل عن الشيوعية الدولية في وقت لاحق، وبقي ماركسيا، بخلاف لوكاش، الجدل حيا ضمن محيط الاشتراكية الالمانية. كذلك انعكس صدى هذه المناقشات في

الدراسات الاجتماعية والتاريخية التي قام بها بعض الباحثين التابعين لمعهد فرانكفورت ، واشهرهم ماكس هوركهايمر Horkheimer وتيودور ادورنو وهربرت ماركيزوز. ويمكن ان نجد لاعمال لوكاش المبكرة تأثيراً على كتابات ولتر بنجامين الناقد الأدبي المعروف في عهد جمهورية فايمار، بيد أن أعمال بعض الباحثين (المهاجرين قسراً) المنفيين امثال لوفنتال Lowenthal تعكس صدى ابعده لتأثيره .

ومن اوروبا الوسطى انتقلت رسالة لوكاش الماركسية-الهيغلية الى فرنسا على يد الناقد الروماني الاصل لوسيان جولدمان ، الذي قام بدراسات عن باسكال وراسين ، عرفت العالم الفرنسي الاكاديمي بالطريقة الجديدة لمعالجة القضايا الأدبية . وبالمقابل لم يكن للوكاش تأثير في الاجيال الصاعدة من الكتاب الماركسيين ، في السنوات الاخيرة . فهو بالنسبة اليهم كان تقليدياً بشكل عام ، متأثراً بشكل خاص وعميق بالافكار السائدة في الأدب السوفياتي . اما التطوريون (من امثال ارنست فيشر الشيوعي النمساوي المحنك) فقد كانوا يميلون الى تجاوز لوكاش في محاولتهم بناء قاعدة ماركسية لارتباط الفن بالقضايا الاجتماعية . وايضا في مجال الفلسفة كانت الوجودية التي نادى بها سارتر ، وليست اعمال لوكاش بعد الانفراج عام ١٩٥٦ هي التي مكنت بعض الماركسيين الشرقيين الشباب ، من امثال الفيلسوف البولندي كولاكوفسكي Kolakowski من تحرير انفسهم من القيود الايديولوجية الستالينية .

وفي هذه العجالة ، فان ذكر هذه الامور ، بغض النظر عما تعنيه لعالم الأخلاق ، انها يهدف الى اظهار صعوبة فصل الفلسفة عن السياسة في اعمال لوكاش . فثمة انسجام وتوافق في التزاماته النظرية والعملية يظهر من خلال دراسة مؤلفاته الضخمة . كذلك يمكن تتبع عناصر مهمة في تفكير لوكاش قبيل عام ١٩١٤ ، حين ظهرت اهتماماته الفكرية ، وفي خلفيته الاجتماعية ، وفي ميراثه الروحي ، كمفكر للاتلجنسيا اليهودية الهنغارية . وبينما ستجد هذه الموضوعات

متنفساً قصيراً لها في دراستي هذه، إلا أنني حاولت بشكل عام أن أركزها على تحليل للاسهام الذي أسداه لوكاش إلى النظرية الماركسية، وبالتحديد في مجال اختصاصه: ألا وهو علم الجمال. طبعاً أنه لمن المتعذر معالجة هذه الفكرة بروح البحث العلمي المجرد. لذا فبإمكان المرء أن يهدف إلى الموضوعية بالمفهوم الهيجلي لها، أي أن يحاول تعيين موقع لأهمية تلك الظاهرة الفريدة من نوعها والتي تنضوي تحت اسم جورج لوكاش.

الفصل الأول

ولد جورج لوكاش Gyorgy Lukacs في ١٣ نيسان (ابريل) ١٨٨٥ ، من ابوين يهوديين ثريين ، كانا يقطنان بودابست ، العاصمة الثانية للمملكة النمساوية الهنغارية حينذاك . وكان والده مديراً لبنك مؤسسة التسليف (كرديت انشتالت) احد اهم البنوك في بودابست في ذلك الوقت . وقد اظهر لوكاش منذ صباه شغفاً بالأدب وموهبة عظيمة في النقد ، وتعود اولى كتاباته الى عام ١٩٠٢ . ساهم بحيوية في الحياة الفكرية لمدينته ولما يزل في اوائل العقد الثالث . وفي العام ١٩١١ كتب دراسة حول الدراما في جزأين ، بلغت صفحاتها الالف . وفي العام نفسه نشر دراسة فلسفية بالالمانية بعنوان «الروح والاشكال» *The Soul and the Forms* سبق ان نشرت في بودابست قبل عام . ومنذ ذلك التاريخ بدأ يتخلى تدريجياً عن اللغة المجرية ليكتب باللغة الالمانية ، وفي السنوات اللاحقة اصبح معروفًا على النطاق العالمي باسمه الالمانى جورج لوكاش عوضاً عن «فون لوكاش» ، وهو اسم شرف منحته لوالده السلالات الحاكمة .

وقد ادت بعض التطورات الفكرية المعقدة الى انتقاله من النزعة الجمالية ، السائدة بين المثقفين في اوروبا الوسطى قبل عام ١٩١٤ ، الى قبول *Lebensphilosophie* ، وهي شكل من اشكال مذهب فلسفة الحياة او الحدسية التي كانت بمثابة القطب المعاكس لمذهب العقلانية العلمية . وقد تقبل كطالب في بودابست (حيث حصل على شهادة الدكتوراة في الفلسفة عام ١٩٠٦) مذهب الكانطية الجديدة السائد الذي حفظ البحث المنتظم عن الحقائق التجريبية للفروع المتخصصة في العلوم والآداب ، بينما قصر الفلسفة على علم المنطق

ونظرية المعرفة . وفي العام ١٩١٠ بدأ يستمع لمحاضرات الفيلسوف وعالم الاجتماع جورج سيميل Simmel في جامعة برلين، حيث تبنى تفسير الاخير الشخصي لمذهب الكانطية الجديدة التي كانت تضرب جذورها في اعمال فيندلبناند وريكرت، ثم صاحب تلميذ ريكتر الناخب اميل لاسك Lask.

وخلال تلك السنوات تركزت الحياة الثقافية في المانيا قبل الحرب الاولى على تذويب المدرسة الكانطية الجديدة، وبروز علم الظاهرات او الفينومينولوجيا على يد هوسيرل Husserl، ونمو الميول اللاعقلانية والحدسية المنبثقة بالنهاية عن الحركة الرومانسية. وكانت المدرسة الكانطية التقليدية الممثلة بهرمان كاهن وبول ناتروب في جامعة ماربورغ ترمز الى التمييز الصارم بين نظرية المعرفة وبين الميتافيزيقيا التأملية. اما مدرسة هايدلبرغ فقد كانت تميل الى اعطاء أهمية اكبر للتاريخ من العلوم الطبيعية. وقد سهل تأثيرها ما اسماه ويلهلم ديلثاي ١٩١١ Geisteswissenschaft أي علم الروح. وقد كان الخلاف يدور حول ما اذا كان يمكن للفلسفة ان تهدف بحق الى ما هو أبعد من تعميم الطريقة العلمية. لقد مثل كل من ديلثاي وسيميل الردة في وجه وضعية العلوم الطبيعية وفي وجه مدرسة ماربورغ التي انكرت امكانية التبصر في الطبيعة الحقيقية للواقع. فكانا يؤمنان، شأنهما في ذلك شأن معاصرهما هنري برغسون الذي ترك مؤلفه «التطور الخلاق» عام ١٩٠٧ اثرا ملحوظاً على سيميل، بان جوهر الحقيقة يمكن ادراكه عبر فعل من الحدس العقلي.

ان مفهوم «علم الروح» عند ديلثاي كان شيئاً مختلفاً، بصورة اساسية، عن الطريقة العقلانية، حيث قامت العلوم الطبيعية والاجتماعية بتفسير العالم وفق علاقات سببية. وقد كانت مهمة المؤرخ

بالنسبة اليه تقوم على الفهم «التأويلي» - Hermeneutic under standing للماضي من خلال استعادة مبتكرة لافكار الاخرين. ان عملية الفهم هذه تعني ان ينقل المرء نفسه الى بعد روحي مختلف، وهي عملية اطلق عليها ديلثاي اسم الحياة من جديد -Reliving- متابعا في ذلك اللاهوت الرومنطقي الذي وضعه شليمر ماخر. ان هذا العمل، الذي هو في النهاية عمل شخصي لا عقلائي والمتمثل في اعادة الصياغة الروحية كان ينظر اليه بانه مناسب للعلوم الاجتماعية. فالتأويل يرمز الى اسلوب في الفهم لا يعتمد على التفسير السببي بل انه يهدف بالاحرى الى تفهم الابداعات المتعددة الاشكال للروح البشرية. ان أعمال العقل لها أهمية خافية ينبغي على «علم الروح» Geisteswissenschaft أن يعمل على اماطة اللثام عنها. وقد ظهرت طريقة ديلثاي أول ما ظهرت في علم النفس، مما حمل فيند لباند ان يطلق تحذيراً عام ١٨٩٤ ضد الخلط بين البحث الطبيعي عن القوانين العامة والتحليل التاريخي للحادثة الفريدة والوحيدة، وتشير كتاباته الاخيرة الى تأثير هسرل عليه في رفضه المتطرف «للنفسانية» Psychologism. ان ما اسماه «علم الروح» قد نظر اليه منذ البداية كمغامرة فلسفية. وهكذا توصل ديلثاي في النهاية الى مقولة «المعنى المراد» او المقصود الذي يمكنه من الافتراض بوجود علاقة موضوعية بين حقائق معينة (اعمال فنية مثلا) وتاريخ الروح البشرية.

وبالرغم من اصالة مغامرة ديلثاي، فانها كانت متأثرة بالمدرسة الالمانية (لا سيما التاريخية) التي ارتبطت في بداية القرن التاسع عشر باسماء مثل همبولدت ونيبور وسافيني وجريم وشليمر ماخر. ان ما اكدت عليه المدرسة هو استقلالية التاريخ والانثروبولوجيا- علم

الانسان- ودراسة الدين مقابل البحث الوضعي عن قوانين السببية التي تنطبق على الطبيعة والتاريخ على حد سواء.

وقد نشأ عن هذه الطريقة نتيجة طبيعية مهمة، وهي ان جميع الظواهر الفردية تنتمي الى كل منتظم، بينما تميل وضعية العلوم الطبيعية الى اعتبارها نسخاً بمتاباة امثلة دالة على قاعدة عامة. ولاسباب بديهية فان الطريقة التاريخية- مثل الفلسفة الرومانتيكية بشكل عام- تشبع رغبات الفنانين اكثر من العلماء، لذا نجد ان الثورة ضد العقلانيين استخدمت على نحو نموذجي المفاهيم المشتقة من نموذج الابداع الفني. وفي الوقت نفسه تضمن التشديد المنبثق عن مذهب الكل Holism والقائل باعتماد الاجزاء على الكل دلالات بالنسبة للعلوم الاجتماعية. وقد طور كل من فيند لباند وريكرت وديلثاي وسيميل تدريجياً التمييز بين «الطبيعة» والتطبع وهو تمييز كان يرفض ظاهرياً البحث عن «قوانين التطور»، وقد دعمت كتاباتهم ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩١٠) في بحثه عن طريقة سوسولوجية تنظر في معنى الاعمال الفردية بالنسبة للاخرين. ان وصف فيبر لعلم الاجتماع بانه محاولة لفهم النشاط الاجتماعي «على مستوى المعنى» كان مرتبطاً بوضوح باعمال الباحثين الذين سبق ذكرهم.

وفي كتاباته المبكرة رضخ لوكاش لهذه الطريقة بعد ان كان ناقش في مقالاته الادبية شعر الرومانسيين ثم ادان هذه المرحلة في سنوات لاحقة باعتبارها تمثل انحراف او زيغ الشباب، ووصف فلسفته المبكرة بانها «مثالية طاتية» وهو مصطلح يوقف على المذاهب المشتقة من «كانط». من هنا لا بد ان نعالج تأملاته الواردة في سيرة حياته بشيء من الحذر؛ اذ توجد بعض الشواهد التي تشير الى انه بعد سنوات تلمذته، لم يصبح «كانطياً» جديداً اطلاقاً بل كان لا أدريا Agnostic

ويعتبر الكون، بالتحليل الأخير، غير قابل للادراك والمعرفة كلياً. ان مؤلف «الروح والاشكال» يبدو وكأنه قد آمن بأنه يمكن للمرء في مجال علم الجمال ان يتصل بالحقيقة المطلقة من خلال فعل حدسي مباشر.

وبعيداً عن كونه مثالاً ذاتياً في نظريته الى «نقده الذاتي» فقد كان من الجلي تماماً انه تأثر أياً تأثير باميل لاسك وموقفه شبه-الفيينومينولوجي اثناء مقامه في هايدلبرغ، الأمر الذي سهل له، فيما بعد، الانتقال الى مثالية هيغل الموضوعية. اننا نشير هنا الى الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٣-١٩١٤ عندما كان لوكاش قد استقر في هايدلبرغ واصبح عضواً في حلقة ماكس فيبر. وكان اميل لاسك ١٨٧٠-١٩١٥ يعمل أستاذاً للفلسفة في جامعة هايدلبرغ في ذلك الوقت فكان لا بد ان يقع لوكاش تحت نفوذه، وقد زوده كتاب لاسك (منطق الفلسفة ونظرية المقولات) بأساس منطقي لضرب من الافلاطونية الجديدة التي سبق للوكاش ان تحول نحوها بشكل غريزي، وهذا بدوره مهد الطريق امام ايها في عالم للكينونة يتجاوز الاخلاق ويمكن الدفاع عنه منطقياً. اما دراسات لاسك في علم الاخلاق والجمال وفلسفة الدين- التي اعترضتها الحرب عام ١٩١٤ وتوفي بعد وقوعها بسنة- فقد وضعت في رحاب مدرسة ادموند هوسرل الفيينومينولوجية. وقد ظهر اثر لاسك بعمق على تطور لوكاش الفكري في تلك السنوات. فالى جانب انه كان يكبره في السن فقد كان مفكراً يتمتع بقوة فكرية غير مألوفة ونفاذ في نظريته، وقد اخذ في التحول التدريجي نحو نظرة يمكن ان توصف بحق بانها نظرة ميتافيزيقية.

ان مثل هذا النوع من الاتجاهات لم يكن غريباً حوالي العام

١٩١٠، ولكن الحرب العالمية الأولى هي التي وضعت الأمور في نصابها؛ فخلال تلك السنين العصيبة فقدت الفلسفة الاستاذية التي قسمت المعرفة الى أجزاء مستقلة ما كانت تتمتع به من سلطات. وكان ثمة رجال من امثال فيبر يؤكدون ان العودة الي الميتافيزيقيا مستحيلة، ولكن الجيل الجديد كان يطالب بنظام «كلي» عن «الحقيقة» في العام. وقاد هذا البحث بعض الكتاب من ذوي الميول الفلسفية الى الدين والبعض الآخر الى الرفض العدمي للثقافة ككل. اما لوكاش- فلأسباب سوف تتضح بعد حين- فقد تحرك باتجاه مختلف: نحو هيجل، ولعل من المهم الاشارة الى أن أعماله الفلسفية ابتدأت بالنقد الأدبي. وقد اصبح خلال تلك السنوات عضواً في الحلقة المقصورة على فئة قليلة من الخاصة والمحيطه بالشاعر ستيفان جورج، وكان الانغماس في السياسة ابعده ما يكون عن فكر اولئك الرجال. وقد اعتنى تلامذة غوته ونييتشه هؤلاء ومعهم شعراء «نهاية القرن» من ذوي الميول الصوفية، بتنمية ضرب من الفردية التي وجدت شرعيتها في النفور العميق من عالم الناس العاديين. وثمة موقف مشابه يكمن وراء مؤلف لوكاش «نظرية الرواية» الذي يعتبر من اهم اعماله الروائية خلال هذه الفترة. اما المزاج الذي كان يسيطر على لوكاش ابان تأليفه الكتاب عام ١٩١٤-١٩١٥ فيمكن معرفته من خلال قراءة مقدمة الطبعة الالمانية. في هذه المقدمة المكتوبة في «بودابست» في تموز عام ١٩٦٢، وبالرغم من النقد الذاتي المنبعث من التحسس بالواجب الذي يرد فيها، فان المقدمة لا تتبرأ كلياً من المزاج العقلي الذي لجأ به لوكاش خلال تلك السنين الى عالم الفن هرباً من الواقع. واي امل كان هناك في العالم السياسي اذا كانت الامبراطوريات الشرقية الثلاث (روسيا، والنمسا- هنغاريا ومانيا) قد انهزمت نتيجة الحرب هزيمة

نكراء؟ وعندما وصف لوكاش فيما بعد موقفه خلال المرحلة الأولى من الحرب العالمية الأولى على هذا النحو، فانه زود قراءه بمفتاح السر لاجبابه الطويل بتوماس مان، وذلك باستدراك بدهي هو ان مان Mann ببساطة لم يابه لانتصار الغرب على الرايخ الالماني. كان يريد الانتصار لمانيا ! (انظر كتابه الصادر عام ١٩١٨ بعنوان : «تأملات رجل غير سياسي»)... واما لوكاش فانه اشماز من البورجوازية الليبرالية وما اعتبره بمثابة الانحطاط الغربي بدرجة لا تقل عن احتقار توماس مان لها خلال تلك السنين، ولكنه بعكس مان لم يكن يجد من حاجة الى المانيا الفيلهلمينية أبان حكم فيلهلم اوغليوم لها، ومن هنا فان دراسته النقدية عام ١٩١٤-١٩١٥ قد عكست ما اسماه عام ١٩١٧ «حالة من اليأس الدائم من وضع العالم، ولم احصل الا عام ١٩٦٢ فقط على اجوبة عن اسئلتي التي بدت حتى ذلك الوقت بدون جواب».

فالثورة الروسية بددت قلقه الميتافيزيقي بان اعطت جوابا علمياً عن المشكلات النظرية التي استماتته للانسحاب والاعتكاف في قوقعة خاصة. ولقد كانت «نظرية الرواية» نتاجا للنظرة العقلية المرتبطة بها كان يعرف في اوساط اتباع ديكتاي ب «تاريخ الروح» - Geistesges- chichte؛ فالحرب اوصلت الامور الى اوجها، لكن طابع الاشكالية (المعضلة) سبق له الوجود . وكما عبر لوكاش عن ذلك عام ١٩٦٢ حيث قال :

«لم يعد من الصعب اليوم ان نرى بوضوح قصور الطريقة التأويلية. لا بل انه يمكن للمرء ايضاً ان يفهم مبررها التاريخي النسبي مقابل ضحالة وهزالة الوضعية الكانطية الجديدة وغيرها من الوضعيات، سواء في معالجتها للشخصيات او المضامين التاريخية او في

بنيانها الثقافي للبنى الفكرية (المنطق، علم الجمال . . . الخ). انني افكر مثلاً بما حققه ديلثاي من ابداع في مؤلفه «التجربة المعاشة والأدب» Das Erlebnis und die Dichtung (لايبيغ ١٩٠٥)، وهو عمل بدا رائداً في استكشافه لارض بكر. لقد بدا لنا هذا الحقل الجديد في تلك الايام وكأنه عالم عقلي من تأليفات او طباقات فخمة سواء من الناحية النظرية او الناحية التاريخية. لقد اخفقتنا في رؤية مدى تجاوز هذه الطريقة للمدرسة الوضعية وعدم قيام افتراضاتها على اسس راسخة . . . واصبح الأمر الشائع هو ان ننشئ مفاهيم عامة مركبة مبنية في معظم الحالات على مجرد ادراك حدسي لبعض الاتجاهات الخاصة بحركة او حقبة ما».

مع ذلك فلم يخل عمله المبكر من فائدة ترحي، واستطاع لوكاش في عام ١٩٦٢ ان يرى مظهراً واحداً في الأهل كان يبعث الامل، فقد كان المؤلف الشاب في ذلك الحين يسير في اتجاه تطوير موقفه اللاحق. «لقد سبق ان اشرنا الى ان المؤلف . . . اصبح هيغليا. ان الممثلين الكبار للطريقة التأويلية يرتكزون الى اساس كانطي وهم لم يتحرروا بعد من الترتيبات الوضعية، وقبل اي شيء من ديلثاي.

ان المحاولة لتجاوز اللاعقلانية الوضعية كانت تدل دائماً على الاتجاه خطوة نحو اللاعقلانية لا سيما محاولة سيميل وديلثاي. صحيح ان نهضة هيغل كانت قد وقعت قبل سنين من وقوع الحرب . . . ولكن حدث هذا في مجال علم المنطق او النظرية العامة للعلوم. وعلى حد علمي فان «نظرية الرواية» Theorie des Romans هو اول عمل في مجال التأويل لتطبيق الفلسفة الهيغلية على المشكلات الجمالية بشكل واقعي. يوحى البروفسور فيكتور زيتا Zetta في دراسته المعادية والقاسية، ان لوكاش فشل في ان يصبح شاعراً (في هنغاريا قبل عام

١٩١٠) او فيلسوفا (في المانيا حوالي ١٩١٤) وانه ارتضى أن يصبح كاتباً وناقدا ادبيا نشيطا في مجال الحياة الفكرية حيث التفوق لا يجلب الشهرة بالضرورة وحيث لا يكون تحقيق الابداع والرفعة أمراً سهلاً وحيث يكون النبوغ ملفعا بحقيقة انه ينبغي ان يخضع نفسه للتعليل والتحليل.

ودون الذهاب بعيداً فلعله من المهم القول انه بالرغم من العبقرية التي يزخر بها عمله الاول والتي لا مجال لانكارها، فانه فشل في اظهار نوع من القوة المنطقية الثابتة التي نجدها عند لاسك. وكتابه «الروح والاشكال» عمل يدل على القوة والألمعية من وضع شاب لا يتجاوز عمره ٢٥ عاما، وقد احرز بفضله مكانة بين النخبة من مثقفي هنغاريا، برغم ان الواقع ربما اشار الى ان الهنغاريين كانوا يعتبرون الشعر ارقى من المقالات الافلاطونية عن الفن. ومن الممكن جدا ان يكون لوكاش الذي ساعد على تنظيم مسرح «ثاليا» وهو لا يزال في سن المراهقة، قد احب ان يصبح شاعراً او روائيا قبل ان يتردد في أخذ دور الناقد. وهكذا حقق لنفسه منزلة فريدة حتى قبل ان يوجد منهجاً فلسفياً خاصاً به. وقد اعجب كتابه «نظرية الرواية» القراء على اختلاف اتجاهاتهم في المانيا هذه المرة- ونال صاحبه تقديراً خالداً من احد اهم روائيي المانيا العظام: الا وهو توماس مان. ولكن، وكما لاحظ لوكاش بنفسه في السنوات اللاحقة، فقد كان هذا العمل من وضع شاب يافع ومأخوذ، كما كان يعتمد اساساً على افكار غير مبتكرة. وعندما نصل الى عمل يعتبر من اكثر اعمال لوكاش اثارة للجدل، الا وهو مجموعة المقالات التي ظهرت عام ١٩٢٣ باسم «التاريخ والوعي الطبقي» فاننا سنجد ان مضمونه الفلسفي البحت قد جاء من تفسيرات لاسك لكائظ وفيخته وهيكل، وان محتوياته

السياسية والاقتصادية اخذت جملة من لينين وروزا لوكسمبورغ (لم يكن التنافر بين الوطنيين الماركسيين واضحاً بالنسبة اليه بعد) . وقد تخلى فيما بعد عن نقده للديالكتيكية المادية التي نادى بها انجلز استجابة للنداءات الملحة بالالتزام الفكري .

ولا يمكن للمرء ان يغفل ايضاً ان ديلثاي هو الذي فتح عيني لوكاش اصلاً على الفارق الشاسع بين العلم الطبيعي والتاريخ، كون الحادثة التاريخية فريدة والحاجة الى ادراكها بجميع مظاهرها عن طريق القيام بمعايشتها من جديد، وهو فعل يمكن ان يكون له بعده الفكري بالاضافة الى بعده الجمالي . ان ملاحظة كل هذه الامور تعني ان يسجل المرء ببساطة حقيقة مؤداها انه بالرغم من ان لوكاش ميز نفسه في سن مبكرة عن طريق تقديم اعمال لامعة فانه ليس بوسع المرء ان يقول انه أظهر ذلك الضرب من الأصالة التي تتميز بها عادة حتى الأعمال غير الناضجة والصادرة من العباقره . وكتاب «نظرية الرواية» لا يشذ عن القاعدة ؛ فهو مجرد قطعة من الكتاب تنم عن موهبة، ليس الا .

الفصل الثاني

غالباً ما تبدأ الدراسة النقدية المخصصة لكاتب ذي شأن برسم صورة شخصية لحياته ومن ثم التركيز على تحليل اعماله. بيد ان اي شخص يحاول تطبيق هذه العملية على لوكاش سرعان ما يكتشف ان هذه الطريقة ستخفق، ذلك ان الحياة الخاصة، حتى بالنسبة لأكثر الباحثين انطوائية وعزلة لا يمكن عزلها كلياً عن موقفه العام. وعندما يكون الكاتب قيد الدرس قد امضى نصف قرن من حياته في خدمة قضية ثورية، فانه من الواضح ان التمييز بين «الحياة» و «الفكر» يصبح امراً يتعذر الدفاع عنه هنا. اضيف الى ما سبق انه اذا كانت أهم أعمال هذا الكاتب كمنظر، تتعلق بمواضيع تنبع من التحولات الحديثة في التاريخ الاوروبي منذ عام ١٩١٤، فكيف يمكن للمرء هنا ان يفصل النظرية عن التطبيق؟ لقد شهد العقد الممتد من ١٩١٤ الى ١٩٢٤ اعظم جيشين عرفتهما اوربوا منذ أيام نابليون، ومن هنا ليس ثمة حاجة لاستخدام المنهج التاريخي في النظر الى اعمال لوكاش خلال تلك الفترة المليئة بالاحداث. مع ذلك فلا بد من اجراء عملية تبسيط ضخمة، وسوف نحاول ان نحلل تحول لوكاش من ذلك الافلاطوني المحدث الشاب عام ١٩١٤ الى المنظر الماركسي عام ١٩٢٤، ثم نعود في وقت لاحق لارتباطاته السياسية والتنظيمية بالمعنى الضيق للكلمة.

ان احدى المصاعب التي تواجهها اية دراسة للوكاش هي التعارض بين مكانته كمنظر في القارة الاوروبية وبين النظرة السائدة لاهميته بالنسبة للعالم الناطق باللغة الانكليزية. هذه ليست قضية سياسية، وهي لا تتضمن احكاماً على مزايا كتاباته المبكرة او كتاباته اللاحقة.

ثمة فكرة منتشرة نسبياً في الغرب يتعلل بها كل من محبيه المتهورين وبعض من نقاده، ومفادها ان لوكاش كان خلال حياته منظرًا في علم الجمال، اما وجوده في الحزب الشيوعي فقد حدث لاسباب شخصية طارئة. يعود هذا الخطأ في فهم الفشل الناجم عن نظرة جادة الى نوع

التنظير الذي ساهم على نحو معين بايجاد الارضية للتفكير الاوروي القاري .

فالاعتقاد بأن الادب والفن لها دلالة فقط لكونها يجسدان الحقائق الابدية والقيم المطلقة، هو بالتأكيد اعتقاد مشترك بين المحافظين سياسياً والمحافظين دينياً في العديد من البلدان . بيد ان هذا النوع من المحافظة يتسم بالدفاع منذ وقت طويل . ومن بين اعدائه الفلاسفة من اصحاب نظرية النسبية الى جانب الكتاب الانطباعيين الذين تمنعوا عن منح علم الجمال مرتبة النظرية الاصلية المرتبطة برؤية حقائق مستقلة عن مكانة الناقد الشخصية . ان ما يسمى الآن بالتجريبية يتمشى مع الليبرالية في السياسة والنزعة الذاتية Subjectivism في علم الاخلاق ، فالفن هو مبررها الخاص ، واما علم الجمال فهو ببساطة ، التحليل الوصفي لما يشكل الاستقلالية الذاتية للفن .

وهنا تبرز الحاجة الى القول - بغض النظر عن المواقف السياسية على اختلاف نزعاتها الايديولوجية من الشيوعية الى الفاشية - إن العالم الانكلو-امريكي كان يبدو لاوروبا ، وحسب التعبير الشائع حالياً ، وحدة متكاملة لا مركز لها ، ذات حضارة مادية فارغة المحتوى ، تفتقر لاي شيء يستحق ان يسمى فلسفة . بمعنى آخر انها كانت تفتقر لاي نوع من التفكير الفهمي conceptual الذي يحاول ان يجعل للحياة ، ككل ، معنى أو للنظام الاجتماعي الذي تكون الثقافة جزءاً منه . وحسب وجهة النظر هذه فإن ما تنادي به الفلسفة في البلاد الناطقة بالانكليزية ليس سوى تمرين مسل في التحليل المنطقي في احسن الاحوال ولعبة اكاديمية في اسئها . اما ردة الفعل المشتركة للفلاسفة الامريكيين والبريطانيين لهذا النوع من النقد فهي رفض للميتافيزيقيا باعتبارها هراء قديماً ورفض للفلسفة الهيجلية باعتبارها دجلاً وشعوذة ، ورفض للماركسية باعتبارها نتاجاً او ثمرة غير شرعية للهيجلية .

ان احدى نتائج حالة عدم الفهم المتبادل هذه تفرض على اي

شخص يحاول تفسير اعمال جورج لوكاش للجمهور الناطق بالانكليزية ان يؤكد على امور تعتبر من البدهيات خارج العالم الانكليزي-الامريكي، ومن هذه الامور تحديداً انه لا يمكن للعمل ان يحتل نفس المكانة التي احتلتها الميتافيزيقية العظمى. فاذا ماتت هذه النظم فليس ثمة امل في احلال التحليل المنطقي او اللغوي مكانها. ولكن تترتب على ذلك نتيجة ابعد، وهي ان الفراغ لا يمكن له ان يملأ بدراسة الأدب. بيد ان وجوب حدوث هذه المحاولة اليائسة فعلا منذ نصف قرن يشهد على حقيقة انه حتى في ظل حضارة مغتربة عن ماضيها فان الناس لا يحيون بعبادة الحقائق وحدها. وبالرغم من النجاح العظيم في رفع مكانة النقد الادبي الى مستوى التنظير الاصيل، فمن الواضح انه ليس في وسع احد ان يقوم بدور الجمع المفاهيمي بالمعنى الهيجلي الماركسي للكلمة (او بالمعنى الكيركجاردى او البارثى Barthian نسبة الى اللاهوتى الجدلي كارل بارث). ليس بوسع الأدب او الفن ان يحتلا مكانة الفلسفة او الدين بالرغم من استطاعتهما ان ينفذا الى قيم كل منهما او احدهما. كان هذا الاكتشاف بالتحديد هو الذي انزل الفتى لوكاش من برجه العاجي وان كان سلك هذا المنحى بطريق المصادفة، بمعنى انه مسلك قد تقرر بحكم الاوضاع السياسية في بلد لوكاش-هنغاريا- وبالذور الاساسي لطبقة الانتلجنسيا التي ما كان بوسعها ان تختار، ولأسباب اللاعقلانية الرومانسية التي اعتنقها اليمين السياسي.

ونحن بطرحنا السياسة جانباً لمعالجة امر اخر، نكون قد تابعنا تطور لوكاش الخاص بشكل منطقي، لأنه لم يصبح لينينيا بمعنى الكلمة الا في عام ١٩٢٤. وحتى ذلك التاريخ كان يسعى لأن يجمع بين موقف اليسار المغالي في التطرف سياسياً (بلغة الشيوعيين) وبين تفسيره الشخصي للماركسية، الذي ظهر بشكل أخاذ في مجموعة مقالاته عام ١٩٢٣. وبعد ان وضع كتيباً صغيراً عن مؤسس البلشفية بمناسبة وفاة لينين في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٢٤ لاحت تبشير

تراجع تكتيكي عن منصب صعب المنال، مما مكن لوكاش من الاحتفاظ بموقفه الرسمي داخل الحركة الشيوعية العالمية. بيد ان ما يهمننا الآن هو تطور لوكاش الفكري خلال الاعوام ١٩٢١-١٩٢٤. فاذا حملنا هذا التحليل لمناقشة مواقفه السياسية بعد العام ١٩١٩ بشكل منفصل، فان الخطأ ينبغي ان يعزى، جزئياً الى لوكاش، ثم ان لوكاش، بعد استيعابه ماركس عن طريق هيجل ومن ثم لينين بتخليه عن مذهبه الاصيل الذي تضمنه كتابه «التاريخ والوعي الطبقي»، استطاع ان يغير الصورة التي رسمها لنفسه بشكل كلي في العام ١٩٢٤. والحقيقة ان تحوله الى اللينينية لم يبلغ التزامه بعدد من الحقائق عن التصورات العامة التي كان يحملها قبل عام ١٩١٤ حول طبيعة الكون ومصير الانسان. فقد كانت هذه الحقائق بالنسبة اليه مطلقة وموضوعية وغير تجريبية. وصحة هذه الحقائق لا يضمنها العلم بالمعنى الوصفي للكلمة ولا الايمان اللاعقلاني الاعمى، وانما النفاذ الى الطبيعة الاختبارية للحقيقة، وهي عملية فكرية قدمت فلسفة هيجل نموذجاً عنها.

لا شك ان هذا الكلام سيبدو ضرباً من التفخيم للشخص المؤمن بالتفكير المنطقي البسيط في العالم الناطق بالانكليزية. لذلك ينبغي التأكيد على انه من وجهة نظر المفكرين في وسط اوربا في تلك الحقبة- من انصار نيتشه والهيجلين مروراً بشبنغلر وهيدجر وانتهاء بلوكاش، فان التفكير المنطقي البسيط بالحقيقة التجريبية كان هو العدو، وبالطبع كان هناك تراكم هائل من التفكير الوضعي في العلوم الطبيعية يبدو وكأنه قد تأثر بالأزمة التي مرت بها العلوم الانسانية. وكانت توجد اسماء ذات نفوذ اكثرها شهرة ماكس فير- دأبت على مناصرة التفريق الكانطي الجديد بين التفكير والاستنتاج العلمي وبين الميتافيزيقيا. وبالمثال كان هناك فلاسفة بارزون من الكانطيين الجدد والوضعيين بين صفوف الحزب الديمقراطي الاشتراكي الالماني الذي احتفظ بمناصب مهمة خلال العقد الذي تلا الانهيار في عام ١٩١٨.

بيد ان هذه المناصب الفكرية سبق وان تعرضت للاهتزاز قبل عام ١٩١٤، وبعد عام ١٩١٨ واجهت حملات عنيفة من جميع الفئات السياسية. وعندما وقف لوكاش الى جانب القضية الثورية كان ذلك بمثابة التزام سياسي جاد متوافقي مع قناعاته الفلسفية التي كان يتلمس طريقه نحوها طيلة سنوات قبل ان تغير الثورة الروسية معالم القارة الاوروبية.

لقد ظهر لوكاش اصلاً على مسرح الأحداث في وقت عمّ فيه الاعتقاد الشائع بأن الخيار الوحيد المفتوح امام الشخص الذي يرفض الميتافيزيقيا التقليدية والايان الديني يكمن بين وضعية العلم التجريبي و «المذهب الحيوي» الذي نادى به فلاسفة لا عقلانيون. ومن هنا كان الافتتان بما حققه ديلثاي في حقل العلم العقلي - Geisteswissenschaft وهو اصطلاح يصعب ترجمته لكون المقطع الاول منه يحمل نبرة ميتافيزيقية تترجم بصورة غير ملائمة «بالعقل» أو «الروح». ان ما كان يعنيه الاصطلاح Geisteswissenschaft هو التطابق بين عقل المفكر التأملي والعقل العام الذي تظهر تجلياته مبثوثة امامنا في التاريخ. وبهذا المعنى فان مذهب التأويل او التفسير من النمط الذي تقدم به ديلثاي يمكن اعتباره محاولة لاعطاء الفلسفة، مرة اخرى، مركز الصدارة الذي شغلته زمان هيغل (باستثناء نظرية هيغل الروحية في الوجود التي رفضها ديلثاي بوصفه مخلصاً في هذا المقام لميراثه الكانطي الجديد معتبراً اياها نظرية اعتبارية وتأملية). والشيء الذي ميز بين علم العقل او الروح و علم الطبيعة - Naturwissenschaft هو الطريقة التي انتهجها كل من هذين العلمين بشكل لا يقل عن موضوعيهما. فاذا كانت العلوم الطبيعية تعمل وفقاً للتمييز القاطع بين الموضوع والذات، العقل والمادة، فان «علم الروح» لا شك سيكون علماً تأملياً واستبطانياً، وموضوعه سيكون العالم الذي خلقته الروح الانسانية او العقل البشري، وقد رد هذا التمييز الى فيكو Vico وردت اليه ايضاً الفكرة المرتبطة به والتي قوامها انه يوجد أو يمكن

ان يوجد علم خاص بالعقل يكون مرآة للروح وسجلاً لتطور الانسان في آن. وقد قام هيغل بدمج هذه الافتراضات الميتافيزيقية في صلب نظام وخيم، حيث فقد هذا النظام سلطته عند الفترة المتأخرة من القرن التاسع عشر بعد أن تعرض لنيران الهجوم من جانب المؤرخين الوضعيين واقرائهم علماء الاجتماع وعلماء الانسان (الانثروبولوجيين). وعندما قام الاحياء الكانطي الجديد في سبعينات القرن الثامن عشر باعادة الاعتبار للفلسفة فانما كان ذلك على اساس من الفهم بأن الفيلسوف لن يضع الملامة، بعد ذلك التاريخ، على العلماء لامور استطاع ان يتبصر بها. فالفلسفة اذن اصبحت مرادفة، واقعياً، لمنطق العلم وهو وضع مشترك بين الكانطيين الجدد والماركسيين الوضعيين امثال انجلز.

وبعد عام ١٩٥٥، ادى القلق المتزايد حول الانفصال الراديكالي بين العلم والفلسفة في ارقى معانيها *Weltanschauung* (اي كمنظرة شاملة الى الكون والعالم) الى اعادة الاهتمام بهيغل، وقد ساهم ديلثاي بقوة في هذا الصدد، فأعد دراسة نقدية في غاية العمق حول كتابات هيغل الاولى. وبهذا العمل أحدث الشرخ النهائي في ارهاصاته او (بداياته) الوضعية الشخصية، وتوج في الوقت ذاته عملاً رائعاً يمكن القول انه تركز حول فكرة واحدة: اعادة تشكيل الوحدة بين النظرية والتطبيق، وبين المنطق والأخلاق، وبين التجريبي والاستشراقي *Transcendental*، تلك الوحدة التي مزقتها كانط شر تمزيق. ان دراسة التاريخ تميط اللثام عن الطبيعة الاساسية للانسان كما هي كائنة في التجربة الانسانية كلها، والمؤرخ دخل الى حياة الاجيال السابقة بمعايشة افكارها وأعمالها في ذهنه هو. ان «علم الروح» و «فلسفة الحياة» كانا بمثابة مظهرين لعملية واحدة لا تعرف الكلل عن رؤية تتخطى التجريبية في النظر إلى الحياة والتاريخ العالمي بكلتيه المتحركة.

ويمكن استنتاج الأثر الناجم عن فصل الكانطية الجديدة بين العقل

النظري والعقل العملي في لوكاش الشاب (وفي غيره) من خلال الفقرة الافتتاحية لكتابه «نظرية الرواية» The Theory of the Novel حيث يقول:

«مباركة هي الأوقات عندما تكون السماوات طريقاً ترشد خطوطها الى السبيل التي ينبغي اتباعها، وتضيء نجومها الممرات التي يمكن سلوكها... ان العالم واسع، ومع ذلك فهو يشبه مقام المرء ذاته، فالنار المشتعلة في الروح مشتركة في جور مع النجوم... يقول نوفاليس Novalis حقاً ان الفلسفة هي الحنين، انها الرغبة في ان يكون المرء ببيته في كل مكان. من هنا فان الفلسفة، كشكل من اشكال الوجود Lebensform، هي دوماً دلالة على الانفصال او شرح بين ما هو باطني وما هو ظاهري، وهي دلالة على التفاوت الجوهرى بين الأنا والعالم ودلالة على انعدام التطابق بين الروح والفعل».

ان هذه الملاحظة العاطفية التي أبداها شاب يافع تثقف وتربى على افكار الرمزيين عند نهاية القرن، اظهرت واخفت، في الوقت نفسه، معضلة روحية حقيقية. وبعكس ديلثاي الذي نشأ في بيئة كالفينية ودرس اللاهوت البروتستانتي قبل توجهه الى الفلسفة، فان لوكاش لم تكن له خلفية دينية او صلة غريزية بجانب من الفلسفة المثالية الميتافيزيقية الالمانية، او التي سادت في القرن التاسع عشر، وهي فلسفة يمكن ان توصف بحق أنها مذهب علماني. لقد اصبح تعبيره عن يأسه الوجودي غير ممكن الا من خلال الغنائية التي غذاها هولدرلين - وهو شاعر صديق لهيجل، مات، لسوء الحظ، مجنوناً. كانت الحقائق التي ينشدها لوكاش حتى عام ١٩١٧ لا تتناسب بطبيعتها مع شكل اكثر واقعية من اشكال التعبير. من هنا فان تبنيه اللاحق للأسلوب التعليمي المصوغ على غرار اسلوب هيجل الحازم كان القصد منه اخفاء الترابط الكلي، بيد ان النقاد استطاعوا ان يدركوا الرباط بين لوكاش الشاب اليافع، ولوكاش الناضج المتمرس

في ميدان فائق الأهمية له ، هو ميدان علم الجمال . وقد سبق لأحد الذين راجعوا كتاب «الروح والأشكال» ان اظهر في العام ١٩١٢ أن لوكاش يعتبر، بصورة اساسية، كاتباً رمزياً؛ فقد كان يهدف في اسئلته الاولى حول التكنيك الشعري الى القيام بطرح فلسفة للفن يحدد فيها بدقة المسائل النهائية في الحياة .

وكان هذا الأسلوب شائعاً في الاوساط التي انتقل اليها . وقد كان يروج لذلك منذ زمن بعيد اتباع غوته الروحانيون الاكثر وعياً لانفسهم ، ومن اعظمهم توماس مان Thomas Mann . ان ما يحتاج هنا الى التأكيد هو ان لوكاش انتقل الى الهيجلية في هذه السنوات لنفس الأسباب التي دفعت ديلشاي للتخلي عن الكانطية الجديدة التي قادت العالم الاكاديمي الالماني قبل نشوب الحرب الاولى، والفارق الاساسي هو ان ديلشاي كان متعمقاً في ثقافة الطبقة الوسطى الالمانية البروتستانتية التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر، بينما كان لوكاش يشعر بأنه بلا هدف روحي في وقت كانت فيه الحضارة البرجوازية، وهي الحضارة الوحيدة التي يفهمها ويقدرها، تمر في طور الانحلال . وبعد ان اظهر نفسه بمظهر الخليفة الماركسي لديلشاي - وهو أمر لم يدعه ولكن أعماله تشهد على ذلك - غدا لوكاش وريثاً للمسائل المستعصية في فلسفة علم العقل والروح Geisteswissenschaft . كيف يمكن استخراج اليقينات الميتافيزيقية من دراسة التاريخ اذا كان البحث التاريخي ينبثق من الاعتراف بأن لكل ثقافة معاييرها الخاصة التي دخلت في عملية ادراك الواقع؟

وبالنسبة لديلشاي كان الجواب موجوداً في فعل الايمان، وهو ليس الايمان اللاهوتي الذي كان سائداً ايام شبابه، ولكنه الايمان بتلك الوجدانية الغامضة التي آمن بها كل من هردر، وغوته، وشلينغ، وشيلر ماخر وهبولدت . لقد تركز علم العقل Geisteswissenschaft على القيام بعملية فهم او

استيعاب *Verstehen* للتجربة المعاشة يتخطى فيها المفكر الفرد المستوى السيكولوجي ويعيد صياغة المعنى الموضوعي لعالم الروح كما ظهر في حضارات قومية مختلفة بفنونها وعلومها وفلسفاتها ودياناتها المميزة.

ان هذه التجليات الموضوعية للروح التي تشكل مجموعها العالم الانساني، كانت دائمة الحركة ولكنها مع ذلك تمثل عالماً يتخطى التاريخ ويعلو عليه، وهو عالم في متناول العقل التأملي. وصف لوكاش عام ١٩٦٢ وفقاً لهذا المنظور كتابه المنشور عام ١٩١٦ «نظرية الرواية» بأنه «نموذج لعلم العقل»، ومنذ ذلك الحين تبني لوكاش نظرية ديلثاي في التفسير او التأويل. ان هذه الطريقة التي شرحها ديلثاي باختصار في مقال له يعود الى العام ١٩٥٥ تشكل محاولة لاحلال التفسير المنتظم مكان الطريقة السيكولوجية في فهم البنى الرمزية التي تواجه المؤرخ في مجابهة ابداعات العقل او الروح. ولكن حيث اكتفى ديلثاي بتقديم علم للنماذج *Typology* يشتمل على النظرات الى العالم، وهي نظرات متأصلة بالتحليل الاخير في بنى نفسية ثابتة، فإن لوكاش قد رجع قاطعاً الطريق كلها الى هيجل. لقد حدد ديلثاي ثلاثة أنواع او انماط ونماذج من التصورات *Weltanschauung*: التصور الاول هو جمالي- تأملي (يعرف ايضا «بالمثالية الموضوعية»)، والثاني فعال تمثله «المثالية الذاتية» عند فيخته، والثالث التصور الواقعي الطبيعي الذي يماثله في عصره النزعة الوضعية لدى اوغست كونت وهربرت وسبنسر. ان هذا التمييز هو تمييز كانطي وليس هيجلياً، لأنه قصد أن يصور نماذج دائمة للعقل البشري. وقد احيا لوكاش، بتجاوزه لهذا التمييز، الفكرة الهيجلية، عملية التنشيط الذاتي الكامنة في الحركة الجدلية للشخصية، في مقدمة كتاب «نظرية الرواية»، حيث نجد توضيحاً مسهباً لهذه النقطة يقول فيه:

«بالطبع، ثمة نسبية تاريخية وضعية، وهي تلك النسبية التي صهرها شبنغلر خلال سنوات الحرب بالذات مع النزعات المستمدة

من علم العقل، لكي يصل الى تأريخ حاسم لكل المقولات رافضاً الاعتراف بصحة القضايا التي تتجاوز التاريخ، سواء كانت قضايا جمالية او خلقية او منطقية. ان مؤلف نظرية الرواية *Theorie des Romans* لا يذهب بعيداً الى هذا الحد، بل انه كان يبحث عن الديالكتيك التاريخي الشامل للأدب- المتأصل في صلب المقولات الجمالية وفي صلب الاشكال الادبية- والذي سوف يميل نحو علاقات داخلية بين المقولات والتاريخ، اكثر جوهرية من تلك التي وجدها في هيغل. انه كان يحاول ان يدرك شيئاً ثابتاً وسط التغير او تحولاً داخلياً ضمن استمرارية الجوهر وديمومته.

ولعل تفسير لوكاش ارهاصاته الفكرية حقق بهذه الطريقة نقطة ابعد قابلة للنقاش، وهي ان هيجليته الاصلية قد استبق توقعها ديلثاي، لأنها استندت الى قول فيكو المأثور إن الرجال يمكنهم استيعاب ما صنعوه بانفسهم ليس الا. لقد استشهد ديلثاي بفيكو ضد ديكرات والطريقة الديكراتية بشكل عام، وبذلك احيا مبدأ في البحث مشتركاً بين هيغل وماركس (وباستثناء فارق مهم هو ان هيغل وفيكو والسكولاستيين من قبلهما اعطوا فلسفة التاريخ وظيفة استعادية تنظر الى الأحداث بعد وقوعها *Retrospective*، اي ان العقل يدرس المنطق الباطني للعملية التاريخية بعد ان تكون الواقعية قد حدثت). وبحسب وجهة نظر فيكو، وهو لا يزال متأصلاً في طقس عبادة القديم، فان منطق التاريخ يتجلى من خلال حركة دائرية من التقدم (السير الى الامام) والارتداد (الفعل وردة الفعل) *Corso and Ricorso*. اما بالنسبة لاتباع المذهب الديكراتي في القرن الثامن عشر وعلى رأسهم تورغو *Turgot* وكوندروسيه *Condorcet* فان التاريخ يرمز الى التقدم الخطي المضطرد نحو حالة من الكمال في هذه الدنيا. لقد قام هيغل بالتوفيق بين طريقة فيكو وعقيدة عصر التنوير. بيد انه في الوقت الذي يتخلى فيه عن الايمان بفكرة الحركة الدائرية، فانه يبقى مؤمناً بان الروح تبلغ حالة الوعي الذاتي في الفلسفة فقط

بعد ان تكون حقبة ما قد وصلت الى نهايتها. وكما قال هيغل في مقدمة «فلسفة الحق» فان بومة مينرفا تنطلق في طيرانها عند الغسق. او لنستشهد بالوصف الأوضح الذي اطلقه ماركس على طريقة هيغل واسلوبه: «الفيلسوف يأتي متأخراً، بعد ان تقع الواقعة». ان ما يميز بين الهيجليين الشبان في عام ١٨٤٠ وبين هيغل هو ايمانهم بان التاريخ يمكن ان يصنع بشكل واع وليس اعتباطاً (بالطبع لقد كان البشر دوماً يصنعون- بشكل من الاشكال - تاريخهم، مع انهم لا يدركون ذلك).

لم يكن ماركس المفكر الكبير الوحيد في زمانه الذي اختلف مع هيغل حول هذه المسألة، بيد ان الشرح الذي احده اكتسب اهمية عالمية، لأنه دمج النظرية بالتطبيق لحركة استهدفت تغيير العالم. وبعد استعادته لهذا البعد في تفكير ماركس، وهو بعد اهمله اتباع ماركس ولم يكده يكون معروفاً لدى الاشتراكية الاوروبية ونظرتها التطورية عام ١٩١٤، اتبع لوكاش منطقاً سبق له ان ردد ذكره في كتابه «اطروحات او موضوعات حول فيورباخ».

لماذا اذن كان لا بد من وقوع الحرب العالمية الأولى، وبتحديد اكثر، الثورة الروسية؟ كي يتسنى تحطيم سيادة الفلسفة العقلية التأملية؟ ان مقدمة كتاب «نظرية الرواية» التي ظهرت في طبعة عام ١٩٦٢ تشير الى هذه النقطة المثيرة بالقول: ان لوكاش كان خلال تلك السنوات «متأثراً بشكل خاص بجورج سوريل». ولقد لفت جورج سوريل (١٨٤٧-١٩٢٢) انتباه الجمهور بكتابه «تأملات في العنف» الذي ضمنه انتقاداته اللاذعة لضحالة البورجوازية الليبرالية التي جاءت ابان موجة الاستخفاف الشائعة بالتقدم المادي. هنا نصادف الغموض الخاص للمصطلح الالمانى الذي يمكن ان يعنى «العقل» او «الروح». فإذا اخذنا بالمعنى اللاحق للمصطلح، فالعقل لا يختلف عن الحقيقة المادية، وانما يسمو عليها.

وكان من المعروف لدى المثقفين الالمان قبل عام ١٩١٤ من ذوي

الميول المحافظة والرومانسية ان الكلمة الالمانية ثقافة او حضارة -Kul tur تختلف عن Civilization او «المدنية» السائدة في غرب اوروبا، باعطائها الروح صفة الاولوية في صنع التاريخ. بيد أن الروح كانت تأملية اكثر من كونها فاعلة. لذلك فان استخدام ديلثاي تاريخ العقل او الروح قد يصور دون شك (روح العصر) كما بدت في كل الآداب والعلوم. ولكن المؤرخ لا يستطيع ان ينقل الحقيقة كما بدت في عصره. ان التاريخ الفكري بامكانه- وهو يقوم بذلك فعلاً- صياغة الت موضوعات المختلفة للروح ابتداء من الوعي وحتى الاساليب والازياء المتغيرة في الفن، ولكنه عاجز عن تغيير الظروف المادية التي اوجدت ثقافة معينة «وروحها السائدة».

وبالنسبة لافتراضات ديلثاي التي تتعلق بمسار الأحداث منذ قيام عصر النهضة بتحرير العقل البشري من ظلمة اللاهوت، فان هذا التباعد او الانفصال بين التاريخ وكتابة التاريخ لا يشكل عقبة تذكر. فقد كان ديلثاي ليبرالياً إلى حدّ الايمان بأن التقدم كان حقيقياً، فالبشرية اخذت تعي بالتدريج وحدتها الأساسية، وقد عبرت عن وعيها الذاتي بادراكها المستمر للعملية التي تسمى التاريخ. «ان الوعي التاريخي يحطم آخر القيود، تلك التي لم تستطع الفلسفة والعلوم الطبيعية ابدأ تحطيمها، وبذلك يصبح الإنسان حراً بشكل كامل الآن». فالتاريخ الروحي او الفكري، باعتباره التاريخ الجامع للروح الانسانية، يقدم الدليل على ان البشرية بلغت سن الرشد. ان النسبية التي يتضمنها هذا النوع من الوعي لم تصبح مشكلة للمفكرين الالمان الا بعد ان توارى ديلثاي عن مسرح الأحداث. ان الانهياط التي صنفتها للنظرات الى العالم اشبعت توجة الخاص الى اليقين: «بوسعنا ان نعرف ماهية الروح البشرية من خلال التاريخ فقط. ان هذا الوعي الذاتي التاريخي يسمح لنا بتكوين نظرية منهجية عن الانسان». وبناء على هذا الافتراض الهادىء فان النمط التأملى في التفكير لم يكن ملائماً للمؤرخ فحسب، بل إنه يؤكد صحة رأي الفيلسوف ايضاً. ان

«التاريخية» أوجدت تبريراً لنفسها عن طريق تعريتها البنى الملازمة للنفس البشرية، وقد انعكست صورة هذه البنى في تاريخ الفلسفة، حيث كانت أنماط التفكير الأساسية نفسها في حالة صراع داخلي. فثمة توحد بين هذه الطريقة وبين بصيرة هيغل، بيد أن مبدأ الصيرورة الهيغلي كان ناقصاً، ومن جهة أخرى كان ديلاي يشارك هيغل في طمأننته ونزعتة إلى السكينة وإلهدوء Quietism فقد استشف أو أدرك منطق هذه العملية وكان هذا كافياً بالنسبة إليه.

أما بالنسبة لافتراضات هيغل (الناجمة على منوال افلاطوني) فإن الحركة الدائرية للعقل، عندما تقوم بخلق العالم أولاً ثم تصبح واعية لذاتها في الفلسفة، فإنها تسمح بنمط واحد من التفكير هو النمط التأملي. ولننظر كيف يصفها هيغل في عام ١٨٠٧ بقوة لا مثيل لها واعتقاد جازم في الفقرة الختامية من كتابه «فينومينولوجية الروح»:

«ان الهدف، وهو المعرفة المطلقة أو معرفة الروح لذاتها كروح، يجد طريقه في تذكر الأشكال الروحية كما هي في حقيقتها، وكما تقوم بإتمام تنظيم مملكتها الروحية. ان المحافظة عليها، اذا ما نظر اليها من زاوية وجودها الحر الذي يظهر بشكل طارئ على صورة الامكان او الجواز، هي التاريخ، واذا ما نظر اليها من زاوية تنظيمها الفكري المدرك فهي العلم بالطرق التي تظهر فيها المعرفة. وكلاهما معاً، او التاريخ في فهمنا الفكري لهذا التاريخ، يؤلفان مرة واحدة التذكر للروح المطلقة وجلجلتها، دافع عرشها وحقيقته و يقينته. وبدون ذلك فإنه فاقد الحياة موحش ومنبوذ فقط...»

«كأس هذا العالم من الأرواح يطفو منها الزبد حاملاً إلى الله لا نهايته».

هذا البيت من الشعر هو اقتباس من أبيات الشاعر شيلر الذائعة الصيت «من كأس الروح بأكملها تطفح اللانهاية امام ناظريه»، وهي الأبيات التي عاجلها مؤرخو الفلسفة معتبرين أنها صياغة رومنطيقية

للموضوعية التي تتناولها محاورة افلاطون وعنوانها «طيماس». وبينما نجد هيغل قد تصرف بعض الشيء في نص شيلر، فجاءت صياغته على النحو الآتي: «من كأس مملكة الروح هذه تطفح امامه لا نهائيته»، فانه حافظ على روح القول الوارد على لسان الشاعر: فالإله الذي يبدع عالماً من الأرواح المتناهية، هو إله غير كاف بالنسبة لذاته، ويقع سر المثالية الالمانية في القناعة الراسخة والقائلة إن جوهر هذا الإله لا يمكن فهمه بواسطة الروح البشرية. لقد أدى هذا المعتقد الباطني غرضه خلال القرن التاسع عشر، ولكن، بينما استهوت الفنانين رسالته الافلاطونية، فهي قد اخفقت بحكم الضرورة في ان تقيم اتصالاً مع الباعث (الحافز) النقدي الناشئ عن انهيار النزعة الجمالية التأملية في العام ١٩١٤ :

«لهذا السبب، فإن العصر الحاضر في «نظرية الرواية» لا يتسم طابعه بعبارات هيغلية، بل يوصف - لكي نستخدم صياغة فيخته - بأنه «عصر من الانحطاط الكلي». لكن هذه التشاؤمية المشوبة بالأخلاق نحو التاريخ لم تشر إلى تراجع عام عن هيغل وتوجه صوب فيخته، بل كانت تمثل التوجه نحو حقن الديالكتيك الهيجلي للرواية بأفكار كيركغارد. لقد امتلك كيركغارد بالنسبة لمؤلف «نظرية الرواية» مغزى بارزاً، فقد قام خلال السنوات التي قضاها في هايدلبرغ عشية الحرب، بالعمل على دراسة تناول نقد كيركغارد لهيغل، لكنها لم تنجز ابداً. واذا كنا نذكر هذه الوقائع هنا، فليس مرد هذا اسباباً تتعلق بالسيرة الحياتية، بل ان الهدف هو التركيز على نزعة اتخذت اهمية فيما بعد في الفكر الالمانى. ومن الصحيح ان التأثير المباشر الذي مارسه كيركغارد أدى الى قيام وجودية هيدغر وياسبرز، وبالتالي الى عداء مكشوف تقريباً نحو هيغل. لكن يجب علينا ان ننسى ان النهضة الهيجلية كانت في حد ذاتها تعمل بنشاط وقوة في محاولتها الرامية الى تقديم هيغل وكأنه قد وقف على مقربة من اللاعقلانية. هذه النزعة يمكن ملاحظتها سابقاً في دراسات ديلشاي عن هيغل الشاب

(لوكاش ١٩٢٢).

يختلف هذا الوصف الذاتي المميز اختلافاً بارز المعالم عن مقالة السيرة لذاتية وعنوانها «طريقي الى ماركس» *Mein Weg zu Marx* ، وهي المقالة التي اسهم بها لوكاش عام ١٩٣٣ في الدورية الشيوعية «الادب العالمي» (*International Literature*). فقد رأى القارئ هناك ان لوكاش الشاب، بعد ان قرأ «البيان الشيوعي» وهو لما يزل تلميذاً في المدرسة الثانوية (الجيمنازيوم)، تأثر الى حد جعله يتصدى لقراءة كراريس ماركس السياسية. وليس هذه فحسب، بل ان يقرأ المجلد الاول من كتاب «رأس المال». وفي الوقت ذاته، فان اهتمامه الى الاشتراكية لم يترك أثراً في نظريته الاساسية لأسباب وصفها لوكاش عام ١٩٣٣ كما يلي:

«وكما هو من الطبيعي لا غير، في حال مثقف بورجوازي، فان هذا التأثير انحصر في الاقتصاد ولا سيما في علم الاجتماع». اما الفلسفة المادية- ولم أقم حينذاك اي تمييز بين المادية الجدلية والمادية غير الجدلية- فقد اعتبرتها قديمة العهد كلياً بالنسبة الى نظرية المعرفة. والعقيدة الكانطية الجديدة في «محاثة الوعي او الوجدان» تطابقت خير تطابق مع موقعي الطبقي ونظرتي الى العالم حينذاك. فلم أعمد الى اخضاعها لأي ضرب من ضروب التفحص النقدي، وقبلتها دون اعتراض معتبراً اياها نقطة البداية لأي نوع من أنواع البحث في نظرية المعرفة. حقاً، لقد كانت لدي تحفظات بشأن المثالية الذاتية المتطرفة (بالنسبة لكل من مدرسة ماربورغ الكانطية الجديدة وفلسفة ارنست ماخ)، وذلك لأنني لم أفقه كيف ان مسألة الواقع يمكن معالجتها ببساطة كمقولة محاثة من مقولات الوعي (الوجدان). لكن هذا الأمر لم يقدني الى نتائج مادية، بل قادني بالأحرى الى تلك المدارس الفلسفية التي حاولت ان تحل هذه المشكلة بطريقة نسبية لاعقلانية، حيث كانت تميل بين الحين والحين نحو الصوفية (فيندلاند وريكرت وسيميل وديلثاي). ان تأثير «سيميل»، الذي تتلمذت عليه آنذاك،

قد اتاح لي ان ادمج تلك العناصر من تفكير ماركس التي كنت استوعبتها خلال هذه الفترة دمجاً متكاملًا في مثل تلك النظرة الشاملة الى الكون والعالم».

وفي تفسيره على هذا النحو بأن لامبالاته حيال الفلسفة المادية كانت شيئاً طبيعياً لا غير بالنسبة لمثقف بورجوازي شاب ينتمي الى حقبة ما قبل ١٩١٤ لا بد وأن لوكاش قد حير تلك الفئة من بين قرائه الذين تذكروا انه في العام ١٩٢٣ (بعد انقضاء اربع سنوات على الدور الرئيسي الذي لعبه في الثورة المجرية المجهضة عام ١٩١٩) لم يكن على استعداد بعد لأن يأخذ «المادية الجدلية» بعين الجد. وربما اعترت البعض منهم الدهشة والعجب حين رأوا تلك الدرجة من السهولة بالنسبة لفتى هو سليل البورجوازية الرفيعة قبل عام ١٩١٤ يتقبل العقيدة الماركسية عن الصراع الطبقي، بينما هو في الوقت ذاته يقاوم التعاليم غير المؤذية نسبياً والمتضمنة في المادية الفلسفية. لكن علينا ان نتذكر ان لوكاش في العام ١٩٣٣ كان يخاطب جمهوراً اسيراً، وفضلاً عن ذلك فانه شعر بواجب يلزمه في دحض مثلثته الفتية، بينما راح يؤكد انه حتى في ذلك الحين لم يكن يجهل من هو ماركس. إن كتاب جورج سيميل «فلسفة النقود» وكتابات ماكس فيبر عن البروتستانتية زودته بمثال عن «سوسيولوجية الأدب» (علم اجتماع الأدب)، حيث كانت العناصر الباهتة بحكم الضرورة والتي استقاها من ماركس لا تزال موجودة، وان لم تكد تكون قابلة للادراك حقاً. ان العناصر الماركسية (المأخوذة من ماركس) هي غير مدركة بالحس، حتى ان أشد اتباع لوكاش عناداً وتحمساً لم يتمكنوا أبداً من التعرف اليها. والحقيقة هي ان لوكاش خلال تلك السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى كان موزعاً بين كانطية لاسك الجديدة وبين هيغلية ديلثاي الجديدة وبين لاعقلانية كيركغارد الدينية وبين النزعة الجمالية للحلقة الملتفة حول جورج وغوندولف.

وبينما عكس تفسيره السياسي تأثير جورج سيميل، الذي كان

حينذاك- على الصعيد الفلسفي- من المعجبين بهنري برغسون، فإن شيئاً من هذا كله ليس ضاراً بسمعة لوكاش، لكن المرء لا يمكنه تفسير ذلك بعبارات لها صلة وثيقة بموضوع «موقعه الطبقي». وعليه فمن الأقرب الى الصدق والصحة ان نقول إن قلقه الروحي كان المرآة لمدينة هي حينذاك على وشك التعرض لأولى ازماتها الكبرى.



توماس مان

الفصل الثالث

قد يشعر بعض القراء لدى اطلاعهم على الفصل السابق باغراء يحدوهم الى الاستنتاج بأن مؤلف «التاريخ والوعي الطبقي» كان منظراً ماركسياً بارزاً، وأنه شخص مجري، لكنه بصورة عرضية فقط، تلقى تعليمه الاساسي في حقل الفلسفة في المانيا قبل الحرب الاولى. ان هذا الانطباع ينبغي تصحيحه بالعودة الى المصادر الأولية لتطور لوكاش السياسي والفلسفي. لقد بينا ان هذه العملية تتضمن تمييزاً مصطنعاً بين مواضيع وثيقة الصلة فيما بينها واهمها تراجع لوكاش التدريجي عن الجمالية بعد عام ١٩١٤ وانها كاه في السياسة خلال العقد الممتد من ١٩١٩ - ١٩٢٩.

ان التاريخ الحاسم هو العام ١٩١٩ وذلك عندما اصبح شخصاً بارزاً يشغل منصب «مساعد رئيس الدائرة الثقافية» في الجمهورية الهنغارية السوفياتية، والأهم من ذلك أنه اصبح شخصية قيادية في الحزب الشيوعي المؤسس حديثاً. وبحكم منصبه الرسمي احتل، لوقت قصير، مكانة هامة في الجبهة السياسية. بيد أن انغماسه الاساسي في شؤون الحزب حدث بعيداً عن أنظار الجمهور وحظي باهتمام أقل. علاوة على ذلك، فان تطور لوكاش الفكري قبل العام ١٩١٩ لم تسلط عليه الاضواء الا حديثاً وعلى يد منظر هنغاري مجهول يدعى ارفين تسابو او تشابو Ervin Szabo، وهو سليل عائلة يهودية تنتمي للطبقة الوسطى، التحق بجامعة فيينا، (١٨٩٩ - ١٩٠٣) كطالب يدرس التاريخ والفلسفة، وهناك تعرف على المواطنين الروس المنفيين الى فيينا، واصبح ماركسياً، ولكنه تشقف ايضاً بكتابات برودون ونيتشه ولافروف وكروتكين. وعند عودته الى بودابست عهد اليه قادة الحزب الاشتراكي بمهمة تحرير كتابات مختارة لماركس وانجلز تقع في ٣ اجزاء، ومنذ عام ١٩٠٥ اتخذ تشابو موقفاً معارضاً لقيادة الحزب الديمقراطي الهنغاري شبه البالية مهاجماً عاداتها البيروقراطية

ورضاها بالتطور البطيء، ومعارضاً موقفها السلبي تجاه المبادئ النقابية- الفوضوية التي راجت في فرنسا على يد قادة العمال الذين تصوروا قيام ثورة البروليتاريا على شكل اضراب عام. كانت النقابية الفوضوية مذهباً مثيراً، تتقرب الى كل من ماركس وبرودون وسوريل وباكونين في وقت واحد. وفي فرنسا كان لها اتباع بين الطبقة العاملة، وجرى تبنيها رسمياً من المنظمة النقابية الاساسية «الاتحاد العام للعمال Confederation general du travail» في ميثاقها «ميثاق اميان» Charte d'amiens في اكتوبر/ تشرين الاول ١٩٠٦. اما في هنغاريا، فإلى جانب معارضة الحزب الاشتراكي لها فقد وقفت النقابات ضدها، ولكنها كانت تنشط في صفوف الطلاب والمثقفين بصورة أساسية، ولما كان جلهم ينتمون الى طبقة الانتلجنسيا ومن اصل يهودي، فان ما بدا على شكل خلاف نظري قد تحول تدريجياً الى عداوات عنصرية، اضافة الى الازتياب الطبيعي الذي شعر به منظمو العمل الواقعيون تجاه المثقفين الثرثارين من الطبقة الوسطى. وقد تفاقم هذا الكره المتبادل في عام ١٩١٨-١٩١٩ بسبب كون غالبية القيادة الجديدة للحزب الشيوعي الهنغاري من المثقفين، الذين القى الديمقراطيون الاجتماعيون عليهم مسؤولية فشل تجربة الحكم القصيرة وما أعقبها من اضطهاد دموي للاشتراكيين والشيوعيين على حد سواء على يد الثورة «البيضاء» المضادة. لم يكتب «لتشابو» الذي توفي في ايلول عام ١٩١٨ ان يرى تكراراً للمحاولة الفاشلة للاستيلاء على السلطة، كما فعل لينين، ولم يعرف بأنه منح عضوية فخرية في «اكاديمية موسكو الاشتراكية» وان مركزه كمنظر اول لليسار الهنغاري قد آل الى لوكاش.

انتحل نادي الطلاب الاشتراكي الذي أوجده عام ١٩٠٢ اسم «الطلاب الثوريين الاشتراكيين في بودابست»، واعتبر لوكاش من بين اعضائه المؤسسين، وقام بعض من اتباع النادي السابقين ممن لم يغادروا هنغاريا، بالتردد على محاضرات تنظمها منظمة اقل تطرفاً

تسمى «حلقة غاليليو Galileo Circle» التي تأسست في خريف عام ١٩٠٨ للاهتمام بالمصالح الطلابية، ولإيجاد منتدى للنشاطات الثقافية داخل الجامعة. وأكدت «الحلقة» في بيانها الافتتاحي: «انطلاقاً من الوعي الكامل بالدور التاريخي للمثقفين... نعاهد على توحيد الطاقات الفكرية للطلاب الهنغارين وتقويتها... لتمكينهم من أن يصبحوا مهياًين ومقاتلين مدركين أهمية تحرير هنغاريا اجتماعياً». ولتحقيق هذا الهدف شجعت «الحلقة» الحملات الديمقراطية المعادية للاكليركية، من النوع الذي يلقي التأييد الطبيعي من العناصر الليبرالية اليسارية، خاصة في بلد مثل هنغاريا، حيث كان النظام الحكومي القديم - بالرغم من شكله البرلماني - غير ديمقراطي على الاطلاق. ونظمت «الحلقة» ايضاً محاضرات وندوات حول الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم الجمال. وكان من بين المحاضرين البارزين ادوارد برنشتاين، والباحث الماركسي النمساوي ماكس أدلر Adler. لقد أوجدت الحلقة «بالرغم من استقطابها عدة مئات من التلاميذ فقط، مناخاً للتعبير عن الآراء بشكل جماهيري»، واعتبرت هذه الآراء حسب المقاييس المحلية، متطرفة ان لم تكن تخريبية تماماً. ويمكن القول إن معظم اتباعها من الليبراليين المتطرفين، بيد انهم اختلطوا بمجموعة فوضوية - نقابية صغيرة، أصبح تشابو منظرها الملهم، ولم تحظ اية مجموعة من المجموعتين بتشجيع الحزب الديمقراطي الاجتماعي الهنغاري، فقد كان منهماكماً بتنظيم العمال، ثم إن قاداته وضعوا ثقتهم في تحليل كارك كاوتسكي الحتمي للماركسية، وقد دفع اشمئزاز تشابو من معتقد الديمقراطيين الاجتماعيين ورضاهم عن أنفسهم الى اعتناقه النزعة النقابية Syndicalism. أما الآخرون - ومن ضمنهم المنظر الشيوعي لا تزلو روداسي - فقد اختلفوا بشدة مع القيادة الرسمية الأمر الذي تسبب في طرد الصحافي الشاب جيولا الباربي من الحزب، وقد سبق للباربي ان قام بعدة محاولات عصيان فاشلة (جرى اتخاذ قرار طرده في مؤتمر الاشتراكيين الدوليين الذي

عقد عام ١٩١٠ في كوبنهاغن).

وقد عارض قرار طرده كل من لينين وروزا لوكسمبرغ. وبالرغم من أن لوكاش لم يكن متورطاً بهذه المسائل السياسية البحتة، فقد بقي على صلة مع تشابو الذي كان يمثل بالنسبة إليه كل ما هو حي وقيم في التقليد الاشتراكي. وهذا ما يفسر اشاراته شبه الاعتذارية لسوريل في وقت لاحق، وهو مفكر استنار تشابو بكتاباتهِ واعتبرها جزءاً من عدته الايديولوجية. من هنا أيضاً نستطيع ان نفهم كيف بدأت فكرة «الوعي» تأخذ دوراً مهماً في تفكيره، ويمكن استنتاج دلالات هذا المفهوم بالنسبة للمفكرين في بودابست من خلال الرسالة التي بعث بها اوسكار جاتشي الى الراديكالية النافذة، والتي قالت عند ظهورها في أول يناير/ كانون الثاني ١٩٠٠: «ينبغي علينا نحن المثقفين العمل على تحويل الوعي المنقوص الذي يعشش في نفوس الجماهير الى وعي متكامل حول العالم، وان نقوض المجتمع القائم باسلحة الاخلاقية والعلم والفنون». اننا لا نلمس في هذا البيان شيئاً اشتراكياً او ماركسياً باستثناء التأكيد على الدور الأساسي للمثقفين في توضيح دور الوعي الجماهيري والتعبير عنه. كان جاتشي الذي يستعير أحياناً بعض المصطلحات النقيابية، يؤمن بأن المسألة الاساسية في هنغاريا هي ملكية الاراضي، وهو إيمان معقول جداً شاركه فيه الديمقراطيون المعتدلون. لقد قام جاتشي، بوصفه اشتراكياً، بالتأثير في تشابو الذي قام بدوره بالتأثير في لوكاش، وتجدر الاشارة هنا الى ان تشابو اعتبر الاشتراكية، في مقالة له نشرتها مجلة «الزمن الجديد» *Neue Zeit* التي يرأسها كاوتسكي، متطابقة مع الحرية وبالتحديد مع ما دعاه «النظام العالمي الديمقراطي». لم يرفض تشابو، بحكم اخلاقيته الصارمة، اللعبة البرلمانية السياسية فحسب، بل رفض التسويات السياسية في حد ذاتها- وهذا النوع من الأخلاقية ينسجم، الى ان يتم الاستيلاء على السلطة، مع الحماسة الثورية للحركة النقيابية، وبعد ذلك تتخذ مشكلة ابقاء الثورة «نقية» وغير فاسدة شكلاً آخر.

ولكن لنتوقف الآن قليلاً عند مجلة اوسكار جاتشي «القرن العشرون» "Huszadik Szazad". في بادئ الامر كانت هذه المجلة الشهرية تلقى دعماً من رجال الأعمال الأثرياء والمحامين، الا ان توق محررها الشديد للاشتراكية ادى الى وقوع الطلاق بينهما مما حمل جاتشي واصدقائه إلى الميل اكثر نحو حركة العمال. وكان الهدف الأساسي من إصدار المجلة هو تشجيع المآرب الديمقراطية الليبرالية في بلد شديد المحافظة يحكمه الاقطاعيون والعسكر ورجال الدين. وبعد مرور سنة على تأسيسها اوجد محرروها «جمعية العلوم الاجتماعية» التي اصبحت من ساعتها منتدى للمساجلات الدائرة حول المزايا النسبية للنزعات الماركسية والنقابية وغيرها، مما يدفع الى القول ان الراديكاليين اكتشفوا الاشتراكية وعلم الاجتماع في وقت واحد. وقد كان جلهم من عائلات موسرة، وكان من الممكن ان يكونوا راضين كل الرضا عن الليبرالية فيما لو كان لها امل ضئيل بالنجاح في بلد مثل هنغاريا، حيث كانت الديمقراطية تعني الثورة بالتأكيد (لأنه ليس ثمة شك في أن جمهورية ديمقراطية سوف تجرد الاقطاعيين الذين يملكون ثلث اراضي هنغاريا من ممتلكاتهم ومن سيطرتهم على الحكومة والبرلمان). ومن هنا فان وضع هنغاريا هو أقرب الى وضع روسيا القيصرية منه الى المانيا او اوروبا الغربية. فالتحول الديمقراطي لا بد وان يكون مقبولاً من حيث الأساس من الطبقة الوسطى، بيد ان بعض المعتدلين من أبناء هذه الطبقة، والذين سبق لهم ان ساندوا هذه المغامرة، سرعان ما سحبوا تأييدهم، وعندما انسحبوا لم يكن امام جاتشي ورفاقه سوى خيار واحد، وهو أنهم اذا ارادوا كسب الجماهير الى جانبهم، فلا بد ان يوجهوا اهتمامهم نحو البروليتاريا الصناعية، ولكن ما الهدف من وراء ذلك؟

لقد كانوا يهدفون، حسب التعبير الماركسي، الى احداث «ثورة بورجوازية»، حتى وان كانت معتقداتهم الشخصية اشتراكية او نقابية، وهذا النوع من الغموض المألوف جداً في عصرنا، كان جديداً بالنسبة

الى المثقفين الهنغاريين في عام ١٩١٠ ، بالرغم من ان الراديكاليين الروس والبولنديين جاهدوا عشرات السنين في سبيل تلك الثورة . ان الحديث عن رفع مستوى وعي الجماهير الى مستوى الطليعة المثقفة سيكون مألوفاً لشخص مثل لينين وروزا لوكسمبورغ ، ولهذا السبب بالتحديد لم يواجه لوكاش - الذي كان مثل تشابو «يكتب لمجلة القرن العشرين» - صعوبة تذكر بعد عام ١٩١٧ في الانتقال من جورج سوريل الى الاشتراكية الثورية التي نادى بها روزا لوكسمبورغ ومن ثم الى اللينينية .

وكان هناك شيء آخر ، وهو ان الدور الاساسي للمثقفين ترجم نفسه بصورة تلقائية الى مذهب يقول إن الاصلاح الخلقي ينبغي ان يجل مكان الثورة السياسية ، من هذا المنطلق وصف جاتشي مجلته الليبرالية بأنها «تعبير عن تركيبة روحية وخلقية جديدة» . اما تشابو ، مساعد رئيس التحرير في مجلة «القرن العشرين» ونائب رئيس «جمعية العلوم الاجتماعية» ، فلم يكف عن التأكيد على أهمية الدوافع الخلقية الكامنة في الرسالة الاشتراكية الاصلية . وخصص لوكاش مقالة عام ١٩٢٠ لمعالجة مشكلات الأخلاقية الشيوعية . وهذه المقالة كتبت بالالمانية ونشرتها مجلة «الشيوعية» *Kommunismus* لسان حال الأمية الشيوعية ، والتي تولى تحريرها في فيينا . وقد حملت العنوان التالي : «الرسالة الخلقية للحزب الشيوعي» وكانت عبارة عن تنمة لمقال سابق وبخه عليه لينين لأنه دعا فيه الى مقاطعة الانتخابات النيابية . وقد وقف لينين في هذه المناسبة الى جانب قائد الحزب الهنغاري «بيلاكون» *Bela Kun* (اعدم فيما بعد بناء على أوامر ستالين في عام ١٩٣٩) في وجه لوكاش ، اليساري المتطرف ، الذي بقي يحتفظ حتى بقايا ايمانه بالنقابة .

بيد ان الحادثة ينبغي ان لا تحظى باهتمامنا هنا ، فالذي يعتبر مثيراً حقاً هو تعريف لوكاش لـ «الرسالة الخلقية» للحزب الشيوعي . فقد كتب يقول في مقالته التي سبق ذكرها (وقد اعيد طبعها في «كتابات

حول الايديولوجية والسياسة): ان «الحزب هو التعبير التنظيمي عن الارادة الثورية البروليتارية» .

ان هذه الصياغة التي تتوافق مع طريقة روزا لوكسمبورغ في التعبير اكثر من توافقها مع طريقة لينين تعود الى الأيام السابقة قبل عام ١٩١٤ عندما وضع لوكاش ثقته السياسية في «القرارية» الفوضوية النقابية التي نادى بها سوريل وتشابو. ان التوجه الأساسي الذي يتضمنه هذا النوع من التنظير كان متفقاً تماماً مع الاخلاقية التي تشرها في هايدلبرغ عندما كان تلميذاً وصديقاً للمفكر لاسك، فاعتبار دور الوعي (الضمير او الوجدان) حاسماً، اي عدم اعتباره ظاهرة مصاحبة للعملية التاريخية الواقعية، كان ايماناً مشتركاً بين جميع هؤلاء المفكرين .

انطلاقاً من هذه الافتراضات، اصبح بوسع تشابو ان يتحول بعد عام ١٩١٧ من النقابية الى البلشفية وذلك فور ان قامت الثورة الروسية بمنح مجالس العمال، التي اخذت تحل مكان المؤسسات البرلمانية البورجوازية، حق النظر في الأمور. لم تكن سيطرة حزب لينين على السوفييات (التي كان فقدانها يعني الوقوع تحت سيطرة حزب سياسي آخر) واضحة للماركسيين في وسط اوروبا، ولكن بعد مرور عقد من الزمن اعتنق خلاله لوكاش اللينينية وتحلى عن هرطقاته اللوكسمبورغية، اصبحت هذه السيطرة اكثر وضوحاً. ولعله من الأهمية بمكان ان يشار هنا الى الاضطرابات الفكرية التي اعقبت الحرب، والتي ادت الى ظهور نوع جديد من النخبوية Elitism على المسرح اليساري السياسي، ونعني بذلك حكم التكنوقراط. لم يبذل الحزب الديمقراطي الاجتماعي او الاتحادات التي يسيطر عليها جهداً خاصاً لتنظيم المهندسين الصناعيين او العلماء او المخططين وباقي الملاكات الادارية والموظفين من ذوي الرتب العالية اصحاب الياقات البيضاء White Collar Workers . وكانت الحرب قد دفعت بهؤلاء الاعضاء المتتمين الى «الانتلجنسيا

الانتاجية» حسب تسمية بعض الكتّاب لهم - صوب التطرف، وشكلوا في بداية عام ١٩١٧، بعد ان اثارتهم المراحل الأولى من الثورة الروسية وقبل تولي البلاشفة السلطة، نقابة خاصة بهم لتحقيق هدفين: الأول حماية مصالحهم في الشركات، والثاني مساعدة النشاطات المعادية للحرب التي سبقهم اليها بعض العمال النشيطين النقابيين والمنشقين من الاشتراكيين. وقد ادى اهمال وتوبيخ القادة النقابيين والحزب الديمقراطي الاجتماعي لهم إلى ان قام هؤلاء التقنيون المسيسون **Politicized Technicians** باختراع ايدولوجية اشتراكية خاصة بهم عرفت فيما بعد باسم «اشتراكية المهندسين» **Engineer Socialism**. ويمكن القول إن غيولا هفيزي (وهو منظرهم الأول) احيا مجدداً لسان سيمونية **Saint Simonism**، بالرغم من أنه لم يكن ينظر اليها بالتأكيد بهذا المنظار. وحسب رأي المؤرخ جوزف لنجيل الشيوعي لاحقاً، فان هفيزي وضع «خطة لاجداث ثورة عن طريق القيام بعمل تحريبي متفق عليه يقوم به التقنيون والمهندسون الذين كان من المقرر ان يقوموا بالدور الأساسي في عملية التحولات الاجتماعية»، ورفض هفيزي نظرية ماركس حول فائض القيمة **Surplus Value**؛ فهو يعتقد أن الجزء الأساسي من فائض القيمة يتأتى من المخترعات الهندسية والتقنية... اما العمال فكان عليهم ان يكونوا حلفاء مساعدين في معركة «المنتجين المبدعين».

وانطلق اليساريون المثقفون، ممن تشبعوا بالايان التكنوقراطي، للعمل. وفي نهاية عام ١٩١٧ وطّدوا علاقاتهم مع منظمي النقابية في بودابست على حساب الديمقراطيين الاجتماعيين والنقابات شبه الرجعية التي يسيطرون عليها. في هذه المرحلة انضم اليهم كل من الماركسيين المثقفين من «حلقة غاليليو» وتشابو واتباعه من الطلاب، واشتراكيون بارزون معادون للحزب من امثال ايلونا دوتشينسكا التي كانت قد وصلت آنذاك من سويسرا تحمل كتابات ومنشورات دعائية اعطتها لها صديقة لينين انجيلكا بلابانوفا **Balabanova**، وكان

التحريض ضد الحرب بين مستخدمي المحلات الذين كانوا متعاطفين أصلاً مع الأفكار النقابية، عاملاً مهماً في الأحداث المساوية التي وقعت عام ١٩١٨-١٩١٩ عندما انهار الحكم القديم في هنغاريا تحت وطأة الهزيمة العسكرية في الخارج والاضطراب العام في الداخل. وعقب انهيار المملكة النمساوية الهنغارية في نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩١٨، أصبح الطريق مهدياً امام تجربة جمهورية هنغاريا السوفياتية القصيرة. وبعد استقالة حكومة الكونت كارولي Karolyi (التي ضمت اوسكار جاتشي) عن الراديكالية البورجوازية في ٢١ اذار عام ١٩١٩، أصبحت الطريق ممهدة امام الديمقراطيين الاجتماعيين لاقامة حكومة ائتلافية مع الشيوعيين الذين أطلق سراح قادتهم في اليوم ذاته، واصبحوا بعد مضي ٢٤ ساعة فقط مفوضي الشعب Commissars.

وكانت مساهمة لوكاش في هذه الأحداث الكبيرة مهمة. فبعد عودته الى بودابست قادماً من هايدلبرغ في عام ١٩١٧، حيث مكث فيها بين عامي ١٩١٥-١٩١٦ يعمل مراقباً للبريد، وهي مهنة يمكننا القول إنه كان ينظر اليها بروح ليبرالية، انضم الى عالم الاجتماع العتيد كارل مانهايم Mannheim والى مدرسة الناقد الفني أرنولد هاوزر Hauser في «المدرسة الحرة للعلوم الانسانية». وكان هذا مشروعاً يغذي التيار العام للراديكالية المثقفة، بيد أنه لم يكن يحمل طابعاً حزبياً سياسياً. اما موقف لوكاش خلال تلك الفترة فقد وصفه اصدقاءه المقربون خير وصف حين قالوا انه موقف «اشتراكية خلقية تتصف بمسحة من تولستوي». ومن المؤكد انه لم ينضم الى الحزب الشيوعي فور تأسيسه في نهاية نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩١٨ على اثر اصرار كون، الذي كان قد عاد حديثاً، على الانفصال رسمياً عن «الاشتراكيين» محدثاً بالنتيجة انشقاقاً- بمساعدة مستخدمي المحلات النقابيين والديمقراطيين الاجتماعيين المنشقين والفوضويين المثقفين واتباع هفيزي من جماعة «اشتراكية المهندسين» الذين اختير قائدهم

عضواً في اللجنة المركزية في ١٥ ديسمبر/ كانون الاول بالرغم من ميوله غير الماركسية .

وخلال هذا الشهر- التاريخ الدقيق غير مؤكد- انضم لوكاش، بعد تردد اظهره في البداية، الى الحزب الشيوعي، ولكنه لم يكن بين اعضاء اللجنة المركزية التي عينت نفسها، والتي سيطرت عليها مجموعة بيلا كونKun البلشفية بالاضافة الى اربعة اعضاء من الديمقراطيين الاجتماعيين من بينهم لانتشلو روداسRudas الذي ميز نفسه لسنوات عديدة بمعتقد لينيني- ستاليني جريء. والمهم هنا أنه خلال الفترة القصيرة الممتدة من شباط/ فبراير الى آذار/ مارس عام ١٩١٩- وعندما كان بيلا كونKun ورفاقه الحميمون في السجن - فان لوكاش (يساعده زاملي Zamely وجوزيف ريفاي Revai وأرنو يتلهاييم وألك بولزارBolsar) لم يقوموا بادارة امور اللجنة المركزية السرية فحسب، التي سيطر عليها جهاز الحزب في ذلك الوقت، بل انهم وجهوها نحو مسار يساري متطرف وانضموا الى الآخرين للتحضير لانتفاضة ايار/ مايو المسلحة. ويبدو ان غياب بيلا كونKun الموقت وباقي القادة المدربين في موسكو قد اطلق تطلعات، وهي تطلعات لم تتحقق ابداً بسبب استقالة كاربوي المفاجئة وتسليمه السلطة فوراً للشيوعيين - وكان ينبغي للأحداث ان تبدأ على شكل اضراب عام وتنتهي بانتفاضة مسلحة وفترة قصيرة من الارهاب. ولم يكن الاندماج الاشتراكي- الشيوعي، الذي نظم على عجل، والذي مكن بيلا كون ومساعديه من تشكيل حكومة ائتلافية بسلام في ٢٢ آذار/ مارس عام ١٩٢٢، متفقاً مع ميول اولئك اليساريين المتطرفين الذين آمنوا بأن الاستيلاء على السلطة لا يتم إلا عن طريق العنف. بيد ان لوكاش رضخ للحزب واحتل منصب المفوض العام لشؤون الثقافة في الحكومة الجديدة ومنصباً اسماً هو نائب الامين العام للحزب الديمقراطي الاجتماعي .

ان اهتمامنا هنا بالحدث المفجع الذي لم يدم طويلاً قيام جمهورية

هنغاريا السوفياتية) انما ينبع فقط من كونه زودّ لوكاش بترسانة من الأسلحة السياسية والنظرية في نضاله المقبل مع كتلة بيلا كون. ومن المهم هنا التأكيد على ان هذه المواجهة انتقلت الى مسألة «البورجوازية الديمقراطية»، وهي مسألة كانت مصدر ازعاج دائم للشيوخيين لا سيما في بلد متخلف كهنغاريا حيث كانت السيطرة للفلاحين. ونتيجة ذلك، لم يكن ممكناً للتحالف الاشتراكي الشيوعي ان ينتظر جدياً الحصول على اغلبية تشريعية، وكان التشاؤم القائم على اسس صحيحة في ما يتعلق بالنتائج المحتملة للانتخابات الشعبية من بين الأسباب التي دفعت الديمقراطيين الاجتماعيين الى التخلي، ببطء، في آذار/ مارس عام ١٩١٩ عن كاربولي والوقوف الى جانب الشيوعيين. واذا أردنا استخدام الصياغة اللينينية للموضوع فان قادتهم توصلوا الى رأي مفاده ان وقوع ثورة ديمقراطية بورجوازية في هنغاريا سوف يستلزم فترة انتقالية قصيرة من «ديكتاتورية البروليتاريا».

وبالرغم من ذلك كانت هناك مسألة ملحة وأهم، فقد ادى انهيار الملكية النمساوية- الهنغارية الى تعريض هنغاريا للتدخل العسكري من جانب رومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبلاد الصرب- وجميعها تتلقى الدعم من الدول الغربية بشكل عام ومن فرنسا بشكل خاص، وهذه الدول لها مطالب تتعلق بالاراضي الواقعة في النصف الهنغاري من المملكة الثنائية. وذلك لأن الحكام الهنغاريين لم يكتفوا باستعباد الهنغاريين قروناً طويلة بل امتد استعبادهم الى الاقليات القومية المضطهدة ايضاً. وقد جردت اتفاقية الهدنة، التي اضطر كاربولي الى توقيعها في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩١٨، هنغاريا من قرابة نصف اراضيها السابقة. واجهز على الباقي الانذار النهائي الذي سلمه رئيس البعثة العسكرية الدولية الفرنسي في بودابست في ١٩ آذار/ مارس والذي يأمر فيه الحكومة بان تسحب قواتها خلف خطوط الحدود المعينة، وهدد بالتدخل العسكري في حالة عدم الالتزام بذلك، فألهب ذلك الطلب المشاعر القومية. وعندما رفض كاروليبي الانذار النهائي وافرغ

في الوقت نفسه عن قادة الشيوعيين المعتقلين، استطاع هؤلاء ان يتولوا السلطة خلال ٤٨ ساعة تدعمهم موجة من المشاعر الوطنية والشعبية الاصيلة . ووقف الزعيم الاشتراكي ساندر غارباي Garbai مخاطباً مجلس العمال في بودابست يوم ٢٠ آذار/ مارس بقوله: «ينبغي ان نسير باتجاه آخر لناخذ من الشرق ما حررنا اياه الغرب. يجب ان نركب موجات الأحداث الجديدة. ان جيش البروليتارية الروسية يتقدم بسرعة». بهذه الروح انطلقت الجمهورية الهنغارية السوفياتية التي لم تعمر طويلاً، لتدمج الاشتراكية بالقومية خلال خمسة شهور من وجودها، وعندما أطاح بها الجيش الابيض تحت قيادة الادميرال هورثي في شهر آب/ أوغسطس بمساعدة القوات الرومانية والبولندية، فاق حمام الدم الذي تلا ذلك ما سمح به الشيوعيون لانفسهم من حرية الارهاب خلال الفترة القصيرة من حكمهم .

وفي كلمات، روى احد الديمقراطيين الاجتماعيين البارزين المعروف بتواضعه الجمل والذي كان وزيراً للحربية في حكومة كاريولي قبل ان يتولى قيادة الجيش الاحمر الهنغاري ما يلي:

«بعد ان انتهت الثورة، قامت العناصر المضادة بتصفية حساباتها مع ٢٣٤ شخصاً ذهبوا ضحية الارهاب الثوري ، وبالمقابل قتلت ٥٠٠٠ ثوري خلال عدة شهور.

لم تكن تلك خاتمة المطاف، فان حكم هورثي الذي أعدم ٥٠٠٠ رجل وامرأة قد زج في السجون ٧٥٠٠٠ شخص لعلاقتهم المزعومة بالتعاطف مع الشيوعيين وحمل اكثر من ١٠٠,٠٠٠ مواطن على الهجرة، وكانت غالبيتهم العظمى اما من المثقفين الليبراليين، او من يهود الطبقة الوسطى في المدن، الذين كانوا بمثابة العمود الفقري للحياة الديمقراطية، كائنة ما تكون، في هنغاريا قبل حكم الارهاب الابيض. وحدثت هجرة جماعية في صفوف الباحثين المشهورين والفنانين من الذين لم يصرحوا بأرائهم لمفوض الشؤون الثقافية . ويمكن استنتاج رأي الاشتراكيين في حلفائهم الشيوعيين من خلال ما

قاله احد قاداتهم الاحياء :

«كانوا فلاسفة ومحيين للجمال اقتحموا عاصفة الثورة المعافاة . . .
بيد أنه لم يكن بوسعهم تحمل القتال المستمر . . . وفي النهاية تراجعوا
بحزن، الى وحول آرائهم ومعتقداتهم الفاترة التي لا تعرف قعراً.
كانت المخاطر تحيط بهم من الخارج، ولكنهم تجمعوا في «البيت
السوفياتي»، وبدأت النقاشات المرة التي لا تنتهي. كان هناك
جيورجي لوكاش، الفيلسوف السابق من هايدلبرغ وجوزيف ريفاي
موظف البنك السابق والمنظر في علم الجمال وبارفين سينكو، الكاتب
المسرحي المتأثر بتولستوي الشاب وزوجة لوكاش الروسية ايلينا
اندرفينا غرابنكو. وكان هناك ايضاً بعض الفكرانيين او الايديولوجيين
من ذوي الافكار المشتتة. وانتشرت في الجو مقتطفات من هيجل
وماركس وكيركغارد وفيخته وفير وجان بول وهولدرين ونوفاليس». .
ان الحملة الناجحة التي قام بها لوكاش يشاركه توماس مان
وشخصيات ادبية المانية بارزة على اثر اعتقاله في اكتوبر / تشرين
الاول عام ١٩١٩ في فيينا، كانت بمثابة شهادة بالأهمية التي اكتسبها
خلال الحقبة التي قضاها في هايدلبرغ. وعلى اثر الافراج عنه بعد
اشهر قليلة من قيام الحملة، انغمس في المناقشات الكتلوية الدائرة بين
اللاجئين الشيوعيين في فيينا، حيث قام الحزب الشيوعي الهنغاري
المحظور بتأسيس مكتب له (وعبر مسار هذه المناقشات الداخلية خرج
لوكاش بمذاهبه التي ضمنها كتابه «التاريخ والوعي الطبقي»). وتحدد
خط لوكاش السياسي والنظري في العشرينات بفعل هذا النضال،
الذي لم يكشف النقاب عن أهميته الا في العام ١٩٥٦، عندما سمح له
«الانفراج» الهنغاري القصير، بان يطلع الجمهور على مدى تورطه
فيه. وفي غضون تلك السنوات اصبح لوكاش حليفاً لجنو لاندلر،
وهو قيادي بارز نجا من كارثة عام ١٩١٩ وكان ينافس بيلا كون على
قيادة الحزب الشيوعي الهنغاري، وفي عام ١٩٢٨-١٩٢٩ التزم
لوكاش ببرنامج العمل المسمى باطروحات بلوم Blum (بلوم هو

الاسم الحركي للوكاش داخل منظمة الحزب الشيوعي الهنغاري) حيث طور موقفاً سياسياً خاصاً. وبعد موت لاندلر في عام ١٩٢٨ وما تلا ذلك من رفض «لأطروحاته» من القادة الهنغاريين القاطنين في موسكو ومن جانب الشيوعية الدولية نفسها، ابعث من عملية اتخاذ القرارات، واجبر- وكان هذا ضد رغبته- على ان يقصر نفسه على الفلسفة والنقد الأدبي.

«اطروحات بلوم»:

ان ما تقدمت به «اطروحات بلوم» الهراطقية هو خطة راديكالية-ديمقراطية تتمركز حول فكرة قوامها ان نظام حكم هورثي يمكن ان يستبدل به نظام ديمقراطي جمهوري فقط. من هذا المنطلق ينبغي ان تطرح جانباً فكرة «ديكتاتورية البروليتاريا» بالمفهوم البلشفي، لان لوكاش ولاندلر خططا لتحالف مع الديمقراطيين الاجتماعيين (الذين سمح لهم مرة اخرى بمزاولة نشاطاتهم ضمن حدود معينة). وبالرغم من ان «اطروحات بلوم» قد صيغت بلغة لينينية، فقد كانت محاولة ترمي للخروج باستراتيجية من اجل القيام بثورة ديمقراطية يمكن ان تقود في مراحلها الختامية، ولكن ليس بالضرورة، الى تحقيق الاشتراكية، شرط ان تلقى دعماً جماهيرياً حقيقياً لقراراتها ضد الملكية الخاصة. كان انحراف لوكاش «اليمني» في ذلك الوقت، الى حد ما، جزءاً من نضال كتلوي أوسع اقترن باسم نيكولاي بوخارين (١٨٨٠-١٩٣٨) الذي تحدى حينذاك انغماس ستالين في الارهاب الداخلي ومغامراته اليسارية في الخارج.

من هنا ينبغي ان لا يفوتنا فهم محاولة لوكاش الفاشلة في رد الاعتبار لبوخارين، احد ابرز ضحايا محاكمات موسكو عام ١٩٣٦، على اثر الخطاب الذي القاه خروتشوف عام ١٩٥٦ وشجب فيه ستالين. لقد حطمت «بوخارينيته» الشخصية عام ١٩٢٨-١٩٢٩ مستقبله السياسي، بيد انه احتفظ بعضويته الحزبية وحقه بتفسير الماركسية اللينينية لصالح قرائه الالمان والهنغاريين شريطة ان لا يتدخل

بالامور السياسية. بيد انه لم يفعل شيئاً الا بعدة فترة «الانفراج» عام ١٩٥٦ فتشجع على الاخذ بالثأر او الانتقام من بيلا كون معلناً في الوقت ذاته أن سحبه «لاطروحات بلوم» عام ١٩٢٩ انها حدث لاسباب تكتيكية، وقبل ان ندخل في تفاصيل بدعة لوكاش الشهيرة في عام ١٩٢٣ تجدر الاشارة الى ان اتجاه لوكاش العام خلال تلك السنين اصطدم بمفهوم لينين للفلسفة، ذلك لأنه عندما قام باستعادة البعد الهيجلي في فكر ماركس فانه انتهك، عن غير قصد، تفهم لينين لمؤلف «انجلز» الديالكتيكية المادية، بتأويله التصويري الساذج لدور الوعي، وفي الوقت نفسه، فانه سعى للتوفيق بين نظرة لينين النخبوية لدور الحزب الشيوعي وبقايا ايمانه الشخصي بروزا لوكسمبورغ والنقابية. ومن الناحية الفلسفية، فان نقاده اللينيين اعتبروه هيجلياً يسارياً وليس مادياً، ومع ذلك فانه اعطى «الوعي الثوري» دوراً مهماً يتفق تماماً مع مفهوم لينين للسياسة.

ان الفكرة الراديكالية التي نسبت الى البروليتاريا (ومن الناحية العملية للحزب الشيوعي بوصفه طليعة هذه الحركة) والتي تختلف جذرياً عن الفكرة السائدة في المجتمع البورجوازي زودته بمقياس لتعريف الايدولوجيا: لقد عزا «الوعي الزائف» لتعريف الطبقة الحاكمة بمفردها، وفي الوقت نفسه نسب للطبقة الثورية الكادحة امتلاك «الوعي الحقيقي»، وان كان هذا الوعي بدائياً ويتطلب ارشاداً وتوجيهاً من جانب الحزب الشيوعي.

ان تعبير الطليعة- وهو يعني ببساطة مسألة فرض نسبة التقدم وخوض المعركة في وقت يتم فيه استباق الظروف المرئية للحركة بكاملها- يخفي صعوبة هامة، وهي ان الحزب في الحقيقة، ليس اكثر الاقسام تقدماً في الجيش البروليتاري، وانما هو قوة «لا طبقية» فرضت نفسها على حركة عمالية هشة. لم يكن هذا بتاتاً ما كان يفكر به ماركس عندما نبه العمال الى انهم لن يحققوا شيئاً ما لم يكن عندهم وعي كامل باهدافهم النهائية. وبالنظور الماركسي فان تحرير الطبقة

العاملة هو مسؤولية هذه الطبقة وحدها، وليس مسؤولية النخبة الثورية من المثقفين. ان الطبقة العاملة تمتلك درجات متفاوتة من الوعي، وعلى الاشتراكيين ان يعملوا مع تلك التي تكون اكثرها تقدماً، وهذا هو كل ما في الامر. ان مفهوم النخبة التي عندها وعي خاص بها هو مفهوم يرفضه ماركس، ومن الناحية العملية فان لينين لم يصغ الموضوع بمثل هذا الوضوح.

لقد ترك هذا الموضوع للامتثمين أمثال لوكاش، الأمر الذي جعله ينفر منه. وفات العديد من القياديين الشيوعيين في ذلك الحين معنى التزامهم. واكثر من ذلك، فقد كان بوسعهم، وهذا ما فعلوه، ان يسيروا الى ان لوكاش كان «هرطوقاً» على الصعيد الفلسفي، بمعنى انه كان يسارياً هيجلياً وليس مادياً. ومع ذلك، وبالنسبة لفهمه السياسي، فان مصدر احراجهم جاء من حقيقة ان نوع الماركسية التي ادعاها لنفسه لها نغمة نخبوية. ان صيغة لوكاش برفعها «الطليعة» الى مصاف الحقيقة التاريخية المستقلة، التي وحدها تضم الوعي الحقيقي للشورة اللينينية قد اصبحت غير قابلة للاتفاق مع تمجيد روزا لوكسمبورغ الرومانسي للحركة الجماهيرية.

والامر الذي ينطوي على مفارقة هو ان تمجيد لوكاش للدور التاريخي للطبقة العاملة، التي في الحقيقة لم تعتبر بتعريفه طبقة ثورية، قد مهد الطريق امام الاكتشاف الستاليني، وقوامه ان الطبقة العاملة اصبحت طبقة مضادة للشورة ينبغي صدها بالقوة. ان الدلالات الكاملة لهذه الأمور اصبحت ماثلة للعيان عام ١٩٥٦، حين وقعت الانتفاضة في هنغاريا، وعندما برهن لوكاش - وهذه ليست اول مرة - على تذبذبه، فوقف الى جانب الشوار متردداً، منكراً بذلك معاني نخبويته الخاصة. مع ذلك لم يكن هذا نهاية الامر، ففي أواخر الستينات وقع صديق للوكاش في مأزق - وهو اندراس هيجدوس Hegedus المعاون السابق لراكوسي ورئيس الوزراء من نيسان/ ابريل عام ١٩٥٥ الى تشرين الاول / اكتوبر عام ١٩٥٦ - على اثر

اصطدامه بقيادة الحزب التي تلت ستالين وراكوسي، فوضع افكاراً شخصية في غاية الهرطقة تمثل نوعاً جديداً من «النخبوية»: تكنوقراطية محضة تذكر بـ «اشتراكية المهندسين» التي نادى بها هفيزي عام ١٩١٨-١٩١٩. ومن بين الأمور التي تقدم بها الأطروحات التالية:

١- ان السوسيولوجيا او علم الاجتماع- لا بل جميع المحاولات العلمية البحوثية- لا يمكن ان تكون خادمة لأي حزب او عقيدة سياسية، فالبحث المتواصل عن الحقيقة هو هدفها الوحيد.

٢- ان النزاعات بين الفئات التي تمثل اصحاب المصالح والنفوذ في المجتمع الاشتراكي ليست شرعية، ولكنها مفيدة، بشرط ان توجد اشكال دستورية لحلها. وعلى سبيل المثال فان الدور المناسب الذي تلعبه نقابة العمال هو حماية حقوق العمال.

٣- ان النظرية الماركسية تحتوي على عدد من الاساطير همها الوحيد تنبيه البروليتاريا واخضاعها لتأثير العمل الثوري. وعلى السلطة حينما تتماسك وتقوى، ان تجابه هذه الاساطير بالحقائق لئلا تتصلب وتصبح عقيدة جامدة، كما حصل لراكوسي. ولتحقيق هذا الهدف ينبغي اطلاق حرية العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع بصورة خاصة) لانتقاد جميع مظاهر المجتمع.

ومن باب الاعتدال المستحسن، أكد هيجدس أن الديمقراطية اخذت تتحول إلى مشكلة حقيقية في ظل الاشتراكية، وفي حزيران/ يونيو عام ١٩٦٨ عندما بدا أن القوى الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا المجاورة على وشك احراز نصر سياسي، كتب هيجدس يقول:

«ان الحزب اللينيني خرج من النضال بتيارات اصلاحية وأحزاب ديمقراطية اجتماعية تؤيد الأخذ بروح التطور، كما خرج بمظهر الحزب القائل في الصراع من أجل اقامة حكم الطبقة العاملة. كان الهدف تحقيق سيطرة تضع حداً لحق الملكية الخاصة لرأس المال ولجميع تلك الاشكال المؤسسة للسلطة ونفوذ الرأسمالية المبنية على الملكية الخاصة، او التي أقيمت لهدف حمايتها بأي ثمن. ان أي شخص لا

يأخذ بالحسبان او لا يهمه هذا الدور الهام للحزب اللينيني بكل ما يترتب عليه من نتائج لن يستطيع ان يفهم شيئاً من الدروس المستخلصة من تاريخنا الحديث» .

ان عملية خلق سلطة للطبقة العاملة أوجدت حالة جديدة، وهي ان الحزب الذي كان يناضل من اجل الحصول على السلطة اصبح يتمتع بالسلطة بما فيها من سلبيات وإيجابيات (ان هذه الوظيفة الجديدة بالذات خلقت موقفاً صعباً لتلك الاحزاب . ونتيجة لخصوصيات الوضع التاريخي، فانها اصبحت منظمات قوية مؤهلة لقيادة الجماهير في هذه المرحلة الثانية فحسب). واتيحت الفرص لحل المهمات الجديدة بطرق مختلفة، بيد انه كان امراً لا بد من مواجهته: كان لا بد من اقامة وترسيخ نظام اداري جديد بشكل او بآخر، وبالتحديد نظام مدني، أي ان تعطى السلطة الحقيقية للهيئات الادارية المختلفة. وفي السنوات التي اعقبت انتصار الثورة الاشتراكية مباشرة طرحت البدائل الثلاثة التالية:

البديل الاول: وقد شرحه تروتسكي الذي كان نصيراً لخلق دولة مونوليثية Monolithic على النمط العسكري (ولثلا يضلل احد، فقد كان تروتسكي في الثلاثينات من اكثر النقاد عنفاً في معارضته لهذا الحل، وهو أول من وضعه، بيد انه لم يوضع موضع التطبيق الفعلي الا في ظل قيادة ستالينية).

اما البديل الثاني، فقد أيده ممثلو ما يسمى المعارضة العمالية: كان مطلب هؤلاء انتخاب قادة النشاط الاقتصادي (ابتداء من المراقب وحتى المفوض العام) من قبل المستويات المختلفة التي يشرف عليها العمال، او بالأحرى من قبل نقاباتهم التي تمثلهم. كان هؤلاء يؤيدون اسلوب اللجان أو «القيادة الجماعية» في وجه مسؤولية القيادة الفردية. وأجد نفسي في موضع بالغ الصعوبة عند تطرقي للبديل الثالث. ويبدو لي، الى حد ما، انه لم يظهر بشكل حاسم فيما اذا كان لينين قد ادرك الفارق- حتى ولو انه تحدث عنه بهذا الشكل- بين سلطة الادارة

وسلطة المجتمع . مع ذلك فأنني من جهة اخرى ، ابتعد عن الاعتقاد بان لينين كان «يرى كل شيء بصورة صحيحة» .
ان صاحب السطور السابقة تفصله مسافة طويلة عن الايمان البسيط للجيل الاول من الشيوعيين الهنغاريين ، فلنعد الآن الى الصيغة التي اسبغها لوكاش على هذا الايمان بعد أن انتقل من «اليسارية المتطرفة» الى اللينينية .



ثلاثة من كبار الروائيين الروس : تورغينيف وتولستوي وغوركي .

الفصل الرابع

تعرضنا في الفصول السابقة لبعض التيارات الرئيسية المتباينة التي أدى التقاؤها إلى جعل فيينا، لفترة وجيزة، العاصمة الثقافية لأوروبا الوسطى. وإذا ما انهمكنا في معالجة موضوع لوكاش الأول والأساسي في النظرية الماركسية فإننا سوف ننحدر إلى الدوامة. ولعل من المفيد أن نتذكر هنا أن مدرسة التحليل النفسي (Psychoanalysis) ومدرسة الوضعية المنطقية (Logical Positivism) هما من مواليد فيينا، وأن لوكاش لم يتأثر بأي من المدرستين. وإذا كان فرويد قد لفت انتباهه في السنوات اللاحقة، فقد قصد من وراء ذلك أن ينعى له ما أسماه بـ «لا عقلانيته» - وهذا حكم لا يشاركه فيه الماركسيون النافذون من مدرسة فرانكفورت التي تشكلت في ثلاثينات القرن العشرين. أما بالنسبة للوضعية المنطقية فإن لوكاش المنتمي إلى هيجل، لم يجدها سوى حصيلة حتمية للكانطية الجديدة التي سبق له أن أنكرها قبل عام ١٩١٤. وبلغت التأريخ الفكري يبقى من المهم الإشارة إلى أن كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» تصادف صدوره تقريبا مع كتاب لودفيج فيتجنشتاين Wittgenstein وعنوانه: «رسالة منطقية فلسفية» Tractatus (١٩٢٢). وفي كلتا الحالتين كانت شهرة المؤلف نتيجة لاقترانه الجذري عن المعتقد السائد في حقله الشخصي. ومع ذلك، نجد أن كليهما تخلى في السنين اللاحقة عن عمله الذي ألهب مخيلة معاصريه. ولكن التشابه هنا يتوقف. فبالرغم من أن كليهما شب في ظل مملكة أسرة هابسبورغ العفنة وتأثر بالتوترات الكامنة في حضارتها المتداعية، فمن الصعب أن يتخيل المرء شخصيتين أكثر اختلافاً من شخصية جورج لوكاش ولودفيج فيتجنشتاين.

وبالنسبة لكتاب «التاريخ والوعي الطبقي» فقد قيل إن سر بقاءه الوثيق الصلة بالموضوع يعود فضله إلى الطريقة التي استرد فيها لوكاش البعد الهيجلي في فكر ماركس. إن النتيجة المدوية التي أحدثها

داخل الحركة الشيوعية الأوروبية مردها أمور أكثر بساطة. فالشيوعية الدولية كانت قد باشرت آنذاك المهمة الطويلة والشاقة في «بلشفة» قطاعاتها المختلفة، أي تحويل الجيش (الذي كان مزيجاً من معارضي الحرب واشتراكيين من ذوي الميول النقابية الفوضوية ويساريين) إلى لينينيين منضبطين. ومن وجهة نظر خلفاء لينين - الممدد مشلولاً في الكرملين إثر إصابته بنوبة قلبية ثانية في آذار/ مارس عام ١٩٢٣، أي قبل عشرة شهور من موته الذي أنهى عذابه الصامت - ليس ثمة ما هو أقل إثارة للسرور من الظهور المفاجيء لمدرسة «غبية» شيوعية، يمثلها منظرون من أمثال لوكاش والفيلسوف الألماني كارل كورش Korsch والإيطالي الماركسي انطونيو غرازيادي Graziadei. إن وابل الشتائم التي انهالت على لوكاش في الفترة الممتدة من ١٩٢١ - ١٩٢٤ يعود بعضه إلى العداوات الكتلوية، بيد أن المصدر الأساسي لموجة الجنون تلك هو عقلية الشيوعيين الروس الذين أصبحوا ينظرون إلى لينين وكأنه أيقونة مقدسة. إن أي انحراف عما يوصف الآن بخط الماركسية اللينينية أصبح يشكل إهانة لعقيدهم، ويبدو في الوقت ذاته شبحاً مربعاً لهرطقات يصعب ضبطها وقد أخذت تنتشر بين صفوف الشيوعيين ممن لم تتم بلشفتهم كما ينبغي. وأصبح النضال ضد لوكاش «على الجبهة الفلسفية» الشغل الشاغل للفلاسفة السوفيات أمثال: أ. ديبرورين وم. لوبول وج. بامل ومفسرين آخرين لينينيين. وحتى القيادة السياسيون فإنهم قد دخلوا المعترك. وفي مؤتمر الكومنترن الخامس الذي عقد في موسكو في حزيران / تموز (يونيو/ يوليو) عام ١٩٢٤ صار بوخارين - الذي أصبح بعد وفاة لينين الناطق الرسمي باسم الحزب الشيوعي السوفياتي حول جميع القضايا النظرية - يتأسف بشدة، عبر ملاحظة قصيرة، على الاتجاهات الحديثة في «الارتداد نحو الهيجلية القديمة». أما زميله زيونيفيف، وهو ديمياغوجي أحق وتافه، لا تؤهله عقليته للدور الذي أنيط به، فقد صب جام غضبه على اليساريين المتطرفين الذين كانوا مثل «التطوريين» يستشهدون باسم

لينين المقدس، ويهزأون من «الأساتذة» من أمثال كورش ولوكاش وغازيادي، ثم يعلنون بوقار أن انحراف هؤلاء لا يمكن التسامح إزاءه.

إن ما يجعل من القضية بكاملها أمراً مربكاً جداً هو أن لوكاش يبرهن في كتابه عن وجود علاقة، إلى حد ما، مصطنعة بين لينين وروزا لوكسمبورغ التي أصبحت قديسة ثورية إثر اغتيالها على يد الضباط الألمان عام ١٩١٩ بعد أن كانت حليفة سابقة للمناشفة، وكانت تتخذ أيضاً موقفاً نقدياً من المبادئ البلشفية وتطبيقاتها. وحتى عام ١٩٢٤ لم تكن «اللوكسمبورغية» قد أصبحت بدعة كبرى، وكذلك فإن «التروتسكية» لم تكن قد شقت طريقها بعد (مهما كان الأمر فإن لوكاش لم يظهر مطلقاً الحد الأدنى من التعاطف مع «تروتسكي»). بيد أن اتجاهها يسارياً متطرفاً كان موجوداً بين الشيوعيين الغربيين في المجال النقابي ممن لم يهضموا الفكرة القائلة إن مجالس العمال وجدت للتصديق على مقررات الحزب ليس إلا. إن تطور لوكاش الفكري من نقابية «تشابو» الفوضوية عبر اشتراكية لوكسمبورغ الثورية وبعد ذلك إلى لينين، جعله مفكراً خطيراً، فاهدافه السياسية الواردة في كتابه الصادر عام ١٩٢٣ وما تضمنته من استشهادات وافرة بلينين، يمكن اعتبارها مرفوضة من وجهة النظر البلشفية السلطوية.

وبالمقارنة مع التهديد الناجم عن «الانحراف» السياسي فإن القضايا التي تضمنتها مقالات لوكاش النظرية، والتي لا يستوعبها سوى قلة من الناس، لا تعتبر مهمة، ناهيك عن مغالاته في انتقاد انجلز في معالجة بعض المفاهيم المنطقية والابستمولوجية (نظرية المعرفة).

وقد اصطدمت هذه النقطة المربكة اصطداماً مباشراً باللينينية كمنسفة بالقدر الذي كان فيه عمل لينين في هذا الحقل «المادية النقدية والتجريبية» Materialism and Empirocriticism يلزم أتباعه بمادية انجلز الديالكتيكية، وهذا هو تفسير «مؤسس الماركسية

الروسية» ج. ف. بليخانوف ١٨٥٦ - ١٩١٨ الذي كان لينين يكنّ له على الدوام الاحترام الكبير بحكم مركزه كمنظّر. وكان كلاهما من الاتباع المتشددين لما يسمى الآن بالماركسية الأرثوذكسية، التي تعني توثيق أفكار ماركس وتنسيقها، كما فعل انجلز بعد وفاة زميله الأكبر. لذلك فعندما قدم لوكاش في العام ١٩٢٣ تفسيراً أصيلاً للغاية يشكك فيه بفهم انجلز لكانط وهيغل (وبالتلميح لماركس) فإن غضب التقليديين - في وسط أوروبا وفي الاتحاد السوفياتي - تخطى كل الحدود. كذلك جن جنونهم بدرجة مماثلة من كارل كورس مؤلف «الماركسية والفلسفة» الذي كان ينظر إلى المادية بشكل عام والمادية الديالكتيكية بشكل خاص، على أنها محاولة ساذجة للعودة إلى موقف مهاد للكانطية. أما بالنسبة لكل من لوكاش وكورس وأتباعهما فإنهم كانوا يعتبرون الماركسية فعلاً (وكما أكد إنجلز في مقاله المؤثرة عن لودفيغ فيورباخ عام ١٨٨٨) وريثة الفلسفة الألمانية الكلاسيكية. لهذا السبب بالذات كان الماركسيون مجبرين على تجنب الارتداد إلى التفكير «ما قبل الانتقادي» - أو «قبل الكانطي». ولقد شعر لوكاش بضرورة تصحيح انجلز بالقدر الذي استسلم فيه انجلز لهذا الإغراء هنا وهناك مطمئناً إلى معرفته بأنه استوعب كلياً معنى فلسفة كانط وهيغل خلال السنوات التي قضاها في هايدلبرغ قبل الحرب. وقد ضم كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» عنواناً فرعياً «دراسات في الديالكتيكية الماركسية»، وهو بحد ذاته يعتبر دليلاً كافياً على رغبة لوكاش في تجنب التفاعل مع «المالدية». بيد أن الهجوم الشهيري تخطى ذلك فعلاً، فلم يكتف لوكاش بالتشكيك في فهم انجلز لكانط وهيغل، بل تمادى إلى الحد الذي وصف فيه مادية عصر التنوير بأنها «الشكل الأيديولوجي للشورة البورجوازية».

ولكي نفهم لماذا كان لهذه الحملة، التي تبدو بريئة، وقع القنبلة على الشيوعيين الروس والأوروبيين، ينبغي على المرء أن يستوعب الصلات السياسية بين الثورتين الفرنسية والروسية. لقد ارتكزت نظرة

لينين الكلية للعالم على استيعابه للمادية الفرنسية في القرن الثامن عشر، فكانت الماركسية تبدو له وكأنها الشكل الجديد لهذه المادية. وفي بعض الأحيان - كما فعل ، على سبيل المثال ، في «الدفاتر الفلسفية» (١٩١٤ - ١٩١٦) التي طبعت لأول مرة في عام ١٩٣٢ وأعيد طبعها في الجزء الثامن والثلاثين من «الأعمال الكاملة» - نجده يمتدح منطق هيجل، الذي كان قد درسه جيداً في ذلك الوقت. ومع ذلك فقد كان يبدو وكأنه لم يستوعب مطلقاً عدم تجانس طريقة هيجل الديالكتيكية مع المذهب المادي، الذي ترعرع هو عليه. كان كانط يبدو له بشكل خاص، شخصاً بغيضاً، أما معالجة انجلز غير الوافية لكانط في مقالة له عن فيورباخ، فقد أفتنته - شأن بليخانوف من قبله - أنه ينبغي أن لا يحمل كانط وفيخته على محمل الجد. أما هيجل الذي تلقى مراناً قاسياً في المدرسة الكانطية الجديدة، فكان أكثر معرفة. إن ما فاتته إدراكه، هو أنه بدخوله هذا المجال قد توصل، عن غير قصد، إلى جوهر اللينينية كفلسفة كونية، وكان كانط يمثل بالنسبة للينينيين، ولباقي الماركسيين الروس من أتباعه، خطراً دائماً، لأن «لادريته» فيما يتعلق بوجود عالم حقيقي مستقل عن العقل يبدو أنها فتحت باباً خلفياً «للإلحادية» أي الدين. فإذا لم يقم العقل بتصوير العالم كما هو على حقيقته، وإذا كان ثمة شيء لا يمكن معرفته - «شيء في حد ذاته» حسب التعبير الكانطي - فلا يمكن إذاً للميتافيزيقيين المثاليين أن يدعوا أن العلم التجريبي هو خيال لا بد منه. وإذا ما تم التسليم بهذا الأمر، أليس من المحتمل أن يعود النظام اللاهوتي للزحف ثانية؟ صحيح أن لينين عدل من وجهة نظره إلى الحد الذي يقر فيه بأن الوعي الإنساني لم يكن سلبياً، بيد أنه لم يطرح على الإطلاق جانباً النظرية التسجيلية أو النسخية في المعرفة التي التزم بها في السابق. وفوق ذلك راح يصر على الأهمية القصوى للمادية الديالكتيكية كفلسفة للطبيعة. كان على الماركسية أن تقدم تفسيراً شاملاً للكون - وإلا فكيف يمكنها الشروع في تبوؤ مكانة الديانة الملهمة والميتافيزيقيا المثالية؟ لذلك عندما رفض

لوكاش الاعتراف بأن تكون للماركسية صلة بالعلوم الطبيعية، فإنه أراح بذلك حجر الزاوية في البناء اللينيني. وعندما استشهد بأقوال معلمه ريكتر في أن الماركسية هي أفلاطونية معكوسة، كان ذلك بمثابة وضع الأيدي المدنسة على تابوت العهد.

أما وصفه المادية بأنها «بورجوازية»، فقد كان من الواضح جداً أن كل يساري متطرف في أوروبا سوف يخرج من هذا الوصف بأكثر الاستنتاجات إثارة للمخاوف في ما يتعلق «بالهوية البروليتارية» للثورة الروسية.

وفي مقابل هذه المواضيع المتفجرة بدت تحفظات لوكاش حول فهم انجلز لكانط بريئة نسبياً، ولكن ليس بدون أثر، لأنها وردت على لسان فيلسوف متمرس وماركسي أيضاً. وفي عام ١٨٨٨ تبنى انجلز بالفعل موقفاً يتعذر الدفاع عنه. إن حماسه لدحض ما أسماه بـ«الحبكات الفلسفية» لهيوم وكانط المتعلقة بإدراك الحقيقة دفعه إلى اللجوء إلى «التجربة والمثابرة» كبرهان على أن المعرفة الشاملة للعالم الحقيقي ممكنة. أما لوكاش فقد لاحظ بطريقة معقولة جداً أن هذا خارج كلياً عن نطاق «ظواهرية» كانط، التي لم تشكك على أية حال بإمكانية التقدم اللامتناهي في اكتساب المعرفة العلمية. فلقد أكد كانط على أمر يختلف تماماً، وهو بالتحديد انه لا يمكن لأحد، حتى لمن استطاع أن يفهم كلياً جميع الظواهر الطبيعية الموجودة في العقل، أن يحل المعضلة الكامنة في تفكير الإنسانية، وهي أن نظرتة للعالم تتم بمساعدة جهاز عقلي يفرض أشكاله (المقولات) على المادة الأولية للتجربة. هنا كان يعود سوء الفهم إلى فشل إنجلز في متابعة هيجل في طريق يقود إلى الرجوع نحو العقلانية الطبيعية لليونان (اسينوزا)، وهي عقلانية امتدحت العقل لقدرتة على استيعاب طبيعته الحقيقية التجريبية.

فإذا استثنينا هذا الأمر، فإن الاختيار يكون بين «ظواهرية» كانط ووضعية العلوم الطبيعية والاجتماعية التي رفضت التمييز بين الظاهرة

ومفهوم الشيء كما يبدو للعقل المحض، أي بين مفهوم الأشياء التي نتحصن والأشياء في حد ذاتها. ومن المحتمل أن يتحول المرء إذا ما أعطي الخيار بين هذه وتلك، إلى «الواقعية الساذجة» التي نادى بها السكولاستيكيون، وهؤلاء يعتبرون المشكلة برمتها غير موجودة. وفي السنوات اللاحقة أخذ بعض الفلاسفة الكاثوليك يعاملون التومانية (فلسفة توما الأكويني اللاهوتية) واللينينية كحليفين محتملين في وجه الهيجلية الوضعية والكانطية على حد سواء. ومع ذلك فإن السكولاستيكية الواقعية والديالكتيكية المادية أكدتا على وجود عالم موضوعي مستقل عن العقل. ومهما كان تقييم المرء لهذا المذهب، فإن أصله السامي يعود إلى أيام أرسطو. ولو كان اهتمام الفلاسفة السوفيات يقتصر على مسائل الإدراك، لما تسببت هرطقات لوكاش في أرقهم ليالي طويلة.

لاشك أن ذلك لم يكن كل ما في الأمر، فللمادية لها معنى مزدوج، وقد ينظر إليها بأنها تعني حقيقة العالم الخارجي، ولكن بالنسبة لإنجلز كان لها معنى آخر أيضاً هو أولوية «المادة» كجوهر مطلق في عملية تكوين الكون. بهذا المعنى لا تعود «المادية» نظرية للمعرفة، بل تصبح نظرية غيبية عن العالم. إنها تؤكد على أن المادة أو (الطبيعة) تسبق الروح أو أن الروح فيض أو انبثاق Emanation من المادة. ومثل هذه التأكيدات لا يمكن إثباتها أو دحضها. فقبولها يجد مخرجاً له إما في فعل الإيمان الديني أو في معاداة الدين. وعندما أعلن إنجلز أنه تبنى مع ماركس «المادية» كتنقيض «لثالية» هيجل فإن، ما عناه هو أنه لم يكن لديه ولدى ماركس نظرية تختلف عن نظرية هيجل في المعرفة، بيد أنها اعتبرا «المادة» بمعنى ما، أهم من «الروح».

أما السؤال ما إذا كان قد سبق لماركس بالفعل أن قال شيئاً من هذا الكلام فهو مسألة ينبغي أن لا تحظى باهتمامنا هنا، بيد أن إنجلز اعتنق بالتأكيد هذه النظرة، فيما لم يحملها لوكاش عام ١٩٢٣.

إن ما نادى به لوكاش في الأقسام الأساسية من كتابه «التاريخ

والوعي الطبقي» هو نظرية ديبالكتيكية حقيقية تقوم باجتثاث الخلاف السخيف بين الماديين والروحانيين. ويمكن تلخيص وجهة نظره بالقول إن المادية والروحانية هما أطروحة ونقيضها، وذلك لخلاف يعود إلى عدم القدرة على تخطي الانفصام بين الذات والموضوع. والحل لا يكون في إشار الواحدة دون الأخرى، بل يتجاوز موضع الخلاف، وهذا يتم بالسير على خطى ماركس في معالجة التطبيق على أساس أنه الاتحاد المادي بين الفكر والواقع.

أما بالنسبة لمعاصري لوكاش الماركسيين فقد كان لوكاش بطرحه هذه المفاهيم يجيي في الوقت نفسه نمطاً من التفكير هو جزء لا يتجزأ من الفلسفة الألمانية الكلاسيكية. ومن الضرورة أن نكون واضحين حول دلالة هذا الأمر بالذات. فقد انقض نقاده على ما أسموه «هيجليته» وراحوا في الوقت نفسه يؤيدون الطريقة الهيجلية الكامنة في كتابات انجلز الأخيرة، ولا سيما كتابه «ديالكتيك الطبيعة» Dialectics of Nature، فثمة شيء من المواربة في وقفهم كمدافعين عن العقيدة المادية؛ إذ لا يمكن للمثقفين منهم أن لا يكونوا على بينة من أن مفهوم الديالكتيك الطبيعي قد اقتبسه انجلز من كتاب «المنطق» للمثالي الأعظم هيجل. لقد أحيأ انجلز، بعودته إلى هيجل، مشروع «فلسفة الطبيعة» الرومانطيقى.

إن السؤال ما إذا كان اتباع هذا النمط في التفكير يعني شيئاً بالنسبة للمفكر المادي، هو سؤال يختلف اللينينيون حوله، وهذا أمر معروف عنهم. وفي عصرنا الحاضر نجد أن المحنكين منهم يميلون إلى تحاشي الوقوع في محاولات بناء نظرة شاملة إلى الوجود. فمثل هذه المغامرة تعني العودة إلى الفكرة الهيجلية القائلة إن «الكينونة» و«الوعي» هما متطابقان في النهاية. وإذا كان الأمر كذلك، فمن المعقول أن يرد عنصر الوعي الذاتي إلى الطبيعة، ولكن بهذا المعنى نكون قد تخلينا عن المادية بالمعنى الضيق للكلمة. من هنا فإن أولئك النقاد (أياً كانوا) الذين هاجموا لوكاش بعنف عام ١٩٢٣ - ١٩٢٤

بسبب إدخاله مفاهيم مثالية إلى الماركسية هم دون مبالغة، متذبذبون وتافهون.

ومع ذلك فإن هذه الحالة لا تنطبق على جوهر الخلاف من الناحية النظرية. فبالرغم من أن كلا الطرفين كان يلجأ إلى حجج مأخوذة عن ماركس وهيجل، فقد كان هناك فارق كبير في فهمهم النسبي لمعاني هذا الميراث الفكري. فالفلاسفة السوفييات يعتبرون الماركسية نظرية «علمية اشتراكية» بالمعنى الذي أثبتته كلمة «علم» خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٨٠ وعام ١٩٢٠ على يد انجلز وكاوتسكي والممثلين الآخرين للمعتقد الديمقراطي الاجتماعي: إنها طريقة نظرية تقوم على التمييز - المؤلف لكل باحث علمي - بين العالم الحقيقي «للواقعة» الموضوعية وبين الأفكار «الذاتية» التي يحملها الأفراد حول الواقع الذي يواجههم ويحيط بهم. إن كل من نشأ على هذا التقليد يسلم بدهاء بأن العلم يعترف بالتباعد الجذري بين الحقيقة الهشة القاسية والمتناسكة وبين أحلام اليقظة التأملية. وليس في هذا المقام من فارق أساسي بين تلامذة انجلز الديمقراطيين الاجتماعيين وبين الماركسيين السوفييات نظراً لأن لينين انتقص من قدر كاوتسكي كما دي لا نفع منه. إن نشاط لينين كان يقتصر على السياسة، فلم يترك أثراً عميقاً باكتشافه المتأخر لهيجل ١٩١٦ - ١٩١٧ ولا باندفاعه الخاص لإعطاء التاريخ «دفعاً» آنية في «علميته» الأساسية. كانت النظرية بالنسبة إليه تعني شيئاً والتطبيق شيئاً آخر، ولكي يكون التطبيق فعالاً كان لابد له أن يندرج تحت طائلة العمليات السببية التي من المفترض أن تعمل في الطبيعة والتاريخ على حد سواء.

إن ما عارضه لوكاش في عام ١٩٢٣ بالنسبة لهذا التباعد الميكانيكي بين موضوع التاريخ (الحزب) ومادته (الجماهير) هو الفكرة التي تقول بأن البروليتاريا، بوصفها الطبقة الثورية في أجلي مظاهرها Par ex cellence محتوم عليها أن تحرر البشرية أثناء قيامها بعملية تحرير نفسها من نير الرأسمالية. وباستثناء استخدامه لمصطلح التثبيؤ Refication

عوضاً عن الاستلاب Alienation، وهو مفهوم أصبح شائعاً في
الذهن العام بعد مرور عقد من الزمن على انتشار كتابات ماركس،
فإن لوكاش قد تحول بشكل جذري نحو الموقف نفسه الذي وقفه
ماركس عام ١٨٤٤ - ١٨٤٥. لقد تجلّت أصالة ماركس الشاب خلال
تلك السنين بإيمانه، فقد كان يؤمن بأن مجرد ومضة من النقد الذاتي
المتفحص كفيلة بأن تشعل الثورة التي تطمسها الظروف اللإنسانية
التي فرضت على حياة البروليتاريا الأولى. إن «النظرية» النقدية عندما
تمكن المضطهدين من اكتساب وعي كافٍ بدورهم، فإنها تترجم نفسها
إلى تطبيق ثوري وممارسة ثورية، وهي بذلك تستطيع أن تنشر رأيها
التأملي (الفلسفي). لذلك أصبح للوعي دور يختلف كلياً عن الدور
الذي خصصته له المدرسة الوضعية العلمية في أواخر القرن التاسع
عشر. فقد تطور من مجرد كونه «عاكساً» لعملية مستمرة إلى مهمة
«تحويل» الوضع التاريخي الكلي الذي كان مدفوناً فيه، وقد استطاع أن
يفعل ذلك بسبب توافر ظروف معينة اكتسبت فيها الثورة «الفكرية»
صفات القوة المادية.

افترق لوكاش عن الماركسية بعد أن أحدث تأثيراً في العودة إلى هذا
الموقف من ماركس. وراح يضاعف من هجومه بأن رفض أن يقر
بالنظرية «المادية» باعتبار الإدراك مرآة للعالم الخارجي Abbild،
وبالتالي منفصلاً كلياً عن العقل البشري، وهو في جميع هذه الحالات
يمكنه أن يدعي أنه كان مخلصاً لماركس وهيكل. إن مقولة الكلية
«Totality» التي شغلت حيزاً هاماً من تفكيره شكلت جزءاً من
الميراث المثالي الذي أدخله ماركس في نظريته. إن الاكتشاف القائل إن
مؤلف «رأس المال» كان إنسانياً وإن دراسته الاقتصادية قد جسدت
نقداً فلسفياً للمجتمع البورجوازي، لا يزال في حاجة إلى
التصديق، الأمر الذي قوبل به لاحقاً عندما نشرت مخطوطته (١٩٣٩ -
١٩٤١). ولكن في ظل غياب دليل حسي استطاع لوكاش أن يرى
بحده محاولة المدرسة الوضعية المتعمدة للتخفي وراء ماركس في

السنوات الأخيرة. إن كل هذه الأمور المشينة هي المسؤولة عن التوبيخ الشديد الذي لحق به عندما سمحت موسكو بذلك. إن ما يحتاج إلى الإيضاح هو الاستقبال المختلط الذي تلقى به قراؤه الغربيون أعماله، فقد كان يتوقع منهم أن يتعاطفوا مع هذا الهرطوق الشهير لأسباب أخرى.

وفي الواقع لم يتحد لوكاش الأرتوذكسية السوفياتية الناشئة فحسب، بل تحدى أيضاً أولئك الاشتراكيين الغربيين الذين حاولوا خلال عقدين متتاليين أن يوجدوا لماركس منزلة أكاديمية من خلال تقديم أعماله كمنشأة أو صياغة «متحررة من القيم» بعيدة كل البعد عن منشأ مؤلفها الهيجلي.

إن مبدأ وجوب إبقاء دراسة «الحقائق أو الوقائع» متميزة عن «الأحكام القيمية» هو مبدأ عزيز، ليس بالنسبة لعلماء الطبيعة فحسب، بل بالنسبة لعلماء الاجتماع أيضاً - على اختلاف نزعاتهم السياسية - والذين كانوا يتطلعون إلى التقدير المهني في محيط العالم الأكاديمي. إن الأساس الفلسفي لهذا الفصل الصارم بين «الحقائق» و«القيم» جاء من طرف المدرسة الكانطية الجديدة، التي كان لها أتباع متنفذون في صفوف الأحرار والاشتراكيين على حد سواء. ومن بين جموع علماء الاجتماع، كان فيبر في سنواته الأخيرة ينادي بتشاؤميته الرزينة أو الرواقية، ويرفض الانغماس في حركة إنهاض ديني أو خلقي. إن ما يكمن وراء هذا الموقف هو الاعتقاد بأنه ما لم يكن المرء يؤمن بالألوهية، فإنه لن يستطيع أن يتحمل معرفة حقيقة الحياة، وهذا يقود إلى القول إنه خير للمرء أن لا يتفوه بعموميات عن هذا العالم. وكان لمثل هذه العبارات ما يقابلها عند العلماء التجريبيين والمحللين الفرويديين، بيد أن الكانطيين الجدد حققوا غايتهم بتشجيع نوع من الرواقية أحال التأمل الميتافيزيقي إلى موطن تدريب فكري. كان من المفترض على الالتزام بالعلم أن يحمل معه تعهداً بالامتناع عن تصوير العالم بألوان تتفق مع مزاج الشاعر أو الفيلسوف المثالي البالي.

وكانوا يعتبرون أن من أسوأ الافتراضات التي يمكن لمفكر أن يبينها - وهو ما فعله لوكاش - هو التأكيد على أن التقصير الذاتي في الإدراك البشري أو الحاجز الدائم بين البحث العلمي عن الحقائق والالتزام العملي «بالقيم» يمكن تخطيه بالعودة إلى فلسفة هيغل «السيئة السمعة». وعندما شدد على أن اللاعقلانية الظاهرة للوجود لم تكن، ببساطة، سوى مرض ثقافي، ونتيجة للتشويء الحاصل في ظل المجتمع البورجوازي، فإن هذا التأكيد دفع الاشتراكيين ومنهم كارل مانهايم - الهارب الشهير من بودابست، والذي بنى نظريته على أفكار كل من فيبر ولوكاش بالتساوي - إلى رفع أصواتهم محتجين على ذلك.

مع ذلك، فإن هذا الرفض، بالتحديد للثنائية أو الازدواجية بين الواقعة والقيمة، هو الذي جعل لوكاش أهمية لدى جيل كامل من المثقفين في وسط أوروبا ممن تجاوزوا النظرة التفافلية التي سادت قبل عام ١٩١٤، ونفروا من اللاعقلانية الرومانطيقية لليمين والطوباوية الصوفية لأشباه الاشتراكيين من أمثال أرنست بلوخ Bloch. لقد زودهم لوكاش عام ١٩٢٣ بما عجز أي منظر آخر عن تقديمه، وهو تحليل ماركسي يلتزم بالحقائق، ولا يشجب التراث الهيجلي باسم «العلم». وحتى ظهور كتابه، كان هؤلاء المثقفون يعتبرون الشيوعية مجرد امتداد للثورة الروسية، التي تعتبر بلا شك حدثاً مهماً، ولكن لا يبدو أنها تعد بحل مشكلاتهم الخاصة، أي أنها كانت مجرد حركة سياسية تركز إلى دولة متخلفة نسبياً. إن ما فعله لوكاش هو أنه ادعى لها أهمية عالمية، وفي تفسيره للماركسية أشار إلى أن الثورة البروليتارية هي مفتاح لفك لغز التاريخ.

والأمر الذي جعل هذا الادعاء الكبير يبدو معقولاً يعود إلى ما هو أكثر من مجرد الظروف الطارئة التي أوجدت مناخاً عقلياً معيناً ساد جمهورية فايمار. فقد أصاب لوكاش مركز أعصاب الفلسفة الحديثة عندما هاجم الفلسفة العلمية (العلموية) Scientism والكانطية الجديدة على حد سواء. ولو كان محقاً لأصبح الإيمان

الوضعي بالعلم مجرد وهم بورجوازي فيما لو طبقناه على الكلية المادية المعروفة بالتاريخ. والواقع أن تأكيداً من هذا النوع يمكن أن يلقي أيضاً مؤازرة اليمين المتطرف، وهذا ما شاهدناه في السنوات التي قام فيها ازوالد شبنغلر بإحداثه تأثيراً على الطبقة الوسطى الألمانية. فكان كتابه «انحطاط الغرب» Decline of the West (١٩١٨ - ١٩٢٢) بمثابة تحضير لهذه الشريحة المهمة لمجيء الرايخ الثالث. ولو كان الشيوعيون والنمساويون أقل خضوعاً لموسكو لاستطاعوا أن يجدوا في عمل لوكاش رداً فعالاً على شبنغلر وهيدجر الذي كان كتابه «الكينونة والزمان» Sein und Zeit مفسدة لعقول جيل كامل من الطلاب الجامعيين. ولو أن لوكاش تمتع بشخصية قوية تدعم موقفه عوضاً عن التزامه بالسكوت، ومن ثم تنكره لأرائه الأولى فيما بعد، فلربما استطاع أن يبني سداً في وجه الفيضان المتدفق من اللاعقلانية.

هذا لا يعني أن المذهب الوارد في كتاب «التاريخ والرعي الطبقي» هو مذهب محصن ضد النقد. إن رسالته السياسية - المأخوذة عن روزا لوكسمبورغ ومن ثم عن لينين - تجاهلت الظرف الحاسم الذي سوف تواجهه «الطبقة البروليتارية الثورية»، بالمعنى الذي فهمه ماركس، في المرحلة الأولى من التطور الاجتماعي، ولكن برغم عدم كفاءة لوكاش كمنظر سياسي، فقد رفع النقاش إلى مستوى أصبحت فيه الماركسية الهيجلية تؤخذ بجذ من عدد كبير من المفكرين في أوروبا. إن ما واجهوه هنا هو تراثهم الثقافي الخاص خالصاً من شوائبه المثالية، ومطعماً براديكالية تجعله منافساً جدياً لاجتذاب الانتلجنسيا التي جنحت مؤخراً بسبب انحلال الليبرالية وتعفن الإيمان الديني. وبالعكس لم تستطع المادية السوفياتية أن تززع من قناعة الألمان المتعلمين بأن الروس لا يفهمون من الفلسفة شيئاً وبأنهم متخلفون خمسين سنة إلى الوراء.

ولكي نتفهم حقيقة ما كان يجري خلال تلك السنين - ليس بالنسبة للوكاش فحسب وإنما بالنسبة لحضارة بأكملها كانت على وشك

الانحياز إلى حضيض العدمية الثقافية والسياسية - يتحتم علينا أن نباشر معالجة الفلسفة الخلقية. عندئذ سوف نواجه لوكاش المتأخر ونحن في حالة استعداد (لا سيما لوكاش بوصفه مؤلف كتاب «تدمير العقل» من بين كتب أخرى)، وهو أسوأ كتبه إطلاقاً، ومع هذا فلا ينبغي إهماله».

إن مقدمة كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» عام ١٩٦٧ لا تساعد إجمالاً في إلقاء الضوء على هذا الموضوع. وكما نجبرنا لوكاش عن الكتاب بقوله إنه:

«قد يمثل أعمق المحاولات في حينه لتحقيق المظهر الثوري من ماركس عبر تجديد دياكتيك هيجل وطريقته والمضي بهما قدماً. إن ما جعل توقيت الفكرة صائباً هو الظهور المتزامن داخل الفلسفة البورجوازية لتيارات تسعى لإحياء هيجل. ولكن هذه التيارات أو النزعات من ناحية أخرى لم تنطلق من منطلق قطيعة هيجل الفلسفية مع كانط، وهي من جهة أخرى وقعت تحت تأثير ديلشاي فقامت بإنشاء جسور نظرية بين الديالكتيك الهيجلي واللاعقلانية المعاصرة».

وتلي هذه الفقرة معالجة قصيرة ومستخفة لكتاب كارل لوفيث Lowith «من هيجل إلى نيتشه»، حيث يرسم لوفيث صورة كل من ماركس وكيركغارد باعتبارهما «ظاهرتين متوازيتين انبثقتا نتيجة انحلال الهيجلية». من كل هذا، فليس بوسع القارئ على الأغلب أن يستنتج عناصر تكوين أصالة لوكاش عام ١٩٢٣. والجواب عن ذلك هو أنه وضع نظرية في التاريخ كانت ترمي إلى حل مشكلة أخلاقية: علاقة النظرية بالتطبيق.

ونجد في فلسفة كانط - كما فسرها الكانطيون الجدد الذين ترعرع لوكاش بينهم - انفصال الفلسفة الأخلاقية كلياً عن الإدراك النظري لعالم المرئيات (الظاهري). فلا يمكن استنتاج ما هو إلزامي أو واجب خلقياً عن طريق التفكير الاستدلالي المجرد، لأن العالم المادي إذا تيسر فهمه عن طريق الاستعانة بالمنطق العلمي، فإن هذا الفهم لا

يتحقق بالنسبة للعالم الخلفي .

إن الطبيعة (كما نادى بذلك كانط) تسلك قوانين سببية ثابتة، بينما تكون حياة الفرد الخلقية خاضعة للتقرير الذاتي. فالقرارات الخلقية يتم التوصل إليها أو اتخاذها عندما يتشاور المرء مع ضميره حيث تتلقى الأقوال - واسمى مثال عليها هو «الأمر المطلق للواجب» - Cat- egorical Imperative المنوط بالمرء تجاه إخوانه من البشر - تصديقها النهائي من عالم يتخطى الظواهر وليس في متناول الفهم .

يستنتج مما سبق أنه لا يمكن أن توجد نظرية في الأخلاق، بمعنى الإدراك الصحيح للتدرج الموضوعي في القيم، حيث ترسى دعائم هذا التدرج في طبيعة الواقع. إن القرارات العملية (الأخلاقية السياسية) لا يمكن استنتاجها من أية نظرية حول العالم - سواء كانت نظرية (خطأ أم صواب) صحيحة أم مغلوطة. فالحرية لا تنتمي إلى عالم المراتب، وبالتالي فهي ليست مرتبطة به في علاقة سببية. فليس بوسع الأخلاقية أن تدلنا على ما يتوجب علينا فعله. من هنا كان الوازع النهائي للأخلاقية الكانطية هو «المثل الأعلى» - ذلك الذي ينبغي أن يوجد، ولكنه غير موجود.

إن هيجل برفضه هذه النتيجة - بعد أن وصل بها فيخته إلى نهايتها المتطرفة، بحيث جعلها تبدو متناقضة، وقضى بذلك على فعاليتها من الناحية العملية - أثر في العودة إلى وجهة النظر الأرسطوطاليسية في أساسها. وهنا، مرة أخرى، ممارسة تقوم على إدراك الحقائق المطلقة المتعلقة بالإنسان والعالم.

الأخلاق و«السياسة» عند هيجل يلوزان بفلسفته عن الروح، وهي فلسفة تضع حداً لا يصعب اختراقه بين «ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون». لقد احتفظ ماركس حين جعل «هيجل يقف على رجليه» بهذا المنحى بالرغم من أنه استغنى عن ميتافيزيقيا هيجل. لذلك فإن الماركسي الذي عاد عام ١٩٢٣ إلى فلسفة ماركس هو بغنى عن تمييز الكانطيين الجدد الجامد بين الواقعة والقيمة، وبين العلم والأخلاق،

وبين النظرية والتطبيق (الممارسة). لقد تولى التاريخ الاهتمام بكل هذه الأمور، لأن فهم التاريخ على أساس أنه من صنع الإنسان يكشف خبايا الوجود الإنساني الأعمق (حسب تعبير معاصري لوكاش الوجوديين). إن مثل هذه الفلسفة، بشرحها الوضع الإنساني على هذا النحو، قد وصفت على نحو مماثل الأخلاق الملائمة أو المناسبة للإنسان.

كل هذه الأمور كانت واردة بشكل ضمني - وإلى حد ما بشكل صريح - في كتاب «التاريخ والرعي الطبقي». فقد كانت بمثابة التحدي للأخلاقية الكانطية والأخلاقية النيتشوية على حد سواء. وعلى هذا الأساس فقط ينبغي أن ينظر إليها نظرة جديدة، وهو فعلاً ما حدث بعد مرور عقد من الزمن على يد الماركسيين الجدد (فيما يسمى بمدرسة فرانكفورت) الذين التفوا حول «مجلة البحث الاجتماعي» *Zeitschrift fuer Soziale Forschung*، وأهمهم ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنوو والتر بنجامين وهربرت ماركوز. أما الأثر المباشر الذي أوجدته هذه المدرسة فهو إحداث انشقاق في صفوف النخبة المثقفة الماركسية في شرق أوروبا ووسطها. ولو كان لوكاش على حق، لترتب على ذلك أن يعامل التراث المثالي الألماني بروح مختلفة جداً عن الروح التي عولج بها، لا سيما في مقالة انجلز المؤيدة لفيورباخ.

أما بالنسبة للشيوعيين فقد كان من السهل جداً رفض الأخلاقية الكانطية التي غدت فلسفة لتلاميذ أدوارد برنشتاين التصحيحيين أو التحريفيين *Revisionists* في صفوف الديمقراطيين الاجتماعيين، ولم يكن من السهل الاستغناء عن التطورية «المادية» التي كانت مثلتها الروسية قد أجازها لينين يوم أقر كتابات بليخانوف. ولكن بشكل إجمالي كان من المستحيل على اللينينيين حقاً أن يحدوا حدو لوكاش في اضطلاعهم بالتراث الهيجلي كله. فهو يرى أنه في نقطة التلاقي بين علم السياسة والأخلاق يكون جوهر الإنسان على انسجام مع وجوده.

وإذا ما استخدمنا اصطلاحاً هيجلياً وقلنا إن مقولة «الذات المتطابقة مع الموضوع» تحقق نفسها في العملية التاريخية من خلال التغلب على الاستلاب (التشيؤ كما يحلو للوكاش تسميته) أو المفروض على البشر بفعل الظروف المادية التي فرضوها على أنفسهم، فإن الثورة البروليتارية هي الفعل الذي يجعل هذه العملية «تعود إلى رشدها»، وبالتالي تقترب من نهاية فعلية لكي يتلوهما مجتمع شيوعي خال من الطبقات، يعمل على «تحقيق الفلسفة» (وهو مصطلح مشترك بين لوكاش وصديقه الهرطوقي كارل كورش).

ولم تكن هذه نهاية الموضوع. فتأكيد لوكاش على إمكانية وجود نظرة متميزة تستطيع استشفاف منطق التاريخ قد لمح دون ريب إلى أن النتائج الفلسفية مستقلة عن النتائج المتاحة للعلماء التجريبيين في حقلي علم الاجتماع والاقتصاد، ولدى المنظرين السياسيين. إن هذا النوع من الحجج، عندما يستخدم للدفاع عن الماركسية في وجه نقادها ممن لا يدركون لسذاجتهم طبيعة موقفهم الشخصي المشروط اجتماعياً، سنوف يؤدي وظيفة جدلية مفيدة. ومن وجهة نظر الحزب، فإن الخطر الكامن في ذلك كان يفصح عن نفسه في تلك المناسبات التي كان يشعر فيها لوكاش بأنه حر في أن يعلن أن حقيقة الموقف التاريخي هي كيت وكيت. وليس بالأمر المهم أن تكون خطاباته منذ عام ١٩٢٠ فصاعداً قد جاءت متناقضة مع الأرثوذكسية السوفياتية، كوقوفه إلى جانب ستالين ضد تروتسكي أو مع موسكو ضد بكين عام ١٩٦٣. لقد أظهرت أقواله الهرطوقية بوضوح يوم وقوع الثورة في المجر عام ١٩٥٦، وهو أمر مبدئي بالنسبة له على أية حال، أنه يجوز التأكيد على أن الحزب (حتى لو كان هذا الحزب هو الحزب السوفييتي) يمكن أن يكون على خطأ. وبالنسبة لأولئك الذين نشأوا في بيئة غربية، فإن شعور رجل لاهوتي بارز بأنه حر في تصحيح هيئة الكهنوت قد لا يبدو أمراً غير مألوف. أما في بيئة يسودها جو الجدل البيزنطي كما كان الحال في موسكو القيصرية - البابوية، حيث كانت

السلطة السياسية لقرون طويلة هي التي تفرض القوانين، فإن مثل هذه الادعاءات غير مسموح بها. وعندما أصبحت اللينينية عقيدة رسمية فإن أي خروج عن الأرثوذكسية كان يؤدي تلقائياً إلى الخروج من صفوف المخلصين. إن الملابس التي وقع فيها لوكاش فضلاً عن ارتداداته المفاجئة dramatic هو الثمن الذي دفعه لقاء مشاركته الدائمة في حركة كان قادتها ينظرون إليه برؤية ظاهرة. ومع أنه كان بعض الأحيان يقاضيههم كأن يعلن - بعد مرور ٤٠ سنة على وقوع الحادثة - عن احتقاره لهم وعن الأهمية التكتيكية المحضنة لانتقاداته الذاتية وإذلاله لنفسه، إلا أنه إجمالاً كان يؤمن بعقائد يعاملها بازدراء تستحقه في كتابه «التاريخ والوعي الطبقي» الذي يعتبر من ألمع كتبه وأبعدها تأثيراً. كانت فلسفته هي بيت القصيد، وقد أدى ارتداده عنها إلى فقدانه عنصراً من عناصر التراث الهيجلي، الذي كانت خسارته التاريخية تفصح عن نفسها من خلال عمله اللاحق كناقذ للأدب.

الفصل الخامس

إن أي ماركسي يولي أدنى اهتمام للمعضلات الفلسفية لا بد وأن ينطلق من النظرة القائلة بتمحور التاريخ حول الذات الإنسانية ، تلك النظرة التي ورثها كل من ماركس وانجلز عن «كانط» في عصر التنوير . يقف الإنسان في وسط عالم المجتمع الذي خلقه هو (أي الإنسان)، ويضم هذا «العالم» مجال الفن الذي يعكس بعداً معيناً من أبعاد النفس البشرية . وإذا كان الكاتب المتكلم عنه مديناً لعلم الجماليات عند هيجل ، فإنه سوف يسعى لربط المدرسة الهيجلية بتراث المثالية الألمانية من جهة ، وبالحركة الرومنظيقية من جهة أخرى . ويتساءل مستغرباً كيف مهّد كتاب «كانط» في «نقد ملكة الحكم» الطريق لكتاب شيلر «الرسائل الجمالية» ، التي بدورها لم تؤثر في هيجل الشاب فحسب ، بل أيضاً في صديقه القديم وعدوه فيما بعد ، شيلينج Schelling فيلسوف الرومنظيقية الألمانية . وإذا كان هذا الماركسي ، مثل لوكاش ، يعتبر المثالية الموضوعية لهيجل خطوة نحو المذهب الطبيعي لدى فيورباخ وانجلز ، فإنه سوف ينظر إلى مذهب «المثالية الموضوعية» عند كانط وشيلر بمثابة انحراف أو زيغ كان هيجل متحرراً منه لحسن الحظ ، وكانت علة هذا المنحى في بعض النواحي قريبة من الرومنظيقيين ، بينما جسّد كانط المذهب العقلاني لعصر التنوير الألماني في أنقى مظاهره وأشدّها تصلباً . وهناك صعوبة أخرى ، وهي أن كانط الذي غادر مسرح الحياة في العام ١٨٠٤ ، كان فعلاً غير متأثر بالردة المحافظة والمناهضة للثورة الفرنسية ، التي امتدحها هيجل على مفضض . وبدت مثالية كانط في نظر ماركس كتحويل أستاذه نموذجي لمذهب الفعالية الثورية الفرنسية إلى تأمل ألماني ، ولكن في الأقل لم يكن ثمة شك بالتزامه «بمثل» روسو والثورة الفرنسية عامة . وكانت حماسة هيجل لروسو أشد تكتماً ، وعكست موافقته المتحفظة على نابوليون (التي شاطر فيها غوته) قبولاً مدعناً بالحكم الاستبدادي

المتنور الذي حل محل التجربة الديمقراطية التي اضطلع بها اليعاقبة. وثمة شيء في موقف هيجل تجاه نابوليون يربطه بالإعجاب العلني الذي أعرب عنه لوكاش تجاه ستالين: الريان الذي قاوم العاصفة حتى في اضطراره لذبح نصف ملاحى السفينة ومعظم ضباطه. ولطالما جذب الحكم الاستبدادي المتنور المفكرين الألمان. ومن هذه الناحية في الأقل يقف لوكاش وسط تقليد راسخ الأركان في النظرة السلبية التأملية التي تحلت بها البورجوازية الألمانية المثقفة في فترة ما قبل ١٩١٤.

إن هذه الاعتبارات ليست طارئة على لب موضوعنا ولو نظرياً، لأن الاستقلالية الذاتية للإنسان، كمواطن وكبناء لعالمه هو، هي الفكرة الرئيسية لعلم الأخلاق عند كانط مثلما هي في علم جمالياته. وثمة خط من التفكير يمتد من «نقد ملكة الحكم» عبر كتابات فيخته الشاب وشيلر وصولاً إلى وجهة نظر ماركس الشاب. وإذا كان الإنسان مقياس كل الأشياء - وهذه هي الفكرة الرئيسية في جماليات كانط - فإن أي نظام سياسي لا يحترم الاستقلالية الذاتية للإنسان هو نظام يتعرض للإدانة. وانطلاقاً من هذا الافتراض فليس هناك سوى خطوة قصيرة لبلوغ يعقوبية فيخته في باكر عمره، وهو بمثابة الأمر المؤلف في التاريخ الفكري الألماني بأن راديكالية فيخته القصيرة الأجل قد تم إحيائها على يد أتباع هيجل، أولئك الذين يعرفون بالهيجليين الشباب أو الهيجليين اليساريين. وإنه، لأمر مؤلف أن هؤلاء المفكرين، الذين ضموا بين صفوفهم ماركس الشاب، كانوا في حالة تمرد ضد الجانب المحافظ والتأملي من فكر هيجل. غير أن هذا الجانب بالضبط من فلسفة هيجل هو الذي تفتتح زهوره في كتابه «علم الجمال».

لذلك، فإن طريقة فهم لوكاش تفرض عليه عائقاً محدداً بقدر ما هو عاجز عن أن يدفع إلى النهاية التضمنات الكاملة لما يسمى وجهة نظر ماركس البروميثية: التزامه بالملذبة - الفيورباخي في

جوهره - القائل إن الإنسان المتحرر، المستقل ذاتياً والحر، هو في آن معاً، الفرضية المسبقة للفلسفة والغاية الحقيقية لكل النشاط الاجتماعي... الإنسان هو الذات في عالم من الأشياء، وكل ما يدل على قوته الخلاقة يعتبر خطوة نحو تقرير المصير التام الذي يدعوه ماركس الحرية. ويكمن موطن الضعف لدى المذهب المثالي «الذاتي» انطلاقاً من وجهة النظر الماركسية، في معالجة هذا التحرر كمجرد أمنية، بينما أظهر هيجل أن تحرر الإنسان يحدث في التاريخ. إن ما هو حقيقي في نهاية المطاف (الحرية الإنسانية) يعود إلى مجراه عبر عملية ضرورية من الصراع والتناقض الذاتي. غير أن هذا (الحقن) بنمط من الحتمية المنطقية، لم يقم إلا بإزاحة كابح الأخلاقية الكانطية، وهي أخلاقية في تنازع أبدي مع الوضع البائس للعالم الواقعي. فهي لم تضعف ما كان مركزياً لكل أشكال المثالية الألمانية - الاقتناع بأن البشرية متجهة نحو فرض الشكل والمضمون على عالم هو من صنعها اللاواعي. فالإنسان يبذل الحد الأقصى لإمكانياته، وبينما يتفاعل حتماً، وهو في ميدان العمل، مع بيئة مادية محددة، فهو حر على نحو أصيل في مجال الفن. إن الدلالة النهائية للإبداع الفني هي انطولوجية. فالفن يكشف الطبيعة الحقيقية للإنسان ككائن نوعي. ولا يمكن لدارس مؤلفات لوكاش في علم الجمال أن يغيب عنه أن نظرية التمحور حول الذات الإنسانية هذه، يمكن اتخاذها معياراً للحكم على جميع الأعمال الفنية. وتنطوي المقولة الكلية الجامعة، التي هي مقولة مركزية للماركسية عامة، على أهمية خاصة بالنسبة إلى لوكاش لأنها تمكنه من ربط الإبداعات الفردية بأنباط أو أنواع تتطابق مع مراحل تاريخية معينة في التحرر التدريجي للإنسان من قيوده المفروضة ذاتياً. ويتم تحليل «التشيؤ» (اعتبار الأشياء المجردة أشباه مادية) أو «التمدي» في كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» ضمن جزء أساسي من عمل يركز على فلسفة للتاريخ ورثها لوكاش عن فيورباخ وماركس، ولكنه ورثها أيضاً عن الفلاسفة الكبار للمثالية الألمانية:

كانط، وفيخته وهيغل.

وتتمثل صلة هذا الجانب من الموضوع في أنها تفرض على مفسر كتب لوكاش نهجاً متعارضاً كلياً مع توقعات قراء بلغوا هذا الموضوع عبر تراجم لمؤلفه في النقد الأدبي. وقد تم تأليف الكثير من هذا العمل أثناء الحقبة الستالينية وهو بذلك يشمل كمية لا بأس بها مما لا يمكن وصفه إلا بأنه من سقط المتاع. والنموذج المناسب هنا هو ما تقدمه مجموعة المقالات الصادرة في عام ١٩٥٠ في تراجم انكليزية بعنوان «دراسات في الواقعية الأوروبية». ومعظم كتاباته المجموعة في هذا المجلد هي من التفاهة بحيث لا تستخف بالنقد فحسب، ولكن بالعرض البسيط. فهذه المقالات التي كتبت في أواخر الثلاثينات - عندما كان لوكاش يعيش في موسكو كلاجيء أت من ألمانيا دون أن يقابل وجوده هناك بالارتياح، ونشرت في مجلات مختلفة مكرسة للدعاية بين المتعاطفين معه - لا تجذب انتباه أي شخص مهتم على نحو جدي بالأدب الفرنسي أو الروسي: الموضوعين اللذين اختيرا بعدئذ بهدف تطوير التعاون الفرنسي - السوفياتي على كل صعيد. ويمكن قياس المستوى الفكري لهذا الخليط من الإعلان الاستهلاكي بأن الناقدَيْن الروسيَيْن الكبيرَيْن في القرن التاسع عشر: فيساريون بلينسكي (١٨١١ - ١٨٤٨) والكسندر هرتزن (١٨١٢ - ١٨٧٠) «هما السباقان للمنهج الذي تتوج باسمي لينين وستالين». وثمة بالمثل مقالة تافهة حول علم الجمال لهيغل، نشرت للمرة الأولى في هنغاريا في عام ١٩٥١ وأعيد طبعها لاحقاً في المجلد العاشر من الأعمال الكاملة، لا تمتدح كتاب ستالين «المطلع عهد جديد» حول علم اللغة فحسب (وهو كتاب يعتبره لوكاش نقطة تحول في الفلسفة)، بل تتضمن هذا النص: «إن النقد الحاد الذي أخضع له كل من لينين وستالين والعبرية التي طبقها مبادئ الماركسية على عصر الامبريالية والحروب العالمية والثورة البروليتارية، هما وحدهما جعلتا من الممكن المضي في التطوير اللاحق للماركسية في ميدان علم الجمال».

وثمة شيء أكثر من ذلك بهذا المعنى في هذه المقالة - مناقشة استعلائية للتراث الهيجلي في حقل الفن - ويصدر المجلد كله في هذه الطبعة الألمانية الغربية بمقدمة (بودابست، أيلول/سبتمبر ١٩٥٢) تمجد مرة أخرى مآثر لينين وستالين الفلسفية، ولا سيما جولة ستالين في نظرية اللغة.

وإنصافاً لوكاش - الذي كان يعيش حينذاك في ظل أشد الأنظمة وحشية وهمجية، التي لم ينج من بلائها إلا بشق الأنفس - لن يقال أي شيء آخر عن هذه الممارسات البغيضة في النظامية الحزبية. كل من يقرأ مقدمات لوكاش لمقالاته الكاملة حول الواقعيين الروس (مؤرخة «بودابست، شباط/فبراير ١٩٤٦» و«بودابست، أيلول/سبتمبر ١٩٥١») ، ومن ثم ينتقل إلى مقدمة ١٩٦٤ في الطبعة الألمانية الغربية للأعمال الكاملة Werke يمكن أن يحكم بنفسه على ما إذا كان مسوغاً له أن يورد في الختام بعض التعليقات الاعتذارية حول «تراجعات تكتيكية سابقة إبان مناظرات ١٩٤٤ - ١٩٥٠» ، مع هذه الملاحظة الهزيلة: إذا أضفت الآن إلى الدراسات القديمة حول الأدب السوفياتي دراسة جديدة متعلقة بمغزى ظاهرة سولجنتسين، فليس ذلك، ببساطة، إلا استمرارية غير متقطعة لنشاطي الماضي في هذا الحقل». إن ما كانت تنطوي عليه «مناظرات ١٩٤٩ - ١٩٥٠» - التي حدثت في أوج موجة تطهير من أشد تطهيرات الحقبة الستالينية دموية، هذه المرة في هنغاريا - يمكن استنتاجه من مقالة حول هذا الموضوع بقلم جوزيف رفاي المغالي في ستالينته - وهو تلميذ لوكاش، ثم أصبح فيما بعد عدوه الألد. بالنسبة لرفاي «كان صمت لوكاش حول الأدب السوفياتي أثناء الأربعينات في هنغاريا بالغ الدلالة». ألم يرقم أثناء الثلاثينات بنقد كل من «الانحطاط البورجوازي» وحرارة التأليف السوفياتية؟ أو لم يدل ذلك على أنه «كان يقف على أرضية الواقعية البورجوازية الكلاسيكية؟» إنها لتهمة خطيرة بالفعل، خاصة وأنها استعادة لانحرافات لوكاش السابقة.

إن مجرد سرد هذه الأحداث يكفي للتخلص من مفهوم استحالة فصل عمل لوكاش كناقد أدبي - أو بالأحرى كعالم اجتماع في الأدب - عن التزاماته السياسية والفلسفية. ولا يمكن جعل مفهوم للفصل كهذا أكثر معقولة على أساس أن نقاده الستالينيين والجدانوفيين Zhdanovists سعوا بين الحين والآخر لاكتشاف آثار الجمالية حتى في أقواله البالغة الاستقامة إبان الثلاثينات. هكذا استتج «رفاي» عدم حماسة لوكاش للأدب السوفياتي واعتقاد هذا الأخير بأنه ليس من الضروري أن يكون الكاتب شيوعياً لكي يصف الواقع بصدق: «إن هذه النزعة نحو الموضوعانية Objectivism يمكن أن نجدها مع الأسف في مجمل أعمال الرفيق لوكاش». غير أن العلة الحقيقية تكمن، في رأي رفاي، في مكان آخر: لم يتغلب لوكاش أبداً على توفقه الملح نوع من التقدمية، السياسية والفلسفية والفنية، التي كانت ديمقراطية دون كونها اشتراكية. وبتعبير آخر، لم يتغلب أبداً على الهرطقة المرعبة لأطروحاته المعروفة باسمه الحركي «أطروحات بلوم Blum»، (بالرغم من أن ذلك لم يتضح على نحو جلي إلى أن أثارها لوكاش علانية خلال أحداث ١٩٥٦)، عندما حاول أن يخرج الشيوعيين الهنغاريين من ازدراءهم العصبوي للتقليد الديمقراطي: «ما هو مصدر هذه المفاهيم؟ إن الرفيق لوكاش (في انخراطه) بالنضال المناهض للفاشية قد نسي النضال المناهض للرأسمالية - ليس خلال السنوات الخمس الأخيرة فحسب، بل قبل ذلك بكثير. وفي كفاحه ضد الانحطاط الامبريالي حاول مجابهة الفاشية بالأشكال الثورية - الشعبية العامة القديمة للديمقراطية البورجوازية وتقالدها، مسبغاً عليها بشكل عام، الطابع المثالي والميثولوجي. ونجدها متأصلة بعمق في النظرية الأدبية للرفيق لوكاش، التي تجاهه أدب الانحطاط الامبريالي وأيديولوجية الفاشية بالواقعية البورجوازية الكبرى، حيث تكمن على نحو خفي فكرة العودة إلى «ديمقراطية العامة» كنظام يملك صبغة ثابتة.

ومما يثير الاستغراب وجود شيء من الصحة في هذا الاتهام، مع أنه بحاجة إلى صياغته في لغة أقل عصبوية. وإن ما دعاه إسحق دويتشر ذات مرة «قصة حب لوكاش الفكرية» مع توماس مان يضيء تعاطفاً مثيراً للفضول في موقف لوكاش تجاه تلك الثقافة البورجوازية التي كان هو نفسه نتاجها. ولكن، مرة أخرى، لا يمكن فصل هذا الجانب من الموضوع عن التطور الشخصي والسياسي للوكاش منذ أواسط العشرينات.

وما أن هدأت العاصفة حول كتاب «التاريخ والوعي الطبقي» حتى ابتداء لوكاش يظهر بهيئة ماركسي - لينيني مستقيم إلى حد ما، وقد استطاع أن يتخطى انحرافات الواضحة. وأعقبت دراسة تقديرية للينين (١٩٢٤) مراجعة نقدية حذرة لمؤلف بوخارين حول المادية التاريخية (١٩٢٥)، ومقالتان نقديتان مسهبتان وعلميتان حول لاسال (١٩٢٥) وموسى هس (١٩٢٦)، كتبت بالألمانية، ونشرت في المجلة ذات السمعة الطيبة جداً «أرشيف من أجل تاريخ الاشتراكية» (وهي مجلة أكاديمية أسست قبل ١٩١٤ لصالح البحاثة الاشتراكيين)، وهي للأسف غير مترجمة. كشفت هذه الكتابات عن معرفة شاملة للتاريخ الاشتراكي، وتقيدت بشكل دقيق بوجهة النظر الماركسية، وشملت قليلاً من المفاهيم التي يمكن اعتبارها في موسكو، مهما جرى التوسع في تفسيرها، بمثابة مفاهيم هدامة، بالرغم من أن العرض الجاف نوعاً ما لبوخارين في علم الاجتماع للمبتدئين كان يستحق بعض النقد المبرر. والمقالة الأكثر متعة، وهي عن موسى هس، جديرة بالاهتمام، حتى في أيامنا هذه، لدفاعها عن «الواقعية» الهيجلية في مناهضة «طوباوية» فيخته المثالية، وقد يمكن اعتبارها ضمن هذا النطاق معركة دفاعية في انسحاب لوكاش البطيء من الموقع المكشوف الذي كان يشغله قبل ثلاث سنوات. فقد لفت انتباه القارئ فيما لفتته إلى لك الهيجلي المشوق، أوغست فون شيزكوفسكي، واستهانت بنقد فيورباخ لهيجل، وشرحت إخفاق هس في إكمال علم أخلاق اشتراكي

واف، وذلك انطلاقاً من اعتناقه لانتروبولوجيا فيورباخ الوجدانية. وبالإجمال فإن هذه المقالة من أشد كتابات لوكاش أصالة ونفاذاً، وهي على الإطلاق أعظم قيمة من العديد من أقواله التالية حول المواضيع الفلسفية. وهي، مثل مقالته السابقة عن «لاسال» تتكشف عن قدرة إقناع منطقية وتهتم في موضوع مفقود للأسف في بعض جولاته النقدية اللاحقة والأكثر شهرة، وهي التي كان ينبغي عدم نشرها أساساً، بل ترجمتها. كان لوكاش حينذاك في الأربعين من عمره وفي أوج طاقاته ككاتب، كان سيد أسلوب مصقول، وواضح المعالم، ولم يكن حكم عليه بعد أن يؤدي المهمة الموحشة في إنتاج كتابة مبتذلة لجمهور قراء شبه أميين. إن العصر الذهبي لجمهورية فايمار قصيرة العمر لم يتزامن مصادفة مع فترة هدوء نسبي داخل الحركة الشيوعية المشرذمة، محلياً ودولياً. فقد كانت فرصة مؤاتية لمنظر من طراز لوكاش استوعب أن الماركسية لا يمكنها فرض وجودها على العالم الأكاديمي، والثقافة الدقيقة، غير أن وقوع الحزب الشيوعي الألماني فيما بعد في هستيرية مغالية في اليسارية - وهي نقل للنزاعات الحزبية الروسية المحلية إلى أوروبا الوسطى - قد دمر هذه البدايات الواعدة، وقاد في النهاية إلى اعتلاء هتلر سدة السلطة، على ركام الليبرالية والديمقراطية الاشتراكية والشيوعية على حد سواء.

أمام هذه الخلفية، اكتسبت محاولة لوكاش التي لم تكل خلال هذه السنوات والتي أعقبتهها، لتجنيد توماس مان إلى جانب «التقدم»، دلالة ازدادت بروزاً إبان كارثة ١٩٣٣. ويعكس الذين نصبوا أنفسهم وعاظاً وكانوا يشكلون القيادة الفعلية للحزب الشيوعي الألماني - هذا عدا مستشاريهم «النظرين» الذين خرجوا بمعظمهم من مقاه «فينوية» (نسبة إلى مدينة فيينا)، وكانوا يعيشون في عالم أحلام من صنع خيالهم - امتلك لوكاش فهماً عميقاً للتاريخ والثقافة الألمانييتين. لقد أدرك - وذلك سيضحى من أفكاره الرئيسية الثابتة - أن حركة التنوير الألمانية للقرن الثامن عشر قد هزمتها حركة رجعية مضادة،

وأن النظرة الأساسية لأغلبية المثقفين الألمان هي نظرة لا ديمقراطية بشكل كلي، وأن اللاعقلانية هي خطر حقيقي مائل للعيان، لا ينذر بانحطاط ثقافي فحسب، بل بكارثة وطنية. وكان مدركاً بشكل مماثل - وهذه حقيقة أخرى ميزته عن منظرين للحزب الشيوعي الألماني والأمية الثانية أشباه الأميين - بأن الاتجاه الرئيسي للثقافة الوطنية مرتبط بمطامح الديمقراطية والحركة العمالية. وكانت الأمة الأكثر رجعية في أوروبا - أمة تكون وعيها الوطني لذاتها في حرب مناهضة للشورة الفرنسية - تحتل أفضل موقع استراتيجي وأكثر المناطق دينامية وأعلاها تصنعاً في القارة الأوروبية. وأهبت هزيمة ١٩١٨ العسكرية صدور طبقات السكان كافة - بمن فيها العمال، الذين كانوا ساندوا الحرب باكثريتهم الساحقة، وان لم يوافقوا على الاهداف الامبريالية للغزو. وكانت المانيا، بالمقارنة مع جاراتها الاوروبيات، عملاقاً صناعياً، وقد تصبح مرة اخرى عملاقاً عسكرياً. وكانت المدارس والجامعات معاقل للايديولوجية السائدة التي هي مركب من الرومنطيقية الرجعية والروح العسكرية العدوانية، وعبادة القوة، والحدق اللاعقلاني لأي شيء غربي، ليبرالي، انساني، كوزموبوليتاني أو «يهودي». وبينما كان افراد الهئية التعليمية في فرنسا من القمة الى القاعدة ينتمون في سوادهم الى اليسار، شكل المدرسون في المانيا جند الصدام للقومية والرعية. وبدا ذلك واضحاً تمام الوضوح لكل ذي عينين. لقد مثل ذلك لعقود طويلة التذمر الدائم لديمقراطيين بورجوازيين جديرين بالاحترام امثال هينريش مان وهو شقيق توماس مان و«غربي» مولع بالثقافة الفرنسية بحماسة متوقدة، وهو أمر شاع في اوساط الفئات اليهودية الصغيرة العديدة، ولكن الكبيرة التأثير التي كانت تمثل في العشرينات ما تبقى من الليبرالية الالمانية، وذلك بعد ان ارتد معظم جندها الى معسكر القوميين، وكان ذلك واضحاً للديمقراطيين الاشتراكيين وهو ما يفسر جزئياً التثبيت البائس الذي تمسكوا من خلاله ببناء الجمهورية المنهارة التي اقاموها في العام ١٩١٨.

والواقع انهم قاموا بعمل اخرق - وفقدوا مع مرور الوقت سيطرتهم على الأقلية من العمال والمثقفين الجذريين - لم يبطل تصورهم بأنهم جاثمون على فوهة بركان، ولم تكن جمهورية فايمار فاقدة الشعبية فحسب (لم يكن بإمكانها بعد العام ١٩٢٠ الاعتماد على اكثرية برلمانية موثوقة)، بل ان مجرد وجودها كان يستثير غضباً عارماً في صفوف القوات المسلحة، ومعظم الطلاب، واغلبية الهيئات التعليمية في المدارس والجامعات، وأكثرية الفلاحين والعدد الأكبر من الطبقة المتوسطة الريفية. ولم يحظ الركنان التوأمين لائتلاف فايمار الاصلي - الاشتراكية الديمقراطية والكنيسة الكاثوليكية - بأية مكانة في أعين الجيش، وطبقة ملاك الاراضي الارستقراطية او الطبقة البروتستانتية العليا. ولم يكن لدى الاشتراكيين الديمقراطيين سوى النقابات ليلجأوا اليها، وأما الكاثوليك - كما اظهر ذلك انتصار هتلر السهل في ١٩٣٣ - فبدوا على أهبة الاستعداد للتخلي عن السفينة الغارقة والالتفاف حول نظام سلطوي.

وفي ظل هذه الظروف، كانت ثمة مبررات سليمة قصيرة الأجل وطويلته، وذلك لمحاولة تقريب الاشتراكية من طبقة متوسطة قد نسيت أنها تبرأت من التزامها بالانسانية الليبرالية والمثل الديمقراطية للعام ١٩٤٨، ولم يجاف الحقيقة بمحاولة احياء تراث الثورة الفرنسية، غير ان النقطة التي فاتتهم هي انه في المانيا وجدت كل الدواعي من اجل محاولة تبرير التزام بالماركسية بشكل الانسانية الراديكالية التي مثلها سابقاً كتاب امثال جورج بوختر، وهاينريخ هايني، ونيقولاولوس لبناو او الأروستقراطي الليبرالي بلاتن - وهو كاتب مفضل لدى لوكاش، وقد ابرزت الساحة الالمانية في فترة ماضية ١٨٣٠ - ١٨٤٨ تقدماً راديكالياً مفاجئاً على صعيد الفكر وارتفاعاً إنسانياً مذهلاً في الشعر. وبدون الذهاب بعيداً في تقديم البرهان بلا مبرر، يمكن تبيان ارتباط هذه التيارات بالعصر الشهير للفلسفة والأدب والفن الالمانى

الكلاسيكي: عصر غوته، وهيغل، وبيتهوفن. وفي محاولته ضم توماس مان للتقليد الانساني، لم يكن لوكاش يقوم بمناورة دعائية وحسب، بل كان يحاول تثبيت ماركس وانجلز ككتاب من الطراز الاول في الادب الالماني، ولم ينجح اسلافه الاشتراكيون الديمقراطيون المتمون الى الخط نفسه- وبشكل خاص كاتب سيرة ماركس والناقد الادبي فرانز مهريغ (١٨٤٦-١٩١٩) في حمل عدد غير ضئيل من الطبقة الوسطى الليبرالية على اعتناق القضية الاشتراكية. وتعمد لوكاش استئناف العمل حيث توقف مهريغ، ولكونه فيلسوفاً مدرباً، لم تراوده أية اوهام حول الاهمية المزعومة «للبنية الفوقوية الايديولوجية». كان لا بد من خوض المعركة الحاسمة على صعيد الخيار الواعي بين التيارين الرئيسيين داخل الثقافة الالمانية: تيار العقلانية والانسانية من جهة، وتيار اللاعقلانية والهمجية من جهة اخرى. وبتعبير سياسي، كان لا بد من تحويل الانتلجنسيا. ولكن لم يكن ممكناً تحقيق ذلك بالدعاية لصف الأذان المعارضة. كان ينبغي وجود تحويل اصيل حقيقي، ينطلق من وعي هدف مشترك: احياء تقليد المانيا الكلاسيكي قبل ان يغمرها الطوفان الرومنطقي، والنتيجة النهائية المفجعة لهذه الاخيرة: «همجية العصور القديمة» من قبل نيتشه وذريته الفاشية.

وليس من سوء حظ لوكاش- ان نجاح هذه العملية اعتمد على ظروف لا سيطرة له عليها، ويأتي في مقدمتها ذهنية الشيوعيين الالمان والنمساويين والهنغاريين. ومنذ ١٩٣٠ فصاعداً خرجت نوبة جديدة من التعصب الفتوي بالمذهب القائل ان العالم عامة، و المانيا خاصة، قد دخلا عصر ما قبل الثورة، تدعهم في مذهبهم هذا اقوال من ستالين. غير ان الذين شجعوه في الواقع المتعصبون المتجانسون الذين ظهروا «كملهمين» نظريين للحركات الشيوعية المختلفة في اوروبا الوسطى. وعزز هذا الهراء الفارغ الاكتشاف الساطع بأن الديمقراطية الاشتراكية والفاشية «توأمان»- وهذا ضرب من الحماقة كان عمل على

نشرها زينوفيف في ١٩٢٤ قبل ان يتبناها ستالين واتباعه، حيث لا احد منهم يحمل عبء الالمام غير الضروري باحوال العالم خارج حدود الاتحاد السوفياتي. ومن ضمن هذا «التحول الى اليسار» (الذي انطوى ايضاً على تجربة غريبة مع «الادب البروليتاري» في روسيا) جهز الحزب الشيوعي الالماني نفسه بمجلة ادبية اسمها «المنعطف اليساري» التي اصبح لوكاش مساهماً فيها عام ١٩٣١، بعد ان قضى سنة في موسكو في (١٩٣٠-١٩٣١) وتخلص من بقايا ذاته ما قبل الستالينية. وتشكل مساهماته في مجلة Die Linkskurve ومجلات شيوعية المانية اخرى في ١٩٣١-١٩٣٣ مادة رديئة جداً للقراء. انها نتاج انسان اجرى لمخه نوعاً من العملية الجراحية غير المؤلمة، فأزال جزءاً من دماغه وأبدل به شعارات من الدعاويين في موسكو، ومثل هذه النوعية من المقالات النقدية لم تنتزع الاعجاب لدى احد ما لم يكن مسبقاً عضواً حزبياً مخلصاً. وليس غريباً، والحالة هذه، ان كلتا محاولتيه، السابقة واللاحقة، في سبيل تجنيد توماس مان وغيره من المؤلفين الالمان البارزين لتأييد القضية «التقدمية» قد اعتبرت من قبل المستفيدين البعيدي النظر مجرد مناورات تكتيكية، فاثبات ان ماركس وانجلز يندرجان ضمن التقليد نفسه لكل من كانط وفيخته وهيجل شيء، وتأكيد ان هذا التقليد قد ورثه ككل «الكاتب الثوري البروليتاري الناطق باسم طبقته» كما وصفه لوكاش (١٩٣٢) شيء مختلف كلياً. وشكل شجب لوكاش في الوقت نفسه لآية محاولة، تبغي التمييز بين الفن والدعاية كمحاولة «تروتسكية»، خروجاً ملحوظاً على مقاييسه السابقة (اذا ما تكلمنا باعتدال). كان مهرينغ يميز لنفسه بين الفينة والأخرى ابداء تعليق صريح حول عدم تأييد العهود الثورية للنمط الجماعي للدراك؛ اذ انها تستلزم الالتزام العملي والاهمال الواعي للتفكير المنهجي. وكتب لوكاش في Die Links-kurve في عام ١٩٣٢ هادراً بالطريقة الستالينية الفضلى: «لدينا هنا بشكل جنيني النظرية الادبية للتروتسكية»- حيث ان تروتسكي كان

قد قال ما معناه، انه في حين ستوجد ثقافة اشتراكية ضمن مجتمع مقبل، فليس هناك ما يسمى أدباً «بروليتارياً» في مقابل كتابة «بورجوازية». وكان هذا القول يعتبر هرطقة في موسكو في ١٩٣٢ ولكن بعد سنوات قليلة اضحى وجهة النظر الستالينية الرسمية - وعندئذ غير لوكاش وجهته فوراً وتحلى عن مفهوم الادب البروليتاري وأبدل به مفهوم «الواقعية الاشتراكية» الذي كان ستالين قد جعله رسمياً حينذاك (وفقاً لنصيحة مكسيم غوركي).

وقبل الدخول في هذا الجانب الكئيب من الموضوع، لا يزال هناك شيء لا بد من قوله عن قصة حب لوكاش الفكرية مع توماس مان. ويعود ذلك إلى ما قبل عهده المزدهر في هنغاريا سنة ١٩١٤. وقد بقيت هذه القصة بشكل لافت للنظر حية بعد اقامته الطويلة في موسكو (١٩٣٣-١٩٤٤) وظهرت الى السطح مرة اخرى خلال انطلاق ما بعد ستالينيته في أعقاب ١٩٥٣. لقد كانت بالفعل امرأ ثابتاً منذ أيامه الأولى كناقذ.

لقد حدث أول لقاء بين لوكاش ومان في ١٩٠٩، واتخذ شكل عرض لرواية مان «السمو الملكي» (وهي مترجمة الى الانجليزية كملحق لمجلد صادر عام ١٩٦٤ بعنوان «مقالات عن توماس مان»). والموضوع الأكثر جوهرية في هذه المجموعة هو «البحث عن الانسان البورجوازي» وكان قد كتبه في عام ١٩٤٥ تكريماً في عيد ميلاد مان السبعين، وفي محاولة (ولنستشهد بملاحظات لوكاش التمهيدية اللاحقة) «بودايست، كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣»: «لتوضيح موقف مان المعقد بشكل جدي ازاء الطبقة المتوسطة، التي تشكل، حسب رأيي، المصدر الاساسي الاجتماعي وبالتالي الشخصي لحياته كلها»: ترجمة مضللة لتعبير «البورجوازية» Buergetum، وهو مفهوم ميت يرتبط من بعيد بالبورجوازية، ولكنه يختلف ايضاً عن التعبير الأكثر شيوعاً. والالمان المتمون الى هذه الشريحة- التي أوجدت ثقافة متميزة في القرن السادس عشر، وذلك قبل أن تقهرها كارثة الحروب الدينية

ونشوء الحكم الاستبدادي- كانوا يعتبرون انفسهم دائماً اصحاب
 اسلوب معين في الحياة مرتبط بقيم لا يملكها النبلاء ولا عامة
 الشعب. وضمن هذه السياق فان المصطلح Bildung (بمعنى الثقافة
 والتهذيب والتأديب) الذي لا يمكن ترجمته كلية لا يعني «الثقافة»،
 بل بالأحرى يحمل معنى مشابهاً للنضج الفكري والاخلاقي. فال
 Bildung تحقق هدفها عندما تصل الى نقطة حيث ان الفرد- يتألف
 عالم المواطنين Buerger من افراد، وهو مفهوم لا يعني شيئاً البتة
 لملاك الاراضي الارستقراطيين أو البروليتاريا- ليس متمكنا من
 الاعتماد على نفسه اقتصادياً فحسب، بل اكتسب ايضاً حياة راسخة
 من القيم التي تشكل اسلوب حياة ال-Buerger. ويوجد النقاء
 الحقيقي لهذه القيم في الثقافة الفايبارية الكلاسيكية المرتبطة بالاسماء
 السحرية لغوته وشيلر، غير أنها تشمل ايضاً شعر نقادهم وخصوصهم
 الرومنطيقيين وفلسفتهم: هاردنبورغ- نوفاليس، فريدريك شليغل،
 تيكو شاميسو، أي.ت.أ. هوفمن، جان باول وآخرين، وأي
 شخص ليس ملماً بهذا العالم الأدبي الفلسفي يعرف بأنه ungebildet
 (غير مثقف ومصقول التربية)؛ وبذلك لا يستحق ان يسمى Buer-
 ger. وبالرغم من انه قد يكون حائزاً على المكانة الاجتماعية
 الاقتصادية المستلزمة، لا يعني ذلك انه ينبغي على المواطن Buerger
 ان يكون صاحب ملكية، بالرغم من ان Bildung und Besitz (الثقافة والملكية)
 يترافقان كلاسيكياً. وكان من شأن شخصيات افراد
 اسرة فورسايت في رواية غالز وورثي ان يجري اعتبارهم بمثابة افراد
 محظوظين على نحو استثنائي من الطبقة الكبرى من المواطنين سكان
 المدن أو طبقة النبلاء. ولأجل غاية عملية، فغالباً ما يكون
 ال-Buerger موظفاً مديناً، استاذاً جامعياً، أو رجل دين أو أحد
 أفراد المهن الحرة. وما يميزه عن البورجوازي الصغير، وحتى بدرجة
 اكبر عن الناس العاديين، إنها هو أسلوب حياته الذي بدوره يتركز
 على «قيم مثالية» بالاضافة الى القيم المادية الاكثر شيوعاً.

ومن البدهي ان ذلك كله وجد ويجد له نظيراً في مكان آخر. وما يجعل المؤثرات الأعلى للثقافة الالمانية في القرون الثلاثة الماضية فريدة هو كونها قد زودت على وجه الحصر تقريباً بقضايا الـ Buer-gerium. ولم تكن الحالة هذه بالتأكيد قائمة في بلدان اوروبية اخرى. فلا الادب الاليصاباتي ولا الثقافة الفرنسية للعصر الكبير يمكن وصفهما كبورجوازيين، بينما Kultur وBuerger مصطلحان متداخلان ومترابطان. وبالقدر الذي امتلكت فيه المانيا التي نهضت من ركاب حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) ثقافة، فإنها كانت ثقافة الـ Buergerium. وان المأثرة الجوهريه لهذه الثقافة أنها كانت متأثرة بالبورجوازية من البداية حتى النهاية (بالرغم من وجود بعض الانصار الارستقراطيين للحركة الرومنطيقية مثل هاينريخ فون كلايست (Kleist)، وحتى جماعة المعجبين بالقرون الوسطى، التي خربت الادب الالمانى بين ١٨٢٠ - ١٨٥٠ كانت بورجوازية: فالارستقراطية المؤيدة للبلاد كانت تفضل الى حد بعيد فرنسا القرن الثامن عشر على القرون الوسطى الجرمانية. والنبيل الالمانى الوحيد لتلك الفترة الذي يستحق ان يعتبر شاعراً كبيراً- اوغست فون بلاتن- كان بيرونيأً وليبراليأً سياسياً. وتوافق اسلوبه النيوكلاسيكي، ولو بطريقة اقل تأثيراً، مع اسلوب بوشكين وثقافة الطبقة العليا لروسيا القرن التاسع عشر، وهو مجتمع كان فيه المرء نبيلأً أو عامياً، وليس مطلقاً Buerger بالمعنى الالمانى.

كان توماس مان آخر مثل كبير لهذه الطبقة والثقافة الالمانية الفريدة، ولا عجب ان يعتني لوكاش الذي بالمناسبة يظهر بمظهر غير محب في رواية مان الشهيرة «الجلب السحري» ١٩٢٤ وذلك كالارهابي جيروزيث نافتا Naphta، بشخصية مشؤومة تجمع بين الايمان بالكنيسة الكاثوليكية والايان بالثورة البروليتارية. وجاء موقف مان الوطني المتحمس خلال حرب ١٩١٤-١٩١٨ كضربة للوكاش، كما سبب له نفوراً. غير ان ذلك لم يدم طويلاً، فان ما جمعها اساساً كان

التراث الذي وصفه لوكاش- وذلك في اعتراف شهير بالذنب جرى إعلانه في موسكو بعد سنوات لاحقة- «ميولي نحو العداء الرومنطقي للرأسمالية»: وهو دوران تكتيكي حول المعنى يهدف الى تجنب اي ذكر لنيته. اما فيما يتعلق بالمذهب الاخلاقي الشخصي، فقد كان لوكاش قبل ١٩١٤ وجودياً ورعاً منغمساً في الصوفيين الالمان، وفي كيركغارد ودوستوفسكي، واذا حكمنا عبر مقالته لعام ١٩٠٩ لم تكن سخرية مان الرومنطيقية محبة كلياً للوكاش، فبينما عزا الى مؤلف رواية «آل بودنبروك» («عائلة بودنبروك») «شعوراً بالانسلاخ عن المجتمع النباتي الطبيعي والتوق اليه»، اقترح ايضاً بأن هذه السخرية «تتبع من عدم الادراك المأساوي- الهزلي لأنواع التوق المتعددة هذه، ومن المآسي المضحكة للانفصال والانعزال التي تحدث عندما يحتك توق بالحياة». وفي الوقت نفسه، كان لوكاش واعياً حتى حينذاك الوضع الاجتماعي الذي هو في اساس تصور مان التهكمي لـ Buergetum وعالمه: «ثمة في كتابته ذلك الحس المتلاشي الآن المتمثل في الجلال والبورجوازي النبيل، ذلك الجلال النابع من الحركة البطيئة للشورة الراسخة».

واذا ما علمنا ان لوكاش قد وصل فيما بعد الى الماركسية عبر «فلسفة الحياة التي قال بها ديلثاي Dilthey وسيميل Simmel»، كان من المحتم عليه ان ينقب في مؤلفات مان بحثاً عن دليل على الاستياء من الطريقة البورجوازية للحياة. تمحورت كتابات مان الأولى حول ما دعاه لوكاش لاحقاً «معضلة طونيو كروغر - Tonio Krog - er» أي علاقة الفن بالحياة- وهو موضوع رواية مان القصيرة والشهيرة التي أثرت في لوكاش بينما كان لا يزال تلميذاً في المدرسة، في حين ان لوكاش البالغ قد اتخذ موقفاً انطلقاً من ارضية مختلفة كلياً، المظهر الكانطي (او الفاوستي) للفرد المحول العالم الذي تخلى عن النمط التأملي للوجود. وفي الوقت نفسه قاده انهماكه الدائم

بنظرية علم الاخلاق الى تعريف مدلول عمل مان بأسلوب تجاوز
الاختزالية الساذجة لطريقة الفهم السوسولوجي . ومان نفسه وفر
وسائل ردم الهوة باختتام مهنة حياته الطويلة بالـ **Bildungsroman**
(رواية التكوين الثقافي والنفسي) التي حملت العنوان المثير
«دكتور فاوستوس Doctor Faustus»: وأي عرض لتهكمه الذاتي
الشهير، ما دامت علاقته لغوته قد اصبحت آنذاك رمزاً انتقادياً
مألوفاً. وتوصل لوكاش، الذي كان قد ناقش الموضوعية الفاوستية
الرئيسية مطولاً في دراساته عن غوته ، في عام ١٩٤٥ الى استنتاج ان
مان هو خليفة غوته الشرعي :

«ان ما يقدم لنا في أعمال توماس مان انها هو المانيا البورجوازية
(بالاضافة الى النشوء والطرق السابقة). ويقدم لنا من ذلك القضايا
الداخلية، وبينما تنحو ديالكتيكياً منحى امامياً، فهي لا تستدعي
منظوراً مستقبلياً طوباوياً نحو الواقع الحالي، وليس هناك اعمال واقعية
شهيرة قليلة مصوغة بهذا الشكل، وسأذكر فقط روايات فيلهلم
مايستر Wilhelm Meister لغوته. ومهما كان مان قريباً من غوته،
فانه هنا نقيضه المحوري» .

ومع هذا الثناء بمناسبة عيد الميلاد سبق نشر Doctor Faustus في
اواخر ١٩٤٧: ذلك العمل الرائع الذي أكملت فيه الرواية التثقيفية
المتنامية Bildungsroman مسارها المحتم تاريخياً بدءاً من التفاؤل
المقيد لغوته الناضج الى الازعان الفلسفي لتوماس مان، مواصلاً
العمل على الفكرة الرئيسية لفاوست في منفاه الكاليفورني المريح خلال
الحرب العالمية الثانية . وفي عام ١٩٤٨ في مقالة تحمل عنواناً ذا
مغزى: «مأساة الفن الحديث» اصبحت لوكاش اخيراً عميق التمكن في
هذا الجانب من الموضوع، وبعد المقارنة المحتومة وبالأحرى المتبدلة
انذاك («ان منظور توماس مان العام يحدث بشكل مثير على نحو متواز
مع تطور غوته»)، مضى لوكاش لكي يستخلص العبرة الاخيرة
الملائمة :

«وهكذا فان فترات القضاء والقدر في المجتمع البورجوازي تحدد الطريق الخلاق لأشهر كتاب المانيا البورجوازيين، وتنتهي مأساة «فاوست» لغوته بمشاهد في «السماء» وهي شيء ملموس حقيقي لأنها تنبع من امل طوباوي في تجدد الانسان وتحرره انطلاقاً من أسس اقتصادية ومبادئ أخلاقية، اما «فاوست» مان، فإنه مأساوي في جوه العام لأن هذه الأسس على وجه الضبط قد تقوضت وتحطمت».

ويمكن مقابلة هذا الحكم التافه بتقديم مان نفسه فكرته الرئيسية: «ان التعاقد مع الشيطان اغراء الماني قديم، ولا بد لرواية المانية مستوحاة من آلام السنوات القليلة الماضية من أن تأخذ هذه الدلالة المرعبة موضوعاً لها. وحتى في حالة الروح الشخصية لفاوست، «فالروح الشريرة» هي شيء زائف في كبرى قصائدنا... لنبتعد عن التفكير بأن المانيا قد التصقت باستمرار بالشيطان... لنوقف كل هذا الكلام حول نهاية التاريخ الالماني من الآن فصاعداً! ليست المانيا مطابقة للفترة التاريخية القصيرة والمسؤومة التي تحمل اسم هتلر».

لقد اعتمد توماس مان الوطني الالماني على تفهيم حدسي لشعبه مما ينسف أدوات لوكاش السوسيولوجية.

ويضحى التباين اكثر جدارة بالاهتمام حيث بدت أخيراً أرضه مشتركة سياسياً، فتوماس مان الذي كان قد اصبح بعد الحرب نصيراً حازماً للديمقراطية الليبرالية- ومواطناً اميركياً، والذي ذهب الى حد التعبير عن بعض النفور عند التفكير بأن عليه زيارة المانيا مجدداً- برز «معادياً للفاشية» بقدر معاداة لوكاش، وان يكن بالمعنى الغربي للتعبير، وقد ناقش مان ملاحظات لوكاش حول مأساة ال- Buer- gertum الالمانية. وبالفعل استخدم احياناً لغة مماثلة تقريباً. غير ان المفهوم القائل بأن ما ألم بالمانيا كان بكل بساطة فشل التجربة الوجيزة مع الديمقراطية الليبرالية في ١٨٤٨ استوقفه كمفهوم ساذج بشكل لافت للنظر؛ اذ ان توماس مان كان يعرف مواطنيه جيداً في هذا المجال، وهكذا استشهد على سبيل الاستحسان بهرمان هسه Hesse

ان الالمان «يصعب التعامل معهم كأمة سياسية- اريد التبرؤ منهم كلياً». اما المفهوم القائل بأن «التعاقد مع الشيطان» له جذور تمتد الى ما قبل العصر الحديث- فماذا يمكن لهذا النوع من الكلام ان يعني للوكاش، وهو الذي توقف البعد الديني بالنسبة اليه عن امتلاك أية دلالة؟ ولا بد لقارى دراساته عن الأدب الالماني من أن تستوقفه تلك اللامبالاة تجاه اي شيء سابق للقرن الثامن عشر . ويبدو أن ما جرى خلال حركة الاصلاح الديني- غير التمرد الفلاحي الوجيه عام ١٦٢٥، الذي خصص له لوكاش، مقتفياً اثر انجلز، عناية مكثفة- انه لم يطرق وعيه . وكان من شأنه ان يأتي بعمل افضل لو استعان بمخطوطات ماركس حول الموضوع: خاصة المقطع الذي يقابل فيه ماركس بين سيباستيان فرانك القائل بوحدة الوجود و «الاصلاحيين الجمهوريين السويسريين» وبين الرجل الذي دعاه «لوثر المتعصب على نحو احمق والمؤمن بالشيطان».

ويضيف معلناً بين هلالين: «انه مبتذل»، وعندئذ استطاع لوكاش ادراك ان الكارثة الحقيقية التي اصابت المانيا في تلك الأيام ليست فشل تمرد الفلاحين ذوي القدر المشؤوم، بل هزيمة ما اصطلاح على تسميته المؤرخون المعاصرون «الاصلاح الجذري».

وسواء أكان لوكاش يناقش هيغل، او غوته، أو توماس مان، او الرومنطيقيين او نيتشه، فهو يقيم بشكل ثابت تمييزاً مطلقاً بين العقل واللاعقل، ويركز «غوته وعصره»- وهو مجلد متمم للمقالات عن توماس مان- على الأطروحة القائلة إن حركة التنوير للقرن الثامن عشر بلغت أوجها في الثقافة الفايبارية. وكل قول بأن ممثلها البارز الرئيسي كان يضمم شكوكاً ازاء قيم الانسانية والعقلانية يصرف النظر عنه كجزء «من أسطورة غوته الرجعي»، وهي هرطقة «تنبع من النفیضة الميكانيكية بين العقل والشعور، وبذلك تصل الى اللاعقلانية المزعومة للأدب الالماني...». وأقصى ما يمكن ان يقربه لوكاش هو أنه حتى المؤلفون الكلاسيكيون تخطوا بين الحين والآخر حدود المنطق

الصارم باتجاه- الديالكتيك! «ان التسمية السائدة لحركة التنوير الألمانية باللاعقلانية هي غالباً تقدم باتجاه الديالكتيك: محاولة لتجاوز المنطق (الصوري) الشكلي الذي هيمن حتى ذلك الوقت». اما فيما يتعلق بالرومنطقيين، فانهم (ما عدا استثناءات فردية، امثال هايني الذي كان في موقع اليسار السياسي) مدانون بالجملة كلاعقلانيين وللهادين لتلك الفلسفة الحياتية (لبنسفيوسوفي) وهي التي كان لوكاش الشاب ممثلاً بارزاً لها. والمسألة الحاسمة هي التزام الكاتب بالقضية المتمثلة في الثورة الفرنسية. وخلافاً لكل الدلائل يضع لوكاش غوته من ضمن اولئك الألمان الذين اصرروا- بوجه عام وبالرغم من ارتدادات عرضية تدعو للأسف- على رأيهم في ذلك النزاع الكبير. وهكذا يتوصل الى استنتاجات تتعارض بوضوح مع تلك التي استخلصها توماس مان الذي (كما يلاحظ بأسى) يؤدي واجبه نحو النظرة السائدة؛ اذ يرى مان في انسانية شيلر الثورية شيئاً فرنسياً، بينما يعتبر انسانية غوته المانية على نحو نموذجي. انه خطأ المؤسسة الاكاديمية التي رسخت على امتداد قرن من الزمن «الأسطورة الرجعية»:

«تجنبي الأسطورة حصاداً أغنى في تطور غوته اللاحق ابتداء من انسلاخه عن الحياة العامة، وتصل، عبر كرهه للثورة الفرنسية، الى غوته الذي هو من بين الممثلين الرئيسيين لفلسفة الحياة اللاعقلية الحديثة Lebensphilosophie والأب الروحي لشوبنهاور ونيتشه، بالاضافة الى كونه المؤسس الأدبي للواقعية المضادة المؤسلة. وهذه الأسطورة التاريخية منتشرة ومؤثرة بشكل لا يستطيع المرء انكار تأثيراتها في الكتاب التقدميين والمعادين للفاشية».

ولكن ماذا ينبغي على المرء ان يفكر إزاء ثقافة سهلت لفلاسفة أمثال شوبنهاور ونيتشه تحديد نظرتها الى الحياة لمدة قرن من الزمن؟ حتى ولو سلمنا (وهو امر ليس على اي حال بالوضوح الذي يعتقد لوكاش) ان «الاسطورة الرجعية» لا أساس لها في الواقع، فكيف يمكن تفسير نجاحها المدمر؟ لا يجيب لوكاش عن هذا السؤال

الابتعاير سياسية: لم تمر المانيا بثورة بورجوازية في عام ١٩٤٨ ولا بثورة بروليتارية في عام ١٩١٨، من هنا فان الخلفية الاجتماعية المولدة لمآسيها التاريخية- هيمنة ال (المواطن اللامثقف غير المستنير عدو التقدم) على المدينة الصغيرة مع عبادته المستسلمة للسلطة- لم يتم تحديها مطلقاً بشكل فعال، غير ان امة تفوتها بانتظام شتى الفرص التي يقدمها التاريخ تبدو وكأنها حالة غريبة، بل ربما لا أمل فيها، وذلك بأية حال انطلاقاً من وجهة نظر «الانسانية الثورية». ليس بمقدور لوكاش أن يحمل نفسه كلياً على استخلاص هذا الاستنتاج، بالرغم من انه امر لا مفر منه وفق افتراضاته الهيجلية.

وليس هو مقتنعاً تماماً في تناوله لذلك الكلاسيكي الآخر في الثقافة الفايبارية، فردريك شيلر، الذي كرس لعلم الأخلاق بعض الدراسات المثيرة للاهتمام، ولا يمكن لأحد ان يستنتج من ملاحظات لوكاش حول الموضوع ان شيلر في ١٧٩٣ اعتقد ان الثورة الفرنسية «لم تخرج من جديد ذلك الشعب التاعس فقط، بل جزءاً هاماً من اوروبا وقرناً بأكمله، في البربرية والعبودية». ولا يمكن الاستنتاج بأن نظرة شيلر الى السياسة (كنظرة غوته) قد مثلت الجوهر الخالص للكلاسيكية الفايبارية: ازدواج القيم الارستقراطية والبورجوازية. ان عالم الاجتماع الماركسي لوكاش يتعمى على نحو مثير عن أكثر الأوضاع الاجتماعية وضوحاً عندما تتدخل مع تصوراته المسبقة.

ويقدم علم اخلاق شيلر بالمثل مشكلة. فلوكاش ورث كره ماركس «لثالية» كانط الأخلاقية التي قدمت بالمقابل مبادئ متحررة من المادة في وقائع الوجود الفجة. وشعر لحسن الحظ بقدرته على إيابة ان تحدر شيلر الفكري من كانط لم يمنعه من تجاوز الحدود الضيقة لنظرية كانط الناقصة في الفن، مستبقاً بذلك بعض جوانب «الثالية الموضوعية» لدى هيجل، التي كان لها في الأقل بديل واقعي وان يكن منظوياً على التعمية والأغاز: المسار الذاتي لفعالية التطور العقلي في التاريخ. ومع ذلك، وكما أشير آنفاً، كانت هذه المثالية

الموضوعية بالذات هي التي تشكل اساس تفكير شيلنغ الشاب ، ليصبح فيما بعد اللاعقلاني الرئيسي بين فلاسفة المانيا والمصدر الرئيسي للحركة الرومنطيقية بأكملها لجهة الناحية الفلسفية . وإضافة لذلك فإنه يشهد على صعوبة رسم خط دقيق بين الحركتين الكلاسيكية والرومنطيقية الالمانيتين والتطور الفكري لماركس الشاب . هل كان مؤلف « المخطوطات الباريسية » ، ١٨٤٤ الذائعة الصيت يتبع تقليد شيلر أو اقتداء النقاد الرومنطيقيين؟ ، فهذا الاخير عندما رسم مخططاً لرؤيته الشهيرة شكل حياة إنسانية ، يتطابق فيها الوجود والجوهر ، ويتمازج العمل واللهو ، وتعلن نهاية « الاغتراب أو الاستلاب » .

دعنا نحاول ان نعين بدقة المصدر النظري للصعوبة . يقف لوكاش كما رأينا ، الى جانب العقلانية وضد الرومنطيقية ، وضمن التقليد العقلاني يؤيد هيجل وغوته ضد كانط وشيلر . لقد أكد هيجل ان العالم لا يدرك إلا بالعقل . ويشكل ذلك في التعبير الفلسفي « المثالية الموضوعية » مقابل لا ادوية كانط وخلفائه ، ومع ذلك فإنه سبق في بعض النقاط علم الاخلاق لدى هيجل . وكان تعريف هيجل للجمال بأنه « المظهر الحسي للفكرة » متوافقاً مع تصور شيلر اكثر من توافقه مع طريقة الفهم الأكثر تجريبية لدى غوته ، الذي تجنب بالرغم من افلاطونيته الجديدة الحدسية ، التأمل الميتافيزيقي . ويمثل الفن بالنسبة الى هيجل منحى للمعرفة « الحسية » بالمطلق ، عالم الجوهر المحجب بالمادة ، وقد سبق لهذا الجانب الناسخ على منوال افلاطون *Platonizing side* ان اجتذب لوكاش الشاب واغراه على التخلي عن السأم الرومنطيقى أو التبرم بالعالم أيام كان على مقاعد الدراسة : اذا كانت الحقيقة عن العالم ممكنة الادراك ، فليس ثمة داع لتعذيب النفس باللاعقلانية الدينية وفقاً للنمط الكيركجاردى . وكان لوكاش الناضج ، بعد ان اضحى ماركسياً - لينينياً ، لا يزال يؤكد اننا نعرف العالم « كما هو » ، غير ان البعد الذي يمكن ادراكه قد تقلص الى العالم التاريخي للانسان . وهذا العالم من صنع الانسان يمكن ادراكه

بالعقل فقط، وتقع بعده الطبيعة، وهي ميدان العلوم الخاص. لقد تم التخلي عن الفلسفة التأملية. غير أن علم الجمال لدى هيغل - وكذلك نظرية لوكاش في الفن استطرادا، بقدر ما يظل هيغلياً - هو ميتافيزيقي من البداية الى النهاية. وتعريف الجمال «المظهر الحسي للفكرة» هو بمثابة اعلان حول الطبيعة للواقع.

لا يظهر هذا البعد من تفكير هيغل في كتابات لوكاش النقدية، حيث يكتفي بمعالجة المفهوم الهيغلي «للعالم العيني» المحسوس أو الملموس؛ وحدة العام والخاص. من هنا كان اهتمامه بما هو نموذجي، لأن النموذج هو على وجه الضبط هذا التمثيل لما هو عمومي (انسائي) في ما هو خاص وتاريخي ومن خلالهما. وعندما يتناول لوكاش طبيعة النوع الفني مثل علاقة الرواية بالدراما، يعود المنهج الى الحياة، لأنه عندئذ قدر على ابانة ان الاشخاص النموذجيين (النماذج) يمتلكون مدلولاً عالمياً بقدر ما يجسدون امكانية تاريخية للطبيعة البشرية. وانه لأمر اخرق من وجهة نظر لوكاش ان يكون الرومنطيقون الكبار - خاصة شيلينغ و.أ.و. شليغل - السباقين في صياغة نظرية النماذج، وان يكون واقعيو القرن التاسع عشر الروس (الذين يعدون من بين ابطاله) فتنوا فيما يتصل بذلك بتقصي الدلالة العالمية لدون كيشوت وهاملت وفاوست وشخصيات رئيسية اخرى في الأدب الأوروبي. ومع ذلك، يمكن تفسير هذا الحدث باقتراح ان «المثالية الموضوعية» لدى شيلينغ الاب لم تلتطخ لا عقلانيته الدينية في اعوامه اللاحقة. وتنبع الصعوبة الحقيقية بالنسبة الى لوكاش (النظري) كمنظر لعلم الجمال - كتمييز له عن كونه ممارساً لتاريخ الفن السوسولوجي - من الايمان الميتافيزيقي المشترك لهيغل وشيلينغ: الايمان بأن الفن يفضي الى عالم من الكينونة هو فوق تناول الحواس.

وعندما يقال ان بعض هذا الايمان يبدو في أساس تلك المقاطع من كتابات لوكاش، حيث يستوعب بعمق ظاهرة الابداع الفني، فهذا القول هو بالضرورة مجازفة في موضوع خطير، لأن تصريحاً من هذا

النوع لا يقبل البرهان . إن ما يستحقه ومهما يكن الأمر جديراً ، فإن اعتقاد المؤلف الحالي ان لوكاش قد احتفظ ببقية من الميتافيزيقيا المثالية بينما أخفق كلياً في دمجها ضمن ادائه النقدي ، امر لا بد من التأكيد عليه .

الفصل السادس

لقد بلغنا الآن المرحلة التي لم تعد تحتاج معها الاهمية الحاسمة لفلسفة هيجل بالنسبة الى العمل الناضج للوكاش في علم الأخلاق إلى الاثبات بتعايير عامة، بل يمكن توضيحها بالتفصيل. ومع الأسف فإن الأمثلة الساطعة حقاً من هذا النوع توجد بأغلبيتها في كتابات لم تترجم الى الانكليزية. والعكس صحيح ايضاً؛ فمن بين دراسات لوكاش الادبية التي وصلت الى الجمهور الانكلو - اميركي دراسات تتميز بفقدان المضمون النظري. والحالة الكلاسيكية هي كتابه «الرواية التاريخية» الذي نشر اصلاً باللغة الروسية في ١٩٣٧، وترجم الى الانكليزية بعد خمسة وعشرين عاماً، واعتبر فوراً عملاً رائعاً من قبل نقاد ادبيين سروا باكتشافهم ان ماركسيا قد قرأ فعلاً مجمل ادب القرن التاسع عشر البورجوازي. وفي خضم حماسهم فاتهم تماماً ان الكتاب يتناول الرواية من ناحية تاريخية خالصة - بله - تاريخية Historical؛ فالفيلسوف الذي يعد في أحسن أحواله من بين منظري الأدب الرئيسيين غائب، حيث يخلي مكانه لعالم اجتماع ليقع قراءه الروس حول الخلفية الثقافية للأدب الأوروبي الغربي. اما المقالات التي جمعت اصلاً في مجلد نشر في برلين الشرقية ١٩٥٦، بعنوان («مساهمات في تاريخ علم الجمال») وأعيد طبعها، كالمجلد العاشر من الاعمال الكاملة Werke، فهي موضوع آخر يحوي بعضه في الاقل مواضيع نظرية على نحو اصيل. وبتعبير اخر، انها مقالات مهمة، بينما «الرواية التاريخية» تافهة من الاساس حتى في النواحي التي لا يفسدها الابتذال الواعي. وتقع المقالات في كتاب «غوته وعصره» في مكان ما بين الاثنتين. وقد الف الفصل الذي يتناول المراسلات بين شيلر وغوته في ١٩٣٤، عندما كان لوكاش استقر في موسكو، ولكنه ما زال قادراً على التعبير بلغة تفي بالموضوع الذي تعالجه. وتقع مقالة «نظرية شيلر في الأدب الحديث» ١٩٥٣ دون هذا المستوى، بيد انها

تنجح في اشارة بعض النقاط الهامة حول علم الجمال لدى كانط وهيجل . والجدير بالملاحظة ان لوكاش في العام ١٩٣٥ ، لم يكن تخليّ بعد عن مثالية «التاريخ والوعي الطبقي» ، وتحفل هذه المقالة بمقاطع تكرر بعض المفاهيم الاساسية لعمل ١٩٦٣ وان يكن بمستوى فكري واسلوبي ادنى ، وموشاة بهراء سوسيولوجي من النمط الذي جعله مألوفاً فيما بعد تلميذ لوكاش لوسيان غولدمان ، وعلى سبيل المثال :

«ان لمفهوم المثل الأعلى في الفلسفة المثالية كتنقيض مقابل الواقع الاجتماعي التجريبي جذورا اجتماعية . والحالة التي هي اساسية لكل الفعالية الانسانية والتي تشكل الصفة المميزة للعمل الانساني ، أي ان الهدف يوجد في العقل قبل تحققه المادي ، تتخذ شكلاً خاصاً في المجتمع الرأسمالي ، فسمة الحاسمة هي التناقض بين الانتاج الاجتماعي ، والحياة الخاصة . . . ويمنح دياكتيك خداع الذات البطولي والضروري لنشوء المجتمع الرأسمالي دفعاً جديداً لهذه العلاقة بين الهدف وتحقيقه ، بين المتطلبات الانسانية من الواقع الاجتماعي ، والحياة الخاصة . . .» .

يبدو اننا دخلنا في الروتين المضجر المؤلف «للووعية الاشتراكية» ، التي لا مهرب منها للضحية السيئة الحظ . ولكن اقلب الصفحة ، تجد ان لوكاش ١٩٣٥ ما زال يواصل معركة دفاعية مرسومة بعناية تحت عين مراقبيه الستالينيين اليقظة .

«غير ان هذا النفي للمثل الأعلى البورجوازي عن اسسه الاجتماعية . . . لا يعني ان مسألة هذا المثل بأكملها ليست سوى قضية كاذبة مقتصرة على الطبقة البورجوازية دون سواها . ففي المجتمع البورجوازي يتخذ دياكتيك (الظاهرة) والجوهر (الماهية) اشكالا خاصة تماماً . ولا يتوقف الواقع الموضوعي لهذه العلاقة الديالكتيكية على الوجود في الطبقة والمجتمع مع توقف مظاهرها الخاصة في المجتمع الرأسمالي . وثمة ايضاً وراء مفهوم المثل الاعلى في علم الجمال البورجوازي مسألة المتطلبات الفنية لشكل خارجي يعبر عن المضمون

بأسلوب مباشر ملموس . وتظل هذه المسألة بحاجة الى حل حتى بعد زوال الاقتصاد الرأسمالي وانعكاسه الايديولوجي في عقول البشر، ولا يمكن تحويلها الى شيء محدد وبين بذاته (بدهي) على نحو فوري .

يشتهر القراء الغربيون بمعاناتهم في إقناع انفسهم أن هذه الجمعية المرعبة قد تخفي في الواقع فكرة جلية، لكن نزلاء معسكر سجن يشمل أرجاء الدولة كلها مضطرون للتقيد بأنظمة وقوانين وقائية مجهولة في أمكنة أخرى .

ومهما يكن من أمر لوكاش الذي كان يخاطب مثقفين روسيين مدربين على القراءة بين السطور، فإن كان ديالكتيك الظاهرة والماهية يظل موجوداً في ظل الاشتراكية، فليس ذلك إلا طريقة اخرى للقول إن العضلات الاساسية للوجود الانساني ما زالت تنتظر حلاً - وعلى وجه الضبط لأن ما يدعوه في المقطع نفسه : «العضلات الزائفة المربكة في ميدان الايديولوجية» قد زال نهائياً .

وما يمكن ان يخدم به لوكاش علم الجمال في ظروف مختلفة يمكن استنتاجه من تلك المقاطع في الدراسة الرائعة «في عالم الجمال عند شيلر» عام ١٩٤٥ ، حيث يسهب بعض الشيء في التعارض بين نظريتي كانط وهيجل في الفن . وما قام به فعلاً يمكن معانيته في التقديم «للأعمال الكاملة» Werke ، حيث يبلغ القارئ ان علم الجمال «المادي» - في اعقاب انحلال مدرسة هيجل بعد ١٩٤٨ قد - بلغ اوجه مع ن . ج . شيرنيسيفسكي، ذلك المشارك في تأسيس الحركة الشعبية Populism الجدير بالاحترام، ورغم انه ليس بالمفكر المبدع الى حد كبير، ويتبع ذلك إعلان يستحق الاستشهاد به .

«لينين وستالين وحدهما، والحزب البلشفي الذي أسسهما وقادهما، كانوا وما زالوا يملكون القدرة على كنس ما يسمى النظريات التحريفية في شتى ميادين الماركسية . . . وأمكن علم الجمال الماركسي ان يثبت نفسه خلال هذه الفترة فقط . . لأنه خلال هذه الفترة وحدها تم جمع كتابات ماركس وانجلز الجمالية، وعندها فقط برزت للعيان

الوحدة المنسقة لعلم الجمال الماركسي . وهذه الفترة الحاسمة هي موضوع محاضرتي في الأكاديمية الهنغارية للعلوم بمناسبة مناقشة مؤلف ستالين حول علم اللغة . . . يحلل مؤلف ستالين المسائل الحاسمة لعلم الجمال طريقة عصر لينين وستالين في تاريخ علم الجمال .

ورأي لوكاش الفعلي حول الموضوع واضح تماماً من مقاله المسهية عن شيرنيشيفسكي ، في المجلد نفسه ، حيث يلحظ بشكل عابر ان شيرنيشيفسكي ، في ملحوظاته حول شكسير ، يخطئ فهم الشكل الادبي للتراجيديا . هذا في ما يتعلق «بالمثل الأكبر للمدرسة الجديدة» التي اسسها في فيورباخ .

غير ان مفهوم لوكاش الغريب لما هو جائز لمنظر تنظيم يدعي العصمة والعلم بكل شيء - وليس عبثاً ان توماس مان قد رسم له صورة اليسوعي - لا يهمننا . دعنا بالأحرى ندرس «الرواية التاريخية» قبل ان ننصرف الى الموضوع ذي الصلة الوثيقة لأرائه السياسية الفلسفية في أوج عهد ستالين «هيجل الشاب» ١٩٤٨ . و «تخريب العقل» ١٩٥٣ . وهذا لحسن الحظ متوافر لنا دون ان ننجم عناء شجاعته الأخلاقية أو فقدانها . . . لقد ارتدى لوكاش أقنعة كثيرة أثناء حياته ومثل ادوار خداع ومجاملة وتحقير ذات لافتة للنظر حتى بالنسبة الى مقاييس بيئته المختارة ، ولكن عبر ذلك كله لم يذهب بعيداً أو طويلاً عن هدفه الأول : نظرية علم جمال تقدم الى العالم الجديد للاشتراكية الأوروبية الشرقية ما قدمته المثالية الألمانية بشكل خاص الى العالم البورجوازي ، وان لم يصبح - خلافاً للأسطورة التي نسجها المعجبون به - «ماركس علم الجمال» ، فيمكن القول انه في الاقل قدم الى موضوعه المفضل ما قدمه ديلثاي Dilthey الى كانط وهيجل : لقد نظم منهجياً هيكلاً من الافكار كان في ما مضى غير مألوف وثورياً ، جاعلاً اياه بذلك ملائماً للاستهلاك الاكاديمي . وليس ذلك انجازاً تافهاً ، خاصة اذا اخذنا بالاعتبار انه في الفترات السوداء والمشحونة بالاضطراب لا بد من توافر توجيهه سكولاستي (سكولاتي

أو مدرساني) Scholastic لرفع القادمين الجدد الى مستوى يمكنهم من فهم واستيعاب الثقافة التي ورثوها. واذا ما ثبت في النهاية ان لوكاش قد انقذ بعض بقايا الحضارة التي اضحت خراباً ودماراً بعد ١٩١٤، فإن خطايا لا مبالاته وجريمته سوف يحكم عليها دون شك بتساهل من قبل المؤرخ.

وانطلاقاً من هذا المنظور، تعتبر «الرواية التاريخية» انجازاً جديراً بالاحترام، مع انها تكاد لا تؤلف عملاً عبقرياً كما اعتبرت لدى ظهورها باللغة الانكليزية. فالكتاب ذو الأسلوب العادي الذي يتوجه بوضوح الى جمهور متوسط الثقافة، يحتوي على بعض الأفكار المهمة حول الفوارق الأساسية، بين الملحمة والدراما (وهو انشغال قديم للكاتب، يعود الى أيام ما قبل ١٩١٤) وحول مشكلة الشكل عامة، وذلك عندما يقارن بدراسة نظرية اصلية فقط، مثل : Zur Asthe-tik Schillers تبدو له جودته الضئيلة جلية. ومرة اخرى لا بد من تحذير القارئ من عدم الحكم على لوكاش من خلال كراسة دعاية سياسية شبه شعبية الفت في أوج التطهير الستاليني الكبير، أرثوذكسية الطابع على نحو متعمد، وموجهة الى جمهور كان من الضروري ابلاغه ان هيجل عاش في عصر الثورة الفرنسية. وليس الخطأ خطأ لوكاش في ان يجد القراء البريطانيين والاميركيون من السهل مشاركته في حماسته المفرطة نوعاً ما لولتر سكوت (شاعر وروائي اسكتلندي ١٧٧١ - ١٨٣٢) وفيينيمور كوبر (روائي أميركي ١٧٨٥ - ١٨٨١) اكثر من مشاركة آرائه حول كانط وهيجل وشلينغ. وبطريقة مماثلة، ليس خطأ ان النظرية الجمالية (التي ينبغي ان تكون فلسفية من اجل ان تستحق التقرير) غير مميزة بوضوح في العالم الناطق بالانكليزية عن النقد الأدبي، حيث ان هذا الأخير يستخدم بالضرورة مفاهيم مسلماً بها. «فالنظرية الهيجلية في الأدب» فلسفية بمعنى مختلف كلياً عن مدلول هذا التعبير في ثقافة تجريبية.

من هنا تتبع ضرورة الاطلاع على كتابات لوكاش النظرية بغية

اكتشاف ما يجعله على جانب من الأهمية. و«الرواية الأدبية» لا تقع ضمن هذا النطاق. فهي تدور حول شرح لمفاهيم جمالية ترتدي أهمية الاستنتاج الفلسفي فيما وراءها، غير ان المبادئ غير جلية، وبالنسبة الى أي شخص يعرف ما هي قدرة لوكاش في أحسن أحواله، فإنه يعتبر الكتاب مملأ الى ابعد حد.

ومن جهة اخرى، فإنه ليس مشوهاً على شاكلة الحماسة السجالية التي اهتمت مجموعة المقالات المنشورة في ١٩٦٣ بعنوان «معنى الواقعية المعاصرة». وألف أصلاً في خريف ١٩٥٥ بشكل ملحوظات لمحاضرة، حيث ان لوكاش لم يكديجمع هذا الإنتاج السيء الطالع حتى داهمه شجب خروتشوف لستالين، وانتفاضة ١٩٥٦ الهنغارية ومشاركة لوكاش القصيرة في حكومة ناجي. وما ان اصبح قادراً على كتابة تقديم لطبعة ١٩٦٧ الهنغارية، حتى انتهى الى استنتاج، بالرغم من ضرورة عدم التغاضي عن «انجازات ستالين الايجابية»، هو أنه لا بد من «اخضاع دوغمائية ستالين ودوغمائية العهد الستاليني، لأشد النقد قساوة». وتوج هذا الحكم باشارة مقتضبة الى روزا لوكسمبورغ (ربما ليست هذه اكثر الطرق لباقة) في تذكير القارئ انه كانت فيما مضى فترة لم ينفق فيها الكتاب الماركسيون وقتهم يدافعون عن الطغاة. والمقالات نفسها ستالينية النغمة والمحتوى كلياً الى حد ان ناقداً اميركياً بارزاً يحمل آراء يسارية لا يرقى اليها الشك تساءل بصوت عال: ما اذا كانت هذه المقالات قد اعدت بغية حملها على حمل الجحد. ولسوء الحظ لا يمكن الشك في ان لوكاش كان يتبع خطأً فكرياً مألوفاً لديه قبل ان ينحدر الى المستوى الجدانوفي.

اذا كان الكتاب ينطوي على فكرة رئيسية مشتركة، فإنها هو عداؤه المذهبي لكل اشكال العصرانية أو الحداثة Modernism وهي مقولة جعلها لوكاش تشتمل على علم النفس الفرويدي، الموسيقى اللانغمية (النشاز) ومؤلفات جويس، وبروست وبيكيت وكافكا. وكل ما عاينه عند هؤلاء الكتاب ما اسماء «الذاتية»، وهي على ما

يفترض تؤلف صفة مميزة «لتجربة المفكر البورجوازي المعاصر». ولا معنى لهذه الصفة المتصلة بهم حتى في المصطلحات السوسولوجية، لأن جمهور كتاب كهؤلاء - في الشرق والغرب على حد سواء - لم يعد بورجوازيًا. ان العضلات التي يواجهها جميع المفكرين المعاصرين هي معضلات نظام (مبقرط) سواء أكانوا مديري شركات أم مخططين سياسيين - ايانا بقدرتهم على جعله نظاماً ناصحاً ، شرط ان يلزم المواطنين الهدوء ولا يتدخلوا في جهازه الآلي، ويكتفوا بالاستماع الشخصي. ولو ان لوكاش في العام ١٩٥٥ - الذي كتب هذه الدراسات، ما زال قادراً على تطبيق تحليل ماركسي على الواقع المحيط به، لاكتشف ان «الاغتراب» ليس مقتصرًا على المجتمع الغربي، وان العملية (العلموية) الوضعية لها نظيرها الستاليني. غير انه في هذه الحالة كان انكر التمييز المانوي بين «الاشتراكية» (التي يفترض انها تحققت في دول أوروبا الشرقية) و «الامبريالية»، وباختصار، للتخلي عن العقيدة السياسية التي اصبح معتقاً متطوعاً لها. ولم يكن هذا الأمر واردًا - ليس في الخمسينات على أية حال. لقد شكل كتاب «معنى الواقعية المعاصرة» تمريناً مجرداً وخالصاً في مساجلات الحرب الباردة.

وحتى في تلك الأيام كان من الخطأ إنكار ذكاء لوكاش وقدرته على التكيف مع الاوضاع الجديدة. وتأكد له في ١٩٥٥ ان «الحداثة لا تقود الى تدمير الاشكال الادبية فحسب، بل الى موت أدب كهذا»، ووضح هذه الموضوعية بالاشارة الى التعبيرية والسوريالية بشكل عام، والى جوريس، وكافكا، ومحدثين آخرين، بشكل خاص. وعندما باشر في ١٩٥٤ بكتابة مقدمة جديدة للطبعة الالمانية الغربية «للرواية التاريخية» (أعيد طبعها في المجلد السادس في الطبعة الالمانية الغربية من الاعمال الكاملة) كان لديه الوقت الكافي لإنعام النظر في الامور. وكان ايضاً حرر نفسه نوعاً ما من القيود التي لم تضاف لسنين طويلة على كتاباته مجرد مظهر جمود فكري، بل تبدل شعور كلياً ازاء عملية الإبداع الأدبي. فكتب مرة اخرى لجمهور مثقف، مستعيداً اسلوبه

الأول على نحو كاف ليعتق نفسه من هذا المقطع التالي :

«ان التعارض بين رواية القرن الثامن عشر ورواية القرن التاسع عشر يبدو للعيان فوراً، غير ان هذا التناقض لا ينطبق - وبتحفظ شديد فقط - على سوفيت (كاتب ايرلندي ١٩٤٥-١٩٦٧)، ومعه لا ينعدم التعبير الواعي عن الوضع الاجتماعي - التاريخي فحسب، بل يتم إهماله صورياً. ثمة مرحلة انسانية بأكملها يجابه فيها الانسان صراعاتها الأكثر شمولاً. هذا ما يطلق عليه الآن اسم «الوضع البشري» ، غير ان ذلك يتغاضى عن حقيقة كون سوفيت، برغم كل شيء، لا يتناول إنساناً من هذا الطراز، بل يتناول مصيره في مجتمع تاريخياً. وتتكشف عبقرية سوفيت الفريدة في ان نظرتة عن المجتمع تشمل عهداً بأكمله من اللإنسانية تبعث فيه الحركة كنظير الفرد النمساوي (البوهيمي - الألماني - اليهودي) خلال المرحلة الأخيرة من حكم الامبراطور فرنسيس جوزيف (امبراطور النمسا ١٨٣٠-١٩١٦). من هنا فإن علمه الذي يمكن تفسيره - شكلياً فقط - كالوضع البشري، يرتدي مصداقية عميقة مرهقة، بعكس أولئك الذين يركزون بدون هذا النمط من الخلفية التاريخية، وبدون اساس كهذا ومنظور من هذا النوع على كينونة الوجود الانساني المجردة - وبالتالي يخطئون فهمها على نحو مجرد - فيبلغون بشكل لا يخطيء الفراغ التام، العدم. وقد يزين هذا العدم نفسه بحلي وجودية أو غيرها، لكنه يظل على سبيل المقارنة بكافكا، عدماً فارغاً» .

ان مقارنة بين هذا المقطع والفصل المتعلق بالموضوع في «معنى الواقعية المعاصرة» ، حيث نسب لوكاش الى كافكا بأدب (بعد ان تمت مقابلته بشكل سلمي ك «بورجوازي عصري» ازاء «البورجوازي الواقعي» توماس مان) القيام بتصوير «الصفة الشيطانية لعالم الرأسمالية الحديثة» . هذه المقارنة توحى لنا بأن لوكاش قد طرح خلال ١٩٦٤ بعض اغلاله المفروضة ذاتياً، وهو انجاز مدهش في عمر يناهز الثمانين. وانصافاً للحقيقة لا بد ان نضيف انه حتى مجموعة

مقالات ١٩٥٥ قد اشتملت على بعض الآراء المتصفة بحدة الملاحظة التي تذكرنا بأسلوبه الأسبق، مثلاً:

«ووحدها الرؤيا «النبوية» أو الدراسة اللاحقة لفترة مكتملة، يمكنها استيعاب الوحدة التي تشكل اساس التناقضات الحادة. مع ذلك، قد يخطيء المرء في فهم دور القدرة على رؤية الأشياء في الأدب، اذا ما تمت ماثلة الفهم «النبوي» بنفاذ البصيرة السياسية الصائبة، واذا ما كانت بصيرة كهذه هي المعيار، لما امكن وجود دراسة ناجحة للنماذج الشخصية في ادب القرن التاسع عشر؛ اذ ان كتاب ذلك العصر الكبار بالذات - بلزاك وستاندال وديكنز وتولستوي - هم الذين اخطأوا الى أبعد حد في نظرتهم الى ما سيكون عليه المستقبل.»

وتقطع مقاطع كهذا جنباً الى جنب مع تمارين سجالية مستواها ادق مما يمكن لصحافي كفو مثل اهرنبرغ أن ينتجه، مثلاً:

«استشهدت، آنفاً، بملاحظة آدورنو Adorno لجهة ان الموسيقى الحديثة قد فقدت أصالة القلق Angst. ان هذا المثل، وامثلة مشابهة، يمكن اعتبارها، اذا ما تم تفسيرها، اعترافاً بالتراجع في الحرب الباردة، وذلك مع تكشف وجهات نظر جديدة للسلم. فالعصرانية، القائمة على العدمية، تفقد تلك القدرة الایحائية التي استنبطت الخطط لتغليف العدم بموضوعية كاذبة، وهكذا مع تعميق حدة أزمة العصرانية، تزداد الواقعية النقدية اهمية.»

واضحى هذا النمو من المحاكاة التهتكية الذاتية جزءاً اساسياً (١٩٥٥) من الاسلوب المألوف للوكاش الى حد ان المدافعين عنه بدأوا يقنطون منه. وكما كان ارتياحهم عظيماً عندما برز الى الوجود بعد عقد من الزمن «كوجودي» فلسفي في كل حقل بما فيه حقول العصرانية الادبية والفنية. وظهرت المقدمات الجديدة المتخلفة التي اعيد طبعها في «الاعمال» الالمانية الغربية ليونة لافته للنظر في الاسلوب، مما يعزى بدون شك الى العمر والأمن والطمأنينة جزئياً،

ولكنها تعكس ايضاً المناخ الفكري الجديد في اوروبا الوسطى : إنه مناخ ليس غريباً كلياً عن تذكر «المرحلة النهائية لحكم فرنسيس جوزيف» . ان نظاماً سلطوياً - مغايراً لنظام توتاليتاري بشكل اساسي ، حيث انه نظام ديناميكي وإرهابي في الوقت نفسه - لا يطلب شيئاً من فلاسفة اكثر من الحد الأدنى من التعقل . وطالما انهم لا يتدخلون في شؤون الدولة ، فهم احرار (ضمن حدود معقولة) لقول ما يريدون . وهكذا في ظل ميترنيخ وفي ظل فرنسيس جوزيف ، اللذين حكما فيينا ، بلغ لوكاش والثقافة التي يمثلها مدار اكتمال دائرة النضج .

الفصل السابع

انه لأمر معروف في ميدان الفن ان فترات مزدهرة معينة ليست بأي شكل من الأشكال متوافقة مع التطور العام للمجتمع وبالتالي مع اساسه المادي وهيكل تنظيمه، اذا جاز التعبير، كالاغريق، مثلاً بالمقارنة مع المحدثين أو شكسبير. وفي حالة اشكال فنية معينة مثل الشكل الكلاسيكي المحمي، فمن المعترف به انه لم يكن انتاجها ممكناً في شكلها الكلاسيكي العالمي، حالما بدأ الانتاج الفني ذاته. من هنا فإن اشكالات هامة معينة ضمن العالم الفني لا يمكن انتاجها إلا عند مرحلة بدائية من تطور الفن فقط. واذا كان ذلك ينطبق على العلاقة المتبادلة بين الأنماط المختلفة حتى دائرة الفن، فإن الأمر اقل غرابة ان تكون هذه هي حالة علاقة الميدان الفني بأكمله بالتطور العام للمجتمع (كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ص ٣٠).

ان ملاحظة كملاحظة ماركس المذكورة أنفأ تكشف الكثير عن الأصل الهيجلي لافكاره. وواضح ان ماركس احياناً تصور امكانية انتهاء الفن في عالم معقلن تماماً، وهو توقع لم ينظر اليه بحماسة، وهكذا ففي المقطع الذي ذكرناه يتابع قائلاً :

«ان الفن الاغريقي يفترض مسبقاً الميثولوجيا الاغريقية... لم يكن ممكناً للميثولوجيا المصرية ان تصبح اساساً أو قاعدة للفن الاغريقي، ولكن كان لا بد من وجود ميثولوجية، أو ناسخة للميثولوجيا mythologizing مع الطبيعة، مما يتطلب من الفنان التحلي بخيال مستقل عن الميثولوجيا».

ان ماركس الذي تربى على «فينومينولوجيا الروح» لهيجل لم يكذب يكون قادراً على التوصل الى اي استنتاج آخر. ويصعب تصور حالة عقلية أكثر رزانة على نحو عميق في قبولها لقدرها ومصيرها وأشد بعداً عن البلاهة للواقعية الاشتراكية.

وبينما التمس بعض الماركسيين المعاصرين، كالكاتب النمساوي
ارنست فيشر، ملاذاً في المفهوم القائل إن الإبداع الفني يحفظ عنصراً
من السحر البدائي الذي يتعدراستصاله ويضمن له البقاء، فقد تعثر
لوكاش في عمله الناضج نتيجة تاريخيته الراديكالية. إن موقفاً كهذا
عندما يدفع الى حده الاقصى الذي قاده اليه لوكاش، فإنه يجعل من
المستحيل التسليم بسداد أي شيء يمكن وصفه - وفقاً لعبارته شبه
الازدرائية - «الوضع البشري». ومع ذلك فبدون مفهوم من هذا
القبيل في خلفيته الفكرية، فإن المنظر الذي ينطلق من هيجل لا بد له
ان يتصور الامكانية المكفهرة التي قد تلهي بها ماركس، أو يفترض
خيالاً مستقلاً من الميثولوجيا. فالصفحات البالغ عددها ٧٢٠ صفحة
من رائعة لوكاش ذات المجلدين الصادرة عام ١٩٦٣ - Die Eige -
nart des Asthetischen «من ماهية الجمالي» تمثل محاولته لحسم
المسألة التي انتابته كهاجس طوال حياته.

قبل محاولة الدخول الى الموضوع، نحن ملزمون بمعالجة عملين
سابقين للوكاش، حيث كتب ونشر كل منهما في اوج عصر ستالين:
«هيجل الشاب» Der Junge Hegel ولكنه لم ينشر حتى
(١٩٤٨)، و«تدمير العقل» ١٩٥٣، وقد أعيد طبعهما على صورة
المجلدين ٨ و ٩ من الطبعة الالمانية الغربية لأعماله الكاملة، وهما
متيسران لكل من يهيمه اكتشاف أي إسهام قدمه مؤلفهما الممتاز آنذاك
الى الجزء الأساسي من الأدب (يبدو التعبير ملائماً على نحو لافت
للنظر) الذي انتج في اوروبا الشرقية خلال ما اصبح يعرف رسمياً بـ
«عصر عبادة الشخصية». وترتدي كتابات لوكاش في هذه الفترة،
والحالة هذه، فتنة رهيبه محددة، اما في ما يتعلق بالباقي فيمكن دراسته
من قبل خبراء النقد في النوع الأدبي كتمارين بارزة في فن الانحدار
التدرجي. وليس ثمة حاجة الى ان يستوقفنا كتاب «هيجل الشاب»
طويلاً. ففرضيته المركزية - بأن هيجل الشاب لم يمر بمرحلة دينية -
قد تم إغفالها بتهديب حتى من قبل نقاد مؤيدين عادة للوكاش.

اما بالنسبة الى البقية فلا يسهم الكتاب بشيء في الموضوع الذي لم يطرقه في السابق وبلغة اكثر جدارة بالثقافة .

ان كتاب «تدمير العقل» ، وهو مجلد من ٧٥٠ صفحة، يعالج بطريقة سجالية تاريخ الفلسفة الالمانية من شلينغ الى هيدغر وياسبرز ويضم قسماً حول «علم الاجتماع الالمانى في الفترة الامبريالية» ، وقسماً حول الداروينية الاجتماعية، وتزينه مقدمة مسهبة يبحث فيها «الشعب الذي انبت البريخت دورو وتوماس مونزر وغوته وكارل ماركس» عن عتق نفسه من التراث المخجل للاعقلانية ، وهو ميراث بلغ ذروته في الأعمال الجنونية الإجرامية التي ارتكبها الرايخ الثالث . ولقد بذلت محاولات لإيجاد بعض الجدارة في هذا التمرين السجالي الضخم، انطلاقاً من ان التاريخ الالمانى قد اتسم بكوارث متتالية، وان النكبة النهائية قد توسطها جزئياً في الأقل تيارات تفكير رجعي مارست فعاليتها منذ ما يسمى بـ «حرب التحرير» ضد نابوليون في ١٩١٣ . ولنضع جانباً واقع ان هذا الموضوع قد شكل أمراً مألوفاً في الصحافة الراديكالية منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر (لقد اثير اساساً للمرة الأولى من قبل لودفيغ بورني وهانريخ هايني، وكلاهما مفكران يهوديان عاشا منفين باختيارهما في باريس)، فإن لوكاش ينسف موقفه بتبني موضوعية انجلز لجهة ان التطور القومي لألمانيا قد وقع فيه الاضطراب على نحو لا يقاوم نتيجة فشل التمرد الفلاحي عام ١٥٢٥ ، مترافقاً مع بدء مرحلة الاصلاح البروتستانتي . لأنه اذا كان الأمر كذلك، فلا بد من الاستنتاج أن التطور اللاحق، قبل عهد سمارك وبعده، قد كان محتملاً . ويصبح هذا الاستنتاج اخيراً لا مفر منه، من ضمن التفسير الخاص «للرواية التاريخية» الذي يشارك فيه لوكاش انجلز (ولكن ليس ماركس)، بالرغم من أنه يلفت الانتباه إلى أن انجلز قد حاول في السبعينات من القرن التاسع عشر تجنب هذا التفسير باقتراح ان الطبقة العاملة سوف تقوم بالثورة الديمقراطية التي فانت ألمانيا بطريقة أو اخرى في عصرها البورجوازي (كان

ماركس أقل تفاؤلاً). اما بالنسبة الى البقية، فلا بد لمؤلف كتاب مثل «تدمير العقل» - وذلك من اجل تحقيق هدفه التعليمي - من الاستغناء عن نوع المساوىء السياسية التي كانت لا تزال تشكل إبان تأليفه جزءاً من الكتاب.

ثمة دافع يحفزنا الى التوقف عند هذا الحد، غير انه يستحيل مع الأسف رسم خط فاصل تعسفي بين هذا الانتاج وبين لوكاش ذي المجلدين حول علم الجمال. وبالرغم من دافعه السياسي ولغته المتسمة باللغو المتكرر، يبقى ان «تدمير العقل» يتضمن جوهرأ نظرياً، تنبع من هنا ضرورة استيعابها. وكما البحث حول هيجل، كان هذا السجال ضد خلفاء شلينغ، بين اشياء اخرى، تمريناً، فيما صار لوكاش يعتبره آنذاك شغله الشاغل: الدفاع عن «المادية» معنى الانسانية الطبيعية لماركس الشاب (التي هي تطوير القرن الثامن عشر الفرنسي). بل هو يشير بالأحرى الى نظرية المعرفة النسخية أو التسجيلية التي توصل لوكاش لمشاطرة لينين فيها.

وبلغة تقنية، فإنها شكل من الواقعية المعرفية الابستمولوجية (نظرية المعرفة). وما تؤكد عليه هو ان الفكر البشري يصف عالماً «موضوعياً مستقلاً عن العقل»، وليس عالماً يؤلفه جهازنا العقلي. علاوة على ذلك، يؤكد هذا المذهب ان اي خروج عن هذه النظرة يقود الى «الذاتية» وفي نهاية المطاف الى الجنون الفكري أو السياسي. وفرضت هذه النقطة بالقوة بإشارة خاصة الى دفاتر لينين الفلسفية حول هيجل، وبذلك اتيح للوكاش تفويض الثائر المتأمر من اولئك النقاد الشيوعيين الذين هاجموه قبل ثلاثين سنة.

ثمة تعارض بالفعل، بين الفكر وموضوعه، وفقاً للوكاش، غير انه مجرد تعرض نسبي، ويمكن التغلب عليه بمساعدة منطق هيجل الجدلي أو الديالكتيكي. وهو بالدقة هنا ان كل شيء معرض للخطر؛ إذ إن اللاعقلانية تجد مصدرها النهائي في فشل لسد الهاوية التي تفصل الواقع عن صورتها (صورة طبق الأصل) Abblid. ان

المراتية الذهنية تجزم بها اللاعقلانية، وما يصبح في النهاية مصدراً للخجل الجماعي - هو الانفصال الجذري للتفكير عن الكينونة Being لأنه في كل مرحلة من مراحل التطور البشري توجد معضلات نظرية تسبب الغازاً منطقيّة تفسر، يستنتج الشخص اللاعقلاني منها ان الطبيعة الحقيقية للكينونة تبقى مغلقة كلياً أمام التفكير القياسي وغير الحدسي، بينما في حال امتلاكه إدراكاً محكماً للديالكتيك الهيجلي في المظهر والواقع، سوف يرى ان العضلة ليست غير قابلة للتفسير. ان الحقيقة حول العالم (من حيث المبدأ على اية حال) يمكن الوصول إليها عبر العقل. ولكن اذا كان الأمر على هذا النحو، لماذا يوجد هناك شيء كاللاعقلانية اطلاقاً، ولماذا يكون لها في بعض الأحيان قوة لا تربك المفكرين الأفراد فحسب، بل ثقافات بأكملها؟ لأن مهمة النفاذ على نحو أعمق باستمرار (وفقاً للوكاش)، الى بنية لا تواجهها حواجز نظرية فحسب بل وعملية ايضاً. ان المجتمع يمزقه الصراع، والوضع الطبقي Klassenlage لمفكر (أو مدرسة) يحدد القرار لصالح العقلانية. وأولئك الذين ينفرون من تبصرات معينة لعدم قدرتهم على تقبل الحقيقة، سوف يميلون الى الاعتقاد بأن الفكر عاجز عامة. وبوجيز العبارة، ان الصراع بين العقلانية، يرتبط بالصراع الطبقي.

ما علاقة كل ذلك بعلم الجمال؟ بالنسبة الى لوكاش كل شيء يدور حول معرفة حقيقية مركزية واحدة: ان الواقعية في الفن (كما في الفلسفة) تصف العالم، بمعنى انها - مهما كانت معقدة تلك التوسطات الشكلية المستخدمة في العلمانية- فإنها تؤهل البشر لإدراك حقيقتهم الصحيحة. ان الطبيعة التصويرية، بقدر ما هي بعيدة من ان تكون افضل وسيلة لذلك، لا تعكس إلا المظهر السطحي. ومن جهة اخرى، فالعصرانية «الذاتية» تطابق المثالية الذاتية في الفلسفة أو أسوأ من ذلك، تأتي مطابقة لذريتها اللاشعرية: الحدسية الرومنطقية. انه التلازم الفني لذلك السقوط التدريجي في اليأس الذي تتسم محطاته

بأسماء شلينغ وكيركجارد ونيتشه ودوستويفسكي .
«ان شلينغ هو، موضوعياً، السابق المباشر لتصور كيركجارد، عن
الديالكتيك، أو بالأحرى لانكار كيركجارد أن الديالكتيك يشكل أداة
لمعرفة الواقع . . . » ومن الأهمية انه في «النطق الفلسفي» العملي لشلينغ
الشباب يشغل القياس أو المماثلة Analogy حيزاً هاماً ، لذلك
فالمرحلة الأولى غير المحددة بعد اللاعقلانية، تصبح النمط المنهجي
لكل المراحل اللاحقة . ويمثل المنطق الشكلي دائماً على العلاقة المتبادلة
الداخلية، المبدأ المنظم الصوري لكل لا عقلانية تصبو الى ما هو أبعد
من تحويل صورة العالم بأكملها الى تيار فاقد الشكل والصورة، يدرك
بالحدس الخالص . وهكذا يحدد منهج شلينغ أسلوب طرح المسألة
لدى شوبنهاور، وفيما بعد لدى نيتشه، ومن ذلك الحين فصاعداً في
علم النفس الوصفي لديلشاي في «فهم المضمون» الفينومينولوجي وفي
(علم وجود) انطولوجية الوجودية . . . الخ .

والآن ليس ذلك بالنسبة الى لوكاش مجرد مسألة فلسفية - كما
ستكون بالنسبة الى الهيغلي العادي الذي بمقدوره قبول هذا النقد
للمدرسة الرومنطيقية، انطلاقاً من ادراكه ان اللاعقلانية مثلت انحرافاً
يؤسف له من جانب مفكرين لم يستوعبوا تماماً، لسبب أو
لآخر، مقصد المنطق الهيغلي . ان ما يؤكد لوكاش هنا ، وفي مكان
آخر، هو ان شلينغ وخلفاءه التزموا بموقف «ارستقراطي» يحتفظ
بالقدرة على فهم الحقيقة، لنخبة نصبت نفسها بنفسها، لأنه بينما تجزم
العقلانية أو بأية حال تلمح الى ذلك، بأننا المستقلة، يطرح
اللاعقلانيون صيغة «مبرجة - معلمنة» للايان الديني: فالشخص
المختار بإمكانه وحده ادراك الالهية . وهذا الاعتقاد، الذي صاغه
سابقاً «فرانز بادر» Bader ورومنطيقيون المان آخرون مبكرون،
اصبح فيما بعد عقيدة كيركجارد وخلفائه، وعقيدة نيتشه في نهاية
المطاف، الذي زود انتليجنسيا «العصر الامبريالي» بأيديولوجيا امتدت
في آخر الأمر الى الطبقة الوسطى وعززت نضالها النشاط على نحو

متزايد ضد الاشتراكية .

ان لوكاش ماركسي بما يكفي لتأكيد ان المحصلة الكارثية النهائية ل «تدمير العقل» هذا احداثه قوى سياسية مجذرة في الظروف الفعلية للتاريخ الالماني منذ الثورة الفرنسية . ولكن بما ان وعي المشاركين عند كل نقطة تحول حاسمة ١٨٤٨ ، ١٨٧١ ، ١٩١٨ ، ١٩٣٧ ، يبدو العامل الحاسم في انتصار اللاعقل ، يواجه القارىء ما يظهر في النهاية كتناقض بسيط - غير دياكتيكي تماماً . اثرت ازمة الثقافة البورجوازية ، من جهة ، على المجتمع الاوروبي ككل ، ومن جهة اخرى ، تفردت المانيا بتوليد الايديولوجية اللاعقلانية التي سيطرت على حياة البلاد الفكرية ، وأدت الى فظائع الرايخ الثالث . وهكذا بدا كأن القضية الالمانية كانت فعلاً قضية فريدة ؛ ففي حين انه ينبغي وفقاً للالتزامات الشيوعية المألوفة حول «الراسالية المتأخرة» ان تصبح اوروبا بأكملها فاشية ، ظلت مقاطعة واسعة من القارة منيعة . ان لوكاش يعزو هذا الوضع الى التأثيرات المتلكئة للثورة الفرنسية (تكاد بريطانيا لا تقع ضمن هذه الصورة) . ولكن اذا كانت الديمقراطية البورجوازية قد مارست كل هذا التأثير والتجديد على اوروبا الغربية الى حد ان تراثها الروحي قد وفر بعد ١٥٠ عاماً القوة الدافعة لحركة المقاومة المناهضة للفاشية - كما حصل فعلاً - عندئذ يبدو انه لا مفر من استنتاج ان نحن المانيا اللاحقة تعود الى رفضها الثورة الفرنسية ، مما يشكل الان موقفاً يمكن الدفاع عنه ، غير انه يبطل من الاساس علم الاجتماع غير البارع وغير المقنع كلياً للصراع الطبقي عند لوكاش ابان ما يدعوه «عصر الامبريالية» ؛ اذ ان الصراع الطبقي كان عالمياً ، في حين كان الرايخ الثالث بلا عقلانيته المتطرفة ظاهرة فريدة . ان ما يعنيه لوكاش في الواقع - رغم انه لا يبدو مدركاً لذلك كون الحركة الرومنطيقية قد دمرت اية امكانية امتلكتها المانيا القرن التاسع عشر لتصبح امة في المعنى الغربي ، وهذه هي التي تلاقي دعماً في تحليله للحياة الفكرية في المانيا . غير انه لم يمتلك الجرأة الكافية ليعلن

بوضوح ان العامل الحاسم كان الوعي القومي . لكن ماركس لم يتردد في اعلان ذلك ، وفي اكثر من مرة بالفعل ، عند مناقشته التاريخ الالمانى ، اوضح هذه النقطة حرفياً . غير ان لوكاش ليس مثل ماركس على الاطلاق - وهي حقيقة من السخف لومه عليها .

ينبغي اذن الحكم على «تدمير العقل» بأنه عمل فاشل بسبب عدم تحقيقه الهدف الذي وضعه مؤلفه . ان دفاع لوكاش عن التراث الهيجلي ضد شلينغ ونتاجه الالعقلاني ، يشكل موضوعاً هاماً ومشروعاً . وتشمل الفصول الاستهلاكية المكرسة لهذا الموضوع بعض الملحوظات المحكمة حول تاريخ حركة التنوير ونمو وعي تاريخي اصيل ، كان توصل الى فهمه على نحو غامض كل من فيكو Vico وهردر Herd-er قبل ان يصوغ هيجل فلسفة تاريخية . غير ان دفاع لوكاش عن هذا الارث ضد الحاطين من شأنه هو دفاع مجرد من الفعالية الحقيقية نتيجة تاريخيته المتنوعة الخاصة . ويلتزم لوكاش بوصفه فيلسوفاً بالمبدأ العقلاني الاساسي لجهة كون التوصل الى استنتاجات صحيحة حول العالم يقع ضمن نطاق سلطان العقل . اما بوصفه تفكيراً مادياً ، فإنه يعتبر ان من واجبه تذكير القارىء من وقت لآخر بما يسميه مرة «الاشتراط الاجتماعي للعقلانية ، واللاعقلانية» . فتكون النتيجة تشوية نظرية مستعصية . اذا اعتبرت العقلانية ، وجهة نظرية طبقة ثورية او في الاقل معارضة للوضع الراهن (البرجوازية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والبروليتاريا في القرن التاسع عشر) عندئذ يسقط كلياً التمايز بين النظرية والايديولوجية . إذن لماذا ينبغي افتراض ان «طبقة صاعدة» فقط يمكنها حمل نظرة واقعية للعالم ؟ ان كون نظام اجتماعي قد وضع في موقف دفاعي - لا يحول دون امكانية تبصر أو استبصار متحرر من الوهم حول طبيعة المسار التاريخية . في الواقع ، كان ماركس وانجلز يشيدان على نحو دائم ببلزاك - وهو كاثوليكي وملكي وبالتالي رجعي - وذلك لوصفه الدقيق للمجتمع البرجوازي ، ويؤيد لوكاش (في «الرواية التاريخية» وفي غيرها) هذا الحكم بحذافيره . وهو

لا يتعب جراء طبعه في ذهن القارئ صورة عن عمق بصيرة بلزك النفاذة فيما يسميه هو نفسه «ضرورة المسار التاريخي» ، وهي صيغة لم تكن لتجذب بلزك كثيراً وهو الذي لم يكن فيلسوفاً قد ناصب العداة الى حد بعيد الاشتراكيين السان سيمونيين الذين كانت لهم مفاهيم كهذه. ويبدو اذن، ان كونك تنتمي الى الجهة الخاطئة سياسياً لا يجعل رؤيتك بعيدة عن الوضوح (بطل لوكاش الآخر في «الرواية التاريخية» هو المحافظ والتر سكوت).

مع ذلك عندما يصل في «تدمير العقل» الى الرومنطيقين الألمان، يتبنى لوكاش اسلوب الداعية الحزبي الذي لا يمكن ان يرى خصومه إلا كأدوات واعية أو لا واعية «للرجعية». ويصبح الارتباك الناتج مع نيتشه مؤلماً للمشاهدة، واعتبار نيتشه «عالم نفس في الثقافة، عالم جمال وعالم اخلاق» يفهم فقط بوصفه «الممثل الأروع والألعب لهذا الوعي الذاتي للانحطاط». وعمله بأكمله «سجال دائم ضد الماركسية، والاشتراكية، بالرغم من عدم قراءته لسطر واحد من كتابات ماركس وانجلز، وتمتع بإدراك توقعي... لما ستحتاج اليه انتليجنسيا عصر الأمبريالية... وأي نوع من الأسئلة سوف يفني بمطالبتها ورغبتها». من هنا تأثيره المؤسف على كتاب تقدميين امثال هينريخ وتوماس مان وبرنارد شو حتى ان ماركسياً عميقاً مثل فرانز مهرينغ Franz Mehring خدع الى حد القول ان نيتشه، بالنسبة الى بعض المفكرين المنتمين الى الطبقة الوسطى، قد يمثل مرحلة انتقالية مفيدة نحو الاشتراكية. ولا يتوصل لوكاش مطلقاً الى استيعاب المفهوم القائل ان التأثير المدمر لنيتشه على جيل من الالمان بأكمله يمكن ان يرد لانحلال الايمان البروتستانتى. يبدو ان البعد الديني غير موجود بالنسبة اليه، هكذا بكل بساطة.

وليس هذا الجهل الفريد «مسألة عرضية»، كما يقول في أحد تعابيره المفضلة في المجلة الشهرية الأدبية البودابستية «نيوغت» (الغرب) التي تبدي تمسكاً شديداً بالشكلية وعندما شرع بعد ذلك

بالابتعاد عما اسماه «الذاتية» فإنه قام بذلك باسم الميتافيزيقيا، حيث ان تحوله نحو الافلاطونية المحدثة حوالي ١٩١٠ قد اقنعه أنه لا بد للأعمال الغنية، بغية ثباتها وبقائها، من ان تعكس تسلسلاً «موضوعياً» للقيم. وهذا النمط من «المثالية الموضوعية» - وهي خطوة تمهيدية نحو اعتناقه اللاحق لفلسفة هيغل - تتعارض بالتأكيد مع المذهب الحيوبي الرومنطقي، ولكنه كان بالمثل بعيداً عن تاريخته الراديكالية في أعوامه اللاحقة. ولا يمكن الدفاع عن موقف فكري كهذا إلا اذا اعتمد على شيء مماثل مما اسماه فلاسفة أفلاطونيون Platonizing «حدس الماهية». اما ما تبقى، فليس له أية دلالة لفهم التاريخ، وهو انهماك لوكاش الرئيس بوصفه ماركسياً ينسج على منوال هيغل. لقد رأينا سابقاً أن الاشتراكية في البداية اخفقت في إشباع رغباته تماماً لأنهم لم تستجب لنزعته الميتافيزيقية. وفي الواقع فقد ورط لوكاش نفسه في ١٩١٠ بهذه الملاحظة الخطيرة «يبدو ان الاشتراكية تفتقر الى تلك القوة الدينية القادرة على امتلاك روح الانسان بأكملها، كما كانت الحالة مع المسيحية البدائية». وامتدت هناك طريق طويلة بين هذا التعبير وبين مساجلات الخمسينات الصاخبة. وفي الفترة الفاصلة، كانت «القوة الدينية» التي سعى وراءها عبثاً قد استحوذت عليه، وهو مبرر اضافي لتغاضيه عن مدلولها المتواتر.

وعند هذا الحد يمكننا ترك «تدمير العقل» للمصير القاسي الذي ينتظر أي عمل لم يكن لمؤلفه الشجاعة ليفعل ما يعتقد انه صواب، ونختتم عرضنا بالقاء نظرة مختصرة على علم الجمال.

الفصل الثامن

تناولنا بكل رئيسي الكتابات النقدية والسجالية التي هدف لوكاش من ورائها الى تمهيد الطريق امام عرض ايجابي ومنهجي ومنتظم لتنظيره. واذا ما تركنا التسلسل الزمني جانباً (الكرونولوجيا) - تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمني - فإن هذا التغيير في العرض يبدو مبرراً كافيّاً لتناول كتاب «ماهية الجمالي» Die Eigenart des Aesthetisten بشكل منفصل عندما ظهر هذا العمل في ١٩٦٣ في مجلدين ضخمين (حين كان يتبعها دراسة في علم الاخلاق لم تكن خرجت الى الوجود مع حلول عام ١٩٦٩). كان لوكاش في الثامنة والسبعين من عمره ومصمماً بوضوح على تنويع حياته ببحث مكثف حول نظرية الفن. وجاء النمط الأدبي الهادىء والرزين الذي اختاره لوكاش للمناسبة متعارضاً بجلاء مع كتاباته في الخمسينات، ومعلناً بالتالي تديلاً في المناخ الفكري بالاضافة الى بلوغ لوكاش مكنته كلاسيكية ضمن نطاق عمله، وحول حقيقة ظرفية تؤكد لها الاستشهادات المتكررة من غوته حين اضحى اسلوبه الجليل ملائماً لشرح المبادئ الجمالية المستمدة بأغلبيتها من كلاسيكية الثقافة الفايبارية. واصر لوكاش على تكبير قرائه بأن غوته وهيجل كانا متعاصرين، وان هيجل (في ضوء اقواله هو حول الموضوع) يدين الى حد بعيد لأعمال غوته. غير انه لم يقدم من قبل علم الجمال الهيجلي في مفردات قائمة على اساس الكلاسيكية الفايبارية، وفي عام ١٩٦٣ قام بذلك على الوجه الأكمل - استشهادات متكررة من ماركس - وعلاوة على ذلك ارتدادات عرضية موجزة نحو اللينينية.

ان اية نظرة الى بحث لوكاش الشهير حول علم الجمال لا بد ان تنطلق من الإقرار الصريح بأنه يقع ضمن تراث اوروبا الوسطى.

ونادراً ما يستشهد لوكاش بكتاب غير ألمان، حتى ولو صادف انهم
ماركسيون أو هيجليون. وقد يصفح المرء عن نفسه حين يفترض، ان
لوكاش لم يسبق له ان سمع بـ كولينغود. ان اشارات عابرة قليلة
الى كريستوفر كودويل تستنفذ موضوع علم الجمال الماركسي في العالم
الناطق بالانكليزية، وحتى ضمن نطاق ثقافته يظهر انتقائياً على نحو
مثير للدهشة. مثلاً، في تجاهله الكلي لمنشورات معهد فرانكفورت
للبحوث الاجتماعية، وعدم التلفظ بكلمة واحدة حول كتاب ارنولد
هاوزر Hauser «التاريخ الاجتماعي للفن»، وهو عمل عالم بارز،
ويتفق علاوة على ذلك انه ماركسي، غير انه لا يشاطر لوكاش وجهة
نظره السياسية، وبالتالي تجاهله. وينطبق الشيء نفسه على الناقد الأدبي
الشهير هانس ماير Hans Mayer، وهو ماركسي، ولكنه ليس
لينينياً، ومن ثم لا يصح ذكره. صحيح انه لا هاوزر ولا ماير يدعي
كونه فيلسوفاً. من جهة أخرى فإن ماركسية لوكاش المتصفة
بطابع هيجلي Hegelianized هي اثر استثنائي جداً وليس بأية حال
العرض الموثوق للموضوع الذي توصل المعجبون به والمنحازون بعض
الشيء الى معاينته فيه. ان عرضه لعلم الجمال عند هيجل يفوته
باستمرار إدراك ما شكل بالنسبة الى هيجل فكرته الرئيسية
المركزية، أي وحدة الفن والفلسفة والدين التي لا تنفصم عراها. ولا
يتوافق بالطبع مفهوم الفن بوصفه كشفاً أو وحيّاً للحقيقة
الفوقحسية (ما فوق الحسية) مع المادية التاريخية. وتكرس مقاطع
واسعة من مجلد لوكاش الأول لدحض الفلسفة المتعالية
الاستشراقية Transcendentalism بأي شكل أو مظهر. غير ان
نهج غوته وهيجل الذي يرفع الفن بشكل ضمني الى مرتبة الكشف
(الوحي) قد سدد ضربة الى اللاهوت، وهو واقع كان كل من
الرجلين يدركه تماماً. وما برز لاحقاً عند ماركس وانجلز ككره
واضح لكل من كانط وشيلر، مرفقاً بتفصيل لافت للنظر لشعر غوته
وفلسفة هيجل، كان النتيجة المنطقية لكون هيجل وغوته في طريقهما

الشديدة الاختلاف، قد استوعبا سرّاً فلسفة ينوزا التي لم يكن يؤتمى على ذكرها آنذاك تقريباً. ان ناقد المعرفة لوكا الواسعة لا بد ان يدرك انتهاءه الثقافية. واذا كان يتجاهل هذا الجانب من الموضوع فلا يأتي بصورة جازمة على ذكر سبينوزا إلا من خلال الصلة مع الماديين الفرنسيين للقرن التالي، ويمكن للمرء التخمين بأن أي خروج على عصر التنوير يبدو كإغواء للارتداد الى المثالية المتعاقبة لفترة شبابه. وهكذا يحرم نفسه فرصة تحرير علم الجمال الماركسي من النفعيين (مذهب المنفعة) التي لا بد ان تلازم الموضوع على نحو مؤكد، اذا ما تم استبعاد البعد الميتافيزيقي. ومن ثم هناك الموضوع الغريب لعلاقة غوته بشيلينغ؛ اذ يتفق المؤرخون الأدبيون غير المقيدون بخط حزبي سياسي ان كره غوته لنيوتن وتأيدته للنظرة «العضوية» الى العالم، كانا دون ريب موقفين غير كلاسيكيين. فغوته الشاب اعتبر سابقاً للرومنطيقية : وكانت لغوته البالغ صلوات بشيلينغ، منشئ (فلسفة الطبيعة Naturphilosophie) الرومانطيقية. ولا يتوافق أي شيء من ذلك مع الصورة المبسطة التي رسمها لوكاش، حيث تطرح الفلسفة الهيجلية و «الكلاسيكية الفايهاريه» مقابل اللاعقلانية والحركة الرومنطيقية. ان بحث غوته الفلسفي الأوحده صاغ ما وصفه منذ ١٨١٢ «اساس وجوده ككل» أي معاينة الله في الطبيعة والطبيعة في الله. لم يكن هذا النمط من المذهب الاسبينوزي في وحدة الوجود ارثوذكسياً بأكثر من وجهة النظر اللاهوتية، غير أنه لم يكن «مادياً» ايضاً. بما ان لوكاش ليس في وسعه الاستغناء عن غوته، فهو يلزم الصمت حول هذه النقطة من الموضوع. وبالمثل لا يدي برأي حول تشاؤمية هيجل لجهة مصيرالفن في عالم تجعله الفلسفة ويحيله العلم شفافاً : وهو مصدر اقوال ماركس المذكورة سابقاً حول هذا الموضوع.

مع ذلك، اذا عدكتاب «ماهية الجمالي» عملاً هاماً، فليس ذلك بسبب إسهابه المطول، بل لأنه يحفظ بشكل هامشي بعض عناصر

طريقة فهم مميزة تم تفصيلها من جانب لوكاش قبل ثلاثين عاماً في مقال حول ف. ت. فيشر الهيجلي الألماني في اواسط القرن التاسع عشر. ان ما يهم لوكاش فعلاً هو مسألة تفسير العملية الخلاقة لما يسميه «الانعكاس» أو «التمرني». من هنا يصبح ما يطرحه، تاريخياً للفن ونظرية لعلم الجمال في آن واحد، حيث تمتلك الفكرة الرئيسية لهذه الاخيرة نظاماً معيناً في الاستجابة للعالم الذي يختلف بطريقة ما عن سلسلة العمليات الموازية التي تصادف في الحياة اليومية في ميدان العمل (المنفعة)، وفي العلوم، وفي السحر، وفي الدين. وهذه كلها بالنسبة الى لوكاش انماط مختلفة لعلاقة اولية بين الانسان وبيئته التي يسميها «الانعكاس». ان خصوصية Eigenart علم الجمال تكمن في حقيقة كون البشر قد طوروا، في مرحلة محددة مشروطة مادياً من التاريخ البشري، قدرة لتفسير العالم بمصطلحات لم تعد مجرد مصطلحات عملية أو سحرية (حيث ان السحر البدائي نفسه يؤلف وجهاً من وجوه الممارسة العملية اليومية). . . . وبخلاف الدين، الذين يصنفه مع العمل والسحر كجمع بلا وسيط في جوهره بين النظرية والممارسة، فان الفن يشابهه، وبالنسبة الى لوكاش، العلم والفلسفة، من حيث ان الفنان وجهوره قد تحرروا من ضغط الضرورة العملية الفجة. ومن جهة اخرى، فهو مغطى بملاحظة ان الفن - بعكس العلم الذي يلغي التشبيه البدائي - يشاطر الدين ميلاً نحو تفسير الواقع «الموضوعي» بصورة مستعارة من الشخصية البشرية. ولذا يطالعا الارتباب الشهير بأمر الفن الكائن في الفلسفة الاغريقية من هيراقليطس فصاعداً.

«يعتبر هؤلاء الفلاسفة المبدأ الجمالي - ليس بدون سبب - مبدأ تشبيهيّاً، وذلك لأنهم قد ينظرون الى تجسيم الدين أو الأسطورة . . . الخ، كعدوهم الرئيسي، لوصم ميدان الفن - على نحو جائر تماماً - كحليف وأداة للخرافة التجسيمية. وتكمن صعوبة اقامة استقلال ذاتي على غرار الاستقلال الذي حققته الفلسفة والعلم في حقيقة ان

المبدأ الجمالي . . . لا يمتلك حقاً طابعاً تشبيهاً أو تجسيمياً .
وما دام التجسيم يشكل بيع لوكاش الرئيسي كلما انكب على
دراسة السحر أو الدين، فإنه ليس واضحاً للوهلة الأولى لماذا يحتج
ضد الحيف في معالجة الفن كحليف للخرافة. يمكن تعليل ذلك في
تفسيره الخاص للمبدأ الهيجلي - الماركسي الذي يلخصه غوردن تشايلد
Gordon Child - وهو من يستشهد به لوكاش بشكل متكرر -
بالعبارة المألوفة: «الإنسان يصنع نفسه». فالفن، بكلمة أخرى، جزء
من اصفاء الطابع الإنساني، وهي فكرة اشار إليها هيجل أولاً بشكل
غامض في كتاب «فينومينولوجيا الروح» وصاغها ماركس فيما بعد،
(صياغة) أكثر مادية، في «المخطوطات الباريسية ١٨٤٤». ويشرح
لوكاش ابتداء من هذا المنطلق المأمون الجانب بالانتقال الى التأكيد
المشكوك فيه، أن نمط الادراك الجمالي يبرز الى الوجود كجزء من المسار
حيث يحول الانسان عالمه نفسه عبر عمله (الجسدي والعقلي). إن
الفن انعتاق من الممارسة اليومية، مماثل، لنشوء النموذج العلمي
«للانعكاس» وان يكن انعكاساً يحتفظ بالنمط التجسيمي للإدراك
الحسي. وحده العلم هو الذي يشكل انقطاعاً جذرياً عن التجسيم.
ويعتبر لوكاش نفسه في هذه المسألة، في انسجام مع غوته، الذي
يستشهد بقوله «ان الانسان لا يدرك كم هو تجسيمي». وفي الوقت
نفسه يقوده تصميمه على انقاذ المبدأ الجمالي من اللاعقلانية الى تمييز
لافت للنظر بين انواع مختلفة من التجسيم.

«انه لمن صميم (النمط) الجمالي اعتبار الصورة طبق الاصل عن
الواقع انعكاساً، في حين يعزو السحر والدين الواقع الموضوعي الى
نظامهما الانعكاسي ويطلبان الايمان به. ويقود ذلك في التطور اللاحق
الى الاختلاف الحاسم من حيث ان الانعكاس الجمالي يشكل بنفسه
نظاماً مغلقاً (عمل الفن)، بينما يضم كل انعكاس سحري أو ديني
بالنسبة الى حقيقة متعاقبة (منزهة).

فكل انعكاس، من جهة، هو تمثيل لشيء واقعي . وفي حالة

الفن ، طبيعة الانسان الجوهرية ووحدة البشرية من جهة اخرى ، لا يمثل السحر والدين أي شيء واقعي ، بالرغم من انهما «يعكسان» شيئاً ما . واخيراً ، «يتأكد تماثل الحقيقة والجمال» مع اشارة صريحة الى Keats «كيتس» باعتباره تماثلاً يؤلف ماهية الادراك الجمالي المباشر والنقي . غير ان التجربة المعاشة (أو الشعور الذاتي) (Erlebnis) لا تستطيع ان تعرف بالحدس عالماً قائماً بذاته من الأفكار أو الماهيات ، كما هي الحال ضمن نسق أو منظومة من «المثالية الموضوعية» . وثمة خاصية لا يمكن اختزالها للميدان الجمالي القائم في نهاية المطاف في الادراك التأملي للحقيقة - الجمال ، غير ان هذه ليست كيانات حقيقية . ومن جهة اخرى فإنها ليست مجرد كلمات أو تسميات لمشاعرنا . ما هي إذن ؟ يبدو ان الجواب هو : انعكاسات لحقيقة داخلية لا يماثلها شيء خارجي ، (فليفهم من يستطيع الفهم) .

ولكن لا ينبغي ، بأية حال ، اعطاء الانطباع بأن لوكاش مهتم في المقام الأول بمحاكاة الخلود أو بوصف الاحاسيس الشعاعية . تبرز هذه الجوانب من الموضوع من وقت لآخر - وهي تناقش في ايجاز بلغة تعبر عن عاطفة اصيلة - غير ان معظم عمله ينهمك في تحليل الفن كفعالية اجتماعية تنشأ تدريجياً من رحم السحر البدائي . ومن ثم يتكشف عنه ، محاكاة ، رقص شعبي ، أو تصورات خيالية شعاعية أو دينية ، وذلك قبل بلوغ مرحلة الادراك الجمالي الاصيل في النهاية . تكرر مئات الصفحات لمسائل تتعلق في الواقع بالانثروبولوجيا ، وبعد ذلك فقط يطلع القارئ على قضايا جمالية . حتى عندما يطرق مسائل الأسلوب «والانسجام المتزامن» أو شعر فرلين ، يعود لوكاش باستمرار الى خط فكري يمثله كل من ارسطو وفيكو وهيكل وماركس ، ولا نبالغ اذا قلنا ان معضلته بأكملها ، بوصفه منظراً ، تتركز على معنى مصطلحي «انعكاس» و «تمثيل» representation ان طابع المحاكاة في الفن يمثل العالم «كما هو» ، ولكن على نحو تجسيمي ، وبالتالي بنمط يظهر وهيباً من وجهة نظر علمية . ويحل

الصراع بمعونة ديالكتيك هيجل؛ فالمحاكاة « تعكس » الكينونة - في ذاتها - للعالم بربط ملاحظتها (An-sich-sein) الى الحاجات النوعية النامية والمشروطة اجتماعياً للانسان. وهكذا، لإعطاء مثل بارز، ليس التناسب الجمالي (يعرف ايضاً بالجمال الكلاسيكي) « التمثيل الحقيقي لعلاقات جوهرية قائمة في الواقع الموضوعي فحسب، بل هو ايضاً حاجة اساسية للوجود البشري ». وازضافة الى تعزيز رفض الذاتية الرومانسية وفرعها البورجوازي المتأخر، الحدائة (المنحطة)، فهذه الصيغة تؤهل لوكاش لتأكيد «موضوعية» التمثيل المتسم بالمحاكاة في المعنى الفلسفي : ليس بالمبدأ التجسيمي الأساسي للانعكاس الجمالي «أي عنصر مشترك مع مجرد الذاتية». وعلى نحو منطقي كاف، يوافق لوكاش على نهج ارسطو في «كتاب الأخلاق ل نيقوماخوس» - Nico machean Ethics حيث الأخلاقية (الفضيلة) في ترابط وثيق مع التناسب. «يثبت في النهاية ان المحور المنهجي لعلم الأخلاق هو معضلة من معضلات التناسب الصحيح».

وتعرف الفضيلة نفسها وفقاً للمصطلح الارسطي الافراد والتفريط كوسط بين الحدود القصوى، مما لا يعني انها تمثل مجرد «معدل وسط جامد». وما تدل عليه (المركزانية) في هذا السياق إنما هو تأدية المرء واجباته !

انه لمن السذاجة الاجابة بأن الاتساق هنا هو مجرد استعارة. انه اكثر من ذلك بكثير، وحيث ان الجمال مقولة مركزية للحياة والفن، فإن ارتباطاً كهذا من المحتوم ان يرسخ وجوده. وليس من الممكن، لا في الحياة ولا في الفن، تأسيس الجمال بالاستناد لقيم جمالية أو اخلاقية ذات طبيعة عابرة أو نسبية . لا بد للجمال من ان يقرر البنية الجوهرية للانسان. واذا لم يكن انبثاق هذا التقرير متعالياً (كما هي الحال عند افلاطون، واذا لم يكن محض اشعاع مستعار متعالٍ من عالم آخر فيعني التركيب عندئذ تناغماً لهذه العلاقات الدنيوية المتأصلة في الانسان، المتصلة به بفضل انسانيته... والمبدأ الملائم في نهاية المطاف

هو مبدأ التناسب . . . وبذلك تتجاوز المسألة قضايا ذات شكل مجرد وتلامس العلاقة المتبادلة والاساسية بين علم الاخلاق وعلم الجمال .
ان الجمال وفقاً للوكاش (كما بالنسبة الى تشرنيشيفسكي) هو «حالة خاصة ضمن علم الجمال، وشكل فريد للتأمل الجمالي وتكوينه، محتمل فقط في ظل ظروف اجتماعية - تاريخية ملائمة للغاية» . واما النموذج فهو، بالطبع، العصور القديمة الكلاسيكية، بالرغم من ان ذلك ليس معلناً على نحو مسهب . ويرفض لوكاش في الوقت نفسه السمة الخاصة للكلاسيكية الفايبارية المتمثلة بمعادلة شيلر بين الفن واللهو، ويعترض لوكاش على عبارة شيلر الشهيرة «يلهو الانسان فقط عندما يكون انسانياً حقاً، وهو انساني حقاً فقط عندما يلهو» ، من زاوية ان هذه الصيغة - وان تكن «انسانية على نحو عميق» - تتجاهل الدور المؤنس للعمل وتقود بذلك الى فصل صارم للفن عن ميدان العمل . ويؤيد قوله هذا باستشهاد من ماركس («لا يمكن للعمل أن يصبح لهواً كما يشاء له فورييه») . غير انه لا يبدو انه يحقق ذلك إذا كانت الحال كما هي عليه، من هنا ليس بالمستطاع دمج المجال الفني بنجاح ضمن مسار الحياة اليومية، حيث تحتفظ صورة شيلر عن جنة عدن، بالرغم من طوباويتها، بفعاليتها كنفذ ضمنى «للوضع البشري» ، وهو تعبير ليس مستحباً لدى لوكاش كثيراً (كما مر معنا) .

ولا بد اخيراً من القيام بمحاولة لتوضيح مكانة مفاهيم لوكاش النظرية . لم يكن بالمستطاع محاولة ذلك من قبل، لأنه كان سيعني اصدار حكم مسبق على أهمية محاولة لوكاش في دمج علم الجمال الهيجلي بعلم الاجتماع الماركسي . وبما ان الخطوط العريضة لمناقشته قد تم رسمها، فمن الممكن تكوين استنتاج لجهة نجاح المشروع أو فشله . ويمكن لحسن الحظ القيام بذلك دون التورط فيما يعرف بـ «تقدير» الاعمال الفردية للفن . إن أي شخص ليس مؤرخاً فنياً أو ناقداً ادبياً ويغامر في طرق هذا الموضوع لا بد له من ان يمتلك درجة غير عادية من الثقة بالنفس . وفي هذا المجال على الاقل تستحق محاولة

لوكاش نيل الاطراء، بالرغم من ايمانه بالمبادئ العامة التي يتقيد بها؛ فهو يعلن نفسه بصراحة غير كفاء، على سبيل المثال، لإعطاء حكم على قيمة اعمال معينة، وينبغي ان نسأل ما الذي يميز بالتحديد استخدامه مصطلحاً مثل «التمثل» representation عن المعنى العادي له. لا يمكن ايجاد الجواب إلا بتقصي علم الجمال لدى هيجل، لأنه عند هذه النقطة يعني ان التزام لوكاش بالماركسية غير ذي صلة بالموضوع. وفيما يتعلق بتبني ماركس وانجلز لأية مفاهيم حول طبيعة التجربة الجمالية فإن مقياسها مشتقة من غوته وهيجل اللذين شاطرها ايضاً التبجيل الالماني التقليدي للاغريق وشكسبير، المقرون بكره بارز للأسلوب الكلاسيكي في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وينبغي ان تلغي هذه الحقيقة وحدها مفهوم كون «الكلاسيكية الفياييرية» كانت تتقاسم الشيء الكثير مع ما كان يعرف آنذ بالأسلوب الكلاسيكي في اوروبا الغربية. بالرغم من ذلك كله فإن لوكاش مصمم على اقامة حاجز صارم بين غوته - شيلر وبين نقادهما الرومانسيين، فما يسميه «المثالية الموضوعية» - أي «الاعتقاد بأن روح الانسان في مجال الفن «الى الطريق القويم» باسترجاع البعد الميتافيزيقي للروح العالمية - هو اعتقاد موجود عند غوته وعند هيجل.

ماذا يتضمن ذلك بالنسبة لنظرية في الفن؟ في النظرة التجريبية العادية، يخترن عقل الفنان صوراً مأخوذة من الطبيعة أو المجتمع، ثم ترتب هذه الصور بالتوافق مع ميله الفردي أو ذوقه. اما حسب الافتراض الكلاسيكي، فإن هذا التنظيم أو الترتيب للصور - المرتبة طبق الاصل المنسوجة عن محيط خارجي (طبيعي أو اجتماعي) - لا تقدم نتائج دائمة إلا اذا «عكست» التركيب الموضوعي للواقع. لذلك فإن الفنان لا «يبدع» بالمعنى الدقيق؛ إنه يصور، ويظل ذلك صحيحاً حتى ولو سلم ان الفن ليس مجرد ديكور. لأن ما يصور هو قائم أولاً، مع انه قد يبذل جهدهميين في استخلاص ما هو حقيقي مما

هو محض ظاهري . غير ان ما هو قائم ليس من الضروري ان يكون «واقعاً» ، ويوضح لوكاش ، مقتضياً اثر هيكل ، ان التمايز بين المظهر والواقع المألوف في العلم والممارسة اليومية العامة ، غير ملائم فيما يخص الفن ، حيث يسقط الانسان كينونته «الداخلية» على هيئة شيء يوصف عادة كـ «شكل ذي مغزى» . ان هذا الشيء ليس مجرد مظهر خارجي «ذاتي» أو ضرب من الوهم ، لانه يصف (يعكس) وفقاً لمصطلحاته) عالماً موضوعياً موجوداً يشترك فيه الفنان مع اناس آخرين ، وفي النهاية مع البشرية ككل ؛ من هنا تأتي قدرتنا على فهم اسلافنا . فالفن باعتباره «الذات والموضوع المتطابقين» للعملية الجمالية يفصل الوعي الذاتي للنوع البشري . لهذا السبب يكون الخيال الفني منتجاً دون ان يكون بالضرورة نزوياً ؛ فما يولده ليس عالماً خاصاً ، بل كل منظم مجذر في نهاية المطاف في التجربة الجماعية للبشرية . بهذا المعنى «يعكس» الفن حقيقة ، غير ان هذه الحقيقة ليست حقيقة «وقائع» ، وليست حقيقة مجرد «مشاعر» . الفن هو الصورة المرآة طبق الاصل لعالم «موضوعي» من القيم ، أو بلغة اخرى ، انه يعلن الحقيقة عن العالم .

والآن ، اذا سلم المرء بذلك ، فليس من السهل معاينة كيف يمكن ان يفوته ما يصفه لوكاش بـ «المثالية الموضوعية» (لتمييزها عن «المثالية الذاتية» لكانط وأتباعه) . ان كلا من هيكل وماركس ، بشكل عام ، يتعاطى نظرية للمعرفة تعود في النهاية الى أرسطو ، وهي بالتالي «واقعية» ، بمعنى أنها تفترض عالماً «حقيقياً» يمكن للعقل ادراكه . وتصلح طريقة الفهم هذه بما فيه الكفاية كحل وسط بين المثالية الافلاطونية وأسلوب الاسمية الفجة التي تعالج المفاهيم المنطقية كمجرد اعلان تقليدي منكرة اية حقيقة «للكليات» المتضمنة في التجربة ، وهي تبطل ايضاً الظاهرانية الكانطية التي تترك رواسب غير مفسرة - الشيء في ذاته - thing in itself في مكان ما على الحافة الخارجية لعالم الظواهر التي ينشئها العقل البشري . ولكن عندما تثار

مسألة علم الجمال، لا تقدم هذه التمايزات ما يكفي لمساعدة منظر يعتبر «الواقعية» و «المادية» شيئاً واحداً. لنفترض اننا جميعاً نوافق على كون الادراك النافذ الصحيح لطبيعة الواقع يقع ضمن قدرة العقل الحرة. فمن السهل ان نتبين لماذا يثلج مثل هذا الاعتقاد صدر عالم اذا كان بالفعل قادراً على الاحتفاظ به طويلاً. ولكن كيف يدعم مثل هذا الاعتقاد فيلسوف ملتزم بما يطلق عليه لوكاش (مقتضياً في ذلك اثر انجلز بدلاً من ماركس) مذهب «المادية»؟ ان واقع العالم الخارجي القائم في الذهن ليس مجال تساؤل. ان ما يهم علم الجمال هو بالأحرى وضع التجربة، مهما كانت «حقيقية». إنه يمكن تسميتها «مادية» فقط، بمعنى كونها مرتبطة بحياة كائنات بشرية حية وحقيقية. وفي ما يتعدى هذه النقطة، يتوقف مصطلح «المادي» عن الدلالة على أي شيء ضمن نطاق نظرية الفن. فاذا ما قلنا ان الانسان يدرك نفسه عبر التجربة الجمالية، لا نقول شيئاً يتنافى مع «المثالية الموضوعية» بالمعنى الهيجلي؛ اذ ان هذا النمط للفهم الذاتي يمر، في النهاية، عبر النفس البشرية.

ان لوكاش، عندما يصف أو يحلل عملية الخلق الفني، لا يتردد في الإقرار بكل ذلك. ويبين بتمتهى الموضوع ان العمل الفني يحول التجربة المباشرة الى عالم فريد خاص به، أي عالم القيمة الجمالية. ويصبح التمايز في هذا المجال بين الفكر والعواطف فاقداً معناه تماماً كالتمايز بين الذات والموضوع. يسعى الفن لتمثيل التجربة البشرية في عملية لا متناهية من فعاليات خلق الشكل وخلق القيم التي تكون معاً ميدان علم الجمال. ومع انه يصر على وصف هذه الأعمال بأنها «انعكاسية» أكثر مما هي «خلاقة»، فلا ينكر لوكاش استقلاليتها الذاتية ولا عالميتها، بالرغم من انها تحدث بالضرورة عبر العقل المحدود للفنان الفرد. ويساعد هذا الاخير على خلق ما وصفه هيجلي بريطاني معاصر بـ «عالم شامل وسار»، حيث تحضر العاطفة ليس كملاحظة مضافة، بل كعنصر متمم. ليس العالم واقعاً مجرداً. وهو

بالتأكيد ليس تخيلاً. انه مصنوع من الاحساس والخيال، غير انه موضوعي وأكثر حقيقية من الواقع لأنه يمتلك قيمة فعلية.

هذه هي ايضاً وجهة النظر التي يعتنقها لوكاش. واذا كان لا يستطيع الإفصاح عنها بلغة تلائم الموضوع، فذلك عائد، على ما يفترض، الى التزامه بمفردات، لم تكن معدة لوصف أي شيء إلا عالم «الواقع» بالمعنى العلمي للتعبير. وبالرغم من انه يؤكد حرفياً ان هذه ليست هي المشكلة في ميدان الفن، يخفق لوكاش في نقل المعنى الكامل لما يبغيه، وذلك دون شك لأن المصطلحات الوحيدة الملائمة لهذه الفكرة الرئيسية قد استولى عليها قبله هيغل وهي تشكل بالتالي اغراء دائماً للاستسلام الى النظرة الكلية لـ «المثالية الموضوعية».

لا يعني ذلك انه لا يمكن ان توجد نظرية ماركسية في علم الجمال، بل إن مجرد طريقة الفهم المذهبية المرتبطة باسم جورج لوكاش لا تفسح المجال لجواب غير غامض عن السؤال حول كيفية اتصال نظرية كهذه بسلفها الهيغلي. وما يصح عن علم الجمال ينطبق على عمل لوكاش عامة، لقد وضع مجموعة هائلة من الكتابات التي يمكن اعتبارها صيغة متصفة بالطابع الهيغلي للماركسية أو استمرارية لعمل ديلتاي في التاريخ العقلي أو الذهني (Geistesgeschichte)، مع النقل من الدور الذاتي النشاط الواعي الى تفتح عملية مجذرة في نهاية المطاف في دياكتيك القوى المنتجة المادية والعلاقات الاجتماعية. ويمكن اعتبار الالتباس الذي يتخلل أعماله اللاحقة كدليل على أنه، بغض النظر عن الظواهر التي تبدو نقيض ذلك، لم يتخل أبداً عن افتراضات ايام شبابه العاملة بوحى من تعاليم افلاطون. وبقدر ما تلمز صيغة هيغل لـ «المثالية الموضوعية» الفيلسوف بالإقرار بأن الإبداعات البشرية تمر عبر فعالية عقل الإنسان، فإن اختيار لوكاش علم الجمال كمجاله الخاص، لم يكن كأى حقل آخر، له حظ وافر من النجاح. فعلم الجمال يشكل ميداناً يخضع فيه الانقسام الصارم بين العالم الداخلي والخارجي، وبين العقل والعاطفة، وبين الواقع

والقيمة، الى ديالكتيك الواقع والمظهر.

وأيا كانت الزاوية التي ينظر من خلالها، فإن مركزية الفن في عمل جورج لوكاش تشهد على التزام يضعه ضمن نطاق ميراث المثالية الألماني. وما يشكل لب هذه الحركة قد أعلنه بوضوح ناقد شهادته ليست بحاجة الى شرعية سياسية.

«ثمة وحدة أساسية في الأدب الألماني ككل، وذلك منذ حوالي أواسط القرن الثامن عشر حتى وفاة غوته. وهي خلق فن جديد يختلف عن فن القرن السابع عشر الفرنسي. انها محاولة من اجل فلسفة جديدة ليست مسيحية ارثوذكسية ولا تستند الى حركة التنوير في القرن الثامن عشر. تشدد هذه النظرية الجديدة على كلية قوى الإنسان، ليس العقل وحده، بل بالأحرى الحدس «الحدس العقلي» والمخيلة. انها إحياء للأفلاطونية المستحدثة، ومذهب في وحدة الوجود (أيا كانت تنازلاتها للارثوذكسية)؛ أحادية توصلت الى توحد بين الله والعالم وبين الروح والجسد، وبين الذات والموضوع. وكان الداعون لهذه الافكار واعين دوماً لخطورة هذه الآراء وصعوبتها، التي كانت تظهر لهم مراراً بمثابة مثل غائبة فحسب. من هنا كان «التعرف اللامتناهي» لدى الرومانسيين الألمان، والتشديد على التطور، على الفن كتلمس للطريق نحو المثال الأعلى».

ولقد اصبح لوكاش الشاب، لهذا التقليد الميتافيزيقي وريثاً، وهذه الحقيقة الظرفية وحدها تضيئ انساناً دائماً حتى على كتاباته الأقل شهرة.

فهرس الأعلام

- ادورنو، ثيودور (مدرسة فرانكفورت) Adorno, Theodor
- بنجامين، فالتر (مدرسة فرانكفورت) Benjamin, Walter
- برغسون، هنري (١٨٥٩-١٩٤١) Bergson, Henri: فيلسوف فرنسي، من ابرز ممثلي الحدسية في تاريخ الفلسفة المعاصرة، شغل منصب استاذ في الكوليج دي فرانس منذ ١٩٠٠، وسيطر طيلة عقود على الفلسفة الحاضرة. من اهم ممثلي فلسفة الحياة والقائلين بالدفع الحيوي.
- بلوخ، ارنست - ١٨٨٥ Bloch, Ernst: فيلسوف الماني ماركسي. كان استاذاً في لايبزيغ، ثم انتقل الى جامعة توبنغن (المانيا الغربية). يسعى في تفكيره الفلسفي الى عمل موسوعي يضم محتويات الأمل في التاريخ الحضاري. أهم مؤلفاته: مبدأ الأمل (١٩٥٤-١٩٥٧).
- تشرنيشيفسكي، نيقولاي (١٨٢٨ - ١٨٨٩) Chernyshevsky (Co-founder of Russian Popularism): مفكر وناقد روسي انضم الى المنادين بالاشتراكية الديمقراطية. اعتقلته السلطات القيصرية وحكمت عليه بالاشغال الشاقة والنفي الى سيبيريا. تزعم الحركة الديمقراطية الثورية عام ١٨٦٠ في سبيل قيام ثورة فلاحية. له كتابات في علم الجمال ينتقد فيها النظرة المثالية. من أهم مؤلفاته: «دراسات عن عنصر غوغول في الأدب الروسي» ١٨٥٥، و «المبدأ الانثروبولوجي في الفلسفة» ١٨٦٦، و«طبيعة المعرفة الانسانية» ١٨٨٥، وله روايتان: «ما العمل؟» و«برولوج» ١٨٦٧ - ١٩٦٩.
- كوهن، هرمان (1842-1918) Cohen, Hermann: اشترك مع باول ناتورب في تأسيس مدرسة ماربورغ الجديدة. أصدر عام ١٨٧١ كتابه الشهير «نظرية كانط في الخبرة».
- ديلثي (ديلثاي) فيلهلم (1833-1911) Dilthey, Wilhelm: فيلسوف الماني، شغل منصب الاستاذية في برلين منذ ١٨٨٢، وسعى

الى تأسيس «علم تجريبي للظواهر العقلية» من اجل ادراك المسارات العقلية التاريخية بواسطة الفهم. رائد في حقل «نقد العقل التاريخي» وممثل لفلسفة الحياة.

فيورباخ، لودفيغ (١٨٠٤-١٨٧٢) Feuerbach, Ludwig
فيلسوف الماني اشتهر بنقده لهيجل واللاهوت المسيحي. اعتنق المادية بين ممثلي اليسار الهيجلي. يعتبر الحس هو الحقيقي بالذات. من مؤلفاته «جوهر المسيحية» و«مبادئ فلسفة المستقبل».

هيجل، جورج فردريك فيلهلم (١٧٧٠-١٨٣١) Hegl George
Friedrich Wilhelm فيلسوف مثالي الماني يمثل ذروة الفكر المثالي في الفلسفة الحديثة: وهو من اصحاب المذاهب الفلسفية الشاملة. يعتبر مصدراً لاتجاهين اساسيين هما الوجودية والماركسية.

هيدغر، مارتين Heidegger, Martin: فيلسوف الماني معاصر، مولود ١٨٨٩ في سيكرش بمقاطعة بادن. تتلمذ بجامعة بادن على هسرل واحتل مكانة في الأستاذية بجامعة فرايبورغ.

هوركهايمر، ماكس (مدرسة فرانكفورت) Horkheimer, Max.
هوسرل، أدموند (١٨٥٩-١٩٣٨) Husserl, Edmund: مؤسس
الفيثومينولوجيا أو علم الظواهر. حاول تأسيس الفلسفة على أنها «علم صارم» قبلي. ضد التجريبية والسيكولوجية.

كاوتسكي، (١٨٥٤-١٩٣٨) Kautsky, Karl: مفكر اشتراكي
نمساوي الماني، لعب دوراً رئيسياً في صياغة «برنامج إرفورت» واشترك في تأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي. عارض لينين والبلاشفة مثلما عارض الذين نادوا بتصليح الماركسية وعقائدها.

كيركجارد، سورن (١٨١٣-١٨٥٥) Kierkegard, Soren:
فيلسوف ولاهوتي دانهاركي، يعتبر من مؤسسي الفلسفة الوجودية المسيحية، ومن أوائل الداعين الى تركيز الفلسفة على السؤال عن الوجود الانساني.

كولاكوفسكي، لتشك (١٩٢٧) Kolakowski, Leszek: فيلسوف

ماركسي بولوني الأصل، يقيم في أوروبا الغربية الآن. له كتابات عديدة، منها «الماركسية وما وراءها». لعب دوراً رئيسياً في أحداث أكتوبر ١٩٥٦. طرد من الحزب الشيوعي البولوني عام ١٩٦٦.

لا شك، اميل (١٨٧٥-١٩١٥) Lask, Emile: فيلسوف تتلمذ على فينديلباندي وقام بالتدريس في هايدلبرغ منذ ١٩١٠، وسعى الى اعادة تأسيس الميتافيزيقيا من خلال نظريته عن مقولات المقولات.

لوفيث، كارل (١٨٩٧-١٩٧١) Lowith, Karl: استاذ للفلسفة في جامعة هايدلبرغ، اشتغل بالدراسات في حقل الفلسفة الحديثة وانتقد هايدغر. اشهر مؤلفاته: «من هيغل الى نيتشه» و«فلسفة نيتشه في العودة الأبدية».

لوكسمبورغ، روزا (١٨٧٠-١٩١٩) Luxemburg, Rosa: مفكرة ومناضلة المانية ثورية. قائدة بارزة من قائدات الحركة العمالية العالمية. اشتركت في ثورة نوفمبر ١٩١٨، ثم قبض عليها أعداء الثورة في كانون الثاني ١٩١٩ فعذبوها وقتلوها.

ماخ، ارنست (١٨٣٨-١٩١٦) Mach, Ernst: فيلسوف وعالم فيزياء نمساوي الاصل، عمل استاذاً في فيينا ١٨٩٧-١٩٠١. يرى منشأ العلم وهدفه في ارضاء الحاجات الحياتية الضرورية.

مان، توماس، كاتب وروائي الماني. نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٩. هاجر من المانيا بعد مجيء النازيين واقام بالقرب من زيوريخ حتى ١٩٣٨، عندما انتقل الى اميركا. اشهر مؤلفاته: «الجبيل السحري» رواية ١٩٢٤ و«آل بودنبروك» ١٩٠١ و«الموت في البندقية» ١٩١٢.

مانهايم، كارل: ١٨٩٣-١٩٤٨ Mannheim, Karl: عالم اجتماع ولد في بودابست وتوفي في لندن. من تلامذة ماكس فيبر. استاذ في (علم اجتماع المعرفة).

ماركوزي، هربرت، (مدرسة فرانكفورت) Marcuse, Herbert
ناتورب، باول (١٨٣٤-١٩٢٤) Natorp, Paul: فيلسوف الماني

ومرب اجتماعي من تلامذة هرمان كوهن البارزين في مدرسة ماربورغ.

نوفاليس (١٧٧٢-١٨٠١): هو الاسم المستعار لفرديريك فون هاردنبرغ، شاعر رومنتيقي الماني موهوب جداً. اشتهر بأناشيده الدينية «ترانيم الى الليل».

بليخانوف، جورج (١٨٥٦-١٩١٨) Plekhanov, G.: أحد منظري الماركسية البارزين ومن أعظم شارحيها. تعاون مع لينين على اصدر صحيفة «الشرارة» (ايسكرا). ثم انضم الى المنشفيك بعد المؤتمر الثاني للحركة الدولية (الأمية). من أشهر مؤلفاته: «دور الفرد في التاريخ» و«تطور النظرة الأحادية الجانب الى التاريخ» بالاضافة الى «دراسات في تاريخ المادية» و«الفن والحياة الاجتماعية».

ريكترت، هاينريخ (١٨٦٣-١٩٣٦) Rickert, Heinrich: فيلسوف الماني كان استاذاً للفلسفة في جامعة هايدلبرغ منذ ١٩١٦ واشترك مع فندلباند في تأسيس مدرسة الكانطية الجديدة التي انطلقت من تعاليم كانط وفيخته. وتعرف المدرسة هذه بمدرسة الجنوب الغربي (هايدلبرغ).

شلايرماخر (١٨٥٨-١٩١٨) Schleiermacher: فيلسوف الماني ولاهوتي بروتستانتي. سعى الى التوفيق بين النظريات الاجتماعية الحديثة والمعتقدات الدينية الانجيلية. اشهر مؤلفاته كتاب «في الدين».

سيميل، جورج (١٨٥٨-١٩١٨) Simmel, George: فيلسوف وعالم اجتماع درس في جامعة ستراسبورغ، منذ ١٩١٤. قال بنظرية براغماتية عن الحقيقة قبل وليام جيمس. ينتمي الى القائلين بفلسفة الحياة. له مؤلفات عديدة منها «فلسفة النقود» وغيرها.

سوريل، جورج (١٨٤٧-١٩٢٢) Sorel, George: كاتب فرنسي ومفكر تأثر بتعاليم فيكو وبرغسون. انتقد الحضارة الحديثة وشدد على الطابع الثوري للاشتراكية. أهم مؤلفاته «أوهام التقدم» و«خواطر في العنف» ١٩٠٨.

شبنغلر ، أوزوالد ، (1880-1936) Spengler , Oswald :
 فيلسوف حضاري ، اشتهر من خلال مؤلفه الرئيسي (انهيار الغرب)
 (1918). نظر الى تاريخ العالم من زاوية حضارات متعددة واعتبر
 الحضارات بمثابة كائنات عضوية لها دورة حياتية محددة .
 فير ، ماركس (1864-1920) Weber, Max : مفكر اقتصادي
 سياسي وعالم اجتماع ورجل سياسة ، مؤسس علم الاجتماع الديني
 سعى لرفع العلوم الاجتماعية الى مرتبة العلوم الدقيقة وأنعم النظر في
 المنهجية التي اعتبرها وصفية بحتة .
 فندلباند، فيلهلم (1848-1915) Windelband, Wilhelm :
 فيلسوف الماني ، شغل الاستاذية في هايدلبرغ منذ 1903 . مؤرخ
 للفلسفة انطلق من نقدية كانط لكي يضع اسس المدرسة الكانطية
 الجديدة في الجنوب الغربي من المانيا .
 زيتا، فيكتور Zitta, Victor : مفكر واستاذ للنظرية السياسية .
 يوغوسلافي المولد . درس في هنغاريا واستمع الى محاضرات لوكاش في
 ربيع 1947 عن «منشأ التفكير الجدلي عند هيجل » . يقيم في
 الولايات المتحدة حالياً .

قائمة المصطلحات

صورة طبق الأصل Abbild (mirror-image)
 لا أدري Agnostic
 المعنى Bedeutung
 «البورجوازية المثقفة» (بورجوازية الثقافة) Bildungsbürgertum
 «بلوم» Blum هو الاسم الحزبي (الحركي) الذي حمه لوكاش داخل
 المنظمة الشيوعية الهنغارية الممنوعة . والاطروحات المسماة اطروحات
 بلوم هي برنامج عمل يرجع الى 1928-1929 .
 التفكير المفاهيمي Conceptual Thinking

الفهم على مستوى المعنى (الفهم التأويلي)
deutendes Verstehen (on the level of meaning)

النخبوية Elitism

الاغتراب، الاستلاب Entfremdung, Alienation

نظرية المعرفة (theory of cognition) Erkenntnistheorie

الفايية Fabianism (الاشتراكية): نسبة الى جماعة الفايين (برناردشو وسيدني ويب وكير هاردي) التي تأسست في بريطانيا عام ١٨٨٤ ونادت بالاشتراكية التدريجية التي يتم تحقيقها بالطرق البرلمانية. ابتعدت عن الماركسية وكان لها تأثير على حزب العمال البريطاني.

وقائع - حقائق Facts (Matters - of - fact)

«نهاية القرن» Fin - de - Siecle

مدرسة فرانكفورت Frankfurt school (للبحوث الاجتماعية):
مدرسة فلسفية نقدية تميل الى علم الاجتماع، في جامعة فرانكفورت.
اشتهر منها ادورنو وهوركهايمر وبنجامين وهابرماس، بالاضافة الى هربرت ماركوزي.

حلقة غاليليو Galileo Circle

علم العقل Geisteswissenschaft أو الروح، ويقال له ايضاً علم الثقافة أو علم التاريخ. منذ منتصف القرن التاسع عشر تطلق هذه التسمية على مجموعة العلوم التي تعنى بالبحث في ابداعات العقل الانساني، مثل العلم والفن والدين والاقتصاد والقانون.

جدلية التاريخ، وديالكتيك التاريخ Geshichtsdialektik

البورجوازية العليا Haupte Bourgeoisie

مدرسة هايدلبرغ Heidelberg school (أو مدرسة بان في جنوب غربي المانيا): احدى المدرستين الرئيسيتين في الكانطية الجديدة.
تزعمها فيندلبناند وريكرت في جامعة هايدلبرغ .

Hermeneutics (Hermeneutik)

فن التأويل والتفسير - الأصل اليوناني لهذه اللفظة يعني «فن التأويل» و «فن الترجمة» والايضاح والتفسير، نسبة الى «هرمس» الذي كان وسيطاً في الاساطير الاغريقية بين الآلهة والبشر. ابتداءً هذا التفسير في حقل علوم اللغة من أجل توضيح الآثار الادبية الكلاسيكية. كان ديلشايفي في طليعة الذين ادركوا أهمية هذا الفهم التأويلي. ويطلق هايدغر على فينومينولوجية الوجود الانساني في كتابه «الوجود والزمن» تسمية «الهرمنوتيك»

Hermeneutic understanding الفهم التأويلي

Holism الكل

Klassenbewusstsein الوعي الطبقي

Lebensform صورة الحياة (صورة حياتية)

فلسفة الحياة Lebensphilosophie (على غرار فلسفة الوجود)، حيث تؤلف «الحياة» المقولة الرئيسية للتفلسف والنظر الفلسفي.

مدرسة ماربورغ Marburg school (انظر هرمان كوهن، باول ناثورب):

مدرسة من مدارس الكانطية الجديدة في جامعة ماربورغ، المانيا.

Momente (elements) عناصر

Nacherleben (relive) يعيش من جديد، يحيا الخبرة مجدداً

علم الطبيعة: Naturwissenschaft. استخدم هذا المصطلح منذ القرن الثامن عشر للدلالة على مجموعة العلوم التي تعنى بالبحث الموجه صوب الطبيعة. ولقد سمي الباحثون في الطبيعة قبل ذلك بالفلاسفة الطبيعيين.

Phenomenology الفينومينولوجيا - الظاهرية - علم الظاهرات

«براكسيس» = الممارسة، التطبيق العملي (مقابل Praxis)

Theorie = النظرية

Creative Producers المنتجون الخلاقون (الذكاء المنتج)

(Produktionsintelligenz)

Psychologism السيكولوجية
Stoical Pessimism التشاؤمية الرزينة
Subjectivism النزعة الذاتية
Syndicalism النقابية
Thing-in-itself الشيء في ذاته
Value Judgements أحكام قيمية
Vanguard الطليعة
Verdinglichung التشيؤ
Verstehen الفهم
Weltanschauung النظرة الشاملة الى الكون والعالم

مؤلفات لوكاش المترجمة الى الانكليزية :

1 - History and Class Consciousness, (1923)

التاريخ والوعي الطبقي، (ظهرت الترجمة الانكليزية عام ١٩٧١).

2 - The Soul and the Forms (1910)

الروح والأشكال، (ظهرت الترجمة الانكليزية عام ١٩٧١).

3 - The Theory of the Novel (1920)

نظرية الرواية ، (ظهرت الترجمة الانكليزية عام ١٩٧١).

بعض الدراسات عن لوكاش

- 1 - Bahr, Emhard and Kunzer, Ruth G. , George Lukacs.
- 2 - Parkinson, George H. , George Lukas (1970).

الفهرست العام

(١) ارنستو غيفارا

٧	الفصل الأول : خلفية ثائر
١٩	الفصل الثاني : الحرب الثورية الكوبية
٣٣	الفصل الثالث : نظريات حرب العصابات
٤٩	الفصل الرابع : تطور مسيرة الثورة الكوبية
٦١	الفصل الخامس : تشي في البنك المركزي
٧٧	الفصل السادس : بحثاً عن التحرير
٨٩	الفصل السابع : الموت والأسطورة
٩٩	مؤلفات غيفارا
١٠٠	بعض الدراسات بالانكليزية عن غيفارا

(٢) جورج اورويل

١٠٣	الفصل الأول : من بلير الى اورويل
١١٣	الفصل الثاني : انجلترا.. ايه انجلترا
١٢٧	الفصل الثالث : أن تكون كاتباً
١٣٩	الفصل الرابع : الملاحظة والخيال
١٥١	الفصل الخامس : السياسة
١٦٥	الفصل السادس : اسقاطات
١٧٩	الفصل السابع : خطوات مستمرة
١٩١	مؤلفات جورج اورويل
١٩٣	بعض الدراسات بالانكليزية عن اورويل

(٣) جورج لوكاش

١٩٧	مقدمة
٢٠٣	الفصل الأول

٢١٣	الفصل الثاني
٢٣١	الفصل الثالث
٢٥١	الفصل الرابع
٢٦٩	الفصل الخامس
٢٩٣	الفصل السادس
٣٠٣	الفصل السابع
٣١٣	الفصل الثامن
٣٢٧	فهرس الأعلام
٣٣١	قائمة المصطلحات
٣٣٤	مؤلفات لوكاش
٣٣٥	بعض الدراسات بالانكليزية عن لوكاش
	الفهرست العام

ماهر الكيالي

- من مواليد الرملة / فلسطين ١٩٤٨.
- بكالوريوس في الاقتصاد والاحصاء من الجامعة الأردنية عمان - ١٩٧٠.
- ماجستير في إدارة الأعمال (MBA) جامعة وسكاونسن - الأمريكية عام ١٩٧٣.
- التحق منذ العام ١٩٧٣ بالمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت التي أسسها شقيقه الدكتور عبد الوهاب الكيالي.
- أسس دار الفارس للنشر والتوزيع في عمان في العام ١٩٨٨.
- انتخب عام ١٩٨٣ أميناً عاماً مساعداً في اتحاد الناشرين العرب وأعيد انتخابه في العام ١٩٨٨ والعام ١٩٩٣.
- عضو مؤسس في اتحاد الناشرين الأردنيين.
- الاعمال المترجمة وجميعها صادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر :
- اليهودي اللايهودي (طبعتان).
- غيفارا (خمس طبعات) .
- ما هو التاريخ؟ (طبعتان).
- الماركسية وحرب العصابات.
- لوكاش.
- اورويل.
- عن طريق الخداع.

كتب من اعداده :

- المتنبى - قصائد مختارة (طبعتان).
- ١٠٠ كتاب عن حرب اكتوبر بالاشترك مع ماجد نعمة.
- ساهم في موسوعة السياسة والموسوعة العسكرية.